مُؤَلَّفَات وَشُرُوح علوم الحَديث لِفَضِيلَةِ الشَّيخ

تحفة الفالحين

شرح

رياض الصالحين

للشيخ الفاضل

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

المجلد الأول

(١)

تحفة الفالحين
شرح
رياض الصالحين

تحفة الفالحين

شرح

رياض الصالحين

المجلد الأول

من (أول الكتاب)

إلى إلى باب (تحريم الظلم والأمربرد المظالم)

للشيخ الفاضل

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

بسم الله الرحمن الرحيم

تحفة الفالحين شرح رياض الصالحين

للشيخ الفاضل

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

الطبعة الثانية مصححة

١٤٤٧هـ

روابط قنوات فضيلة الشيخ على منصات التواصل

الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ حفظه الله تعالى

https://alzoukory.com.

https://t.me/A_lzoukory

A_Alzoukorys

https://www.youtube.com/channel

https://www.facebook.com/649918028352367

https://chat.whatsapp.com/FglUKZ0nwzR5EYaguQttSz

مُقَدِّمَةِ شَرْحِ رياض الصالحين(١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدَ لله، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فقد ذكرت في غير موضع شيئًا من فضل القرآن وأهمية حفظه ومعرفة معانيه، ودراسة تفسيره كما ذكرت ذلك في مقدمة كتابي فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد.

وفي هذا الموطن أذكر شيئًا لبيان أهمية السنة النبوية فهي المصدر الثاني للتشريع، وهي وحي الله الذي أوحاه إلى محمد ﷺ، والدليل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [سورة النجم: ٣-٤]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [سورة الحشر: ٧]: ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [سورة النساء: ٦٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٦٣]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة المائدة: ٩٢].

(١) من مقدمتي على شرح (الأربعين النووية).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة المائدة: ٩٢]، ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: ٨٠]، في آيات كثيرات.

فحث الله عَزَّوَجَلَّ على الأخذ بكتابه كما حث على الأخذ بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعلومٌ أن رسول الله ﷺ هو الذي بيّن ما شرع الله عَزَّوَجَلَّ للأمة، فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه بالتوحيد، فبينه ودعا إليه، وكان يسير في الأسواق فيقول: «**قُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[1]، وإذا سمع من أحدٍ، ما يخالف التوحيد نصح وبين، فلما سمع عمر بن الخطاب رض الله عنه، يُقسِم بأبيه قال: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[2]، وقال: «**لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»[3].

وبيّن الصلاة فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه خمسين صلاة، ثم إنه راجع ربه حتى قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، "مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ"**»[4]، ثم بيّن ﷺ للأمة مواقيت الصلاة، وكيفية الصلاة، والطهارة، وبيّن ما يتعلق بأحكام الصيام، وأحكام الزكاة، وكل ما يتعلق بدين الإسلام، من الحلال، والحرام ولم يترك شيئًا للأمة فيه نفع إلا وبيّنه، كما في حديث عبد الله ابن عمر بن العاص عند الإمام مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ**

---

(١) أخرجه أحمد حديث رقم: (١٦٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري حديث رقم: (٦٦٤٦)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري حديث رقم: (٣٨٣٦)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) (الشريعة) للآجري، حديث رقم: (١٠٢٦)، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(١).

شاهدنا من هذا الحديث: أن الله عَزَّوَجَلَّ افترض على كل نبي أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وأفضل من قام بهذا الأمر هو محمد ﷺ فما من خير إلا ودلنا عليه، وما من شر إلا وحذرنا منه.

ولقد خطب الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يومًا من بعد الفجر، حتى غروب الشمس، كما في حديث زيد ابن أخطب وجاء بنحوه عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا(٢).

ولم يترك شيئًا إلا وآتانا علمًا منه: ففي (صحيح مسلم): عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: قَالَ لَنَا الْمُشْرِكُونَ إِنِّي أَرَى صَاحِبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ حَتَّى يُعَلِّمَكُمُ الْخِرَاءَةَ، فَقَالَ: أَجَلْ إِنَّهُ نَهَانَا أَنْ يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بِيَمِينِهِ، أَوْ يَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ، وَنَهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالْعِظَامِ، وَقَالَ: «**لَا يَسْتَنْجِي أَحَدُكُمْ بِدُونِ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ**»(٣)، وقال ﷺ كما في حديث العِرباض ابن سارية، وأبي الدرداء عند ابن ماجة وغيره: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ**»، فشان السنه عظيم ومنزلتها رفيعة وهي البيان لمجمل القرآن.

وقد حذّر ﷺ من طوائف ترد سنته، فقال ﷺ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ**

---

(١) أخرجه مسلم حديث رقم: (١٨٤٤)، عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم حديث رقم: (٢٨٩٢)، عن عمرو بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم حديث رقم: (٢٦٢).

اللهِ اتَّبَعْنَاهُ»، وفي رواية: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»، أوتيَّ الكتاب، وهو وحي الله وكلا مه، وأوتيَّ السُنة وهي وحي الله، فمن ظن أنه يستغني عن السنة، بالكتاب، فهو جاهلٌ مخطئ، ومن كان ذا علمٍ ورد ذلك فهو قرآني، والعلماء قد حكموا على القرآنيين بالكفر، والزندقة وذلك أن هذه الفرقة الضالة تزعم أن لا سُنة، وأن الناس يكتفون بالقرآن، فقيل لهم: يا أيها الجُهَالْ أين في القرآن أن الصلاة خمس صلوات في الْيَوْمَ والليلة؟ واين فيه عدد ركعات الصلوات؟ واين فيه عدد النوافل القبلية والبعدية؟ كل هذا إنما يؤخذ من سُنة النبي ﷺ وطريقته وعلمهم، وكيفية الوضوء، فأين في القرآن المضمضة والاستنشاق، وتخليل اللحية، وتخليل الأصابع والتثليث في غسل الوجه واليدين والرجلين؟ كل ذلك إنما يؤخذ، من سُنة النبي ﷺ.

وهكذا القول في الزكاة؛ حيث أمر الله، لكن تحديد الأنصبة، كنصاب الذهب، والفضة، والإبل، والغنم، والبقر، والحنطة، والشعير، والزبيب، والتمر؟ كل ذلك من سنة النبي ﷺ، إذًا فينبغي للناس أن يعظموا سُنة النبي ﷺ؛ لأنها مفسرة للقرآن، ومبينة له حتى قال يحيى بن أبي كثيرة: (وقاضيةِ عليه)، فمن هذا الباب اعتنى المسلمون قديمًا وحديثًا بسُنة النبي ﷺ، فحفظ الصحابة رضوان الله عليهم، حديث النبي ﷺ قولًا وفعلًا وصفة، وما تركوا شَيْئًا قاله النبي ﷺ من ديننا إلا وبلغوه، وحدثوا فيه من بعدهم، بل إن بعضهم كان يهتم بكتابة الحديث، كما صح **عن عبد الله ابن عمرو بن العاص** رضي الله عنه، **أنه كان يكتب عن النبي** ﷺ، كل ما يقول به، فأنكر عليه بعضهم، وقالوا: تعلم أن رسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب فترك الكتابة

فقال له النبي ﷺ: ما شأنك يا عبد الله قال: يا رسول الله زعموا أنك تتكلم بالرضا، والغضب قال: «اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ».

وفي حديث بن عباس: أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟».

وقال أَبُو شَاهٍ رَجُلٌ مِنْ الْيَمَنِ: يَا رَسُولَ اللهِ اكْتُبْ لِي قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ»، متفق عليه.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ على حفظ السنة فقال ﷺ كما في حديث زيد بن ثابت: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا»، أخرجه أبو داود وغيره، فدعا له بنضارة الوجه في الدنيا والآخرة؛ لأنه علِمَ الحديث، وبلَّغه وكم من أُناسٍ، كان يأتي أحدهم من جنوب الجزيرة، أو من شمالها ويستمع إلى رسول الله ﷺ، فإذا حفظ منه حديثًا، أو حديثين، أو ثلاثة، أو أربعة، رجع إلى قومه مبلغًا لدين الله، فيستفيد الناس من حديث النبي ﷺ، وسُنته ولما كان عصر التابعين، بدأ العلماء بتدوين السنة وكتابتها فألِفَت المؤلفات، وصُنِفَت المصنفات، وكان أصح كتاب صُنِف في عهد الإمام مالك "مُوَّطأ مالك" حتى قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما تحت أديمِ السماء أصح من مُوَّطأ مالك.

ثم امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ، على أهل الإسلام بإمامين جليليّن، وعالميّن، عظيميّن، وهما أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج أبو الحسين النيسابوري فهذبا الحديث وأدرجا في كتابيّهما أصح الصحيح فكان أصح كتابٍ مصنَف هو (صحيح الإمام البخاري) ثم (صحيح الإمام مسلم)، ثم تتابع العلماء على التصنيف والتأليف ومن أجل أولئك أصحاب الأمهات الست كأبي داود،

والترمذي، والنسائي وابن ماجة، وأحمد، ففي هذه الأمهات الست من الحديث العظيم الصحيح، والحسن، ما ينفع الله به الإسلام وأهله.

وقد صُنِفَ قبل ذلك مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذي يسمى "بديوان السُنة" حيث جمع فيه آلاف الأحاديث النبوية، والسنن المروية وأُلِفَت المعاجم كمعاجم الطبراني، وأُلِفَت المسانيد كمسند البزار، وأُلِفَت الجوامع، وغير ذلك من الكتب فدُوِنَّت حياة النبي ﷺ، قولًا وفعلًا واعتقاد، وكما حفظ الله القرآن، حفظ الله السنة، فهذبَ علماء السنة الصحيح من الضعيف والمقبول، من المردود، ولا يزال الله إلى أن تقوم الساعة يبعث من يجدد لهذه الأمة دينها بين حينٍ، وآخر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1].

وفي هذه الليلة الموافقة للثالث والعشرين من ذي القعدة الحرام لعام ألف وأربعمائة وأربعين من هجرة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عزمنا على تدريس كتاب (رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين ﷺ) للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي الذي ستأتي ترجمته.

وهو كتاب مفيد نافع؛ لما حواه من الأحاديث الصحيحة، والتبويبات المليحة وقد تكلم مؤلفه على كثير من السنن القولية، والفعلية، والاعتقادية، مع سرده لكثير من أبواب الوعظ، وغير ذلك.

والكتاب معدود في جملة الكتب الصحيحة، إلا أحرف يسيرة، ذكر بعض أهل العلم: أنها سبعة وأربعين حديثا، وقد تندرج بعضها تحت أصول صحيحة من الكتاب والسنة، ولعله يأتي بيان ذلك في كل موطن على حدته.

---

(١) أخرجه أبو داود حديث رقم: (٤٢٩١)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والكتاب قد جعل الله عَزَّوَجَلَّ له قبولا، فحفظه الناس على اختلاف طوائفهم.

وقد شُرح عدة شروح، منها:

١- (دليل الفالحين) لابن علّان المتوفى سنة (١٠٥٧ هـ).

٢- (تطريز رياض الصالحين) لفيصل بن عبد العزيز آل مبارك، المتوفى سنة (١٣٧٦).

٣- شرح الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد أتى فيه بخير عظيم.

وفيه من الأحاديث المتفق عليها: (٨١٩)، قد تزيد وتنقص؛ لبعض الأوهام التي حصلت، والتي أخرجها البخاري: (٢١٢)، والتي أخرجها مسلم: (٤٧٩)، والتي هي في السنن: (٣٨٨)، بمعنى: أن الأحاديث التي في صحيح مسلم قريب: (١٣٠٠) أو تزيد، وهذا شيء عظيم أن يكون جل الكتاب في الصحيحين.

فأنصح طلاب العلم بحفظه؛ لأنه مقرب للمواضيع في الخطب والمواعظ وغير ذلك.

ترجمة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وأما مؤلفه فقد تُرجم له في كثير من الكتب، وترجم له ابن العطار وهو تلميذه في مجلد مستقل.

وفي (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي قال: يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حُسَيْن بن حزَام ابْن مُحَمَّد بن جُمُعَة النَّوَوِيّ، الشَّيْخ الإِمَام الْعَلامَة محيي الدّين أَبُو زَكَرِيَّا، شيخ الْإِسْلَام أستاذ الْمُتَأَخِّرين، وَحجَّة الله على اللاحقين والداعي إِلَى سَبِيل السالفين، كَانَ يحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيدا وَحَصُورًا [(١)]، وليثا على النَّفس هصورا وزاهدا لم يبال بخراب الدُّنْيَا إِذا صير دينه ربعا معمورا، لَهُ الزّهْد والقناعة ومتابعة السالفين من أهل السّنة وَالْجَمَاعَة، والمصابرة على أَنْوَاع الْخَيْر، لَا يصرف سَاعَة فِي غير طَاعَة، هَذَا مَعَ التفنن فِي أَصْنَاف الْعُلُوم فقها، ومتون أَحَادِيث، وَأَسْمَاء رجال ولغة، وتصوفا وَغير ذَلِك [(٢)].

وَأَنا إِذا أردْت أَن أجمل تفاصيل فَضله وأدل الْخلق على مبلغ مِقْدَاره بمختصر القَوْل وفصله لم أَزْد على بَيْتَيْنِ أنشدنيهما من لَفظه لنَفسِهِ الشَّيْخ الإِمَام وَكَانَ من حَدِيثهمَا، أَنه أَعنِي الْوَالِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سكن فِي قاعة دَار الحَدِيث الأشرفية فِي سنة اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعين وَسَبْعمائة كَانَ يخرج فِي اللَّيْل إِلَى إيوانها؛ ليتهجد تجاه الْأَثر الشريف[(٣)]، ويمرغ وَجهه على الْبسَاط، وَهَذَا الْبسَاط من زمَان الْأَشْرَف الْوَاقِف وَعَلِيهِ اسْمه وَكَانَ النَّوَوِيّ يجلس عَلَيْهِ وَقت الدَّرْس، فأنشدني الْوَالِد لنَفسِهِ:

وَفِـي دَار الحَـدِيث لطيـف معنـى ... علـى بسـط لَهَـا أصـبو وآوي

---

(١) بمعنى أنه لم يتزوج.

(٢) أما التصوف نتمنى لو أنه سلم منه، وهكذا في العقيدة سيأتي أن له أخطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) وهذا أيضا من المحدثات.

عَســـى أَنِّـــي أمـــس بَحـــر وَجْهـــي مَكَانـــا مَسّـــه قـــدم النـــواوي[١]

انظر هذا من التبرك بالصالحين، وهو طريق مبتدع، سلكه جملة من الشافعية والحنفية والمالكية، فيجب على من تصدر لشرح الحديث أن يبين هذه الزلة الفالجة التي فُتن بها الكثير، وهي مخالفة لشريعة العلي الكبير، كما أنها مخالفة لهدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقال: لَا يخفى على ذِي بَصِيرَة أَن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عناية بالنووي وبمصنفاته، وأستدل على ذَلِك بِمَا يَقع فِي ضمنه فَوَائِد حَتَّى لَا تَخْلُو تَرْجَمته عَن الْفَوَائِد فَنَقُول: رُبمَا غير لفظا من أَلْفَاظ الرَّافِعِيّ إِذا تَأمله المتأمل استدركه عَلَيْهِ وَقَالَ: لم يَفِ بالاختصار[٢].

وتوفي النووي عن عمر خمسة وأربعين سنة فيما يذكرون، وله من الكتب: (المجموع شرح مهذب)، ولم ينته منه، و(المنهاج شرح مسلم بن الحجاج) وكتاب (الأذكار)، كتاب (رياض الصالحين)، وهو الذي بين أيدينا، وصنف (الأربعين النووية)، و(روضة الطالبين)، و(تهذيب الأسماء واللغات).

وله شرح على قطعة من سنن أبي داوود، وشرح على قطعة من صحيح البخاري وله غير ذلك في الحديث وغيره.

وُلد في شهر محرم سنة (٦٣١ هـ) في قرية نوى، من أعمال حوران، بينها وبين دمشق منزلان، يعني أنها تبعد ثمانين كيلو مترا، وكان أبوه دكانياً بنوى، فنشأ في ستر وخير، وحفظ القرآن، وبقي يتعيش في الدكان لأبيه وقد ناهز الاحتلام.

---

(١) (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي) (٨/ ٣٩٦).

(٢) (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي) (٨/ ٣٩٨).

قال تلميذه ابن العطار: قال لي الشيخ: لما كان عمري تسعة عشر سنة قدم بي والدي إلى دمشق سنة تسع وأربعين، فسكنت المدرسة الرواحية، وبقيت نحو سنتين لم أضع جنبي على الأرض، وكان قوتي فيها جراية المدرسة لا غير. انتهى.

ومن عجيب شأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالوا: أنه كان يظن قول النبي ﷺ أو فيما جاء في الحديث: يغتسل من إيلاج الحشفة في الفرج أنه يظن أنها قرقرة البطن، فاستمر سنتين يغتسل عند كل قرقرة، مع شدة البرد.

أخذ علم الحديث عن جماعة من الحفاظ، فقرأ كتاب الكمال لعبد الغني الحافظ على أبي التقى خالد النابلسي، وشرح مسلما ومعظم البخاري على أبي إسحاق بن عيسى المرادي، وأخذ أصول الفقه عن القاضي أبي الفتح التفليسي، وتفقه على الإمام كمال الدين إسحاق المغربي، إلى غير ذلك مما ذُكر.

ومن تلاميذه ابن العطار، قال: وسمع منه خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق، ووقع على دينه وعلمه وزهده وورعه ومعرفته وكرامته الوفاق، وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه، حتى رأيتُ مَن كان يشنؤها في حياته مجتهداً على تحصيلها والانتفاع بها بعد وفاته، فرَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورضي عنه، وجمع بيننا وبينه في جنَّاته. انتهى.

توفي في ليلة الأربعاء، الثلث الأخير من الليل، الرابع والعشرين من رجب، سنة (٦٦٧ هـ) بنوى، ودفن فيها صبيحة الليلة المذكورة.

وأما عقيدته فهي عقيدة الأشاعرة في أغلب الأماكن في الأسماء والصفات، وقد أول بعض الصفات في كتابه هذا (رياض الصالحين)، وفي (شرح صحيح مسلم).

وقد قال السخاوي في ترجمته: وقد صرح اليافعي والتاج السبكي رحمهما الله أنه أشعري.

وقال الذهبي في (تاريخ الإسلام): وكان مذهبه في الصفات السمعية السكوت وإمرارها كما جاءت، وربما تأول قليلا في (شرح مسلم). انتهى، كذا قال.

إلا أن له مخالفات للأشاعرة في مواقف ونصرة لأهل السنة، وله موافقات للمفوضة في مواقف كثيرة، وله موافقات للصوفية في تجويز التبرك بآثار الصالحين.

فليكن الطالب على حذر حين نقل كلام النووي، لاسيما في باب العقيدة، وأما في باب الإيمان فقد نصر مذهب السلف بكلام رزين، يستفيده طلاب العلم، إلا أنك قد تجد في بعض منقولاته يقول: ومذهب السلف في هذا أنهم يمرون اللفظ دون التعرض للمعنى، هذا مذهب المفوضة، فإن مذهب السلف رحمهم الله قائم على الإثبات، واعتقاد الكمال المقدس لله عَزَّوَجَلَّ، إثبات مع التنزيه، وتنزيه مع الإثبات، بخلاف مذهب المبتدعة الذين ربما إن أثبتوا غلوا في الإثبات فمثلوا، وإن نزهوا غلوا في التعطيل فعطلوا.

وقد حُقق كتاب (رياض الصالحين)، حققه جمع من المحققين، ومن أجلهم علما الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد قام بجهد عليه، ومن أوسع التحقيقات وأحسنها تحقيق أخينا الشيخ أبي عمرو عبد الكريم الحجوري حفظه الله، فهو تحقيق طيب، وأحسن ما خرج إلى الآن في تحقيق هذا الكتاب، وهذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ عليه أن قام بتحقيق هذا الكتاب المشهور، فجزاه الله خيرا، ورحم الله النووي.

ونسمي هذا الشرح إن شاء الله والتعليقة التي عليه: (تحفة الفالحين بشرح رياض الصالحين).

قاله بلسانه:

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى الزُّعكري

٢٣ من ذي العقدة/ ١٤٤٠هـ

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمْدُ للهِ الواحدِ القهَّارِ، العَزيزِ الغفَّارِ، مُكَوِّرِ اللَّيْلِ على النَّهَارِ، تَذْكِرَةً لأُولي القُلُوبِ والأَبصَارِ، وتَبْصِرَةً لِذَوي الأَلبَابِ والاعتِبَارِ، الَّذي أَيقَظَ مِنْ خَلْقهِ مَنِ اصطَفَاهُ فَزَهَّدَهُمْ في هذهِ الدَّارِ، وشَغَلَهُمْ بمُراقبَتِهِ وَإِدَامَةِ الأَفكارِ، ومُلازَمَةِ الاتِّعَاظِ والادِّكَارِ، ووَفَّقَهُمْ للدَّأْبِ في طاعَتِهِ، والتَّأَهُّبِ لِدَارِ القَرارِ، والحَذَرِ مِمَّا يُسْخِطُهُ ويُوجِبُ دَارَ البَوَارِ، والمُحافَظَةِ على ذلِكَ مَعَ تَغَايُرِ الأَحْوَالِ والأَطْوَارِ، أَحْمَدُهُ أَبلَغَ حمْدٍ وأَزكَاهُ، وَأَشملَهُ وأَنْمَاهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ البَرُّ الكَرِيمُ، الرؤُوفُ الرَّحيمُ، وأشهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحمّدًا عَبدُهُ ورَسُولُهُ، وحبيبُهُ وخليلُهُ، الهَادِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم، والدَّاعِي إِلَى دِينٍ قَويم، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَليهِ، وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وَآلِ كُلٍّ، وسَائِرِ الصَّالِحينَ.

أَما بعد: فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [سورة الذاريات: ٥٦-٥٧]، وَهَذا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ خُلِقوا لِلعِبَادَةِ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الاعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ، وَالإِعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا بالزَّهَادَةِ فيها، فَإِنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لَا مَحَلُّ إِخْلَادٍ[١]، وَمَرْكَبُ عُبُورٍ لَا مَنْزِلُ حُبُورٍ[٢]، ومَشْرَعُ انْفصَامٍ[٣] لَا مَوْطِنُ دَوَامٍ، فلِهذا كَانَ الأَيْقَاظُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَّادُ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فيهَا هُمُ الزُّهّادُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا

---

(١) الإخلاد: البقاء في الشيء والمكث فيه.

(٢) الفرح والسرور.

(٣) أي: طريق انقطاع.

وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يونس: ٢٤]، **والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.**

ولقد أَحْسَنَ القَائِلُ:

إِنَّ لله عِبادًا فُطَنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وخَافُوا الفِتَنَا

نَظَروا فيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعلُوها لُجَّةً واتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأَعمالِ فيها سُفُنا[(١)]

فإذا كَانَ حالُها ما وصَفْتُهُ، وحالُنَا وَمَا خُلِقْنَا لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ؛ فَحَقٌّ عَلَى المُكَلَّفِ أَنْ يَذْهَبَ بنفسِهِ مَذْهَبَ الأَخْيارِ، وَيَسلُكَ مَسْلَكَ أُولِي النُّهَى وَالأَبْصَارِ، وَيَتَأَهَّبَ لِمَا أَشَرْتُ إليهِ، وَيَهْتَمَّ لِمَا نَبَّهتُ عليهِ[(٢)].

وأَصْوَبُ طريقٍ لهُ في ذَلِكَ وَأَرشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ المَسَالِكِ التَّأَدُّبُ بمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا سَيِّدِ الأَوَّلينَ والآخرينَ، وَأَكْرَمِ السَّابقينَ واللَّاحِقينَ، صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [سورة المائدة: ٢].

وقد صَحَّ عَنْ رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قالَ: «والله في عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ»[(٣)].

---

(١) ذكرت هذه الأبيات في ترجمة أبي بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري.

(٢) وفعلا، فإن الزهد في الدنيا سبب لكل فلاح، والحرص على الدنيا سبب لكل طلاح، فما اقتتل المقتتلون ووقع بينهم التحاسد والتقاطع والتدابر والتهاجر إلا بسبب الدنيا، فمن زهد فيها طمع في الآخرة، ومن طمع فيها زهد في الآخرة، ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الأعلى: ١٦-١٧].

(٣) انفرد به مسلم حديث رقم: (٢٦٩٩) عن أبي هريرة، وهو حديث طويل، سيأتي إن شاء الله.

وَأَنَّهُ قالَ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ»[(١)].

وأَنَّهُ قالَ: «مَنْ دَعَا إِلى هُدىً كَانَ لَهُ مِنَ الأَجرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا»[(٢)].

وأَنَّهُ قالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[(٣)].

فَرَأَيتُ أَنْ أَجْمَعَ مُخْتَصَرًا منَ الأحاديثِ الصَّحيحَةِ[(٤)]، مشْتَمِلًا عَلَى مَا يكُونُ طَرِيقًا لِصَاحبهِ إلى الآخِرَةِ[(٥)]، ومُحَصِّلًا لآدَابِهِ البَاطِنَةِ وَالظَاهِرَةِ[(٦)]،

---

(١) سيأتي، انفرد به مسلم حديث رقم: (١٨٩٣)، عن أبي مسعود الأنصاري البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عند مسلم، حديث رقم: (٢٦٧٤).

(٣) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٢٩٤٢)، ومسلم حديث رقم: (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأحاديث؛ لبيان أن من التعاون على البر والتقوى نشر العلم والخير، وأن ناشر العلم والخير يناله فضل عظيم، وأجر جزيل، فينبغي للمتنافس أن ينافس في هذا المضمار، وافرح بدرس تنشره، أو بمسألة تبثها، أو بشيء تدونه في العلم، فإنه الولد المخلد، يموت أبناء= =الأصلاب ويبقى العلم يحدث عن صاحبه، انظروا إلى الإمام مالك ما نعرف أبناءه، والبخاري ما نعرف أبناءه، ومسلم ما نعرف أبناءه، والإمام أحمد إنما عُرف من أبنائه من كان مهتما بالعلم كعبد الله وصالح، وهكذا فقس.

فإياك أن تكون زاهدا في هذه الشعيرة العظيمة، شعيرة العلم، فمثل الزاهد في العلم كمن مر بجوهرة في الطريق فتركها ومضى.

(٤) لأن غير الصحيح لا يلتفت إليه من الحديث، وما تعبدنا الله عَزَّوَجَلَّ إلا بالمقبول عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومراده (صحيحة) ليست الدرجة التي تعلمون من تقسيم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف، وإنما المراد بالصحيحة هنا: المقبولة، فإن الحديث من حيث ينقسم إلى: مقبول ومردود.

(٥) وقد قال الأول: رب الحديث الذي يكون سببا لدخولي الجنة لم أسمعه بعد، فآخرتك مبناها على ما تعلم وتعمل، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [سورة الزخرف: ٧٢]، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾.

(٦) وهذا في حق العامل، قرأت حديثا في الإخلاص سعيت في إخلاص العبادة لله، حديثا في الصدق عملت به على الوجه الذي جاء.

جَامِعًا للترغيب والترهيب[١]، وسائر أنواع آداب السالكين[٢]، من أحاديث الزهد[٣]، ورياضات النُّفُوسِ[٤]، وتَهْذِيبِ الأَخْلاقِ[٥]، وطَهَارَاتِ القُلُوبِ وَعِلاجِهَا[٦]، وصِيانَةِ الجَوَارِحِ وَإِزَالَةِ اعْوِجَاجِهَا[٧]، وغَيرِ ذلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعارِفِينَ[٨].

وَأَلْتَزِمُ فيهِ[٩] أَنْ لا أَذْكُرَ إلاّ حَدِيثًا صَحِيحًا مِنَ الْوَاضِحَاتِ، مُضَافًا إِلى الْكُتُبِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُوراتِ[١٠]، وأُصَدِّر الأَبْوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بِآياتٍ كَرِيماتٍ[١١]،

(١) وهذا هو سبيل القرآن والسنة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

(٢) أي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن هذا الباب (مدارج السالكين)، لكن هذه العبارة قد يطلقها الصوفية، ولا حرج في إطلاقها إذا أُطلقت على الوجه الشرعي، والبعد عن التشبه بالصوفي أمر طيب، فشيخ الإسلام قال في رسالته (الواسطية): ومنهم الأبدال، قيل: لو جيء بغير هذا اللفظ كان أحسن.

(٣) الزهد في الدنيا.

(٤) أي: ما تتعود النفوس به على الأخلاق الحسنة.

(٥) والنبي ﷺ يقول: «إنما بُعثت لأتمم مصالح الأخلاق».

(٦) فإن القلوب تمرض وتسقم، وعلاجها ذكر الله، ومنه العلم.

(٧) وهذا يكون بملازمة العلم والعمل.

(٨) يطلقون كلمة: (العارف) على الصوفية.

وهنا تعليق قال ابن أبي العز في (شرح الطحاوية): لَوْ قَالَ: مُؤْمِنِينَ، بَدَلَ قَوْلِهِ: عَارِفِينَ، كَانَ أَوْلَى، لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ. وَإِنَّمَا اكْتَفَى بِالْمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا الْجَهْمُ، وَقَوْلُهُ مَرْدُودٌ بَاطِلٌ.

(٩) هذا بيان لشرطه، بعد أن بين قيمة الكتاب وسبب وضعه جاء بشرطه في الكتاب.

(١٠) وقد حاول المصنف أن يفي بهذا الشرط، إلا أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوتي من تصحيح بعض المتقدمين كأبي داوود ونحوه، مع أنه من أهل الحديث، وكان بإمكانه أن يحكم على الأحاديث قبولا وردا، إلا أنه سلك مسلك أبي داود بقوله: وما ذكرت في هذا الكتاب ولم أتكلم عليه فهو عندي صالح، كما في= =رسالته إلى أهل مكة، ومع ذلك يعتنى بما ذكره من الأحاديث، فما كان من خطأ أو وهم أو زلل يبين، وما كان غير ذلك وهو الأكثر يؤخذ والحمد لله.

وَأُوشِّحَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ضَبْطٍ أَوْ شَرْحِ مَعْنًى خَفِيٍّ بِنَفَائِسَ مِنَ التَّنْبِيهاتِ(١).
وإِذا قُلْتُ في آخِرِ حَدِيث: مُتَّفَقٌ عَلَيهِ فمعناه: رواه البخاريُّ ومسلمٌ(٢).
وَأَرجُو إِنْ تَمَّ هذَا الْكِتَابُ(٣) أَنْ يَكُونَ سَائِقًا للمُعْتَنِي بِهِ إِلى الْخَيْرَاتِ(٤)،

ولا يسلم عمل الآدمي من قصور، لا يسلم مهما كان، مهما حرصت على أن تفي بالأمر كما تريد إلا أنه لا يسلم من قصور، انظر إلى الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألف تلك الرسالة (العقيدة الطحاوي) ووقع له فيها كثير من الأخطاء العقدية.

(١١) وهذا أمر طيب يشكر عليه؛ حتى يجمع الواعظ في موعظته بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وهذا المسلك سلكه البخاري في صحيحه، وكان قد عزم شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ على سلوكه في كتابه الجامع الصحيح، إلا أنه عجز؛ لكثرة المشاغل وموافاة الأجل، والله المستعان.

(١) وهذا من مهمات الكتابة، أن الإنسان يبين اللفظ الغريب وما فيه من الإشكال بدون تطويل ولا إخلال.

(٢) ويشترط في ذلك: أن يكون البخاري ومسلم قد اتفقا عليه من رواية صحابي واحد، وأن يكون متقارب اللفظ والمعنى، وهذا النوع أعلى درجات الصحة، ثم يليه ما انفرد به البخاري، ثم يليه ما انفرد به مسلم، ثم يليه ما كان على شرطهما، ثم يليه ما كان على شرط البخاري، ثم يليه ما كان على شرط مسلم، ثم يليه ما صح على غير شرطهما.

وهذا من توفيق الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل الله عَزَّوَجَلَّ الاتفاق بهما القبول، وإذا وجد الحديث في الصحيحين ينبغي للطالب أن لا يبحث عن طريق أخرى له، إلا إذا كانت هناك زيادات يريد أن يتوصل إلى ثبوتها من ردها، وإلا فقد جاوز القنطرة. =

=وقد أجمعت الأمة على صحت ما في الصحيحين، إلا أحرف يسيرة انتقدها بعض أهل العلم، ومن أشهرهم الدارقطني في كتابه (التتبع)، وهكذا أبو الفضل الشهيد في تتبعه على صحيح مسلم، وأغلب هذه الانتقادات من حيث الصناعة الحديثية، وأما من حيث المتون فقد ثبتت من وجه أو غيره.

ولو أراد الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقتصر على ما في الصحيحين؛ لكان فيهما الخير العظيم، ويستطيع الإنسان أن يجمع في باب الترغيب والترهيب على هذا المنوال من أحاديث الصحيحين، لكن مع ذلك في بقية السنن والمسانيد والمعاجم الخير.

(٣) الإنسان يؤمن في الله الخير، ولا يجزم في مقدمة كتابه، ولا يجزم كذلك في درس لم يصل إليه أنه سينتهي ويصل، فلا، يعلق الأمر بالله: إن شاء الله سيأتي بيانه، إن شاء الله، وهكذا.

(٤) هذا إذا عمل به، أما المعرض لا يستفيد، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يونس: ١٠١].

حَاجزًا لَهُ عَنْ أَنْواعِ الْقَبَائِحِ والْمُهْلِكَاتِ(١)، وأَنَا سَائِلٌ أَخًا انْتَفعَ بِشيءٍ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لِي وَلِوَالِدَيَّ، وَمَشَايخي، وَسَائِرِ أَحْبَابِنَا، وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ(٢)، وعَلَى اللهِ الكَريم اعْتِمادي، وَإِلَيْهِ تَفْويضي وَاسْتِنَادي، وَحَسبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٣).

---

(١) من كبائر الذنوب، وفي آخره أو قبل آخره كتاب في المنهيات، وهذا الكتاب من نفائس لا يوجد؛ لأنه قد لا تجد هذه المنهيات موجودة في كتاب واحد، وهو جمع لك كثيرا من المنهيات التي نهاك الله عنها، ونهاك عنها رسوله ﷺ.

فالنصيحة: أن ما حفظناه من الأحاديث الجليلة المليحة أن نعمل به، وأن ندعو إليه، وأن نعتقد ما فيه؛ لأن هذا زكاة العلم، وقديما قيل: ينبغي لمن حفظ مائتي حديث أن يعمل منها بخمسة أحاديث، والصواب أن من حفظ مائتي حديث أن يعمل بمائتي حديث، وكل بحسبه، إن كان واجبا يأتي به على اللزوم، وإن كان مستحبا أتى به على الاستحباب، وإن كان مكروها تركه على الاستحباب، وإن كان محرما تركه على الوجوب، وهكذا، ما لم يكن عمل يعتقد ما فيه، كون الإنسان يعتقد أن النبي ﷺ قال هذا القول، وسواء نسخ الحكم أو بقي الحكم هذا من العمل؛ لأن العمل عند أهل السنة منه القولي ومنه الفعلي ومنه الاعتقادي.

(٢) نسأل الله أن يرحمك ويرحم جميع المسلمين، وأن يرحم والدينا ووالديك ومشايخنا ومشايخك، وجميع المسلمين.

الخطاب بقولنا: يرحمك على أننا نقرأ هنا، وإلا هو ميت لا يسمع، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [سورة فاطر: ٢٢].

وهكذا طلاب العلم ينبغي أن يعودوا أنفسهم الدعاء لآبائهم وأمهاتهم وإخوانهم، وعلمائهم، ولجميع المسلمين، فإن الإنسان إذا تعود الشيء صار عليه، وأنت ما أنت خاسر شيء، إذا دعوت= =لنفسك دعوت لأبيك وأمك ولمشايخك ولأجدادك ولإخوانك ما أنت خاسر شيء، بل الملك يقول: «**آمين، ولك بمثل**».

(٣) ونحن إن شاء الله نقول: بالله نستعين في المرور على هذا الكتاب والسفر العظيم، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعيننا على العمل، وأن يغفر لنا الزلل، ونسأله أن يرحم مؤلفه ووالديه رحمةً واسعة، وأن يرحمنا ووالدينا وجميع المسلمين.

والنصيحة لطلابي جميعا ولمن يريد أن يمشي معنا في هذا الكتاب: أن يحفظ الأحاديث والأبواب، وإذا أتقنت أحاديث الباب ثم تضيف إليها أحاديث الباب وإذا بك تحفظ الكتاب بدون كلفة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرح:

افتتح المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة؛ اقتداء بكتاب الله العزيز، وتأسيا بنبيه الكريم ﷺ.

والباء في **(بسم الله)** للاستعانة، والاسم مشتق من السمو، وهو العلو.

و(الله) لفظ الجلالة، علم على الذات العلية، وهو أعرف المعارف، وهو الاسم الأعظم على الصحيح.

(الرحمن): اسم مختص بالله عَزَّوَجَلَّ، متضمن لصفة الرحمة العامة.

و(الرحيم) اسم عام، وهو من الأسماء الحسنى، متضمن للرحمة الواصلة.

وسيأتي معنا إن شاء الله مواطن البسملة، وقد توسعت فيها وذكرتها في مقدمة كتابي (الفوائد الذهبية على العقيدة الواسطية).

وأنا -بفضل الله- حفظته في أربعة أشهر، وغيري ربما كان يحفظه في شهرين، فهو مفيد جدًا، لا يحتاج الطالب معه إلى تكلُّف تعلُّم الخطابة، بل إذا حفظ (رياض الصالحين) وأتقنه وفهمه -بإذن الله- سيخطب ويحاضر ويوجه ويؤلف، فهو كتاب عظيم حوى قريبًا من ألفَي حديث عن النبي ﷺ، مع ما حلاه به من الآيات الكثيرات، والأبواب النافعات.

آداب عامة

آداب عامة

١ - باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

(باب) يراد به الباب المعنوي، الذي يدخل به إلى فن من الفنون، أو موضوع من المواضيع، فكما أن الباب الحسي يدخل به إلى المسجد والبيت فكذلك الباب المعنوي يدخل به إلى الموضوع.

(الإخلاص): من الخلوص الدال على التنقية.

(وإحضار النية) أي: استحضار النية لله عَزَّوَجَلَّ، أن يكون العمل لله، وأن يكون العمل ما أمر الله به، لأن الإخلاص والنية تطلق على معنيين:

معنى إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يكون في جميع الأعمال، وستأتي أدلته.

والمعنى الثاني: التمييز بين العبادات، كالتمييز بين صلاة الضحى وتحية المسجد، والتمييز بين صلاة الظهر والعصر، وغسل الجنابة وغسل التبرد.

والنية محلها القلب، والتلفظ بها من البدع؛ لأن النبي ﷺ لم يتلفظ بها، وقد تفرد النية بالنظر إلى فعل العبد، وقد تجمع بالنسبة إلى كثرة الأعمال.

(في جميع الأعمال) أي: الأعمال الدينية التي يتقرب بها إلى الله.

(والأقوال) أي: الأقوال الدينية التي يتقرب بها إلى الله.

(والأحوال) حتى المباحات إذا أخلصت فيها لله رُجي أجرك، قال معاذ بن جبل: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، الحديث في مسلم، وقال ذلك الرجل: إني لأرجو أن يكتب الله ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، قال النبي ﷺ: «**لك ما احتسبت**».

(البارزة والخفية) البارزة كالصلاة والصيام والحج، والخفية كالمراقبة والتوكل والإنابة.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ **[سورة البينة: ٥]**.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ **[سورة الحج: ٣٧]**.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ **[سورة آل عمران: ٢٩]**.

الشرح:

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية؛ لبيان أهمية الإخلاص، وأنه أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى جميع المكلفين.

قوله: (وَمَا أُمِرُوا) أي: المكلفون.

(إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ) أي: ليوحدوه.

(مُخْلِصِينَ): حال كونهم مخلصين له العبادة.

(حُنَفَاءَ): مائلين من الشرك إلى التوحيد، وقد فُسر بالحنيف الموحد.

(وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ) أي: المفروضة.

(وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) أي: المكتوبة.

(وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) أي: ما تقدم ذكره من الإخلاص، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ذلك الدين القويم المقرب من رب العالمين سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾): وهذا في شأن الهدي والأضاحي، أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يناله اللحوم ولا الدماء ولكن يناله ما وقر في قلوب العباد من التقرب إليه بالنسك ونحوه.

(﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾): تحذير من عدم إخلاص النية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ مطلع على السرائر والظواهر، فينبغي للعبد أن يخلص نيته؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يجازيه عليها.

ومن أدلة القرآن التي فيها الدعوة إلى الإخلاص: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة الزمر: ٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: ٦٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: ٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

١ - وعن أمير المؤمنين أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ الخطابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى بن رياحِ بنِ عبدِ اللهِ بن قُرْطِ بن رَزاحِ بنِ عدِي بنِ كعب بنِ لُؤَيٍّ بنِ غالبٍ القُرشِيِّ العَدويِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «إنّما الأَعْمالُ بالنِّيّاتِ، وَإِنَّما لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه».

مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ، رَوَاهُ إمَامَا المُحَدِّثِينَ، أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ إسْماعيلَ بْن إبراهِيمَ بْن المُغيرَةِ بنِ بَرْدِزْبَهْ الجُعْفِيُّ البُخَارِيُّ، وَأَبُو الحُسَيْنِ مُسْلمُ بْنُ الحَجَّاجِ بْنِ مُسْلم القُشَيريُّ النَّيْسَابُورِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في صحيحيهما اللَّذَيْنِ هما أَصَحُّ الكُتُبِ المصنفةِ[١].

الشرح:

أما عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو ثاني الأمة فضلا، وثاني الخلفاء بعد رسول الله ﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، تبغضه الرافضة لشدته بالحق، ولفتحه لبلاد فارس، وغير ذلك من الفضائل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه البخاري حديث رقم: (١)، ومسلم حديث رقم: (١٩٠٧).

قوله: (سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ) واللفظ المتفق عليه: «بالنية»، فحصر الله عَزَّوَجَلَّ جميع الأعمال قبولا وردا بصلاح النية.

النية أصل لصالح العمل بها الفساد والصلاح للعمل

وجمعت (النيات) على كثرة الأعمال، وإفرادها على اعتقاد العبد وفعل العبد.

(وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى) قيل: بأنه تكرار لما تقدم، و قيل غير ذلك، وهو الصحيح، (إنّمَا الأَعْمَالُ) صحة وفسادا (بالنِّيّاتِ)، (وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِىءٍ) يتحصل العبد من الأجر والقبول على قدر ما في قلبه.

(فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله): من كان فعله لله عَزَّوَجَلَّ وعلى سنة رسول الله ﷺ فهجرته الى الله ورسوله ﷺ.

(ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا) ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [سورة الكهف: ١١٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [سورة الشورى: ٢٠].

(فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إلَيْه) أي: ليس له إلا ما عقد عليه القلب.

وهذا حديث عظيم، افتتح به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيحه، وقال فيه الشافعي: ينبغي أن يوضع في سبعين بابا من أبواب العلم، وذهب البيهقي إلى أنه ثلث العلم.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: ينبغي أن يوضع قبل كل باب.

وعليه بني ذلك القول: نية المؤمن خير من عمله؛ لأن صلاح الأعمال وفساد الأعمال عائد إلى النيات، وقد قيل فيه:

إن في الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية

اتق الشبهات، وازهد، ودع ما ليس عليك واعملن بنية

وإذا ذكر الإخلاص ذكرت المتابعة، وسيأتي بيانها؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه، وكان العامل مقتفيا فيه لسنة رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث الذي ذكره المصنف عمدة في صلاح النيات، كما أن حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**» عمدة في صلاح الظاهر، وهما ميزانا صلاح العمل، والله المستعان.

وهذا الحديث فرد، أخرجه البخاري من طريق الحميدي، قال: حدثنا سفيان، قال: أخبرنا يحيى بن سعيد، قال: أخبرنا محمد بن إبراهيم، قال: سمعت علقمة بن وقاص، قال: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فلم يصح إلا من هذه الطريق.

قوله: (مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ) هو الذي اتفق البخاري ومسلم على لفظه وصحابيه وستجد للنووي بعض الأوهام، مثل حديث: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما**» يقول: متفق عليه، والصحيح أنه عند البخاري عن أنس، وعند مسلم عن جابر، فمثل هذا لا يقال: متفق عليه المحدثين.

(رَوَاهُ إِمَامَا الْمُحَدِّثِينَ) وهذا محل إجماع ممن جاء بعدهم، وما قيل: بأن ما تحت أديم السماء أصح من موطأ مالك هذا قبل وجود كتابيهما.

(أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْن إِبراهِيمَ بْن الْمُغيرَةِ بنِ بَرْدِزْبهْ الْجُعْفِيُّ الْبُخَارِيُّ) جبل الحفظ، فقيه المحدثين، ومحدث الفقهاء، وقد ترجم له الحافظ في (مقدمة فتح الباري) وغيره بتراجم مطولة.

(وَأَبُو الْحُسَيْنِ مُسْلمُ بْنُ الحَجَّاجِ بْنِ مُسْلمٍ الْقُشَيريُّ النَّيْسَابُورِيُّ) صاحب (صحيح مسلم)، وقد اختلف العلماء في أيهما يقدم، والصحيح أن البخاري أعلى رتبة وأعلى درجة، وقد تكلمنا عن تفضيلهما في غير موطن، ونكتفي بهذا عنهما.

(اللَّذَيْنِ هما أَصَحُّ الكُتبِ المصنفةِ) قوله: (المصنفة) خرج به القرآن؛ لأنه كتاب غير مصنف، وإنما هو كلام الله، ووحيه وتنزيله، الأمر الثاني: أن أي حديث وُجد في

الصحيحين فقد جاوز القنطرة، فليس بمحل بحث لتصحيح أو تضعيف، إلا ما كان قد انتقده بعض أهل العلم، وهي كلمات يسيرة، وأحرف يسيرة، بعضها بسبب الصناعة الحديثية، لا بسبب المتون الحديثية.

ولم يثبت سبب حديث عمر، (ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا): أن مهاجر أم قيس هاجر من أجل أن يتزوج امرأة، سبب الحديث لم يثبت والمعنى ثابت.

* **وقلت في شرحي على "الأربعين النووية":**

وهذا الحديث من قواعد الإسلام العظام فهو حديثٌ دالٌ، على أهمية صلاح أعمال القلوب ويكون ذلك بصدق النية، كما أن حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(١)]، دالٌ على أهمية إصلاح الظاهر، بموافقة رسول الله ﷺ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من العمل إلا بتوفر شرطين:

الأول: أن يكون العمل خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ لا يُشرَك معه غيره، لا ملكًا مقربا ولا نبيًّا مرسلًا.

الثاني: أن يكون العمل، موافقًا لطريقة، وهدي النبي ﷺ. اهـ

وقلت في كتابي "شرح عمدة الأحكام":

ساق المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ الحديث لبيان شرط النية في الطهارة.

قال الحافظ المقدسي رَحِمَهُٱللَّهُ: وَالنِّيَّةُ مِنْ شَرَائِطِ الطَّهَارَةِ لِلْأَحْدَاثِ كُلِّهَا، لَا يَصِحُّ وُضُوءٌ وَلَا غُسْلٌ وَلَا تَيَمُّمٌ، إلَّا بِهَا. رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَبِهِ قَالَ رَبِيعَةُ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَاللَّيْثُ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ: لَا تُشْتَرَطُ النِّيَّةُ فِي طَهَارَةِ الْمَاءِ، وَإِنَّمَا تُشْتَرَطُ فِي التَّيَمُّمِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري حديث رقم: (٢٦٩٧)، ومسلم حديث رقم: (١٧١٨).

[المائدة:٦] الْآيَةَ، ذَكَرَ الشَّرَائِطَ، وَلَمْ يَذْكُرْ النِّيَّةَ، وَلَوْ كَانَتْ شَرْطًا لَذَكَرَهَا؛ وَلِأَنَّ مُقْتَضَى الْأَمْرِ حُصُولُ الْإِجْزَاءِ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَتَقْضِي الْآيَةُ حُصُولَ الْإِجْزَاءِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ؛ وَلِأَنَّهَا طَهَارَةٌ بِالْمَاءِ، فَلَمْ تَفْتَقِرْ إلَى النِّيَّةِ كَغَسْلِ النَّجَاسَةِ.

وَلَنَا: مَا رَوَى عُمَرُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «**إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ عَمَلٌ شَرْعِيٌّ بِدُونِ النِّيَّةِ؛ وَلِأَنَّهَا طَهَارَةٌ عَنْ حَدَثٍ، فَلَمْ تَصِحَّ بِغَيْرِ نِيَّةٍ [كالتيمم أو عبادة فافتقرت إلى النية كالصلاة][1]. اهـ من كلام الحافظ.

وقد قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي: إن هذا الحديث ينبغي أن يؤتى به في سبعين بابًا من أبواب الفقه، فلا تصح العبادة إلا بالنية كالصلاة والصيام والحج والزكاة وغير ذلك من العبادات.

والكلام على هذا الحديث من جهتين:

الأولى: من جهة الدلالة على الإخلاص فهو دالٌ على هذه العبادة الجليلة قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر:١٤-١٥]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل:٢٠-٢١].

الوجه الثاني: أن النية تُمَيِّز العبادات من العادات في النوع الواحد أو تُمَيِّز العبادات بعضها عن بعض.

فمثلًا: لو دخل رجلٌ الفجر وصلى ركعتين ثم سَلَّم ما الذي يميز هاتين الركعتين أنها فريضة أو نافلة؟

---

[1] «المغني» (١/٨٢)، تحت المسألة (١٤٣).

الجواب: **النية**. فإن صلَّى ونيته الفريضة كانت فريضة، وإن صلى ونيته نافلة كانت نافلة، وإن صلَّى بغير نية فلا تُقْبَل له إلا أن تكون نافلة مطلقة، على قولٍ لأهل العلم.

والرياء ينقسم إلى قسمين:

الأول: **رياءٌ يكون في أصل العبادة**، وتقدم دليله في آية سورة هود، فهذا يُحبط العبادة ويأثم صاحبه، بل قال بعض أهل العلم إنه لا يصدر إلا من منافق، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»[(١)].

الثاني: **الرياء الذي يطرأ في العبادة، ولهذا النوع حالان**:

١- أن يدخل المرء في العبادة نيته لله عَزَّوَجَلَّ ثم يطرأ عليه الرياء، فإن دافعه واندفع فعبادته صحيحة ولا يضره ما طرأ؛ لأن الإنسان قد يُغلب على ما في نفسه، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "الصحيحين": «**إِذَا نُودِيَ بِالْأَذَانِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ الْأَذَانَ، فَإِذَا قُضِيَ الْأَذَانُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ بِهَا أَدْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ يَخْطُرُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ إِنْ يَدْرِي كَمْ صَلَّى، فَإِذَا لَمْ يَدْرِ أَحَدُكُمْ كَمْ صَلَّى فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ**»[(٢)].

٢- أن يدخل في العبادة يريد الله عَزَّوَجَلَّ ثم يطرأ عليه الرياء فيلازمه ولا يجاهد نفسه فيطرده فتبطل العبادة التي داخلها الرياء.

وهنا مسألة: إذا كانت العبادات متصلة، فتُبطل العبادة أجمع، وإن كانت منفصلة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨، ١٢٣١)، ومسلم (٣٨٩).

فيبطل ما داخله الرياء، كرجل تصدق بمئة ريال مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ ثم تصدق بمئةٍ أخرى مرائيًا بها.

وفيه: من الفوائد على ما تقدم: أهمية إصلاح النيات.

وفيه: أن ليس للإنسان إلا ما عَقَد عليه قلبه، فعن يعلى بن أمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: آذنَ رسولُ اللهِ ﷺ بالغزوِ وأنا شيخٌ كبيرٌ ليسَ لي خادمٌ فالتمستُ أجيرًا يَكفيني وأُجري لَهُ سَهمَهُ، فوجدتُ رجلًا فلمَّا دنا الرَّحيلُ أتاني فقالَ: ما أدري ما السُّهمانِ؟ وما يبلغُ سَهمي فسمِّ لي شيئًا، كانَ السَّهمُ أو لم يَكن، فسمَّيتُ لَهُ ثلاثةَ دنانيرَ، فلمَّا حضرَت غنيمتُهُ أردتُ أن أجريَ لَهُ سَهمَهُ، فذَكرتُ الدَّنانيرَ فجئتُ النَّبيَّ ﷺ فذَكرتُ لَهُ أمرَهُ، فقالَ: «**ما أجدُ لَهُ في غزوتِهِ هذِهِ في الدُّنيا والآخرةِ إلَّا دنانيرَهُ الَّتي سمَّى**»[(١)].

بينما إذا أخلص قد يُكتب له الأجر وهو في بيته، كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَدَنَا مِنْ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[(٢)].

وفي رواية: «**حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»، وفي رواية: «**إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ**»[(٣)].

وبالنية قد يؤجر العبد على العادات، قال مُعَاذ بِنْ جَبَل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كَمَا فِي صَحِيحِ البخاري[(٤)]: «**فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي**».

وفيه من الفوائد: أن طاعة الله وطاعة رَسُولِهِ ﷺ تقدمان على غيرهما، وأن حق الله وحق رسوله ﷺ هو المُقدَّم على غيره من الحقوق.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٣)، ومسلم (١٩١١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجهما مسلم (١٩١١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) برقم (٤٣٤٢)، ومسلم (١٨٢٤).

وفيه: فضيلة الهجرة لله عَزَّوَجَلَّ فإن الهجرة تهدم ما قبلها كَمَا جَاءَ فِي مُسْلِمٍ[1]، بلفظ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**»، والمهاجر أجره عظيم كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في غير ما آية من كتابه الكريم: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء:١٠٠].

وفيه: أن المهاجر إلى الدنيا قد يصيب منها لكن ليس له من الأجر شيء وإنما له ما حَصَّل كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**»[2].

وفيه: أن الناس تتفاوت هممهم فبعضهم همته نازلة في الدنيا وبعضهم همته رفيعة في الأخرة فكلٌ قيمته بقدر همته حتى قيل:

قِيمَةُ الإِنْسَانُ مَا يُحسِنُهُ ... أَكْثَرَ الإِنْسَانَ مِنْهُ أَوْ أَقَلْ

وذُكر في سبب الحديث: أن رَجُلًا هاجر من أجل امرأة يقال لها أم قيس فقال له النَّبِيُّ ﷺ ما قال ولا يثبت ولا يبعد أن يكون أحدهم قد هاجر لهذا المقصد لكن من حيث أن هذا الحديث سببه هذه القصة فلا تثبت.

وقد قيل في هذا الحديث:

عُمْدَةُ الدِّينِ عِنْدَنَا كَلِمَاتٌ ... أَرْبَعٌ مِنْ كَلَامِ خَيْرِ البَرِيَّةِ
اِتَّقِ الشُّبُهَاتِ وَازْهَدْ وَدَعْ ... مَا لَيْسَ يَعْنِيكَ وَاعْمَلَنَّ بِنِيَّةٍ

---

[1] أخرجه مسلم (١٢١)، عَنْ عَمْرِو بْنِ العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

[2] أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

٢ - وعن أمِّ المؤمِنينَ أمِّ عبدِ اللهِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قالَ رسول الله ﷺ: «يغزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فإذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ». قَالَتْ: قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ ! قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، هذَا لَفظُ الْبُخَارِيِّ (١).

الشرح:

قوله: (عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة) أم المؤمنين؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٦]، وأم عبد الله؛ لأن النبي ﷺ كناها بذلك مع أنه لم يكن لها ولد.

وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أصغر زوجات النبي ﷺ، ولم يتزوج بكرا غيرها، وقال فيها: "فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»، يبغضها الرافضة؛ لحظوتها عند رسول الله ﷺ، وطعنوا فيها بما طعن فيها عبد الله بن أبي بن سلول، وقد برأها الله عَزَّوَجَلَّ من تهمة عبد الله بن أبي، وما زال الرافضة يخالفون كلام الله وكلام رسوله ﷺ، دليل على أنهم ليسوا من الإسلام في سرد ولا ورد.

قال عنها عمار بن ياسر: إنها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكنكم فتنتم بها، قال عنها النبي ﷺ: "فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»، ويأتي الكلام في تفضيلها خديجة إن شاء الله في موطن آخر.

(يغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ) هذا يكون في آخر الزمان.

(فإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ) أي: بمنطقة مستوية من الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

(يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ) أي: يخسف بالجميع، السوقة، والمجبورون، والمتعمدون القاصدون.

(قَالَتْ: قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُخْسَفُ بأوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ؟) يعني: فيهم من هو مظلوم، وليس براغب فيما هم فيه.

(وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ) أي: الأتباع من الخدم ونحوهم.

(وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ) قد يُجبر.

(يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيّاتِهِمْ) فكما أن مجالس الصالحين هم القوم لا يشقى بهم جليسهم كذلك مجالس الطالحين يناله من سوئهم، والله المستعان، إلا أن مثل هذا الحال "يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»، فمن كان من قاصدي بيت الله الحرام لهدمه والإلحاد فيه فهو على خطر عظيم، وإن كان مغصوبا على أمره فهو معذور ومعفو عنه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة النحل: ١٠٦].

والشاهد من سوق الحديث قوله: (يُبْعَثُونَ عَلَى نِيّاتِهِمْ).

(مُتَّفَقٌ عَلَيهِ هذَا لَفظُ الْبُخَارِيِّ) معنى ذلك: أن الحديث قد يأتي في الصحيحين إلا أن بينهما ألفاظ متفاوتة، فيعزى الحديث إلى من أخذ منه بلفظه.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٤/ ٣٤١): قَالَ الْمُهَلَّبُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فِي الْمَعْصِيَةِ مُخْتَارًا أَنَّ الْعُقُوبَةَ تَلْزَمُهُ مَعَهُمْ قَالَ وَاسْتَنْبَطَ مِنْهُ مَالِكٌ عُقُوبَةَ مَنْ يُجَالِسُ شَرَبَةَ الْخَمْرِ وَأَن لم يشرب وَتعقبه بن الْمُنِيرِ بِأَنَّ الْعُقُوبَةَ الَّتِي فِي الْحَدِيثِ هِيَ الْهَجمَةُ السَّمَاوِيَّةُ فَلَا يُقَاسُ عَلَيْهَا الْعُقُوبَاتُ الشَّرْعِيَّةُ وَيُؤَيِّدُهُ آخِرُ الْحَدِيثِ حَيْثُ قَالَ وَيُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَعْمَالَ تُعْتَبَرُ بِنِيَّةِ الْعَامِلِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مُصَاحَبَةِ أَهْلِ الظُّلْمِ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَتَكْثِيرِ سَوَادِهِمْ إِلَّا

لِمَنِ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ وَيَتَرَدَّدُ النَّظَرُ فِي مُصَاحَبَةِ التَّاجِرِ لِأَهْلِ الْفِتْنَةِ هَلْ هِيَ إِعَانَةٌ لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ أَوْ هِيَ مِنْ ضَرُورَةِ الْبَشَرِيَّةِ ثُمَّ يُعْتَبَرُ عَمَلُ كُلِّ أَحَدٍ بِنِيَّتِهِ وَعَلَى الثَّانِي يَدُلُّ ظَاهِر الحَدِيث. اهـ

٣ - وعن عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ النبي ﷺ: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فانْفِرُوا»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

وَمَعناهُ: لا هِجْرَةَ مِنْ مَكّةَ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إسلَامٍ

الشرح:

وجاء عن ابن عباس، كما أن الحديث الذي سبق جاء عن أم سلمة وغيرها، عن أم سلمة وحفصة في الصحيح وغيرهن.

(لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ) أي لا هجرة من مكة إلى المدينة بعد الفتح، وإلا فقد جاءت الأدلة على أن الهجرة ماضية ما بقي الجهاد، والجهاد باق ما بقي الإسلام، قال النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ»، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة صحة الجهاد خلف كل بر وفاجر من المسلمين، إلا أن المعنى: لا هجرة من مكة إلى المدينة، أو: لا هجرة أكمل من هجرة السابقين الأولين من مكة إلى المدينة.

(بَعْدَ الفَتْحِ) المراد به: فتح مكة.

(وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ) هذا هو الشاهد، أن الإنسان يلزمه أن يجاهد في سبيل الله بقوله أو بفعله أو اعتقاده، وكل ذلك جهاد بضوابطه الشرعية، وهذا هو الشاهد من ذكر الحديث في هذا الموطن: ذكر النية، ومحلها القلب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٠)، ومسلم (١٨٦٤).

(وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ) أي: دعاكم الإمام إلى قتال عدو من الأعداء (فانْفِرُوا)، وهذا أحد الأوجه الذي يتعين فيها النفر؛ لأن النفر يتعين في حالة ما إذا هجم الكفار على بلاد المسلمين، والأمر الثاني: حين يستنفرهم الإمام.

وكان الفتح في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحديد: ١٠].

قال الحافظ في "الفتح"(٦/ ٣٨-٣٩): **قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ**: كَانَتِ الْهِجْرَةُ فَرْضًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ لِقِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَدِينَةِ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى الِاجْتِمَاعِ فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَقَطَ فَرْضُ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَقِيَ فَرْضُ الْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ عَلَى مَنْ قَامَ بِهِ أَوْ نَزَلَ بِهِ عَدُوٌّ انْتَهَى وَكَانَتِ الْحِكْمَةُ أَيْضًا فِي وُجُوبِ الْهِجْرَةِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ ليسلم من أذى ذويه مِنَ الْكُفَّارِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُعَذِّبُونَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنْ دِينِهِ وَفِيهِمْ نَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾، الآية، وَهَذِهِ الْهِجْرَةُ بَاقِيَةُ الْحُكْمِ فِي حَقِّ مَنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْكُفْرِ وَقَدَرَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا...

قَالَ النَّوَوِيُّ: يُرِيد أن الْخَيْرَ الَّذِي انْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ الْهِجْرَةِ يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِالْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ وَإِذَا أَمَرَكُمُ الْإِمَامُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَاخْرُجُوا إِلَيْهِ. اهـ

٤ – وعن أبي عبدِ اللهِ جابر بن عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في غَزَاةٍ، فَقالَ: «إنَّ بالمدِينَةِ لَرِجَالًا ما سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إلاَّ كَانُوا مَعَكمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ». وَفي روَايَة: «إلاَّ شَرَكُوكُمْ في الأجْرِ». رواهُ مسلمٌ[١].

ورواهُ البخاريُّ[٢] عن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ أقْوامًا خَلْفَنَا بالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَاديًا، إلاَّ وَهُمْ مَعَنَا؛ حَبَسَهُمُ العُذْرُ».

الشرح:

جابر بن عبد الله بن حرام، شهد المواقف مع النبي ﷺ إلا بدر وأحد؛ لشغله بأبيه، ولعدم إذن أبيه له، وأبوه أفضل منه، وهو من المكثرين في رواية حديث النبي ﷺ، كما أن عائشة وابن عباس الذين تقدم ذكرهما من المكثرين.

والمكثـــرون في روايـــة الأثـــر أبـــو هريـــرة يليـــه ابـــن عمـــر
وأنـــس والحبـــر كالخـــدري وجـــابر، وزوجـــة النبـــي

قوله: (إِنَّ بالمدِينَةِ) أي: إن بمدينة رسول الله ﷺ، كان اسمها يثرب، فنهى النبي ﷺ عن تسميتها بهذا الاسم.

(لَرِجَالًا) ويدخل فيه أيضا النساء، وإنما ذكر الرجال؛ لتعين الجهاد عليهم، وخرج الحديث مخرج الغالب، وإلا فمن كان نيته نصر دين الله سواء كان رجلا أو امرأة فهو مأجور بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

(ما سِرْتُمْ مَسِيرًا) أي: ما ذهبتم بلدا.

(١) حديث رقم: (١٩١١).
(٢) حديث رقم: (٢٨٣٨).

(وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا): شعبا أو واديا، (إلاَّ كَانُوا مَعَكمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ) أو: (حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ)، وكما قيل:

يا راحلين إلى أرض الحجاز لقد صرتم جسوما وصرنا نحن أرواحا
ومن قام على عذر وعن قدر كمن أقام على عذر وقد راحا

أو كما قيل، وقد قال النبي ﷺ كما في حديث أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا»، شاهد لهذا.

(إلاَّ شَرَكُوكُمْ فِي الأجْرِ) كان لهم أجر، ليس لهم أجر القتال، ولكن لهم أجر جهاد؛ لنيتهم، أما الذي يحضر أجره أكثر، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٠]، والذين كانوا يسافرون مع النبي صل الله عليه وسلم كانوا يتعبون وينصبون، ويلحقهم اللأواء، ومع ذلك أجرهم عظيم، وقد قال النبي ﷺ لعائشة: «أجرك على قدر نصبك».

وغزوة تبوك كانت إلى جهة الروم، وأنس هو أبو حمزة الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، خدم النبي ﷺ عشر سنين، وهو من المكثرين في رواية الحديث كما تقدم، قد دعا له النبي ﷺ بقوله: "اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا رَزَقْتَهُ».

(رَجَعْنَا) أي: عدنا، (مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ) وكانت في السنة التاسعة من الهجرة، وكانت من أشد الغزوات، إذ أن النبي ﷺ كان إذا خرج يوري بالغزوة، إلا ما كان من تبوك، وقد قص الله عَزَّوَجَلَّ قصتها في سورة التوبة.

(إنَّ أقْوامًا خَلْفَنَا بالْمَدِينَةِ) تبشيرا للمتخلفين الذين لم يجدوا ما يحملهم الى الجهاد، ولم يجد النبي ﷺ ما يحملهم عليه، ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٢].

(مَا سَلَكْنَا شِعْبًا) والشعب: هو ما بين الواديين في الجبال.

(وَلَا وَادِيًا) هو: المكان الذي يسلكه السيل.

(إلاّ وَهُمْ مَعَنَا) بنياتهم.

(حَبَسَهُمُ العُذْرُ) إما المرض، أو القلة.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم": وهذا الحديث يضاف إلى ما تقدم من الأحاديث على أهمية إصلاح النية، **وأنه كما قال بعضهم**: نية المؤمن خير من عمله، ربما تعمل عملًا، ويذهب، وتنساه، وإن قبل، لكن مع النية الصالحة ربما تبقى الأعمال، تكتب لك أجورها، وتكتب لك حسناتها.

وهذه الأدلة دليل على عظيم فضل الله على المؤمنين، إذ يعينهم على إخلاص النيات، ويتقبل منهم، كرامة منه.

وفيه: أن المرض من الأعراض، فالمريض لا يؤاخذ كما يؤاخذ السليم، قال الله:﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ [سورة النساء: ٩٥]. اهـ

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ فَضِيلَةُ النِّيَّةِ فِي الْخَيْرِ وَأَنَّ مَنْ نَوَى الْغَزْوَ وَغَيْرَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ فَعَرَضَ لَهُ عُذْرٌ مَنَعَهُ حَصَلَ لَهُ ثَوَابُ نِيَّتِهِ وَأَنَّهُ كُلَّمَا أَكْثَرَ مِنَ التَّأَسُّفِ عَلَى فَوَاتِ ذَلِكَ وَتَمَنَّى كَوْنَهُ مَعَ الْغُزَاةِ وَنَحْوِهِمْ كَثُرَ ثَوَابُهُ وَاللهُ أَعْلَمُ. اهـ

٥ - وعن أبي يَزيدَ مَعْنِ بنِ يَزيدَ بنِ الأخنسِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وهو وأبوه وَجَدُّه صحابيُّون، قَالَ: كَانَ أَبِي يَزيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا، فَوَضعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَجِئْتُ فَأَخذْتُها فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فقالَ: واللهِ، مَا إيَّاكَ أَرَدْتُ، فَخَاصَمْتُهُ إِلى رسولِ اللهِ ﷺ فقَالَ: «لكَ مَا نَوَيْتَ يَا يزيدُ، ولَكَ ما أَخَذْتَ يَا مَعْنُ»، رواهُ البخاريُّ[1].

الشرح:

(١) حديث رقم: (١٤٢٢).

قوله: (وهو وأبوه وَجَدُّه صحابيُّون) أي كل يروي، أو أنهم كلهم أسلموا على عهد النبي ﷺ، وهذا قليل أن تجد يعني الثلاثة الأب والابن والجد على الإسلام، وهذا كحال أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبنائه وأبيه.

(كَانَ أبي يَزيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا) أي: والد معن أخرج دنانير يتصدق بها.

(فَوَضعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ) لا يريد أن يُعرف من هو، وفيه فضل الصدقة.

(فَجِئْتُ فأَخذْتُها فَأَتَيْتُهُ بِهَا) أي: رددتها إليه، ظننت أنه نسيها، أو غير ذلك.

(فقالَ: واللهِ، مَا إيَّاكَ أَرَدْتُ) أي: أنا تصدقت بها لله لهذا الرجل.

(لكَ مَا نَوَيْتَ يَا يزيدُ): كونه أخرجها لذلك الرجل وأراد التصدق بها.

(ولَكَ ما أَخَذْتَ يَا مَعْنُ): كونه تملكها بإذن أبيه.

والشاهد من الحديث: (لكَ مَا نَوَيْتَ)، فإن النية أجرها عظيم، ربما ترفع الإنسان إلى الدرجات العلى والنعيم المقيم.

قال الحافظ في "الفتح"(٣/ ٢٩٢): وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الْعَمَلِ بِالْمُطْلَقَاتِ عَلَى إِطْلَاقِهَا وَإِنِ احْتَمَلَ أَنَّ الْمُطْلَقَ لَوْ خطرَ ببَالِهِ فَرْدٌ مِنَ الْأَفْرَادِ لَقَيَّدَ اللَّفْظَ بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ دَفْعِ الصَّدَقَةِ إِلَى كُلِّ أَصْلٍ وَفَرْعٍ وَلَوْ كَانَ مِمَّنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ وَلَا حُجَّةَ فِيهِ لِأَنَّهَا وَاقِعَةُ حَالٍ فَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ مَعْنٌ كَانَ مُسْتَقِلًّا لَا يَلْزَمُ أَبَاهُ يَزِيدَ نَفَقَتُهُ..

وَفِيهِ جَوَازُ الِافْتِخَارِ بِالْمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالتَّحَدُّثِ بِنِعَمِ اللهِ، وَفِيهِ: جَوَازُ التَّحَاكُمِ بَيْنَ الْأَبِ وَالِابْنِ وَأَنَّ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِهِ لَا يَكُونُ عُقُوقًا، وَجَوَازُ الِاسْتِخْلَافِ فِي الصَّدَقَةِ وَلَا سِيَّمَا صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ؛ لِأَنَّ فِيهِ نَوْعُ إِسْرَارٍ، وَفِيهِ: أَنَّ لِلمتَّصَدِّقِ أَجْرَ مَا نَوَاه سَوَاء صَادف الْمُسْتَحق أَولا وَأَنَّ الْأَبَ لَا رُجُوعَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ على وَلَده بِخِلَاف الْهِبَة، وَاللهُ أعلم. اهـ

٦ - وعن أبي إسحاقَ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ مالِكِ بنِ أُهَيْب بنِ عبدِ منافِ بنِ زُهرَةَ بنِ كلابِ، بنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤيٍّ القُرشِيِّ الزُّهريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَحَدِ العَشَرَةِ المشهودِ لهم بالجنةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُم قَالَ: جاءنِي رسولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرى، وَأنَا ذُو مالٍ وَلا يَرِثُني إلا ابْنَةٌ لِي، أفأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لا»، قُلْتُ: فالشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فقَالَ: «لا»، قُلْتُ: فالثُّلُثُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثيرٌ - أَوْ كبيرٌ - إنَّكَ إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أغنِيَاءَ خيرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً، يتكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغي بِهَا وَجهَ اللهِ إلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ»، قَالَ: فَقُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أُخلَّفُ بعدَ أصْحَابي؟ قَالَ: «إنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعمل عَمَلًا تَبتَغي بِهِ وَجْهَ اللهِ إلاَّ ازْدَدتَ بِهِ دَرَجةً ورِفعَةً، وَلَعلَّكَ أنْ تُخَلَّفَ حَتّى يَنتَفِعَ بِكَ أقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخرونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابي هِجْرَتَهُمْ ولَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أعقَابِهِمْ، لكنِ البَائِسُ سَعدُ بْنُ خَوْلَةَ»، يَرْثي لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ ماتَ بمَكَّةَ، مُتَّفَقٌ عليهِ[(١)].

الشرح:

سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو أحد العشرة المبشرين بالجنة كما قال المصنف، وقد نزل فيه القرآن كما ذكر ذلك عن نفسه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة الأنفال: ١]، وأيضا: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [سورة لقمان: ١٥]، وأيضا شأن الخمر.

طُعن فيه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه لا يحسن يصلي، وسيأتي، فدافع الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وأصاب من طعن فيه بقارعة، كما سيأتي معنا في كرامات الأولياء.

(١) أخرجه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

(أَحَدِ العَشَرَةِ المشهودِ لهم بالجنةِ): يشير إلى حديث عبد الرحمن بن عوف وكذا جاء من حديث سعيد بن زيد: أن النبي ﷺ قال: "أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ».

(جاءنِي رسولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ) فيه استحباب عيادة المريض، وسيأتي بابها في موطنه إن شاء الله.

وحجة الوداع كانت في السنة العاشرة من الهجرة، وسميت بالوداع؛ لأن النبي ﷺ ودع فيها أمته.

(مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بي) أي: من مرض ألم به.

(إنِّي قَدْ بَلَغَ بي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرَى) فيه فضيلة عيادة المريض، وسيأتي بيانها في موطنه، وفيه جواز التشكي لا على سبيل التسخط على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَأَنَا ذُو مالٍ وَلا يَرِثُنِي إلا ابْنَةٌ لي) فيه الاحتياط في الوصية ونحوها.

قوله: (أفأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟) وإبقاء الثلث لابنته.

(قُلْتُ: فالشَّطْرُ) أي: النصف.

(الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثيرٌ أَوْ كبيرٌ) ولذلك أفتى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لو أن الناس عدلوا من الثلث إلى الربع أو إلى الخمس كان أفضل؛ لأن النبي ﷺ قال: «الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثيرٌ»، فمن أوصى بأكثر من الثلث لا تنفذ وصيته.

(إنَّكَ إنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أغنِيَاءَ خيرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يتكَفَّفُونَ النَّاسَ) فيه حرص الآباء على سلامة أبنائهم عن التطلع إلى ما بأيدي الناس، وأن الإنسان لا يجوز له أن يبذر بماله أو يوصي بماله كله من أجل أن يحرم أبناءه.

وفيه: أن الإنسان إذا استطاع أن يكفي ولده المؤنة حتى بعد موته فعل، فإن القيام عليهم يعتبر من الصدقات العظيمات، لا سيما إذا مات حال صغرهم ولم يكن لهم قدرة على التكسب يلحقهم الضرر، ويلحقهم اليتم.

(وَإِنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجهَ اللهِ) فيه فضيلة الإخلاص، وإثبات الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الصفات الثبوتية الخبرية، التي ثبتت بالقرآن والسنة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن: ٢٧]، وقال النبي ﷺ: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**».

(إلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا) يعني كل نفقة إلا أجرت عليها وجازاك الله على حسن نيتك في نفقتها.

(حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ): حتى ما يكون طعامًا لامرأتك، مع أن النفقة على الزوجة والأبناء واجب، ومع ذلك يقول النبي ﷺ: "**أَفْضَلُ دِينَارٍ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

ولا يلزم أن تدخلها بيدك في فيِّ امرأتك، وليس هذا ظاهر اللفظ، وإنما فيه أجر على ما تنفق على زوجتك، مع أن نفقتك عليها من الواجبات فيما هو من الواجبات، والنفقة على ولدك من الواجبات فيما هو من الواجبات، ومع ذلك تؤجر على نفقتك، فلو احتسب الإنسان الأجر لكان أجره أعظم، ومثوبته أبرك وأكثر.

(قَالَ: فَقُلتُ: يَا رسولَ اللهِ، أُخلَّفُ بعدَ أصْحَابي؟)أي بعد أن بين له الحكم الشرعي سأله: هل أخلف بعد أصحابي؟ يعني أموت في مكة ولا أكون معكم؟ فقال له النبي ﷺ: **(إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ)** يعني: لن تتخلف، بل ستعيش وتكون مع الناس، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

(فَتَعملَ عَمَلًا تَبتَغي بِهِ وَجْهَ اللهِ) وهذا شاهد آخر لصلاح النية وفضيلة ذلك.

(إلاّ ازْدَدتَ بِهِ دَرَجةً ورِفعَةً)؛ لأن الأعمال الصالحة سبب لرفع الدرجات، بينما الدركات تكون بالأعمال السيئة.

(وَلَعلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ): أن تعيش عيشة طويلة.

(حَتّى يَنتَفِعَ بِكَ أقْوَامٌ) من المسلمين، (وَيُضَرَّ بِكَ آخرونَ) أي: من الكفار، وقد كان قائد جيش فتح القادسية، ونصر الله به الإسلام والمسلمين، وولي الإمارة في عهد عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(اللَّهُمَّ أَمْضِ لأصْحَابي هِجْرَتَهُمْ) دعا النبي ﷺ لسعد ولغيره من صحابته أن يمضي الله هجرتهم، بحيث لا يرجعون القهقرى، ولا يتخلفون عنها.

(ولَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أعقَابهِمْ) سواء كانت الردة الكبرى أو الارتداد الأصغر بترك مكان هجرتهم وهو المدينة، فلذلك لما أراد سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يرجع إلى البادية استأذن النبي ﷺ في التعرب.

(لكنِ البَائِسُ سَعدُ بْنُ خَوْلَةَ، يَرْثي لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ ماتَ بمَكَّة) سعد بن خولة من المهاجرين الأولين، إلا أنه مات بمكة، فرثاه النبي ﷺ أن مات بمكة، كان يحب أن يكون موته في غير مكان هجرته، ولا مدخل له رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذه الموتة، فلا يضره إن شاء الله.

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه على مسلم (١١/ ٧٧): وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُرَاعَاةُ الْعَدْلِ بَيْنَ الْوَرَثَةِ وَالْوَصِيَّةِ، قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنْ كَانَتِ الْوَرَثَةُ أَغْنِيَاءَ اسْتُحِبَّ أَنْ يُوصِيَ بِالثُّلُثِ تَبَرُّعًا، وَإِنْ كَانُوا فُقَرَاءَ اسْتُحِبَّ أَنْ يُنْقِصَ مِنَ الثُّلُثِ.

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ عَلَى أَنَّ مَنْ لَهُ وَارِثٌ لَا تَنْفُذُ وَصِيَّتُهُ بِزِيَادَةٍ عَلَى الثُّلُثِ إِلَّا بِإِجَازَتِهِ، وَأَجْمَعُوا عَلَى نُفُوذِهَا بِإِجَازَتِهِ فِي جَمِيعِ الْمَالِ، وَأَمَّا مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ فَمَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ لَا تَصِحُّ وَصِيَّتُهُ فِيمَا زَادَ عَلَى الثُّلُثِ، وَجَوَّزَهُ أَبُو

حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَإِسْحَاقُ، وَأَحْمَدُ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧ - وعنْ أبي هريرةَ عبدِ الرحمانِ بنِ صخرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينْظُرُ إِلى أجْسَامِكُمْ، ولا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكن ينْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وأعمالكم». رواه مسلم[(١)].

أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اختلف في اسمه إلى ثلاثين قولا ذكرها النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، وأرجحها أنه عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليمني، وهو من المكثرين لحديث النبي ﷺ، بل أكثرهم، حتى روى فوق خمسة آلاف حديث.

وسبب ذلك: أنه كان ملازمًا للنبي ﷺ، وكان يحفظ حديث النبي ﷺ، قال: إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب، ومع ذلك فاقه أبو هريرة؛ لأن عبد الله بن عمرو شُغل بالجهاد مع أبيه في مصر، ثم شغل بما كان من شأن أبيه في الشام، إذ أن النبي ﷺ قال له: «**أطع أباك ما دام حيًا**».

(إنَّ الله لا ينْظُرُ إِلى أجْسَامِكُمْ) فيه إثبات صفة النظر لله عَزَّوَجَلَّ، وهو يرى بعينين حقيقيتين تليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [سورة القمر: ١٤]، أي: بمرأى منا.

(إنَّ الله لا ينْظُرُ إِلى أجْسَامِكُمْ)؛ لأن الجمال الظاهر قد يكون في الكفار، وقد يكون في الرجال والنساء، وقد يكون في غير ذلك، لكن النظر إلى الأعمال.

(وَلَكن ينْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ وأعمالكم) ينظر إلى قلوبكم وما فيها من النيات الطيبة، وإلى أعمالكم الموافقة أو المخالفة لما في القلوب، قد يستدل بعضهم بهذا الحديث على صلاح القلب ولا يلزم العمل، فيرد عليهم بتمام الحديث من أن الله عَزَّوَجَلَّ ينظر

---

(١) حديث رقم: (٢٥٦٤).

إلى القلوب وينظر إلى الأعمال؛ لأن الذي يقول: قلبي نظيف ولا يعمل هو ما عمل بالحديث أجمع، ولكن القلب النظيف هو الذي يقارنه العمل النظيف، «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحْت صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":

وهذه الرواية رد على من يقول: الإيمان في القلب، الإيمان في القلب وصدقه العمل، ثم أيضًا الإيمان قول وفعل واعتقاد.

وفيه إثبات صفة النظر لله عَزَّوَجَلَّ، ينظر بعينين حقيقيتين، تليق بجلاله.

وأن العبرة ليست بجمال الظاهر، وإنما بجمال الباطن.

وإذا جميـــل الوجـــه لـــم يـــأت الجميـــل فمـــا جمالـــه

يعني: إذا كنت جميل الوجه قبيح الفعل فلا فائدة في هذا الجمال، وإنما يُمدح الجمال إذا توافق جمال الظاهر مع الباطن، كان النبي ﷺ أجمل الناس خَلقا وخُلقا، وكان أبو لهب من أجمل الناس خَلقا ولكنه من أسوئهم خُلقا ولذلك ذمه الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [سورة المسد: ١-٥].

اهـ

٨ - وعن أبي موسى عبدِ اللهِ بنِ قيسٍ الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقاتلُ شَجاعَةً، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذلِكَ في سبيلِ الله؟ فقال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، فَهوَ في سبيلِ اللهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) (١٤٩) و (١٥٠).

أبو موسى الأشعري من المهاجرين إلى النبي ﷺ، وقد وفقوا للهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، حيث ذهبت سفينتهم إلى ذلك الموطن، والتقوا بجعفر بن أبي طالب وأصحابه، والهجرة إلى النبي ﷺ، وأوتي مزمارا من مزامير آل داوود، ويأتي فضله في فضائل الأشعريين، وكذلك في فضائل قراءة القرآن.

والأشعري نسبة إلى الأشعريين المسمى بوادي ربع، المسمى بوادي رمع.

(الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجَاعَةً)؛ لأن الناس يختلفون في النيات، فمنهم من يقاتل شجاعة، ومنهم من يقاتل حمية لقومه وطائفته، ومنهم من يقاتل رياء، ليقال: بأنه شجاع، وبأنه أصحاب بسالة، وغير ذلك.

(مَنْ قَاتَلَ لِتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، فَهوَ في سبيلِ اللهِ) بمعنى أن من قاتل شجاعة أو حمية أو رياء ليس في سبيل الله، ويكون علو كلمة الله عَزَّوَجَلَّ بتحقيقها ولا يلزم من علوها دخول جميع الناس في الإسلام، ولكن كون كلمة الإخلاص هي المعمول بها في تحاكم الناس وفي شأن الناس فهي العليا.

والشاهد من الحديث: أن النبي ﷺ امتدح المخلصين دون غيرهم.

*** وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":**

الحديث دليل على عظيم شأن النية، وعظيم شأن النفس، التي ينبغي أن الإنسان لا يبذلها إلا فيما هو نافع لها، في الدنيا والآخرة.

والحديث دليل على أهمية إصلاح النيات، لا سيما للمجاهدين؛ لأنه سيقتل، أو سيجرح، فإذا لم يكن قتله في سبيل الله وكان في هوى نفسه أو طاعة للشيطان فهو على خطر عظيم.

ومن هذا ما عليه كثير من الجنود في هذه الأزمنة المتأخرة الذين يقاتلون ويبذلون أرواحهم لكن في سبيل الديمقراطية، وغير ذلك من السبل الغير مرضية.

فندعو الجميع إلى إخلاص النيات لله، من كان قتاله لإعلاء كلمة الله فشأنه على الأجور المضاعفة في مشيه، في نومه، في سلامته في جراحته، في حال قتله.اهـ

٩ - وعن أبي بَكرَةَ نُفيع بنِ الحارثِ الثقفيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا التقَى المُسلِمانِ بسَيْفَيهِمَا فالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النّارِ»، قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ هذا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قتلِ صَاحِبِهِ»، مُتَّفَقٌ عليهِ [١].

الشرح:

أبو بكرة الثقفي سمي بأبي بكرة؛ لأنه حين هاجر إلى النبي ﷺ تدلى ببكرة، وهو راوي حديث: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»، يطعن فيه الإخوان المسلمون ومن إليهم بسبب هذا الحديث.

قوله: (إِذَا التَقَى المُسلِمَان بسَيْفَيهِمَا) أي ليقتل بعضهما بعضا.

(فالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النّارِ) والسبب في ذلك النية، وإلا فالمظلوم غير مؤاخذ المظلوم من قتل ظلمًا غير مؤاخذ، وله أجر عظيم، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ [سورة النساء: ٩٣]، وأيضا يقول النبي ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد»، «ومن قتل في سبيل الله فهو شهيد»، لكن هذا يكون قاصدا لقتل صاحبه، وأخوه قاصدا لقتله، فاستحقوا العقاب جميعًا على ما في قلوبهم، مع تفاوت العذاب على القاتل ربما يكون أكثر عذابا من المقتول، لكن النية السيئة لها دور في عذاب صاحبها.

(قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، هذا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المقْتُولِ) فيه محاورة العالم إذا أشكل شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) (١٤) و (١٥).

(قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قتلِ صَاحِبِهِ) أي أن النية هي التي أوردته هذا المورد والله المستعان.

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم ":

قال السبكي: وفيه أنه كان حريصاً على قتل صاحبه، فعلل بالحرص، واحتج بعضهم بأعمال القلوب ولا حجة معه؛ لأنها على قسمين: أحدهما: لا يتعلق بفعل خارجي وليس البحث فيه، والثاني: يتعلق بالملتقيين عزم كل منهما على قتل صاحبه، واقترن بعزمه فعل بعض ما عزم عليه، وهو شهر السلاح، وإشارته به إلى الآخر، فهذا الفعل يؤاخذ به سواء حصل القتل أم لا. انتهى. اهـ.

١٠ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رَسُول الله ﷺ: «صَلاةُ الرَّجلِ في جمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلاتِهِ في سُوقِهِ وبيتِهِ بِضْعًا وعِشرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَحدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضوءَ، ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاةَ، لَا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَلاةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بها خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ المَسْجِدَ، فإذا دَخَلَ المَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ في مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فيه، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ». مُتَّفَقٌ عليه، وهذا لفظ مسلم[١].

وقوله ﷺ: «يَنْهَزُهُ» هُوَ بِفَتْحِ اليَاءِ والْهَاءِ وبالزَّايِ: أَيْ يُخْرِجُهُ ويُنْهِضُهُ.

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧)، ومسلم (٦٤٩) (٢٧٢) و (٢٧٣).

(أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) وهو عبد الرحمن بن صخر على أصح الأقوال واختلف في اسمه إلى أكثر من ذلك.

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وفيه من الفوائد:

(صَلاةُ الرَّجلِ في جمَاعَةٍ تَزيدُ عَلَى صَلاتهِ في سُوقِهِ وبيتهِ) وهو صحة صلاة الفرد، خلافا لما ذهب إليه ابن حزم من أن صلاة الجماعة شرط في صحة الصلاة، إلا أن صلاة الجماعة أفضل وأزكى، صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده.

(بِضْعًا وعِشرِينَ دَرَجَةً) جاء في حديث بن عمر: «سبعا وعشرين درجة»، وجاء في حديث أبي هريرة في بعض الطرق: «خمسا وعشرين درجة»، وجمع بينهما العلماء: أن ذلك لعله بتفاوت ما في الأشخاص من الإيمان وحسن التقرب، وقيل: بأن الأدنى يدخل تحت الأعلى، وقيل: بأنه قال: «بخمس وعشرين درجة» ثم أوحي إليه: «سبعا وعشرين درجة».

(وَذلِكَ أنَّ أَحدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضوءَ) يعني أن الدرجات تبدأ من هذه الأعمال، إذا توضأ فأحسن الوضوء؛ لأنه لا صلاة لمن لا وضوء له، كما قال النبي صل الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»، وسيأتي هذا الباب في موطنه.

(ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ) أي: لشهود الجماعة ولحضورها.

(لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاةَ، لَا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَلاةُ) هذا هو الشاهد، لم يخرج لدنيا، أو للقيا صديق، أو لمجالسة حبيب، وإنما مراده الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة.

(لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ) سواء كان ذاهبا إلى المسجد أو راجعا منه، كما في حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «إن لك ما احتسبت»، سيأتي معنا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

(فَإِذا دَخَلَ المَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلاةِ مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ) مهما بقي في المسجد ما دام على طهارته وهو ينتظر الصلاة فهو في صلاة، حتى ولو لم يكن على طهارة وهو ينتظر الصلاة فهو في صلاة، إلا أنه إذا كان على طهارة فالملائكة تصلي عليه وتدعو له.

(وَالمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ) ومعنى (يصلون): يدعون، وهذا دليل لمذهب من ذهب من العلماء إلى أن الصلاة هي الدعاء، لأن بعضهم زعم أن الصلاة هي الرحمة، وقد فرق الله بينهما بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [سورة البقرة: ١٥٧].

(مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ) اختلف فيه، فقيل المجلس الذي صلى فيه أي: المكان الذي صلى فيه الفريضة، وقيل: بأنه المسجد أجمع، وهذا اختيار غير واحد من أهل العلم، وهو قول حسن، فما دام في المسجد فهو في صلاة، والملائكة تصلي عليه.

(يَقُولُونَ) أي: صلاتهم عليه: (اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ) أي: تجاوز عن ذنوبه السابقة.

(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ): وفقه لما يأتي من حياته.

(اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيهِ): ارزقه توبة نصوحا واقبلها منه.

(مَا لَم يُؤْذِ فيه) أحدا من جيرانه، أو من رواد المسجد.

(مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ) قيل: الحدث هنا ما هو أعم من نقض الوضوء، والصحيح أن المراد به هنا نقض الوضوء.

وذهب بعض أهل العلم إلى تعميم الحدث وهو حدث البدعة وما إليه، وذهب بعضهم إلى أن الحدث المراد به هنا ما فسر بقوله: (يَفْسُو أَوْ يَضْرِطُ)، وذكر الفساء

والضراط؛ لأنه أكثر الأحداث الواقعة داخل المسجد، مع أن الحدث قد يقع ببول، أو قد يقع بلمس فرج، أو بنحو ذلك من الأحداث.

١١ - وعن أبي العبَّاسِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ بنِ عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رَسُول الله ﷺ فيما يروي عن ربهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتبَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ، إلَى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إلَى أَضعَافٍ كَثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»، مُتَّفَقٌ عليهِ[1].

الشرح:

(أبي العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وهو ابن عم النبي صل الله عليه وسلم، وحبر من أحبار الأمة، وهو الذي أكثر في الرواية عن النبي ﷺ، وهو أحد العبادلة.

ابـــن عبـــاس وعمـــرو وعمـــر ... وابـن الزبير هـم العبادلة الغـررْ

كان يدنيه عمر في مجلسه على ما يأتي.

هذا يسمى عند العلماء بالحديث القدسي، ولفظه من الله، إلا أنه ليس من القرآن، ولا يصلى به.

وفيه إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ بأنه يتكلم بحرف وصوت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ) أي: فرضها وكتبها في اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) (٢٠٧) و (٢٠٨).

(ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ) يعني كتب للمطيع الحسنة، وكتب للعاصي السيئة، ثم وقع بيان لأن الناس يتفاوتون في ذلك.

(فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا) هم أن يصلي في المسجد، أو يصلي الضحى، ثم حيل بينه وبين ذلك، **(كَتبَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً)** بسبب ما في قلبه من الهم والنية الصالحة، والعقيدة الطيبة.

(وَإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ)؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

(إلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ) الأصل أن الحسنة بعشر أمثالها، لكن قد يتفاوت العمال فيضاعف الله عَزَّوَجَلَّ لهم الحسنات إلى سبعمائة ضعف.

(إلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ) أكثر من ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

(وإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلةً)؛ لأنه تركها لله، كما برواية: «**فإنما تركها من جرائي**»، وأما من عزم على السيئة واستحكمت في قلبه ثم خرج لها وإنما حيل بينه وبينها بشيء من الموانع تكتب سيئة؛ لأنه ما تركها، وإنما حيل بينه وبينها، أما من تركها لله كُتبت له حسنة كاملة.

(وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) وهذا دليل على فضل الله وعفوه، فإن الحسنة يضاعفها لمن يشاء، والسيئة إنما هي سيئة واحدة لا تضاعف، ومع ذلك قال بعض السلف: الويل لمن غلبت سيئاتُه حسناته، مع أن الحسنة تضاعف والسيئة لا تضاعف ويأتي يوم القيامة وسيئاته أكثر من حسناته، نسأل الله السلامة.

والشاهد من الحديث: أن من هم بالخير كتب له خير، ومن هم بالشر وتركه لله كتب له خير، وأيضا اللفظ الآخر: «**إنما تركها من جرائي**» دليل على الإخلاص.

* **قلت في شرحي على "صحيح مسلم":**

قال الحافظ في "فتح الباري": قال الطوفي: إنما كتبت الحسنة بمجرد الإرادة؛ لأن إرادة الخير سبب إلى العمل، وإرادة الخير خير؛ لأن إرادة الخير من عمل القلب، واستشكل بأنه إذا كان كذلك فكيف لا تضاعف؛ لعموم قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [سورة الأنعام:١٦٠] ؟ وأجيب بحمل الآية على عمل الجوارح، والحديث على الهم المجرد، واستشكل أيضاً بأن عمل القلب إذا اعتبر في حصول الحسنة فكيف لم يعتبر في حصول السيئة؟ وأجيب بأن ترك عمل السيئة التي وقع الهم بها يكفرها؛ لأنه قد نسخ قصده السيئة وخالف هواه، ثم إن ظاهر الحديث حصول الحسنة بمجرد الترك، سواء كان ذلك لمانع أم لا، ويتجه أن يقال: يتفاوت عظم الحسنة بحسب المانع، فإن كان خارجيا مع بقاء قصد الذي هم بفعل الحسنة فهي عظيمة القدر، ولا سيما إن قارنها ندم على تفويتها، واستمرت النية على فعلها عند القدرة، وإن كان الترك من الذي هم من قبل نفسه فهي دون ذلك، إلا إن قارنها قصد الإعراض عنها جملة والرغبة عن فعلها، ولا سيما إن وقع العمل في عكسها، كأن يريد أن يتصدق بدرهم مثلا فصرفه بعينه في معصية، فالذي يظهر في الأخير أن لا تكتب له حسنة أصلا، وأما ما قبله فعلى الاحتمال.

قال: واستدل بقوله: «**حسنة كاملة**» على أنها تكتب حسنة مضاعفة؛ لأن ذلك هو الكمال، لكنه مشكل يلزم منه مساواة من نوى الخير بمن فعله في أن كلا منهما يكتب له حسنة، وأجيب بأن التضعيف في الآية يقتضي اختصاصه بالعامل؛ لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، والمجيء بها هو العمل، وأما الناوي فإنما ورد أنه يكتب له حسنة، ومعناه يكتب له مثل ثواب الحسنة، والتضعيف قدر زائد على أصل الحسنة، والعلم عند الله. اهـ.

والله أعلم بحال العبد، إلا أنه لحكمته البالغة قد جعل الملائكة تخبره بهذا.

قال النووي: وهذا ظاهر حسن لا مزيد عليه، وقد تظاهرت نصوص الشريعة بالمؤاخذة على عزم القلب المستقر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ [سورة النور:١٩] الآية، وقوله: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [سورة الحجرات:١٢]، وغير ذلك.

وقال بن الجوزي: إذا حدث نفسه بالمعصية لم يؤاخذ، فإن عزم وصمم زاد على حديث النفس، وهو من عمل القلب.

قال: والدليل على التفريق بين الهم والعزم: أن من كان في الصلاة فوقع في خاطره أن يقطعها لم تنقطع، فإن صمم على قطعها بطلت، وأجيب عن القول الأول: بأن المؤاخذة على أعمال القلوب المستقلة بالمعصية لا تستلزم المؤاخذة على عمل القلب بقصد معصية الجارحة إذا لم يعمل المقصود؛ للفرق بين ما هو بالقصد وما هو بالوسيلة.

قال: وقسم بعضهم ما يقع في النفس أقساما يظهر منها الجواب عن الثاني، أضعفها: أن يخطر له ثم يذهب في الحال، وهذا من الوسوسة، وهو معفو عنه، وهو دون التردد وفوقه، أن يتردد فيه فيهم به ثم ينفر عنه فيتركه، ثم يهم به ثم يترك كذلك، ولا يستمر على قصده، وهذا هو التردد، فيعفى عنه أيضـًا، وفوقه أن يميل إليه ولا ينفر عنه، لكن لا يصمم على فعله، وهذا هو الهم فيعفى عنه أيضا، وفوقه أن يميل إليه ولا ينفر منه بل يصمم على فعله، فهذا هو العزم، وهو منتهى الهم، وهو على قسمين:

القسم الأول: أن يكون من أعمال القلوب صرفا كالشك في الوحدانية أو النبوة أو البعث، فهذا كفر ويعاقب عليه جزما، ودونه المعصية التي لا تصل إلى الكفر، كمن

يحب ما يبغض الله، ويبغض ما يحبه الله، ويحب للمسلم الأذى بغير موجب لذلك، فهذا يأثم، ويلتحق به الكبر والعجب، والبغي والمكر، والحسد، وفي بعض هذا خلاف، فعن الحسن البصري: أن سوء الظن بالمسلم وحسده معفو عنه، وحملوه على ما يقع في النفس مما لا يقدر على دفعه، لكن من يقع له ذلك مأمور بمجاهدته النفس على تركه.

والقسم الثاني: أن يكون من أعمال الجوارح، كالزنا والسرقة، فهو الذي وقع فيه النزاع، فذهبت طائفة إلى عدم المؤاخذة بذلك أصلا، ونقل عن نص الشافعي، ويؤيده ما وقع في حديث خريم بن فاتك المنبه عليه قبل، فإنه حيث ذكر الهم بالحسنة قال: علم الله أنه أشعرها قلبه وحرص عليها- وحيث ذكر الهم بالسيئة لم يقيد بشيء، بل قال فيه: «**ومن هم بسيئة لم تكتب عليه**»، والمقام مقام الفضل، فلا يليق التحجير فيه، وذهب كثير من العلماء إلى المؤاخذة بالعزم المصمم، وسأل ابن المبارك سفيان الثوري: أيؤاخذ العبد بما يهم به؟ قال: إذا جزم بذلك، واستدل كثير منهم بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [سورة البقرة:٢٢٥]، وحملوا حديث أبي هريرة الصحيح المرفوع: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم**» على الخطرات كما تقدم.

قال: ثم افترق هؤلاء، فقالت طائفة: يعاقب عليه صاحبه في الدنيا خاصة بنحو الهم والغم، وقالت طائفة: بل يعاقب عليه يوم القيامة، لكن بالعتاب لا بالعذاب، وهذا قول ابن جريج، والربيع بن أنس، وطائفة ونسب ذلك إلى ابن عباس أيضا، واستدلوا بحديث النجوى الماضي شرحه في باب ستر المؤمن على نفسه من كتاب الأدب، واستثنى جماعة ممن ذهب إلى عدم مؤاخذة من وقع منه الهم بالمعصية ما يقع في الحرم المكي ولو لم يصمم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ

نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الحج:٢٥]، ذكره السدي في (تفسيره) عن مرة، عن ابن مسعود، وأخرجه أحمد من طريقه مرفوعا، ومنهم من رجحه موقوفًا، ويؤيد ذلك أن الحرم يجب اعتقاد تعظيمه، فمن هم بالمعصية فيه خالف الواجب بانتهاك حرمته.

قال: وتعقب هذا البحث بأن تعظيم الله آكد من تعظيم الحرم، ومع ذلك فمن هم بمعصيته لا يؤاخذه، فكيف يؤاخذ بما دونه؟ ويمكن أن يجاب عن هذا: بأن انتهاك حرمة الحرم بالمعصية تستلزم انتهاك حرمة الله؛ لأن تعظيم الحرم من تعظيم الله، فصارت المعصية في الحرم أشد من المعصية في غيره، وإن اشترك الجميع في ترك تعظيم الله تعالى نعم من هم بالمعصية قاصدا الاستخفاف بالحرم وعصى، ومن هم بمعصية الله قاصدا الاستخفاف بالله كفر، وإنما المعفو عنه من هم بمعصية ذاهلا عن قصد الاستخفاف، وهذا تفصيل جيد ينبغي أن يستحضر عند شرح حديث: «لا يزني الزاني وهو مؤمن». اهـ من "الإبهاج".

١٢ – وعن أبي عبد الرحمان عبدِ الله بنِ عمرَ بن الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «انطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ المَبيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخلُوهُ، فانْحَدرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقالُوا: إنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ إلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللهَ بصَالِحِ أعْمَالِكُمْ، قَالَ رجلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كبيرانِ، وكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أهْلًا ولَا مالًا، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فلم أَرِحْ عَلَيْهِما حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَينِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أو مالًا، فَلَبَثْتُ – والْقَدَحُ عَلَى يَدِي – أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فاسْتَيْقَظَا فَشَرِبا غَبُوقَهُما، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ

ذلِكَ ابِتغَاء وَجْهِك فَفَرِّجْ عَنّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ، فانْفَرَجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطيعُونَ الخُروجَ مِنْهُ.

قَالَ الآخر: اللَّهُمَّ إنَّهُ كانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمّ، كَانَتْ أَحبَّ النّاسِ إليَّ - وفي رواية: كُنْتُ أُحِبُّها كأشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النساءَ - فأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فامْتَنَعَتْ منِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمئة دينارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْني وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَينَ رِجْلَيْهَا، قالتْ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاّ بِحَقِّهِ، فَانصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أعْطَيْتُها، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابْتِغاءَ وَجْهِك فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيهِ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وأَعْطَيْتُهُمْ أجْرَهُمْ غيرَ رَجُل واحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهبَ، فَثَمَّرْتُ أجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءنِي بَعدَ حِينٍ، فَقالَ: يَا عبدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أجْرِكَ: مِنَ الإبلِ وَالبَقَرِ والْغَنَمِ والرَّقيقِ، فقالَ: يَا عبدَ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِىءْ بِي! فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاسْتَاقَهُ فَلَمْ يتْرُكْ مِنهُ شَيئًا، اللَّهُمَّ إنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذلِكَ ابِتِغاءَ وَجْهِك فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحنُ فِيهِ، فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ». مُتَّفَقٌ عليهِ [(١)].

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) (١٠٠).

(أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا) وهو أحد العبادلة، وأحد المكثرين عن رسول الله ﷺ، ومن أكثر المتابعين لرسول الله ﷺ، وفضائله مشهورة، وفي غير ما كتاب مذكورة.

هذا الحديث مما قصه النبي ﷺ من قصص الأنبياء أو قصص بني إسرائيل قبلنا، وله طرق غير هذه، فقد جاء عن أنس، وعن النعمان بن بشير، وعن غيرهم بألفاظ متقاربة.

ما جاء من أخبار بني إسرائيل فإن كان في كتاب ربنا وفي صحيح سنة نبينا ﷺ فهو مقبول، وما كان مخالفًا لكتاب ربنا ومخالفًا لسنة نبينا ﷺ فهو مردود، وما كان ليس في كتاب ربنا ولا في سنة نبينا ﷺ ولم تُر فيه مخالفة فالحال كما قال النبي ﷺ: «**لا تصدقوهم ولا تكذبوهم**»، والحال «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**».

قال: (انطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) ثلاثة أشخاص، أفراد.

(حَتَّى آوَاهُمُ المَبيتُ إلى غَارٍ فَدَخلُوهُ) والغار: حجرة جوفاء تكون في عرض جبل، أو ربما كان الجبل مجوفا.

(فانْحَدرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ) بسبب المطر ونحوه.

(فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ) حتى لم يتمكنوا من الخروج، وليس هنالك تلفونات ولا شيء من ذلك بحيث يستطيعون الاتصال، ولكنهم استخدموا أعظم الأسباب الشرعية، ألا وهو الدعاء.

(فَقالُوا: إنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ إلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللهَ بصَالِحِ أعْمَالِكُمْ) وهذا يسمى عند أهل العلم التوسل بالعمل الصالح، فإن التوسل المشروع ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توسل بالعمل الصالح؛ لما في هذا الحديث.

وتوسل بدعاء الرجل الصالح، كقول النبي ﷺ لعمر في أويس القرني: «**فَإِذَا لَقِيتَهُ فَسْأَلْهُ يَسْتَغْفِرْ لَكَ يَا عُمَرُ**»، وما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم من المجيء إلى النبي ﷺ وسؤال الدعاء منه، وهكذا استسقاء الصحابة بالعباس حين طلبوا منه الدعاء.

والثالث: التوسل بأسماء الله وصفاته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

وأما التوسل الممنوع فهو ينقسم إلى قسمين: بدعي وشركي.

أما البدعي: فهو التوصل بذات النبي ﷺ، أو بجاهه، أو بحقه، أو بمنزلته، أو بغيره من الصالحين، فإن هذا من البدع المحدثة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم لو كان التوسل بحق النبي ﷺ وبجاهه جائز لما توسلوا بالعباس وقالوا: قم يا عباس ادع الله، ولا توسلوا بذات النبي صل الله عليه وسلم وهو عندهم، ولا تأكله الأرض.

وأما التوسل الآخر الشركي: فهو دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا باب ينبغي أن يحقق، وقد ألف فيه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتابا في ذلك، ولشيخ الإسلام كتاب (التوسل والوسيلة) في ذلك، وأما الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد وقعت له زلة في كتابه (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) مؤداها إلى أنه يجوز التوسل بحق الصالحين، وهذا قول مردود عليه، وقد سُبق إليه، إلا أن الصحيح أن هذا من البدع.

وما جاء أن النبي ﷺ قال لذلك الرجل الذي سأله أن يدعو له أن يرد الله عليه بصره قال: «**قم وتوضأ ثم صلي ركعتين، وقل: اللهم إني أتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى الله أن يرد الله علي بصري**» الحديث بمعناه وله طرق، فتوجيه أهل العلم له: أن النبي ﷺ سأله أن يدعو الله في قبول الله لدعاء رسول الله ﷺ، فكلهم دعا الله، النبي ﷺ وذلك الصحابي، وأما لفظة: «**وإذا حصل لك**

شيء فافعل كما صنعت في هذه» أو نحو هذا فهي لفظة منكرة، حكم عليها أهل العلم بالرد.

(قَالَ رجلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبوانِ شَيْخَانِ كبيرانِ) وفيه فضيلة بر الوالدين، لا سيما عند كبرهما، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [سورة الإسراء: ٢٤].

وفيه أن الأب هو الذكر، والأم هي الأنثى، لكن على التغليب، يقال: الأبوان والعمران، والقمران، وهكذا.

(وكُنْتُ لا أغْبِقُ قَبْلَهُمَا أهْلًا ولَا مالًا) أي: لا أناول الحليب أحدا قبلهما، وذلك لبره بهما، ولإحسانه إليهما، والأخذ بخاطرهما، والمراد بالمال هنا: العبيد، ما يقول قائل: كيف يسقي غيرهما؟ أو ربما لا يسقي الغنم الصغار.

(فَنَأَى بِي طَلَب الشَّجَرِ يَوْمًا) أي ذهب للرعي فبعد.

(فلم أَرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا) أي تأخر في الرجوع، ووجدهما نائمين.

(فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا) كما كان يفعل في كل يوم.

(فَوَجَدْتُهُما نَائِمَينِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا) ولو أيقظهما لما أساء بمعنى أنه يأثم؛ لأنه أيقظهما لمصلحتهما، ولكن لكمال بره رأى أن إيقاظهما سيؤدي إلى قلق عليهما، أو إلى قطع نومهما، وهذا من كمال البر.

(وَأَنْ أغْبِقَ قَبْلَهُمَا أهْلًا أو مالًا) أيضا كره أن يناول صبيانه ذلك اللبن لشربه وأبوه وأمه نائمان، لم يذوقا بعد.

(فَلَبَثْتُ - والْقَدَحُ عَلَى يَدِي - أَنتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ) وهذا غاية البر، وإلا كان بإمكانه أن يضع القدح ويغطيه وينام، لكنه أراد أن يقوم ويناولهما هو بنفسه.

(والصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَميَّ) أي: يطلبون العشاء، ويطلبون الشراب.

(فاسْتَيْقَظَا فَشَرِبا غَبُوقَهُما) ثم ناول صبيانه.

(اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابتِغَاء وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ) فيه إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وفيه عظيم ثمرة الإخلاص.

(قَالَ الآخر: اللَّهُمَّ إنَّهُ كانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمّ، كَانَتْ أَحَبَّ النّاسِ إليَّ - وفي رواية كُنْتُ أُحِبُّها كأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النساءَ) جاء في بعض الروايات: أنها كانت مزوجة وأنها استأذنت زوجها؛ لضيق حالها، وغير ذلك، وأنه طلبت منه شيئا مما ترفع به حاجتها وحاجة أبنائها فأبى.

(فأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فامْتَنَعَتْ) أي: راودها على نفسها، وقال: أعطيك مقابل أن تمكنيني من نفسك.

(حَتَّى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ) أي: فذهبت تبحث عن مال فما وجدت، حتى ألجئت إلى هذا الأمر.

(فَجَاءتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئةَ دينَارٍ) أي من الذهب، والدينار: أربعة جرامات.

(عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفعَلَتْ) فيه الكنايات، فإن الألفاظ المستقبحة ينبغي أن يكنى عنها، فعلت لا فعل المحب لذلك الأمر، ولكن فعل الكاره، ولكنها حصل لها حالة اضطرار ألجأتها إلى هذا الأمر المستقبح.

(حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا) أي: تمكنت منها بتمكينها لنفسها.

(فَلَمَّا قَعَدْتُ بَينَ رِجْلَيْهَا) أي: كما يقعد الرجل بين رجلي زوجته.

(قالتْ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاّ بِحَقِّهِ) ذكرته بالله عَزَّوَجَلَّ، وتقوى الله: هي مراقبة الله في السر والعلن، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [سورة الطلاق: ٢]، وانظروا إلى تقوى الله وعظم شأنها، لما اتقى الله في هذا الأمر جعل الله له مخرجا من الصخرة.

قال العلماء: كيف في بعض الروايات أنها كانت مزوجة وهذه الرواية تشعر أنها كانت بكرا؟ قيل: لا خلاف بين الروايات، فإنها كأنها تقول له: لا يجوز لك أن تأتي هذا الأمر إلا أن يكون حلالا لك.

(فَانصَرَفْتُ عَنْهَا وَهيَ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ) فيه عظم مراقبة هذا الرجل لله عَزَّوَجَلَّ فإن هذا موطن قد لا يسلم فيه إلا من سلمه الله عَزَّوَجَلَّ، فهو موطن يضعف فيه الرجل إلى أبعد الحدود، والله المستعان.

(وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أعْطَيْتُها)؛ كفارة لذنبه، وربطا على قلبها.

(وَقَالَ الثَّالِثُ) وكان مزارعا: **(اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ)** الأجراء: عمال، يعملون من الصباح إلى المساء وعلى ما يتفقون عليه.

(غيرَ رَجُلٍ واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهبَ) ذُكر في بعض الروايات أن هذا الرجل كان يعمل عملا شديدا بعمل رجلين، فلما جاء المساء ناوله كما يناول غيره، فقال له: أما رأيت عملي؟ قال: أعطيك ما شارطتك عليه، فترك الرجل ماله من المال حنقا وزعلا وذهب، وهذا الرجل كان لا يلزمه غير هذا المال، لكن لكمال تقواه قال:

(فَثمَّرْتُ أجْرَهُ) وكان عبارة عن شيء من الأرز، فرق من الأرز، أو شيء من ذلك كما جاء في بعض الروايات.

(حَتَّى كَثُرَتْ مِنهُ الأمْوَالُ) زرع وحصد، ثم حافظ عليه من التلف، ثم يشتري به غنما، ثم بقرا، ثم عبيدا، ثم ثم ثم، حتى كثرت منه الأموال، وهذا قد لا يعمله الإنسان لنفسه، وهذا عمله لعاملا من العمال، وهذا يدل على مراقبته لله.

(فَجَاءنِي بَعدَ حِينٍ) أي ضاقت حاله، واحتاج إلى هذا الشيء اليسير.

(فَقالَ: يَا عبدَ اللهِ) فيه أن الإنسان الذي لا تعرفه ناده بياعبد الله، لا كما يفعل بعضهم الآن في بلاد الحرمين وبلاد الخليج أنهم يقولون: يا محمد، لمن لا يعرفوه يقولون: يا محمد، هذا ما هو صحيح.

(لَا تَسْتَهْزِىءْ بي) فيه قبح الاستهزاء بالغير، فإن الإنسان لا يستهزئ، سواء كان جميلا فلا يستهزئ بمن دونه في الجمال، كان غنيا فلا يستهزئ بمن دونه في الغنى، فالأمر لله.

(فانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ) وهذا من الفرج بعد الشدة، والله المستعان.

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٥١٠): وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الدُّعَاءِ فِي الْكَرْبِ وَالتَّقَرُّبُ إِلَى الله تَعَالَى بِذِكْرِ صَالِحِ الْعَمَلِ وَاسْتِنْجَازُ وَعْدِهِ بِسُؤَالِهِ وَاسْتَنْبَطَ مِنْهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ اسْتِحْبَابَ ذِكْرِ ذَلِكَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَاسْتَشْكَلَهُ الْمُحِبُّ الطَّبَرِيُّ لِمَا فِيهِ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَمَلِ وَالِاحْتِقَارُ عِنْدَ السُّؤَالِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ أَوْلَى لِأَنَّهُ مَقَامُ التَّضَرُّعِ وَأَجَابَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْغَارِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْفِعُوا بِأَعْمَالِهِمْ وَإِنَّمَا سَأَلُوا اللهَ إِنْ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ خَالِصَةً وَقُبِلَتْ أَنْ يَجْعَلَ جَزَاءَهَا الْفَرَجُ عَنْهُمْ فَتَضَمَّنَ جَوَابُهُ تَسْلِيمَ السُّؤَالِ لَكِنْ بِهَذَا الْقَيْدِ وَهُوَ حَسَنٌ وَقَدْ تَعَرَّضَ النَّوَوِيُّ لِهَذَا فَقَالَ فِي كِتَابِ الْأَذْكَارِ بَابُ دُعَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَوَسُّلِهِ بِصَالِحِ عَمَلِهِ إِلَى اللهِ وَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ وَنَقَلَ عَنِ الْقَاضِي حُسَيْنٍ وَغَيْرِهِ اسْتِحْبَابَ ذَلِكَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ ثُمَّ قَالَ وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ فِيهِ نَوْعًا مِنْ تَرْكِ الِافْتِقَارِ الْمُطْلَقِ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَثْنَى عَلَيْهِمْ بِفِعْلِهِمْ فَدَلَّ عَلَى تَصْوِيبِ فِعْلِهِمْ وَقَالَ السُّبْكِيُّ الْكَبِيرُ ظهر لي أَن الضَّرُورَة قد تلجىء إِلَى تَعْجِيل جَزَاءِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا وَأَنَّ هَذَا مِنْهُ ثُمَّ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ رُؤْيَةُ عَمَلٍ بِالْكُلِّيَّةِ لِقَوْلِ كُلٍّ مِنْهُمْ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِك فَلَمْ يَعْتَقِدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي عَمَلِهِ الْإِخْلَاصَ بَلْ أَحَالَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ فَإِذَا لَمْ يَجْزِمُوا بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ مَعَ كَوْنِهِ أَحْسَنَ أَعْمَالِهِمْ فَغَيْرُهُ أَوْلَى فَيُسْتَفَادُ

مِنْهُ أَنَّ الَّذِي يَصْلُحُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَعْتَقِدَ الشَّخْصُ تَقْصِيرَهُ فِي نَفْسِهِ وَيُسِيءَ الظَّنَّ بِهَا وَيَبْحَثَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ عَمَلِهِ يَظُنُّ أَنَّهُ أَخْلَصَ فِيهِ فَيُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ وَيُعَلِّقُ الدُّعَاءَ عَلَى عِلْمِ اللهِ بِهِ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِذَا دَعَا رَاجِيًا لِلْإِجَابَةِ خَائِفًا مِنَ الرَّدِّ فَإِنْ لَمْ يَغْلِبْ عَلَى ظَنِّهِ إِخْلَاصُهُ وَلَوْ فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ فَلْيَقِفْ عِنْدَ حَده ويستحي أَنْ يَسْأَلَ بِعَمَلٍ لَيْسَ بِخَالِصٍ قَالَ وَإِنَّمَا قَالُوا ادْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ عِنْدَ الدُّعَاءِ لَمْ يُطْلِقُوا ذَلِكَ وَلَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَدْعُوكَ بِعَمَلِي وَإِنَّمَا قَالَ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ ثُمَّ ذَكَرَ عَمَلَهُ انْتَهَى مُلَخَّصًا. اهـ

٢- باب التوبة

والتوبة فرض وواجبة من جميع الذنوب، وهي على الفور، لا ينبغي للعبد أن يسوفها، وقد أمر الله بها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [سورة التحريم: ٨]، وقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة النور: ٣١]، إلى غير ذلك مما يأتي بيانه.

ولها شروط ذكر النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعضها، وقد كتبت فيها رسالة في شروطها.

*** قلت في كتابي "شروط التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ":**

وللتوبة المقبولة عند الله عَزَّوَجَلَّ شروط وهي:

أولًا: توبة العبد من الذنب الذي بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ:

كأن يكون تارك صلاة وغيرها من المعاصي التي لا تتعلق بحق آدمي فهذه لها خمسة شروط وهي:

١- **الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ**: أن يتوب الله عليه ويتجاوز عما فعل من المعصية لا يقصد بذلك مراءاة الناس والتقرب إليهم، ولا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة، وأن يعفو الله عن ذنوبه، يدل على ذلك حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ»(١)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ ولقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]، والتوبة عبادة يجب فيها الإخلاص كغيرها من العبادات وإن لم يخلص فيها لله ردت على صاحبها لقوله تعالى في الحديث

---

(١) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

القدسي: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِىٰ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

٢- **الإقلاع عن المعصية التي هو فيها**، والإقلاع عن الذنب يكون بحسبه، فإن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع عنه بفعله، وإن كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يقلع عنه فورًا ولا يبقى فيه لحظة، ويدل على ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾[الفرقان:٦٨]، إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٧٠]، وهذا الشرط يدخل عليه كما قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم) (٧/ ٧٠): فبيانه أنه يخرج منه من زنى ثم قطع ذكره فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنا. اهـ

٣- **الندم على فعل المعصية**؛ لأن الشعور بالذنب هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة، وقديمًا قيل: التوبة ندم، قال الله تعالى مُخبراً عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[القصص:١٦]، وقال مُخبراً عن يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧].

٤- **العزم على عدم العود إلى هذه المعصية**: لا يشكل على ذلك؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الآنف الذكر في المقدمة: «**قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»(٢)، فليس في الحديث أن الرجل حين يتوب وهو عازم على العود، ولكنه كان يتوب توبة صادقة مستوفية الشروط ثم تغلبه نفسه وشهوته وشيطانه ويعود في الذنب وهكذا، والله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٨)، تقدم.

أعلم.

٥- **أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة**، والزمن الذي لا تقبل فيه التوبة يكون باعتبارين:

الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه.

الثاني: باعتبار العموم.

أما الأول: فإن تكون التوبة قبل حلول الأجل؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾[النساء:١٧-١٨].

ثانيًا: توبة العبد في حقوق الآدميين:

توبة العبد من ذهب بينه وبين من سواه من العبيد، أخرج مسلم في (صحيحه) (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ»؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره في الصحيح[1]: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»، وفي حديث أبي بكرة في الصحيحين[(١)]: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»، وفي حديث ابن عمر: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أخرجه الشيخان[(٢)].

وجاء في (صحيح مسلم) (٢٥٨٢) عن أبي هريرة مرفوعًا: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»، وفي حديث أسامة بن شريك عند البخاري في (الأدب المفرد) (٢٩١): «يَا عِبَادَ اللهِ، وَضَعَ اللهُ الْحَرَجَ، إِلَّا امْرَءًا اقْتَرَضَ امْرَءًا ظُلْمًا فَذَاكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ».

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ»[(٣)]، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»، أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين عظم انتهاك الحقوق، فهل يكفي في التوبة من حقوق الآدميين ما مر في البند الأول، أم هنالك شروط زائدة؟

الجواب: هنالك شرط سادس على ما تقدم وهو التحلل من هذه المظالم التي وقع فيها العبد؛ لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة.

قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في (رياض الصالحين) (١٤) حين ذكر الثلاثة الشروط: وإن كانت المعصيةُ تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يَبْرَأَ من حق صاحبها،

---

(١) البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) واللفظ له.
(٢) البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٨) واللفظ له.
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٤٩).

فإن كانت مالاً أو نَحوَهُ رَدَهُ، وإن كانت حَدَّ قَذْفٍ ونحوه مَكَّنَه منه أو طلب عَفْوَه، وإن كانت غيبةَ استحلَّه منها. اهـ

قال صاحب (مكفرات الذنوب وموجبات الجنة) (٢٧): وأجمع العلماء على أن التوبة واجبة من كل ذنب.

فإن كانت معصية بين العبد وبين الله تعالى، فلا تتعلق بحق آدمي، فلها شروط ثلاثة:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

الثاني: أن يندم على فعلها.

الثالث: أن يندم على ألا يعود إليها أبدًا.

فإن كانت معصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة المتقدمة.

والرابع: أن يبرأ من حق صاحبها.

فإن كان مالًا، أو نحوه رده إليه. وإن كان غيبة استحله منها.

وإن كان حد قذف، أو نحوه مكنه من القصاص أو طلب عفوه.

والتوبة واجبة على الفور من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته مما تاب منه، وبقي عليه ما لم يتب منه. اهـ

لكن قد يسرق الرجل مالًا أو يأخذ ماله فإن اختبار إعطاء المال أعطاه ماله حتى يتخلص من تبعات الحقوق، وهذه فتوى شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى وغيره من أهل العلم.

ثالثًا: توبة الكافر

يشترط لها قبل ما تقدم من الشروط: الإسلام، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[الأنفال:٣٨]، وفي حديث النبي ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَةَ عَبْدٍ أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ»[1].

قال ابن كثير (٤/ ٤٨) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، أي: وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ: ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، أَيْ: مِنْ كُفْرِهِمْ، وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ، لَمْ يُؤَاخذ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ، أخذ بالأول والآخر»[2]، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا»[3]. اهـ

رابعًا: توبة المنافق

يشترط لها ما تقدم من الشروط في توبة العبد فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك ما في شروط توبة الكافر مع زيادة ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾[النساء:١٤٥-١٤٦].

دلت الآية على أن توبة المنافق لها شروط زائدة على ما تقدم منها:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٥٣)، عن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٠).

(٣) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في (السلسلة الضعيفة) (٣/ ١٤) تحت رقم (١٠٣٩): لا أعرف له أصلًا خلافًا لما يشعره صنيع الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾[مريم:٦٠]... الخ.

١- الإصلاح في القول والفعل والمعتقد.

٢- الاعتصام بالله عَزَّوَجَلَّ وجعله ملجأً وملاذًا له.

٣- الإخلاص في أقواله وأعماله لله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) (٢/ ٤٤٢): ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وقَبِلَ نَدَمَهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصۡلَحُوا۟ وَٱعۡتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُوا۟ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾[النساء:١٤٦]، أَيْ: بَدَّلوا الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنَّ قَلَّ...... ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أَيْ: فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. اهـ

القول في توبة الزنديق:

وقد اختلفوا في توبة الزنادقة –أي: المنافقين– إلى قولين مشهورين ذكرهما شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المجموع) (٣٥/ ١١٠) فقال: لَكِنَّ الْعُلَمَاءَ لَهُمْ قَوْلَانِ فِي الزِّنْدِيقِ إذَا أَظْهَرَ التَّوْبَةَ: هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ فَلَا يُقْتَلُ؟ أَمْ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ صِدْقَهُ؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَ يَظْهَرُ ذَلِكَ؟ فَأَفْتَى طَائِفَةٌ بِأَنَّهُ يُسْتَتَابُ فَلَا يُقْتَلُ وَأَفْتَى الْأَكْثَرُونَ بِأَنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ. اهـ

خامسًا: توبة المبتدع

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَـٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلۡكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصۡلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[البقرة:١٥٩-١٦٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية (١/ ٣٤٢): هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرسلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ وَالْهُدَى النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ اللهُ –تَعَالَى –لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ، التِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ. اهـ

قلت: وهذا هو ما جاء به الرسول ﷺ، أما بعد بث العلم بين الناس لعلمهم أنه يقوض ما هم عليه من الباطل أو بكتم المعاني الحقة التي هي المرادة من الكتاب والسنة إلى معاني غير مراده، وليس فيها ثمة هداية للمجتمع، وإنما فيها البعد عن علم الكتاب والسنة الهدى النافع للقلوب، وأهل البدع ضررهم على الدين غير خاف على كثير من المستبصرين.

القول في قبول توبة المبتدع من عدمها:

واعلم أن للعلماء قولين في قبول توبة المبتدع من عدمها:

الأول: قول جماهير العلماء بقبول توبة المبتدع؛ لعموم أدلة قبول التوبة إذا توفرت فيها الشرائط منها قول الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزمر:٥٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر:٣].

ومنها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:١١].

والقول الثاني: ذهب مجموعة من السلف إلى عدم قبول توبة المبتدع، واستدلوا بما أخرجه ابن عاصم في السنة (٢١)، وصححه الألباني[١] رحمهما الله: عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَجَزَ - أَوْ قَالَ: حَجَبَ - التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»، ومثل حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٧٥٦٢) واللفظ له، ومسلم

(١) انظر (سلسلة الأحاديث الصحيحة) (٤/ ١٥٤) تحت رقم (١٦٢٠)

(١٠٦٤) وفيه عن الخوارج: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ»، قالوا: وقوله: « ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ» دليل على عدم توبتهم، ومن في حكمهم من أهل البدع، ومما رويَّ عن السلف في ذلك: قول الحسن البصري: أبى الله لصاحب بدعة توبة، أخرجه ابن وضاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البدع والنهي عنها) (١٤٥)، وقول عطاء الخرساني عند اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٥٩): ما يكاد الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة، وعن أبي عمرو الشيباني نحوه عند ابن وضاح في (البدع والنهي عنها) (١٤١)، وقول سفيان الثوري عند اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٥٤): المسلمون كلهم عندنا على حالة حسنة إلا رجلين: صاحب بدعة، أو صاحب سلطان، وغيره: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. [اهـ بتصرف من كتابي "شروط التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ"].

قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لَا تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أَحَدُها: أَنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ فِي الحال.

والثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

والثَّالِثُ: أَنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا.

فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

الشرح:

إلا أن بعض أهل العلم يزيد فيقول: شروطها خمسة، الأول: الإخلاص؛ لأنها عبادة، الثاني: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة، أي: قبل أن تغرغر، وقبل أن تطلع

الشمس في مغربها، ثم يذكر هذه الشروط، هذا إذا كان الذنب فيما بين العبد وبين الله، أما إذا كان الذنب فيما بين العباد أنفسهم فيزاد إليها شرط رابع:

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلَّقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِها، فَإِنْ كَانَتْ مالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا.

الشرح:

هذه مسألة اختلف فيها العلماء، والصحيح أنه يستغفر له، إلا إذا بلغته فإنه يتحلل، وإلا لا يجمع له بين شؤم قيمته وشؤم الاستحلال منه بما يؤدي إلى قسوة قلبه.

ومعنى **(أَنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ)** يعني: لا يستمر في معصيته ويقول: أنا تائب، هذا متلاعب.

ومعنى **(أَنْ يَنْدَمَ)** أي: لا يتبجح بها: والله أنا فعلت كذا، وصلحت كذا، هذا معناه أنه راضي بالمعصية.

ومعنى **(أَنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا)**: حتى لا يكون مريدا لها، متشبثا بها، لكن هل يلزم في قبول التوبة ألا يعود إليها مطلقا؟ هذا ذهب إليه بعضهم، وفسر به قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [سورة التحريم: ٨] قال: هي التوبة التي لا يعود إلى الذنب بعدها، والصحيح أن التوبة النصوح: هي ما استوفت الشروط، وأما العودة إلى الذنب فقد يُغلب الإنسان، وفي حديث أبي هريرة وسيأتي قال النبي ﷺ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ**» وهكذا ثلاثا ثم قال: «**اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**».

فإذا كان الذنب بدعة يضاف إلى هذه الشروط الخمسة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [سورة البقرة: ١٦٠]: الإصلاح والبيان، إصلاح ما أفسد، والبيان للناس أنه كان على خطأ وضلال؛ حتى لا يغتروا به.

وإن كان الذنب نفاقا فهذه الشروط الخمسة مع ما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٤٦]، يعتصم بالله بدل الاعتصام بأهل الباطل، ويخلص دينه لله بدل النفاق والرياء.

وإن كان الذنب كفرا فشرطه واحد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨].

ويجِبُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي.

الشرح:

(ويجِبُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ) سواء الصغيرة أو الكبيرة، إلا أن الذنوب الصغائر قد تكفرها ترك الكبائر، وتكفرها الصلاة والصيام، بخلاف الكبائر.

(فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي)؛ لأن هذه مسألة خلافية بين أهل العلم، فمن كان مثلا سارقا وزانيا ثم تاب من الزنا وبقي في السرقة ما يقال: بأن توبته من الزنا غير صحيحة، ويؤاخذ على ما فعل من الذنب.

وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلائِلُ الكتَابِ والسُّنَّةِ، وإِجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى وُجوبِ التَّوبةِ.

الشرح:

أي أن المسوف لها يأثم، ولهذا قال شيخ الإسلام وغيره: من سوف التوبة يجب عليه أن يتوب من التسويف، قال: وتجد كثيرا من الناس ربما يتوبون من الذنب

وينسون التوبة من التسويف، ولذلك قال: مثل هذا لا يذهبه إلا توبة عامة من جميع الذنوب، والمعاصي بين الحين والآخر.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **[سورة النور: ٣١]**.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ **[سورة هود: ٣]**.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ **[سورة التحريم: ٨]**.

الشرح:

(﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾) والأمر يفيد الوجوب.

(﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾) بهذه الآية استدل بعض أهل العلم إلى أنه يشترط في التوبة التلفظ، وكذلك حديث أنس: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي**»، قالوا: يشترط فيها اللفظ، كما بينه ابن مفلح في (الآداب الشرعية).

(**تَوْبَةً نَصُوحا**) أي: خالصًا، ذهب بعض أهل العلم إلى أن التوبة النصوح: ألا يعود إلى الذنب بعد ذلك، وقلنا: بأن هذا القول مرجوح، فإن الإنسان قد تغلبه نفسه أو شهوته، ويتسلط عليه شيطانه فيرجع إلى الذنب، ومع ذلك يجب عليه أن يتوب من ذنبه إذا وقع فيه.

١٣ - وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «واللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً». رواه البخاري(١).

الشرح:

في هذا الحديث فضل النبي ﷺ، وما عليه من ملازمة الاستغفار والتوبة، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد بشره بذلك كما قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [سورة الفتح: ١-٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [سورة الشرح: ١-٨].

ومع ذلك كان يلازم هذه الشعيرة؛ تعليما لأمته، وتعظيما لربه.

وفي الحديث جواز الحلف بغير استحلاف، والنبي ﷺ كان يفعل ذلك كثيرا؛ لتأكيد ما يتكلم به.

(لأَسْتَغْفِرُ اللهَ) وليس المراد به الاستغفار فقط مع بعد القلب وغفلة القلب، بل إن الاستغفار الممدوح هو ما توافق فيه القلب واللسان.

ودعوة الرسل قائمة على الاستغفار، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة هود: ٣]، ويا قوم استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا﴾، إلى غير ذلك.

---

(١) حديث رقم: (٦٣٠٧).

(**وأَتُوبُ إِلَيْه فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**) في حديث ابن عمر عند أبي داوود: أنه كان يقول في المجلس الواحد: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**» أكثر من مائة مرة، وبهذا يشعر أن العدد غير مراد، وإنما كان يستغفر كثيرًا.

قال الحافظ في "الفتح" (١١/ ١٠٢): **قال النووي**: .. وَمُحَصَّلُ جَوَابِهِ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِاشْتِغَالِهِ بِالْأُمُورِ الْمُبَاحَةِ مِنْ أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ أَوْ جِمَاعٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ رَاحَةٍ أَوْ لِمُخَاطَبَةِ النَّاسِ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَمُحَارَبَةِ عَدُوِّهِمْ تَارَةً وَمُدَارَاتِهِ أُخْرَى وَتَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْجُبُهُ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِذِكْرِ اللهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَمُشَاهَدَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ فَيَرَى ذَلِكَ ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَقَامِ الْعَلِيِّ وَهُوَ الْحُضُورُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ وَمِنْهَا أَنَّ اسْتِغْفَارَهُ تَشْرِيعٌ لِأُمَّتِهِ أَوْ مِنْ ذُنُوبِ الْأُمَّةِ فَهُوَ كَالشَّفَاعَةِ لَهُمْ وَقَالَ الْغَزَالِيُّ فِي الْإِحْيَاءِ كَانَ ﷺ دَائِمَ التَّرَقِّي فَإِذَا ارْتَقَى إِلَى حَالٍ رَأَى مَا قَبْلَهَا دُونَهَا فَاسْتَغْفَرَ مِنَ الْحَالَةِ السَّابِقَةِ وَهَذَا مُفَرَّعٌ عَلَى أَنَّ الْعَدَدَ الْمَذْكُورَ فِي اسْتِغْفَارِهِ كَانَ مُفَرَّقًا بِحَسَبِ تَعَدُّدِ الْأَحْوَالِ وَظَاهِرُ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ يُخَالِفُ ذَلِكَ وَقَالَ الشَّيْخُ السُّهْرَوَرْدِيُّ لَمَّا كَانَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَزَلْ فِي التَّرَقِّي إِلَى مَقَامَاتِ الْقُرْبِ يَسْتَتْبِعُ الْقَلْبَ وَالْقَلْبُ يَسْتَتْبِعُ النَّفْسَ وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَرَكَةَ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ أَسْرَعُ مِنْ نَهْضَةِ النَّفْسِ فَكَانَتْ خُطَا النَّفْسِ تَقْصُرُ عَنْ مَدَاهُمَا فِي الْعُرُوجِ فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ إِبْطَاءَ حَرَكَةِ الْقَلْبِ لِئَلَّا تَنْقَطِعَ عَلَاقَةُ النَّفْسِ عَنْهُ فَيَبْقَى الْعِبَادُ مَحْرُومِينَ فَكَانَ ﷺ يَفْزَعُ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ لِقُصُورِ النَّفْسِ عَنْ شَأْوِ تَرَقِّي الْقَلْبِ وَاللهُ أعْلَم. اهـ

١٤ - وعن الأَغَرِّ بنِ يسار المزنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ». رواه مسلم[(١)].

في الحديث الأول أخبر عن فعله، وفي الحديث الثاني أمر بالاستغفار وحض.

والمراد بالناس هنا أهل الإيمان، فهو من العام الذي يراد به الخصوص.

(تُوبُوا إِلَى اللهِ) أي: اتركوا الذنب وأقلعوا عنه، واستغفروا الله بلسان الحال والمقال، ومن أحسن أوقات الاستغفار في الفجر، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٧].

(فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) وهذه دعوة منه ﷺ إلى متابعته والتأسي به، وفيه جواز الإخبار بالعمل الصالح إذا لم يكن على سبيل الرياء والعجب.

١٥ - وعن أبي حمزة أَنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريِّ خادِمِ رسولِ الله ﷺ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ». مُتَّفَقٌ عليه[(٢)].

وفي رواية لمُسْلمٍ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أَيِسَ مِنْ رَاحلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً عِندَهُ، فَأَخَذَ بِخِطامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ».

الشرح:

---

(١) حديث رقم: (٢٧٠٢) (٤١) و (٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) (٧) و (٨).

(أبي حمزةَ أَنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريِّ، خادِمِ رسولِ الله ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) خدمه عشر سنين، وسيأتي بيانه، وأمه أم سليم، وهو من المكثرين في رواية حديث النبي ﷺ.

هذا حديث كما ترى أصله في الصحيحين، وقد جاء عن عدة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود وغيره.

يقول: (للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ) فيه إثبات صفة الفرح لله عَزَّوَجَلَّ، وهو فرح يليق بجلاله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١].

(بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ) فيه فضيلة التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(مِنْ أَحَدِكُمْ سَقطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أضلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ) فيه ضرب الأمثال؛ لإيضاح الفهم.

(سَقطَ عَلَى بَعِيرِهِ) أي: وجد بعيره، (وقد أضلَّهُ) أي: أضاعه.

(في أرضٍ فَلاةٍ) أي: في صحراء موحشة، ليس فيها بيوت ولا مساكن.

(وفي رواية لمُسْلمٍ: للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتوبةِ عَبْدِهِ) تقدم.

(حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ) فيه فضيلة التوبة، وأنها مطلوبة من العبد، وأنها مفرحه للرب، والله عَزَّوَجَلَّ لا يحب ولا يرضى ولا يفرح إلا بالأعمال الحسنة، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [سورة الزمر: ٧].

(فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ) وهذا حال شديد على الإنسان، يشعر أنه سينتهي ويموت.

(فأَيِسَ مِنْهَا) أي انقطع أمله برجوعها.

(فَأَتى شَجَرَةً فاضطَجَعَ في ظِلِّهَا وقد أَيِسَ مِنْ رَاحلَتِهِ) في بعض الروايات: أنه اضطجع على يمينه ينتظر الموت، قال: أنام في هذا المكان حتى يأتي الموت مستسلما

المشي لن يجدي، والبحث عن الرزق لن ينفع، فما معه إلا أن يبقى مستسلما لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه الرضى بالقدر.

(فَبَينَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً عِندَهُ) أرجعها الله.

(فَأَخَذَ بِخِطامِهَا) أي: بزمامها الذي تقاد به.

(ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ) الذي أغلق على عقله وقلبه:

(اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ) وهذا القول لو قاله رجل وهو بقواه وهو بعقله كفر، أن يقول لله عَزَّوَجَلَّ: أنت عبدي وأنا ربك، ومع ذلك هذا الرجل حين أغلق على عقله وأخطأ من شدة الفرح لم يؤاخذه الله عَزَّوَجَلَّ بما قال.

وفي هذا دليل على العذر بالجهل؛ لأن هذا من شدة فرحه غُطي على عقله فأصبح كالمجنون والناسي والجاهل، فلهذا لم يؤاخذه الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيه دليل على أن من موانع التكفير الخطأ، فإن هذا قال كلاما كفريا، ومع ذلك ما كفر بهذا القول.

وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":

فيه: إثبات صفة التقرب لله عَزَّوَجَلَّ، وصفة الهرولة، على ما يليق بجلاله، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث.

وفي معناه: أن الإنسان عليه أن يكون سالكًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، مبادرا إلى الطاعات والقربات، فإنه بقدر مسارعته إلى الخير ينال من الله عَزَّوَجَلَّ الرضى والتوفيق والهداية والتسديد، مع إثباتنا للصفات، فأهل السنة يثبتون الصفة ولازمها وأهل البدعة يثبتون اللازم وينفعون الصفة.

فمثلًا: نثبت صفة الهرولة على ما يليق بالله عَزَّوَجَلَّ، ولازمها أن الله يكرم العبد، ويوفق العبد، ويسدد العبده ويحفظ العبد، أما أهل البدعة يثبتون اللازم من أن الله

يوفق ويسدد ويهدي، لكن لا يثبتون الصفة، فمثلًا يقولون في الغضب: الانتقام، ولا يثبتون الغضب، أهل السنة يثبتون الغضب، ولازم الغضب الانتقام، يثبتون الرضا ولازم الرضا الإحسان.

فهذه قاعدة إن وجدت كلامًا لأهل السنة بإثبات اللازم دون التصريح بإثبات الصفة ليس معناه أنهم أولوا، هذا قد يقع فيه حتى ابن كثير، وابن جرير، وكثير من المفسرين، لكن هم يثبتون الصفة ويثبتون اللازم. اهـ

١٦ - وعن أبي موسَى عبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ الأشْعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

قوله: (إنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ) فيه فضل التوبة من أن الله عَزَّوَجَلَّ يستعجل المؤمن على التوبة والإنابة والرجوع، يخلص نفسه من ذنب النهار بالليل، وذنب الليل بالنهار.

وفيه: إثبات صفة اليدين لله عَزَّوَجَلَّ، يدان حقيقيتان، تليق بجلاله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١]، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [سورة المائدة: ٦٤]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الزمر: ٦٧]، «وكلتا يدي ربي يمين»، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند مسلم، وسيأتي.

(١) حديث رقم: (٢٧٥٩).

(وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها) فيه: دليل لما ذكرناه من اشتراط أن التوبة تكون في زمن تقبل فيه التوبة، وفيه دليل أن من أمارات الساعة: أن تطلع الشمس من مغربها، وسيأتي معنا حديث صفوان بن عسال وأن قبل المشرق باب مفتوح للتوبة، لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه.

قال بعض أهل العلم: إنما لا تقبل في ذلك الوقت؛ لأن الناس لشدة الهول تقع منهم التوبة جميعًا، أما بعد أن ترجع لحالها الأول تطلع من الشرق وتغرب في المغرب يعود الناس إلى ما هم فيه من الإعراض، والبعد عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والله المستعان.

١٧ - وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها تَابَ اللهُ عَلَيهِ». رواه مسلم[١].

الشرح:

وهذا موافق لما تقدم من أن التوبة من شرطها: أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة أما إذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون؛ لأنهم يعرفون أن القيامة قامت.

واختلف أهل العلم هل لا تقبل التوبة إلا في زمن طلوع الشمس من مغربها أم أنها إلى أن تقوم الساعة؟ لأن بعض أهل العلم ذكر أنها تبقى عشرين سنة أو أربعين سنة بعد هذا الحدث، والله أعلم.

* **قلت في كتابي "الإبهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج"**: التوبة صحيحة في كل وقت، ومن كل عبد، إلا في وقتين:

---

(١) حديث رقم: (٢٧٠٣).

الوقت الأول: عند الغرغرة، كما في حديث ابن عمر خارج الصحيح: "«إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»"(١).

والوقت الثاني: إذا طلعت الشمس من مغربها؛ لهذا الحديث (**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**)، من رجع من ذنبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل الله توبته، إن تحققت شروطها:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة.

الثالث: الإقلاع عن الذنب.

الرابع: الندم على فعل الذنب.

الخامس: العزم على عدم العود إلى الذنب.

السادس: إن كان الذنب بينه وبين غير الله عَزَّوَجَلَّ برد المظالم إلى أصحابها.

هذا إذا كان الذنب دون البدعة، فإن كان الذنب بالبدعة فيشترط الخمسة الشروط السابقة مع زيادة: الإصلاح والبيان؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٦٠].

وإن كان الذنب نفاقا فيشترط فوق الخمس شروط أيضا، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [سورة النساء: ١٤٦]، أصلحوا ما أفسدوا، وأخلصوا في أعمالهم، ونصحوا في دينهم.

وإن كانت التوبة الكفر فترك الكفر، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨].

وقد استوعبت هذه الشروط مع أدلتها في كتابي (شروط التوبة إلى الله).

---

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم: (٦١٦٠).

ثم هنا مسألة: هل لا تقبل التوبة بعد طلوع الشمس مغربها في ذلك الحين أم في جميع الزمن الذي يكون بعد ذلك؛ لأن العلماء قد اختلفوا: هل تقوم الساعة بمجرد طلوع الشمس مغربها أم أن الحياة تستمر بعد ذلك؟ فقيل: تستمر عشرين سنة، وقيل: أربعين سنة، وقيل غير ذلك، وإنما تمنع قبول التوبة حين ذهولهم من طلوع الشمس من مغربها، أما من تاب بعد الذهول فلا حرج من قبول توبته، هذا إن ثبت ما قالوه والله أعلم. اهـ من "الإبهاج".

١٨ - وعن أبي عبد الرحمان عبد الله بنِ عمَرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ». رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن[(١)].

الشرح:

وفي هذا: بيان أن من شروط التوبة أيضًا: قبل أن تصل الروح إلى الغرغرة، أما إذا وصلت الروح إلى الغرغرة فعند ذلك لا توبة؛ لأن أي إنسان يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ولا يشكل على هذا حديث المسيب بن حزن في قصة أبي طالب، إذ أن النبي ﷺ جعل يقول له في سياقة الموت: «**يا عم قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله**»، فإن أبا طالب في ذلك الوقت لم يكن قد بلغت روحه الغرغرة، وكان العمل نافعه، ولذلك

(١) حديث رقم: (٣٥٣٧).

وهو حديث ثابت بطرقه، في سنده عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول، وفي هذا الطريق ضعف يصلح في الشواهد، وجاء عند الطبراني عن بشير بن كعب بن أيوب، وهو مرسل صحيح، وجاء من حديث عبادة رواه الطبري والقضاعي في (مسند الشهاب)، وفي سنده قتادة، لم يدرك عبادة، وجاء عن الحسن مرسلا عند الطبراني، فالحديث بطرقه حسن، أفاده المحقق.

لما قال الغلام اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قال النبي صل الله عليه وسلم: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**».

قال صاحب تحفة الأحوذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩/ ٣٦٥):

قَوْلُهُ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ» ظَاهِرُهُ الْإِطْلَاقُ وَقَيَّدَهُ بَعْضُ الحنفية بالكافر قاله القارىء، **قُلْتُ**: الظَّاهِرُ الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ هُوَ الْأَوَّلُ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ مِنَ الْغَرْغَرَةِ أَيْ: مَا لَمْ تَبْلُغِ الرُّوحُ إِلَى الْحُلْقُومِ يَعْنِي: مَا لَمْ يَتَيَقَّنْ بِالْمَوْتِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ بَعْدَ التَّيَقُّنِ بِالْمَوْتِ لَمْ يُعْتَدَّ بِهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يموتون وهم كفار قيل وأما تفسير بن عَبَّاسٍ حُضُورَهُ بِمُعَايَنَةِ مَلَكِ الْمَوْتِ فَحُكْمٌ أَغْلَبِيٌّ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَرَاهُ وَكَثِيرًا يَرَاهُ قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ. اهـ

١٩ - وعن زِرِّ بن حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أسْأَلُهُ عَن الْمَسْحِ عَلَى الخُفَّيْنِ، فَقالَ: ما جاءَ بكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابتِغاء العِلْمِ، فقالَ: إنَّ المَلائكَةَ تَضَعُ أجْنِحَتَهَا لطَالبِ العِلْمِ رِضىً بِمَا يطْلُبُ، فقلتُ: إنَّهُ قَدْ حَكَّ في صَدْري المَسْحُ عَلَى الخُفَّينِ بَعْدَ الغَائِطِ والبَولِ، وكُنْتَ امْرَءًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ فَجئتُ أَسْأَلُكَ هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ في ذلِكَ شَيئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنا إِذَا كُنَّا سَفرًا - أَوْ مُسَافِرينَ - أَنْ لا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيالِيهنَّ إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ، لكنْ مِنْ غَائطٍ وَبَولٍ ونَوْمٍ، فقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكرُ في الهَوَى شَيئًا؟

قَالَ: نَعَمْ، كُنّا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاه أعرابيٌّ بصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ: يَا مُحَمَّدُ، فأجابهُ رسولُ الله ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِه: «هَاؤُمْ» فقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ فَإنَّكَ عِنْدَ النَّبي ﷺ وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هذَا! فقالَ: واللهِ لَا أغْضُضُ.

قَالَ الأعرَابِيُّ: المَرْءُ يُحِبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَومَ القِيَامَةِ**».

فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ المَغْرِبِ مَسيرَةُ عَرْضِهِ أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ أرْبَعينَ أَوْ سَبعينَ عامًا - قَالَ سُفْيانُ أَحدُ الرُّواةِ: قِبَلَ الشَّامِ - خَلَقَهُ الله تَعَالَى يَوْمَ خلَقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ مَفْتوحًا للتَّوْبَةِ لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ. رواه الترمذي وغيره، وَقالَ: حديث حسن صحيح[1].

الشرح:

هذا حديث عظيم، يصلح أن يدخل تحت أبواب كثيرة، إلا أن المصنف ساقه هنا؛ لبيان الوقت الذي تجوز فيه التوبة، وقد علمنا أن التوبة تجوز قبل أن يغرر، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، إذا استوفت شروطها.

وأما الأبواب التي يصلح أن يكون فيها: فأولها: الرحلة في طلب العلم، فإن زر بن حبيش حمله على الرحلة إلى صفوان بن عسال طلب العلم، كما صرح بنفسه.

والرحلة في المسألة النازلة، والعودة إلى أهل العلم، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النحل: ٤٣].

(أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ) والمسح على الخفين هو من عقيدة أهل السنة والجماعة، مخالفة للروافض من أهل البدعة والشناعة، الذين يمسحون على أقدامهم ولا يرون المسح على الخفين، مع أن جرير ينقله عن النبي ﷺ، وكان إسلام جرير بعد نزول سورة المائدة، بمعنى أن النبي ﷺ فسر القرآن بهذا الفعل.

(١) حديث رقم: (٣٥٣٥).

ويشترط أن يدخلهما على طهارة؛ لحديث المغيرة بن شعبة: «**دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين**»، ويكون توقيتها: للمسافر ثلاثة أيام بلياليهن، وللمقيم يوم وليلة ويبدأ الحساب في المسح على الخفين بالمسح لا بالإدخال.

واختلف في أيهما أفضل المسح أم الغسل؟ والذي رجحه ابن القيم وغيره: أن المسح أفضل إذا كان بين قوم ينكرون السنة، والغسل أفضل في بقية الأوقات.

ويجوز كذلك المسح على الجوارب، وهي الشرابات؛ لأنها تقوم مقام الخفين.

(فَقَالَ: ما جاءَ بكَ يَا زِرُّ؟) فيه سؤال الضيف والقادم عن سبب مجيئه.

(فقُلْتُ: ابتِغَاء العِلْمِ) أي: لطلب العلم، والتفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (فقالَ: إنَّ المَلائكَةَ تَضَعُ أجْنِحَتَهَا لطَالبِ العِلْمِ رِضىً بِمَا يطْلُبُ) وهذا قد جاء مرفوعا عن النبي صل الله عليه وسلم، وإن كان قد ذُكر هنا موقوفا، وله حكم الرفع.

(إنَّ المَلائكَةَ) أي ملائكة سخرهم الله لهذا الصنيع، وليس كل الملائكة.

(تَضَعُ أجْنِحَتَهَا لطَالبِ العِلْمِ)؛ إجلالا له، وتعظيما لشأنه وطريقه، تضعها بأمر الله، وقد ذهب بعض الساخرين وقال: أنا أعمل لقدمي أو لنعلي مسامير حتى تدوس على أجنحة الملائكة، هذا سفه وقلة حياء وأدب مع الله ومع ملائكته.

والملائكة خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [سورة فاطر:١]، وأشرفهم جبريل، فهو الملك الموكل بالوحي.

قال: (فقلتُ: إنَّهُ قَدْ حَكَّ في صَدْري المَسْحُ عَلَى الخُفَّينِ بَعْدَ الغَائِطِ والبَولِ) أي: وقعت له شبهة: هل هذا ثابت أم ليس بثابت؟ هل هذا يجوز أم لا يجوز؟ وقوله: **(بَعْدَ الغَائِطِ والبَولِ)** لعله قد ترجح عنده جواز المسح إذا كان الحدث غير بول أو غائط، كالفساء والضراط والنوم.

(وكُنْتَ امْرَءًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ) فيه أن السؤال يتوجه إلى أعلم الناس، وإلى أحرص الناس على الدليل، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم أصحاب القدم المعلى في هذا.

(فَجئتُ أَسْأَلُكَ هَلْ سَمِعْتَهُ يَذكُرُ في ذلِكَ شَيئًا؟) فيه السؤال عن الدليل؟

(قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرنا إِذَا كُنَّا سَفرًا) أي النبي ﷺ، وأمره يفيد الوجوب، وربما دل على الإرشاد والاستحباب.

(أَنْ لا نَنْزعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيالِيهنَّ إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ، لكنْ مِنْ غَائطٍ وَبَولٍ ونَوْمٍ) يعني: أمرنا إذا كنا في سفر أن تبقى خفافنا على أرجلنا، ولا تنزع، مع أنهم يتوضؤون من النوم، ويتوضؤون من الغائط والبول، ويتوضؤون من الريح، ومن أكل لحم الإبل، ومن مس الفرج، وغير ذلك، ومع ذلك هذا لا يحتاج إلى نزع.

(إلاَّ مِنْ جَنَابَةٍ): إلا إذا كان الحدث أكبرا وهو الجنابة يحتاج إلى أن يغتسل فهنا يجب عليه أن ينزع الخفين.

وفي حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبي بكرة، وجرير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس، وغيرهم، أنه جعل المسافر ثلاثة أيام ولياليهن، ويوما وليلة للمقيم.

قال: (فقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكرُ في الهَوَى شَيئًا؟) أي في المحبة في الله هل سمعته يذكر فيها شيئا؟

(إِذْ نَادَاه أَعرابيٌّ بصَوْتٍ لَهُ جَهْوَريٍّ)؛ لأن الأعراب في الغالب أنهم قليلو الفقه لا يعرفون الأحكام الشرعية، وأما الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فكانوا يجالسون النبي ﷺ، وقد علموا ما يجوز وما لا يجوز، ولذلك قال له: (وَيْحَكَ! اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبي ﷺ وَقَدْ نُهِيت عَنْ هذَا) ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [سورة الحجرات: ٢].

(فقالَ: واللهِ لَا أغْضُضُ)؛ لجفاء الأعرابي، ومع ذلك هذا أعرابي صحابي لا يذكر إلا بالخير والجميل، لكن نحن نقصد من حيث ما يقع منهم، والنبي صل الله عليه وسلم أجابه بنحو من صوته؛ تألفا له، وكذلك إيناسا إلى غير ذلك.

(المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يومَ القِيامَةِ) وفي حديث أنس: أنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر.

(أَرْبَعينَ أَوْ سَبعينَ عامًا) الشك من الراوي، والذي يظهر أنه أربعون عاما.

(قِبَلَ الشَّامِ) أو جهة المغرب، لعله قبل الشام بالنسبة إلى المدينة وأيضا جهة المغرب.

(لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ) فإذا طلعت الشمس منه آمن الناس كلهم أجمعون، وحينئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ [سورة الأنعام: ١٥٨].

٢٠ - وعن أبي سَعيد سَعْدِ بنِ مالكِ بنِ سِنَانٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ نَبيَّ الله ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أعْلَم أَهْلِ الأرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ. فقال: إنَّهُ قَتَلَ تِسعةً وتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مئَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فقَالَ: إنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقالَ: نَعَمْ، ومَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ التَّوْبَة؟ انْطَلِقْ إِلَى أرضِ كَذَا وكَذَا فإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، ولَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أرضُ سُوءٍ، فانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ العَذَابِ، فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا، مُقْبِلًا بِقَلبِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وقالتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لمْ يَعْمَلْ خَيرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صورَةِ آدَمِيٍّ

فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أيْ حَكَمًا - فقالَ: قِيسُوا ما بينَ الأرضَينِ فَإلَى أيّتِهِا كَانَ أدنى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنى إلَى الأرْضِ التي أرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحمةِ». مُتَّفَقٌ عليه[1].

وفي رواية في الصحيح[2]: «فَكَانَ إلى القَرِيَةِ الصَّالِحَةِ أقْرَبَ بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أهلِهَا».

وفي رواية في الصحيح[3]: «فَأَوحَى الله تَعَالَى إلى هذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وإلَى هذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وقَالَ: قِيسُوا مَا بيْنَهُما، فَوَجَدُوهُ إلى هذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ».

وفي رواية[4]: «فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَأَى بصَدْرِهِ نَحْوَهَا».

الشرح:

(أبي سَعيد سَعْدِ بنِ مالكِ بنِ سِنَانٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو أحد المكثرين عن رسول الله ﷺ.

هذا حديث عظيم، وساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى؛ لبيان أن التوبة تجب ما قبلها، مهما كان من الذنوب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨]، وقال النبي صل الله عليه وسلم: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»، كما في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولعله يأتي معنا بطوله.

وفي هذا الحديث من الفوائد: قص النبي ﷺ خبر من كان قبلنا، وهذا من دلائل نبوته، وعظيم شأنه.

وفيه: العودة إلى العلماء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) (٤٦) و (٤٧) و (٤٨).

(٢) أي في مسلم.

(٣) أي البخاري ومسلم.

(٤) في مسلم، حديث رقم: (٢٧٦٦).

وفيه: أن الجهال قد يفسدون من حيث يريدون الإصلاح، فهذا الراهب كان عابدا ولكنه جاهل، فالفتوى تكون في أهلها في أهل العلم.

وفيه: عظم القتل، فإن هذا الرجل قد علم أن ذنبه عظيم، ولذلك سعى في التحلل منه، ومن التحلل: أداء الديات، لكن لعله لم يكن في عهدهم ذلك، أو لعله تعذر عليه ذلك، فدُل على التوبة وعلى مفارقة البلد الذي كان فيه.

ومن حسن التوبة أن تجالس الصالحين.

وفيه: فضيلة التوبة، حيث مات هذا الرجل بعد أفعاله القبيحة الشديدة بقتل مائة نفس ظلما، وإذا بملائكة الرحمة تأخذه إلى جنة الله عَزَّوَجَلَّ بسبب توبته وإنابته ورجوعه، هذه بعض الفوائد، والله أعلم.

٢١ – وعن عبدِ الله بن كعبِ بنِ مالكٍ، وكان قائِدَ كعبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عمِيَ، قَالَ: سَمِعتُ كَعْبَ بنَ مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يُحَدِّثُ بحَديثِهِ حينَ تَخلَّفَ عن رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالَ كعبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غَزْوَةٍ غزاها قط إلا في غزوة تَبُوكَ، غَيْرَ أنّي قَدْ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ؛ إنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ الله تَعَالَى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ ميعادٍ.

ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَيلَةَ العَقَبَةِ حينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإسْلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كَانَتْ بدرٌ أذْكَرَ في النَّاسِ مِنْهَا.

وكانَ مِنْ خَبَري حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ: أنِّي لم أكُنْ قَطُّ أَقْوى ولا أَيْسَرَ مِنّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عنهُ في تِلكَ الغَزْوَةِ، وَالله ما جَمعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيْرِها،

حَتَّى كَانَتْ تلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاستَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَّى للْمُسْلِمينَ أمْرَهُمْ ليتَأهَّبُوا أُهْبَةَ غزْوِهِمْ، فأَخْبرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، والمُسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ بذلِكَ الدّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُريدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ سيخْفَى بِهِ ما لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله، وَغَزا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ.

فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ وطَفِقْتُ أغْدُو لكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ، فأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وأقُولُ في نفسي: أَنَا قَادرٌ عَلَى ذلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غاديًا والمُسْلِمُون مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، فَيَا لَيْتَني فَعَلْتُ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلِكَ لي.

فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لا أَرَى لي أُسْوَةً، إلاّ رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ في النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعفَاءِ.

وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ في القَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسُولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِئْسَ مَا قُلْتَ! واللهِ يا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَبَيْنَا هُوَ عَلى ذَلِكَ رَأى رَجُلًا مُبْيِضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ»، فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِيْنَ لَمَزَهُ المُنَافِقُونَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي، فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وأَسْتَعِيْنُ عَلى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيْلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ يَعْتَذِرونَ إِلَيْه ويَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعًا وَثَمانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلى الله تَعَالَى، حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ»، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فقالَ لي: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ الله، إِنِّي والله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ؛ لَقَدْ أُعطِيتُ جَدَلًا، ولَكِنِّي والله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليوم حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله عَزَّوَجَلَّ والله ما كَانَ لي مِنْ عُذْرٍ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

قَالَ: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَمَّا هَذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيكَ»، وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فاتَّبَعُونِي فَقالُوا لِي: واللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذَا، لَقَدْ

عَجَزْتَ فِي أَنْ لا تكونَ اعتَذَرْتَ إِلَى رَسُول الله ﷺ بما اعْتَذَرَ إليهِ المُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُول الله ﷺ لَكَ.

قَالَ: فَوالله ما زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُّ أَنْ أرْجعَ إِلَى رسولِ الله ﷺ فأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ وَقيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُما؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبيع الْعَمْرِيُّ، وهِلَالُ ابنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَينِ صَالِحَينِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فيهِما أُسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي.

ونَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ كَلامِنا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ - أوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا - حَتَّى تَنكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الأَرْض، فَمَا هِيَ بالأرْضِ الَّتي أعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً. فَأمّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانا وقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكيَان. وأَمَّا أنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَومِ وأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْه بردِّ السَّلام أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَريبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي نَظَرَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحوَهُ أعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَال ذلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدارَ حائِط أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاس إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بالله هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ.

وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينة إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتبًا فَقَرَأْتُهُ فإذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بدَارِ هَوانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيضًا مِنَ البَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ إِذَا رسولُ رسولِ الله ﷺ يَأْتِيني، فَقالَ: أَنَّ رسولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَقَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرَبَنَّهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ بِمِثْلِ ذلِكَ، فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُوني عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ في هَذَا الأَمْرِ، فَجَاءتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إنَّ هِلَالَ بْنَ أَمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ» فَقَالَتْ: إِنَّهُ واللهِ ما بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ، وَوَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَومِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتَأْذَنْتَ رسولَ الله ﷺ فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هلَال بْنِ أمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ وَمَا يُدْرِيني مَاذَا يقُول رسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌ!

فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنا، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَباحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحالِ الَّتي ذَكَرَ الله تَعَالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ

صَوْتَ صَارِخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يقُولُ بِأعْلَى صَوتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، فآذَنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله عَزَّوَجَلَّ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى الجَبَلِ، فَكانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبشارته، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبسْتُهُما، وَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ، يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونَنِي بالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَإِذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَه النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، والله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيرُهُ - فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُور: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول الله أَمْ مِنْ عِنِدِ الله؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنِدِ الله عَزَّوَجَلَّ»، وَكَانَ رسولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذلِكَ فِي وجهه، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رسولَ الله، إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، فقلتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيبَرَ وَقُلْتُ: يَا رسولَ الله، إنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا أَنْجَانِي بالصِّدْقِ، وإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَالله مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللهُ تَعَالَى فِي صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلِكَ لِرسولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي الله تَعَالَى، واللهِ مَا

تَعَمَّدْتُ كِذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذلِكَ لِرسولِ الله ﷺ إِلَى يَومِيَ هَذَا، وإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله تَعَالَى فيما بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [سورة التوبة: ١١٧] حَتَّى بَلَغَ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [سورة التوبة: ١١٧-١١٨] حَتَّى بَلَغَ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١١٩].

قَالَ كَعْبٌ: واللهِ ما أَنْعَمَ الله عَلَيَّ مِنْ نعمةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللهُ للإِسْلامِ أَعْظَمَ في نَفْسِي مِنْ صِدقِي رسولَ الله ﷺ أَنْ لا أكونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذينَ كَذَبُوا؛ إِنَّ الله تَعَالَى قَالَ للَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأَحدٍ، فقال الله تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٞۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٩٦﴾ [سورة التوبة: ٩٥-٩٦]، قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولئكَ الذينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رسولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وأرجأَ رسولُ الله ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى الله تَعَالَى فِيهِ بِذلِكَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [سورة التوبة: ١١٨] وَلَيْسَ الَّذِي

ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفُنَا عن الغَزْو، وإنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إيّانا وإرْجَاؤُهُ أمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إلَيْهِ فقبِلَ مِنْهُ. مُتَّفَقٌ عليه[(١)].

وفي رواية: أنَّ النَّبيّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةِ تَبْوكَ يَومَ الخَميسِ وكانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يومَ الخَمِيس.

وفي رواية: وكانَ لَا يقْدمُ مِنْ سَفَرٍ إلاَّ نَهَارًا في الضُّحَى، فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بالمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ.

الشرح:

هذا حديث طويل، وفيه من الفوائد ما لا يتسع لها عدة من المجالس، وفيه: بيان فضل التوبة، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ تاب على هؤلاء النفر الثلاثة ووعدهم الحسنى، وتجاوز عن تخلفهم عن الغزو، مع أنه كبيرة من كبائر الذنوب، وعظيمة من عظيمة الآثام.

وقد أخزى الله عَزَّوَجَلَّ المنافقين الذين بادروا إلى الاعتذارات الكاذبة، وهو حديث حري أن يكون في باب الصدق، وفي باب الغزوات، وفي التحذير من الكذب، وفي الصبر على البلاء، وفي استجابة المؤمنين لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وفي شدة الهجر، فإن هذا الحديث يعتبر أصلا في باب الهجر، وذلك أن النبي ﷺ هجر هؤلاء حين خشي عليهم النفاق، فاستدل العلماء بهذا الحديث على وجوب هجر أهل البدع، وعدم مجالستهم.

وفي هذا الحديث من الفوائد: الصبر على الدنيا، فإنها رأس كل خطيئة كما يقال، فانظر كيف أراد ملك غسان أن يفتن كعب بن مالك على ما هو فيه، فإذا به يحرق

(١) أخرجه: البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) (٥٣) و (٥٤) و (٥٥).

تلك الرسالة ويصبر، إلى غير ذلك من الفوائد التي قراءتها تغني عن شرحها، والله المستعان.

(إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ) غزوة بدر النبي ﷺ لم يعاتبهم، بل أمر من كان ظهره حاضرا أن يركب، أما في تبوك أخبرهم بالوجهة، أخبرهم بالاستعداد، دعاهم إلى الخروج، أمرهم بالنفر.

(حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ) ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأنفال: ٤٢].

(وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ)؛ لأن ليلة العقبة بداية الهجرة، فيها النصرة العظيمة.

(ولم يكن رَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا) حتى يصبِّحوا أو يمسوا المشركين على غرة، وأيضا كان الاستعداد يسير، مثلا غزوة أيام ربما يستعد قائد الجيش بأكلهم، بشربهم، بمشيهم يسهل، أما غزوة تبوك المسافة بعيدة، مسير شهر، والرجوع شهر، يحتاجون إلى إعداد شديد.

(فَغَزَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا) في صحراء، ما فيها حتى التراب، إنما فيها الرمال، وبهذا استدل أهل العلم أنه لا يشترط التراب في التيمم؛ لأن النبي ﷺ سافر إلى تبوك ما كان هناك تراب، كان هناك رمال، فكان يتيمم على الرمال.

(وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا) من الروم.

(وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيوَانَ) يعني عدد كبير، وما كانوا يكتبون العساكر كما يُكتب الآن.

(حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ) ثمار النخل.

(حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ) الجد هنا المراد به كأنه الحاجة والغنى.

(ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذَلِكَ) ولو قدر لكان.

(أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ) يعني أصبح يا إما بين منافق يا إما بين حاجز، وهو رجل في كامل قوته.

(وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ) هكذا الناس يتمايزون في المعرفة، في النصرة، الآن قد تقع عليك حالة أو أمر ينزل بك آلاف ما يبالون بك، ما تعتب عليهم، ولا تقول: لماذا ما سألوا عني؟ ولا: أين هم؟ بينما قد تسأل عن واحد بعينه: الله المستعان فلان قصر؟ فلان ما اتصل بي؟ فلان ما كلمني؟ فلان ما أعانني؟

فالنبي ﷺ ما ذكر كثيرا من الناس الذين تخلفون، لاسيما أصحاب النفاق، ليس بمبال بهم، بل في تخلفهم رحمة للمسلمين، ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ [سورة التوبة: ٤٧]، لكن ذكر مثل هذا الرجل، رجل عرفه بالخير بالصلاح.

(حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ) هكذا كثير من الناس ربما يسيئون الظن بالإنسان، لا سيما إذا وقع منه ما يستوجب إساءة الظن، فالإنسان يكون على حذر مما يستوجب إساءة الظن، لا يضع نفسه في موطن التهمة ثم يقول: لماذا أساؤوا الظن به؟ تميز عن مواطن التهم، يجلس مع أصحاب المخدرات ويقول: لماذا يظنوا أني من أصحاب المخدرات؟ أو يماشي الفسقة ويقول: يا جماعة لماذا يظنوا في أني فاسق؟ تميز، جالس الصالحين يظن بك الصلاح، جالس السيئين يظن بك السوء حتى ولو كنت لست مثلهم في السوء، لكن هكذا ظن الناس.

(فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا) مدافعة عمن عُلم خيره، والتماس العذر له.

(فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي) ما يقول؟ بماذا تعتذر؟ إذا كان الخطأ كبيرا بماذا تعتذر؟ أخطاء الناس على قدر من منازلهم ومراتبهم.

(عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا) فيه كذب، هذا من توفيق الله له، أما البقية ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٤]، إلا من رحم الله.

(فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ) أسهل الأشياء الحلف عند المنافقين، قبل أن تقول له: احلف وهو يقول: والله العظيم، وأقسم بالله، وأنك عندي عزيز، وأني كنت أريد وأني، لا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله السلامة والعافية.

(فَقبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ) لكن نزلت سورة التوبة في فضحهم: ومنهم ومنهم، حتى سميت الفاضحة.

(تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ) يعني يعاتبه بهذا التبسم، كأنه يقول: الله المستعان تخلفت عنا في أحلك الظروف وأحوج ما نكون إليك؟

(وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ) المعصية من أسباب سخط الله على العباد، ارض الله يرضي الله عنك الناس، اسخط الله تطلب رضا الناس يُسخط الله عليك الناس بعد أن يَسخط عليك، نسأل الله السلامة والعافية، من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضى عنه الناس كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٦].

(لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ) هذا شور قد يفسد عليه الحال، لكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثبت.

(فِيهِمَا أُسْوَةٌ): قدوة.

(فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَقَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا) استجابة لله ولرسوله.

(حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِيَ الْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ) يا أخي أحيانا لو تهاجرت أنت وأبيك أو أنت وزوجتك أو أنت وولدك تضيق الأيام حتى يتم المصالحة، فكيف إذا كانت المهاجرة من جميع المسلمين بما فيهم رسول الله ﷺ؟

(فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) أبى أن يقول له: نعم، فقد أمر الله بهجرك وأمر رسول الله ﷺ بهجرك، فالله أعلم، فكانت هذه شديدة عليه.

(إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ) نصراني.

(يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ...) وهكذا أهل الباطل إذا شعروا أن صاحب الحق قد نُصح أو وُجه له شيء من النصح من محبيه يريد أن يزيغه إلى أشد الزيغ، فالنبي ﷺ أمر بهجرهم؛ لتقويمهم، وهذا المُدْبِر يريد أن يخرجهم من الإسلام.

(فَسَجَّرْتُهَا بِهَا) أي أحرقها.

(الْحَقِي بِأَهْلِكِ) استدل العلماء بهذه اللفظة على أن لفظ (الحقي بأهلك) ليس بطلاق إلا مع النية.

(وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ) هكذا الفرج بعد الشدة، هذا من الفرج بعد الشدة، وأي شدة نزلت بهم؟ ليست شدة فقر ولا شدة مرض، شدة يُخشى من غضب الله وغضب رسوله ﷺ.

(فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ) فيه المجازاة على البشارة ونحو ذلك.

(يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ، وَيَقُولُونَ: لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ) هنيئا والله، كثير من الناس والله ينحرفون على الكتاب والسنة ويستمرون في انحرافهم؛ خشية مثل هذا الموقف، لكن الإنسان لو تاب تاب الله عليه، وصدق، هنيئا له.

(فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي، وَهَنَّأَنِي) هكذا من وقع في زلة وعُلمت توبته يُشجع ويعان ويكرم، لعل الله أن يثبته.

(أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ) كيف لا يكون خير يوم والله عَزَّوَجَلَّ قد ذكره في القرآن؟ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة التوبة: ١١٨-١١٩].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [سورة التوبة: ١١٨] ليس المعنى: الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك؛ لأن الذين تخلفوا عن تبوك أعداد كثيرة، لكن الذين خُلِّفوا عن قبول توبتهم وقبول عذرهم.

هذا حديث عظيم، ذكره النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوبة من (رياض الصالحين)، ويصلح أن يكون في كتاب الصدق، ويصلح أن يكون في كتاب الفرج بعد الشدة، ويصلح أن يكون في كتاب الجهاد، ويصلح أن يكون في كتاب الطاعة لله ولرسوله، والمبادرة إلى ذلك، ويصلح أن يكون في كتاب السنة، وهجر أهل البدع والمنابذة لهم، وله أبواب كثيرة، ولعل الحافظ يذكر بعض الاستنباطات بعد أن يذكر شرحه:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويستنبط منه ترك قتل الزنديق إذا أظهر التوبة، وأجاب من أجازه بأن الترك كان في زمن النبي ﷺ؛ لمصلحة التأليف على الإسلام.

وفيها: عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه بن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حراما ولا سفكوا دما حراما ولا أفسدوا في الأرض أصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟

وفيها: أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين.

وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره؛ تحذيرا ونصيحة لغيره، وجواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة، وتسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره وفضل أهل بدر والعقبة والحلف للتأكيد من غير استحلاف والتورية عن المقصد، ورد الغيبة، وجواز ترك وطء الزوجة مدة.

وفيه: أن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها، ولا يسوف بها؛ لئلا يحرمها كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠]، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا المبادرة إلى طاعته، وأن لا يسلبنا ما خولنا من نعمته.

وفيها: جواز تمني ما فات من الخير، وأن الإمام لا يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره؛ ليراجع التوبة، وجواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن عن حمية لله ورسوله.

وفيها: جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غلطه.

وفيها: أن المستحب للقادم أن يكون على وضوء، وأن يبدأ بالمسجد قبل بيته فيصلي ثم يجلس لمن يسلم عليه، ومشروعية السلام على القادم وتلقيه، والحكم بالظاهر، وقبول المعاذير، واستحباب بكاء العاصي أسفا على ما فاته من الخير.

وفيها: إجراء الأحكام على الظاهر ووكول السرائر إلى الله تعالى.

وفيها: ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث، وأما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعيا، وأن التبسم قد يكون عن غضب كما يكون عن تعجب ولا يختص بالسرور [(١)]، ومعاتبة الكبير أصحابه ومن يعز عليه دون غيره.

وفيها: فائدة الصدق وشؤم عاقبة الكذب.

وفيها: العمل بمفهوم اللقب إذا حفته قرينة؛ لقوله ﷺ لما حدثه كعب: «**أما هذا فقد صدق**»، فإنه يشعر بأن من سواه كذب، لكن ليس على عمومه في حق كل أحد سواه؛ لأن مرارة وهلالا أيضا قد صدقا، فيختص الكذب بمن حلف واعتذر لا بمن اعترف، ولهذا عاقب من صدق بالتأديب الذي ظهرت فائدته عن قرب، وأخر من كذب للعقاب الطويل، وفي الحديث الصحيح: "**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا أَمْسَكَ عَنْهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَيَرِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِذُنُوبِهِ**».

قيل: وإنما غلظ في حق هؤلاء الثلاثة؛ لأنهم تركوا الواجب عليهم من غير عذر ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠]، وقول الأنصار:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا

وفيها: تبريد حر المصيبة بالتأسي بالنظير.

---

(١) يقولون: إذا رأيت الرجل يضحك ويبتسم وهو حزين فاعلم أنه غضبان.

وفيها: عظم مقدار الصدق في القول والفعل، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به، وأن من عوقب بالهجر يعذر في التخلف عن صلاة الجماعة؛ لأن مرارة وهلالا لم يخرجا من بيوتهما تلك المدة[١].

وفيها: سقوط رد السلام على المهجور عمن سلم عليه إذ لو كان واجبا لم يقل كعب: هل حرك شفتيه برد السلام؟

وفيها: جواز دخول المرء دار جاره وصديقه بغير إذنه ومن غير الباب إذا علم رضاه.

وفيها: أن قول المرء: الله ورسوله أعلم ليس بخطاب ولا كلام، ولا يحنث به من حلف أن لا يكلم الآخر إذا لم ينو به مكالمته، وإنما قال أبو قتادة ذلك لما ألح عليه كعب وإلا فقد تقدم أن رسول ملك غسان لما سأل عن كعب جعل الناس يشيرون له إلى كعب ولا يتكلمون بقولهم مثلا: هذا كعب؛ مبالغة في هجره والإعراض عنه.

وفيها: أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدح في صحتها، وإيثار طاعة الرسول على مودة القريب، وخدمة المرأة زوجها، والاحتياط لمجانبة ما يخشى الوقوع فيه، وجواز تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة وفيها مشروعية سجود الشكر والاستباق إلى البشارة بالخير، وإعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة، وتهنئة من تجددت له نعمة والقيام إليه إذا أقبل، واجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة وسروره بما يسر أتباعه، ومشروعية العارية، ومصافحة القادم والقيام له، والتزام المداومة على الخير الذي ينتفع به، واستحباب الصدقة عند التوبة، وأن من نذر

(١) الله أعلم الذي يظهر أن التخلف عن صلاة الجماعة إذا عجز عن الحضور، أما بمجرد الهجر لا، وهؤلاء لعلهم كانوا شيوخا كبارا في السن، يشق عليهم.

الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه، وسيأتي البحث فيه في كتاب النذر إن شاء الله تعالى.

وقال بن التين: فيه أن كعب بن مالك من المهاجرين الأولين الذين صلوا إلى القبلتين، كذا قال، وليس كعب من المهاجرين، إنما هو من السابقين من الأنصار.

مواقف مرت بهم، وكانوا صادقين مع الله، وصادقين مع رسول الله ﷺ، وصادقين في استقامتهم، الآن بعض الناس يترك الاستقامة بنصيحة يوجها له شيخه، وربما يترك طلب العلم، ويترك الخير، وتجد العتب الشديد، والله المستعان.

وهكذا في الأبناء وفي الزوجات، وفي جميع المداخلات، فالإنسان إذا وقع منه المخالفة يتحمل ما ينزل به من العتب، ما ينزل به ربما من غلظ القول، ما ينزل به ربما من هجر بعضهم، مع أن كل شيء ينزل على الوجه الشرعي.

٢٢ - وَعَنْ أبي نُجَيد - بضَمِّ النُّونِ وفتحِ الجيم - عِمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ الخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ امْرَأةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رسولَ الله ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فقالتْ: يَا رسولَ الله، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبيُّ الله ﷺ وَليَّها، فقالَ: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فإذا وَضَعَتْ فَأْتِني» فَفَعَلَ فَأَمَرَ بها نبيُّ الله ﷺ فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فقالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُول الله وَقَدْ زَنَتْ؟ قَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بنفْسِها لله عَزَّ وَجَلَّ؟». رواه مسلم[١].

الشرح:

(١) حديث رقم: (١٦٩٦).

هذا حديث عظيم، وعمران بن حصين كانت تسلم عليه الملائكة، حتى اكتوى فانقطع السلام، فلما برأ عادت إليه الملائكة للسلام، وأبوه جاء إلى النبي ﷺ كافرا، فقال: يا محمد عبد المطلب كان خيرا لقومك منك، كان يطعمهم الكبد والسنام، وأنت تقتلهم، إلا أنه كان رجلا عاقلا، فلما أراد أن يذهب قال: يا محمد علمني دعاء، قال: «قل: اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري»، فدعا بهذا الدعاء، ثم هداه الله للإسلام.

قوله: (أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رسولَ الله ﷺ) لعلها الغامدية التي رجمها النبي ﷺ.

(وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى) والزنا كبيرة من كبائر الذنوب، وسيأتي في المنهيات.

(فقالتْ: يَا رسولَ الله، أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ) فيه المبادرة ببذل النفس للتوبة والتخلص من الذنب.

(أَحْسِنْ إِلَيْهَا) فيه الإحسان إلى من أصاب ذنبا ووُجد منه الندم والعودة، فلا يعير، ولا يؤذى.

(فإذا وَضَعَتْ فَأْتِني)؛ لأن الأمر قد بلغ إلى السلطان، والحد إذا بلغ السلطان لا يجوز أن يتأخر، ولا يجوز أن يرفع بعد ذلك، «**ادرؤوا الحدود بالشبهات**».

(فَشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا)؛ حتى لا تتكشف، وجيء أنه أمر بالحفر لها، لكن لعلها لا تثبت.

(ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ) وفي هذا رد على القرضاوي، ومن سار على سيره من المتقدمين والمتأخرين، الذين ينكرون حد الرجم للزاني، فإن الرجم حق في كتاب الله، كما قال عمر بن الخطاب: قرأناه، ورجم رسول الله، ورجم خلفاؤه من بعده، ورجم النبي ﷺ يهوديا ويهودية زنيا، ورجب ماعزا، ورجم الغامدية.

(ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فقالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُول الله وَقَدْ زَنَتْ؟) وفيه أن الصلاة جائزة على المحدود التائب، وكذلك على غير التائب، فهو بحاجة إلى الصلاة، وإنما ترك النبي ﷺ الصلاة على قاتل نفسه زجرا عن هذه الفعل القبيحة.

(لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ) فيه أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وفيه أن من جاد بنفسه لله عَزَّوَجَلَّ فأجره عظيم، فهذه المرأة من توبتها أنها قدمت نفسها للحد، قال النبي ﷺ: (لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ).

(وَهَلْ وَجَدْتَ أَفضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بنفْسِها لله عَزَّوَجَلَّ؟) يعني: هل هناك عمل أفضل من هذا؟ هل هناك عمل أفضل من أن يقدم الإنسان نفسه لله عَزَّوَجَلَّ.

* قلت في شرحي على "صحيح مسلم":

ولا يلزم حضور الإمام لإقامة الحد، فالنبي ﷺ في شأن ما عز أرسل الناس لإقامة الحد عليه، وفي شأن المرأة حضر، حتى أنه أنكر على خالد حين سبها.

وفيه: أن النفس أعز ما عند الإنسان، فلا يفرط فيها إلا في طاعة الله، إلا فيما يرجو أن يكون من أسباب رفعته.

وفيه: أن من أشكل عليه شيء سأل عنه، (فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ).

وفيه: أن الله كتب الإحسان على كل شيء، حتى على أصحاب الحدود ومن في بابهم، ممن ألم بذنب، لا سيما إذا كان معترفا بذنبه وجريرته، فيعان على التوبة والإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِلشَّافِعِيِّ أَنَّ الْإِمَامَ وَأَهْلَ الْفَضْلِ يُصَلُّونَ عَلَى الْمَرْجُوم كَمَا يُصَلِّي عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ، وَأَجَابَ أَصْحَابُ مَالِكٍ عَنْهُ بِجَوَابَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ ضَعَّفُوا رِوَايَةَ الصَّلَاةِ لِكَوْنِ أَكْثَرِ الرُّوَاةِ لَمْ يَذْكُرُوهَا.

وَالثَّانِي: تَأَوَّلُوهَا عَلَى أَنَّهُ ﷺ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ أَوْ دَعَا فسمي صلاة على مقتضى في اللغة، وهذان الجوابان فاسدان انتهى. اهـ.

٢٣ - وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لابنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يكُونَ لَهُ وَادِيانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ». مُتَّفَقٌ عليه[(١)].

الشرح:

الشاهد منه: أن الله يتوب على من تاب، ومن رجع إليه، فيكفر سيئاته، ويبدلها حسنات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [سورة الفرقان: ٧٠].

وفيه التحذير من شأن الدنيا، وهذا كان قرآنا يتلى ثم نُسخ، كما في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان مما يتلى: لو أن لابن آدم واديًا من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.

قيل: معناه أنه لا يقنع من الدنيا إلا حين يوضع في القبر ويدخل التراب إلى فيه.

قال النووي في شرح هذا الحديث (٧/ ١٣٩): فِيهِ: ذَمُّ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا وَحُبِّ الْمُكَاثَرَةِ بِهَا وَالرَّغْبَةِ فِيهَا وَمَعْنَى: "لَا يَمْلَأُ جَوْفَهُ إِلَّا التُّرَابُ" أَنَّهُ لَا يَزَالُ حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا حَتَّى يَمُوتَ وَيَمْتَلِئَ جَوْفُهُ مِنْ تُرَابِ قَبْرِهِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ خَرَجَ عَلَى حُكْمِ غَالِبِ بَنِي آدَمَ فِي الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ﷺ: "وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ" وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ، **وَمَعْنَاهُ**: أَنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنَ الْحِرْصِ الْمَذْمُومِ وَغَيْرِهِ مِنَ المذمومات. اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).

٢٤ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتلُ أَحدهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا في سَبيلِ اللهِ فيُقْتَلُ، ثُمَّ يتُوبُ اللهُ عَلَى القَاتلِ فيُسْلِم فيُسْتَشْهَدُ». مُتَّفَقٌ عليه [1].

الشرح:

أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تقدمت ترجمته، وهو عبد الرحمن بن صخر، من المكثرين في رواية حديث النبي ﷺ.

(يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) فيه إثبات صفة الضحك لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، وهكذا يجب علينا أن نثبت لله عَزَّوَجَلَّ كل ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله صل الله عليه وسلم، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وقد تقدم معنا إثبات صفة الفرح، وهكذا صفة الضحك، والعجب، وغير ذلك من الصفات، وتأتي في موطنها إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [سورة هود: ١٠٧].

(إِلَى رَجُلَيْنِ) أي: إلى صنفين، وليس إلى رجل بعينه ورجل بعينه.

(يَقْتلُ أَحدهُمَا الآخَرَ) إذ كان أحدهما يقاتل في صف الكفار، والآخر يقاتل في صف المسلمين، فقُتل الذي في صف المسلمين.

(يُقَاتِلُ هَذَا في سَبيلِ اللهِ) أي مع أهل الإسلام، (فَيُقْتَلُ) يتقدم في الشهادة.

(ثُمَّ يتُوبُ اللهُ عَلَى القَاتلِ فَيُسْلِم) يتأخر في الاسلام، ويتأخر في الشهادة.

(فَيُسْتَشْهَدُ) فكلاهما يدخل الجنة.

وهذا مختصر للكلام على باب التوبة، وحقها أكثر من هذا، وقد تكلمت عن شروطها في رسالة مختصرة بعنوان (شروط التوبة).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٢٨) و (١٢٩).

٣- باب الصبر

وهذا باب عظيم من أبواب الدين، يحتاجه السالك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهو من أسباب النصر والظفر في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فقد قال النبي ﷺ: «**فإذا لقيتموهم فاصبروا**»، وأما الآخرة فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠].

والصبر عند أهل العلم من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، إذ أن الصبر يحتاجه المكلف على طاعة الله، وعن نواهي الله، وعلى أقدار الله، فإذا تحلى المسلم بالصبر آجره الله الأجر العظيم كما سمعتم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠]، وهذا دليل على هذه المنزلة.

وسيأتي معنا في الأحاديث المروية وقبل ذلك في الآيات القرآنية ما يدل على فضيلة هذه المنزلة، وقد ذكرت في كتابي (الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية): الصبر، فإن الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ ينتصر به، ويغلب به، وينال العلم بعد توفيق الله عَزَّوَجَلَّ فيها جميعا به، ويعمل بالعلم به، أما من أراد أن يدعو إلى الله بغير صبر فسرعان ما ينقطع، فإن أكثر الناس يتنكرون للدعوة، كما قال ورقة بن نوفل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للنبي ﷺ: ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا أوذي وعودي.

وكان من أوائل أوامر الله لمحمد رسول الله ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة الطور: ٤٨]، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المزمل: ١٠]، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: ١٢٧]، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: ٤٨]، ووصية موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨].

*** وقد قلت في كتابي "فتح الخلاق بذكر جمل من محاسن ومساوئ الأخلاق**

(والصبر عند العلماء ينقسم إلى:

١- صبرٌ على طاعة الله.

٢- وصبرٌ عن معصية الله

٣- وصبرٌ على أقدار الله

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران:٢٠٠]

فالصبر من أوسع أبواب الفلاح فلا فلاح للمرء في الدارين إلا بملازمة الصبر والا لحقه الخسارة بقدر تفريطه في هذه الشعيرة العظيمة.

وقد قال النبي ﷺ: «وَما أُعْطِيَ أَحَدٌ مِن عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ»، سبحان الله ما اعظم أعطية الله عَزَّوَجَلَّ للعباد وما اكثر ما ينعم الله عَزَّوَجَلَّ به على العباد ومع ذلك ما أعطي مثل الصبر نعم لان الصبر دليلٌ على الكرم والشجاعة ورباطة الجأش والإيمان بالقدر وغير ذلك.

فعلى المسلم أن يحقق هذه الشعيرة العظيمة في جميع شأنه فالنصر مع الصبر والفرج يأتي بعد الصبر وعجبـًا لشأن المسلم والمؤمن في حياته كما في حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ إنْ أصابَتْه سرَّاءُ شكَرَ وإنْ أصابَتْه ضرَّاءُ صبَرَ وكان خيرًا له وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمنِ».

حياة المؤمن على أكمل الحياة؛ لأنه طائعٌ لله عَزَّوَجَلَّ في حال رخائه وشدته في حال سرائه وضرائه؛ في حال غناه وفقره؛ في جميع أحواله؛ لهذا ذكر النبي ﷺ أن هذا الحال عجب لأن الناس على غير ذلك اذا أعطي لم يشكر وإذا منع لم يصبر: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞﴾[العلق]

وشاهدنا: أن الإنسان يجب عليه أن يلازم الصبر اذا أراد الظفر في الدنيا والأخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠]

الله أكبر ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في الصدقات أنه يضاعفها إلى عشر أمثالها؛ إلى سبعمائة ضعف لكن الصابر يوفى الأجر بغير حساب: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:٢٠])). اهـ

وقد ألف في الصبر غير واحد من أهل العلم، ومن أوسعها وأشملها كتاب بن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى (عدة الصابرين)، فقد ذكر في ذلك الكتاب ما يحتاج إليه المتعبد والمتنسك لله عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]، **وقال تعالى:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٥]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة الشورى: ٤٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٣]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة محمد: ٣١]، **وَالآياتُ في الأمر بالصَّبْرِ وَبَيانِ فَضْلِهِ كَثيرةٌ مَعْرُوفةٌ.**

الشرح:

(﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾) أي بما لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ من الأجر العظيم.

(﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾) الحسنة بعشر أمثالها كما سيأتي معنا، ومع ذلك الصابر يضاعف له الأجر أكثر من ذلك.

(﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾) صبر على ما ناله من الناس، وغفر لهم، وتجاوز عنهم، فإن ذلك من عزم الأمور، أي: من عزمات الأمور التي إنما يقوم بها الأقوياء، الذين يتقربون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالصبر على البلواء.

(﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾) أي: على قضاء حاجاتكم، وعلى تفريج كرباتكم وعلى تيسير أموركم، وقد كان الأنبياء إذا حزبهم أمر فزعوا إلى الصلاة، وهكذا كانوا يتحلون بالصبر، كما سيأتي قول النبي ﷺ: «**رحم الله موسى أوذي بأكثر من هذا فصبر**».

قوله: (﴿نَعْلَمَ﴾) المراد بالعلم هنا علم وقوع، وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ بكل شيء عليم.

(﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾) والمجاهدة إنما تكون مع الصبر.

(﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾) في حال لقي الأعداء، وفي حال السراء والضراء، ولو ترك الناس بدون بلاء لم يتميز الصالح من الطالح، لكن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يبتلي الناس؛ حتى يعلم المفسد من المصلح، والصابر من غيره، فيثيب الصابرين، ويبلغهم درجات العز والتمكين، والآيات في الأمر بالصبر وبيان فضله كثيرة معروفة، حتى ذكر أنها أكثر من تسعين آية في القرآن، أو نحو ذلك، دالة على فضيلة الصبر، دعك من أفعال المؤمنين وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين.

٢٥ - وعن أبي مالكٍ الحارث بن عاصم الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيمانِ، والحَمدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ، وَسُبْحَانَ الله والحَمدُ لله تَملآن - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدقةُ بُرهَانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والقُرْآنُ حُجةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائعٌ نَفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُها». رواه مسلم[1].

الشرح:

هذا الحديث انتقد على الإمام مسلم بأن أبا سلام لم يسمعه من أبي مالك الأشعري، ومع ذلك قد عُلمت الواسطة عند النسائي وغيره، فهو من طريق عبد الرحمن بن غَنم رَحِمَهُٱللَّهُ.

قوله: (الحارث بن عاصم) قال المحقق: هو وهم منه رَحِمَهُٱللَّهُ، قال الحافظ (الإصابة): ذكر النووي في (الأذكار) عند ذكر حديث أبي مالك الأشعري «الطهور شطر الإيمان»: أن اسمه الحارث بن عاصم، وهذا وهم، وإنما هو كعب بن عاصم أو الحارث بن الحارث. انتهى.

قال: قلت: لم أجد في الصحابة الحارث بن عاصم، وأما قول الحافظ: أنه الحارث بن الحارث فقد رده الحافظ نفسه في (التهذيب)؛ لأن أبا مالك متقدم الوفاة عن الحارث بن الحارث، فإما أن يكون هو كعب بن عاصم كما جزم به ابن عبد البر في (الاستيعاب)، والذهبي في (تجريد أسماء الصحابة)، وإما أن يكون مشهورا بكنيته والله أعلم.

(١) حديث رقم: (٢٢٣).

وأما معنى الحديث: فقول النبي ﷺ: **(الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيمان)** اختلف العلماء في هذا المعنى، وكان من أقربها: أن المراد بالإيمان: الصلاة، والطهور أي: الوضوء هو شطرها إذ لا تصح إلا به، ولهذا ذكر مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث في كتاب الطهارة، أول حديث في ذلك الموطن.

وقيل: المراد بالطهور أيضا: الإيمان، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: ٤]، المراد به الطهارة من الشرك، والبدع، والمعاصي، وغير ذلك.

(والحَمدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ) فضيلة الحمد لله عَزَّوَجَلَّ، وهي متضمنة لإثبات الكمال لله عَزَّوَجَلَّ، وتنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقائص.

(وَسُبْحَانَ الله والحَمدُ لله تَملآن – أَوْ تَمْلأُ – مَا بَينَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ) جمع بين التسبيح والتحميد؛ لأن التسبيح تنزيه، والتحميد إثبات للكمال المقدس، والله عَزَّوَجَلَّ موصوف بالنفي والإثبات، النفي للإثبات لبيان ما لله من الصفات، والنفي لتنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقائص، ويثبت لله عَزَّوَجَلَّ من كل صفة منفية كمال الضد.

(والصَّلاةُ نُورٌ) نور في الدنيا، ونور في القبر، ونور في القيامة؛ لأنها من أفضل الأعمال بعد الشهادتين، وسيأتي الكلام عنها في موطنه.

(والصَّدقةُ بُرهَانٌ) برهان على إيمان صاحبها، إذ أنه ينفق من ماله ابتغاء مرضات الله.

(والصَّبْرُ ضِياءٌ) وهذا هو الشاهد من ذكر الحديث في هذا الموطن، ضياء للعبد يستضيء به في خضم هذه الحياة التي تتلاطم فيها الفتن، وتظلم بها القلوب، ومع ذلك المؤمن في فسحة من أمره، وفي راحة من شأنه.

(والقُرْآنُ حُجةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) حجة لك إن عملت به، كما قال النبي ﷺ: "**الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ**»، فمن عمل بالقرآن كان حجة له عند الله يشهد له ويشفع له، «**مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةٌ ثَلاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ**».

ومن لم يعمل به كان حجة عليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف: ٢-٣].

(كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو) (كل) من ألفاظ العموم، المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر والسني، والمبتدع، كل الناس يغدو.

(فَبَائِعٌ نَفسَهُ) من الله بالعمل الصالح، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [سورة التوبة: ١١١].

(فَمُعْتِقُهَا) من غضب الله وعقابه وناره.

(أَوْ مُوبِقُها) باع نفسه من الشيطان، فأوردها الموارد.

٢٦ - وعن أبي سَعيد سعدِ بن مالكِ بنِ سنانٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلوا رسولَ الله ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِندَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيءٍ بِيَدِهِ: «مَا يَكُنْ عِنْدي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ». مُتَّفَقٌ عليه[1].

الشرح:

قوله: (سعد بن مالك) هو أبو سعيد الخدري، من المكثرين في رواية حديث النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه: البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) (١٢٤).

(أَنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ) والأنصار هم الأوس والخزرج الذين آووا النبي ﷺ، وناصروه، وامتدحهم الله عَزَّوَجَلَّ في آيات من كتابه.

(سَألوا رسولَ الله ﷺ فَأعْطَاهُمْ)؛ لأن لهم حق في الفيء والغنيمة، وإنما كانوا يسألونه لهذا المعنى، وإلا فإن الصحابة رَضِوَانُاللَّهِعَلَيْهِمْ في غاية من الزهد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [سورة الحشر: ٩].

(ثُمَّ سَألوهُ فَأعْطَاهُمْ) دليل على كرم النبي ﷺ، وعدم تذمره ممن يسأله إن كان عنده شيء.

(حَتَّى نَفِدَ مَا عِندَهُ) أي انتهى ما عنده، وكثير ما يذهب ما عند النبي ﷺ، ففي غزوة حنين وهي من أكثر الغزوات التي غنم فيها المسلمون في عهد النبي ﷺ إلا أنه ألف بها الناس، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصن مائة من الإبل، ومرداس الأسلمي خمسين من الإبل، وصفوان بن أمية مائة، ثم مائة، ثم مائة، حتى أسلم، وكان يعطي الرجل الغنم بين الجبلين.

(فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيءٍ بِيَدِهِ) كالمعتذر لهم، وكالدال لهم على أكرم الصفات وأحسن الهيئات، فإن النبي ﷺ كان ناصحا، محبا لأمته الخير.

(مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْر فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ) وهكذا ينبغي للمسلمين أن يكونوا مع إخوانهم، لا سيما من وُكل شيئا من أمرهم، كأن يكون شيخا لهم، أو قائما على شؤونهم، فإنه لا يألوا جهدا في التوسعة عليهم، والإنفاق عليهم، والبذل من أجلهم.

ثم دلهم على ما هو أنفع: **(وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ)** العفة شأنها عظيم، أن تستعف عما في أيدي الناس، فيكرمك الله عَزَّوَجَلَّ بأن الجزاء من جنس العمل، أن الله يرزقك العفة، كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى**».

(وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ) يصبر إن أصابته حاجة، إلا ما لا بد منه، فعند أن يستغني عن التطلع إلى الناس يغنه الله من فضله، كما قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

(وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ) هذا هو الشاهد، أن الإنسان يتصبر؛ لأن الحلم بالتحلم والصبر بالتصبر، أما كل شيء يأتيك تغضب وتنتقم وتسخط وإذا بك لا تستطيع أن تتحمل شيئا، لكن لا بد أن تصبر على زوجك، على ولدك، على أخيك، على ابنك، على طالبك، على جارك، على جميع الناس، من أجل أن تنصر عليه، تنصر بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، وتؤجر على هذا الصبر.

(وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ) فضل الله كثير، فضل الله عظيم لكن الصبر من أعظم فضائل الله على المسلمين؛ لأن بالصبر يرزق العلم، والعمل والعفة، والسلامة من الذنوب والمعاصي، والصبر على أقدار الله، على ما تأتي الأدلة.

٢٧ – وعن أبي يحيى صهيب بن سنانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «عَجَبًا لأمْرِ المُؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ، ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِن: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وإنْ أصَابَتْهُ ضَراءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ». رواه مسلم[1].

الشرح:

(صهيب بن سنان الرومي) أصله عربي، وإنما أخذوه صغيرا فباعوه، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٠٧]، إذ أنه حين أراد الهجرة تعرض له كفار قريش، فقال: لقد علمتم أني من أرماكم، فوالله لا تصلوا إلي حتى أقتل بعدد ما معي من النبل، ثم

(١) حديث رقم: (٢٩٩٩).

أجالدكم بالسيف قالوا: يا صهيب جئتنا فقيرا وتخرج غنيا، قال: المال تريدون؟ هو في مكان كذا، فأنزل الله الآية.

(عَجَبًا لأمْرِ المُؤمنِ) والمراد بالعجب هنا: أنه يؤجر في جميع الحالات، في شدته ورخائه، وفي سرائه وضرائه، وهذا أمر يدل على عظيم منة الله عَزَّوَجَلَّ على عباده، وهذا ليس لغير المؤمن. الكافر قد يبتلى في ماله، وفي ولده، وفي جسده، لكن ليس له أجر، والمؤمن حين يبتلى في نفسه أو ماله أو ولده له أجر، كما ستأتي الأحاديث.

(إنَّ أمْرَهُ) أي: ما يقع له في الحياة، **(كُلَّهُ لَهُ خيرٌ)** وهذا إذا احتسب، وإذا لم يحتسب اختلف أهل العلم فقال بعضهم: لا يؤجر، والصحيح أنه يؤجر، لكن لا يكون أجره كمن يحتسب.

(إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ) من سعة رزق، وصلاح ولد، وزوجة، وسعة دار، وحسن مركب، وغير ذلك، شكر الله عَزَّوَجَلَّ على مزيد نعمه، وعظيم مننه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٧].

(وإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ) وهذا أمر ينبغي أن يتنافس فيه الناس، وهو شكر الله في الرخاء، والصبر على تقديره في الضراء، فهو أحكم الحاكمين.

وربما تكون لك المنزلة في الآخرة لا تبلغها بصلاة، ولا صيام، ولا حج، فتبتلى في نفسك ومالك، حتى يبلغك الله عَزَّوَجَلَّ تلك المنزلة.

وربما يكون عندك من الذنوب ما يحتاج إلى تكفير، فيبتلك الله عَزَّوَجَلَّ في نفسك وأهلك ومالك، حتى تكفر عنك تلك الذنوب، سيأتي معنا: «**وإذا أحب الله قوما ابتلاهم**»، وفي الحديث: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**».

والعجب منا أننا في هذا الزمان ما نريد أن نبتلى بشيء، طلاب علم خلاص، لا نريد أن يتكلم فينا، ولا يطعن فينا، ولا نتعب في مطعم ومشرب وملبس ومسكن، هذا سبيل مؤداه إلى هذا، إلا إذا أراد الله أن يرحم أحدا بعدمها.

وإلا الصحابة مبدؤهم الهجرة، فارقوا البلدان والأوطان، والأموال، والزوجات والأبناء، أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما أسلم أبوه إلا في آخر الأيام، وزوجته أبت الإسلام بعض زوجاته، وهكذا أبناؤه بعضهم ما أسلم إلا متأخرا، وشُردوا من بلدانهم، ثم جاء التمكين بعد ذلك، فلا بد أن نروض أنفسنا على أنك قد تؤذى، ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا أوذي وعودي، والنبي ﷺ أقره على هذا الخبر، والشرع أقره على هذا الخبر، أنه ما من أحد يدعو إلى الله إلا يؤذى ويعادى، فالصبر.

والصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

٢٨ - وعن أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبيُّ ﷺ (في مرضه الذي مات فيه) جَعلَ يَتَغَشَّاهُ الكَرْبُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وَاكَربَ أَبَتَاهُ، فقَالَ: «لَيسَ عَلَى أَبيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ»، فَلَمَّا مَاتَ، قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ، جَنَّةُ الفِردَوسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ، إِلَى جبْرِيلَ نَنْعَاهُ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يا أنس أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُول الله ﷺ التُّرَابَ؟ رواه البخاري(١).

الشرح:

أنس هو أبو حمزة الأنصاري، خادم النبي ﷺ، خدمه عشر سنين، ودعا له النبي ﷺ أن يبارك الله في أهله وماله وولده، فذُكر أنه دفن بيده من صلبه ثمانين واحدا.

(١) حديث رقم: (٤٤٦٢).

قوله: (لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ) أي في مرض الموت، فإن هذا يسمى بالثقل.

((في مرضه الذي مات فيه)) قال المحقق: ما بين القوسين ليس في صحيح البخاري عن أنس، وهو في الصحيحين في قصة أخرى عن ابن عباس وعائشه رضي الله عنهم، ووجدت عند البيهقي في (السنن الكبرى): مرضه الذي قُبض فيه، عن أنس رضي الله عنه.

(جَعلَ يَتَغَشَّاهُ الكَرْبُ) كرب الموت، ومعالجة خروج النفس، ولذلك كان يقول ﷺ: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**»، سكرات وشدة؛ لأن النفس ما تحب أن تفارق البدن، ومع ذلك لا بد أن تفارقه.

(فاطمة رضي الله عنها) وهي فاطمة بنت محمد، سيدة نساء العالمين رضي الله عنها، أمها خديجة بنت خويلد، زوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وولدها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأحب بيت النبي ﷺ إليه، وأول من أدرك النبي ﷺ من أهل بيته، فقد ماتت بعده بستة أشهر.

(وَاكَربَ أَبَتَاهُ) تترحم على أبيها من الكرب الذي رأته على وجهه، فإنه كان يضع على وجهه خميصة، فإذا اغتم كشفها.

(فقَالَ: لَيْسَ عَلَى أَبيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ) يعني آخر الكرب للمؤمن الدنيا سكرات الموت، ثم ينتقل إلى حياة عزيزة عظيمة، ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ [سورة المؤمنون: ٩٩-٩١]، هذه حياتهم.

وفيه دليل على أن الأنبياء لا يفتنون في قبورهم، ولا تنالهم الضغطة.

(فَلَمَّا مَاتَ، قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ) وهذا ليس بنداء غير الله، وإنما هذا من كلام العرب أنهم قد يضعون حرفا في النداء ولا يريدون به المناداة، ولكنها تخبر أن

أباها أجاب ربا دعاه، وهو القائل: "**لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ**»، وكان يقول: «**اللهم في الرفيق الأعلى**».

(**يَا أَبَتَاهُ، جَنَّةُ الفِردَوسِ مَأْوَاهُ**) وأدلة هذا كثيرة، فإن النبي ﷺ في أعلى الجنة.

(**يَا أَبَتَاهُ، إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ**) وهذا ليس من النعي المحرم، وإنما هو من الإخبار بموت أبيها، ومفارقة الروح الجسد، وجبريل كان جليسه وأنيسه، يأتي بوحي الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الكلام من فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يدل على صبرها، ولم يذكر عنها أنها شقت جيبا، أو لطمت خدا، أو تسخطت، مع أن الميت محمد ﷺ وهذا موقف حرج، ليس فقط موت الأب، بل موت محمد ﷺ، خير البرية، وأزكى البشرية.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٨/ ١٤٩-١٥٠): وَأما قَوْلهَا بعد أَن قبض: "وَا أبتاه.. إِلَخْ" فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ إِذَا كَانَ الْمَيِّتُ مُتَّصِفًا بِهَا لَا يُمْنَعُ ذِكْرُهُ لَهَا بَعْدَ مَوْتِهِ بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَتْ فِيهِ ظَاهِرًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِهِ أَوْ لَا يَتَحَقَّقُ اتِّصَافُهُ بِهَا فَيَدْخُلُ فِي الْمَنْعِ وَنَبَّهَ هُنَا عَلَى أَنَّ الْمِزِّيَّ ذَكَرَ كَلَامَ فَاطِمَةَ هَذَا فِي مُسْنَدِ أَنَسٍ وَهُوَ مُتَعَقَّبٌ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ أَوَّلُهُ فِي مُسْنَدِهِ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ حَضَرَهُ لَكِنِ الْأَخِيرُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ فَاطِمَةَ فَحَقُّهُ أَنْ يَذْكُرَ فِي رِوَايَةِ أنس عَنْهَا. اهـ

(**أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ التُّرَابَ**) يعني امتثالًا لقدر الله ولأمره، وإلا فإن وضع الميت في القبر شديد على النفس، يوارى ويدفن، لكن هذا أمر الله، وهذا شرع الله، ولو تركوه بدون دفن لخالفوا أمر الله وشرع الله.

ولما مات أخونا إسماعيل سُهير رَحِمَهُ اللَّهُ قال فيه أمين الحجوري بيتا عجيبا قال:

أيـا اسـماعيل إن الكـفء منـا ... يهــل عليــك في القبــر الترابــا

يعني المحب لك يبادر إلى وضع التراب في قبرك عليك؛ لأن هذا أمر كوني وأمر قدري وأمر شرعي.

٢٩ - وعن أبي زَيدٍ أُسَامَةَ بنِ زيدِ بنِ حارثةَ مَوْلَى رسولِ الله ﷺ وحِبِّه وابنِ حبِّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أرْسَلَتْ بنْتُ النَّبيِّ ﷺ: إنَّ ابْني قَد احْتُضِرَ فَاشْهَدنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِىءُ السَّلامَ، ويقُولُ: «إنَّ لله مَا أخَذَ وَلَهُ مَا أعطَى، وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى فَلتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَرسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيهِ لَيَأْتِيَنَّهَا.

فقامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابتٍ، وَرجَالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ الصَّبيُّ، فَأقْعَدَهُ في حِجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ، فَفَاضَتْ عَيناهُ، فَقالَ سَعدٌ: يَا رسولَ الله، مَا هَذَا؟ فَقالَ: «هذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ»، وفي رواية: «فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

وَمَعنَى «تَقَعْقَعُ»: تَتحرَّكُ وتَضْطَرِبُ.

الشرح:

أما (أسامة بن زيد) فهو أسامة بن زيد بن حارثة، سمي بالحب بن الحب؛ لأن النبي ﷺ يحبه ويحبه أباه، وأمه أم أيمن، بركة الحبشية، ولذلك كان أسودا، وطُعن في نسبه، فلما رأى مجززا قدميه مع قدمي أبيه قال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، ففرح النبي ﷺ بقول القافة.

(١) أخرجه: البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

ولم يُذكر في القرآن من الصحابة باسمه غير زيد بن حارثة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧]، وقُتل زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، وأما أسامة بن زيد فقد جعله رسول الله ﷺ قائدا على الجيش المتوجه للثأر لهؤلاء، وكان في الجيش أبو بكر وعمر، فطعنوا في إمرته، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَعِيبُونَ أُسَامَةَ وَتَطْعَنُونَ فِي إِمَارَتِهِ، وَقَدْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فِي أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَإِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَأَحَبَّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّ، وَإِنَّ ابْنَهُ هَذَا بَعْدَهُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا، فَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ**».

زوجه النبي ﷺ فاطمة بن قيس.

(مَوْلَى رسولِ الله ﷺ)؛ لأن أباه كان مولا لخديجة، فوهبته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ، فأعتقه رسول الله ﷺ وجعله منهم، «**مولى القوم منهم**».

وأصله يمني، من كلب، جاء أبوه فخيره النبي ﷺ بين أبيه وبين نفسه، فاختار رسول الله ﷺ.

(أَرْسَلَتْ بنْتُ النَّبيِّ ﷺ) قيل: بأنها زينب.

(إِنَّ ابْني قَد احْتُضِرَ فَاشْهَدنَا) لمواساته، ولدعائه، ولغير ذلك، والتبرك أيضا به.

(فَأَرْسَلَ يُقْرِىءُ السَّلاَمَ) أي مع الرسول: سلم عليها، إما كان مشغولا، أو أنه لم يرد الذهاب لشيء.

(ويقُولُ: إنَّ لله مَا أخَذَ وَلَهُ مَا أعطَى) علمها كيفية الاحتساب والصبر، إن لله ما أخذ من الابن أو الزوج أو الأب، أو غير ذلك، وله ما أعطى من المال والولد.

(وَكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِأجَلٍ مُسَمًّى) ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [سورة الرعد: ٣٨]، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [سورة الأعراف: ٣٤]، وفي هذا رد على

الرافضة الذين يزعمون ويقولون بخرم الأجل، فإن النبي ﷺ أخبر أن هذا الطفل مات بأجل مسمى، ولم يخرم أجله.

(فَلتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ) تصبر على المصاب، وتحتسب الأجر والثواب.

(فَأَرسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيهِ لَيَأتِينَّهَا) لدلها على أبيها، ولمحبتها لحضوره، وفيه إبرار المقسم.

(فقامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ) حرص الصحابة على مرافقة النبي ﷺ، وسعد بن عبادة من خيرة الأنصار، ذكروا في ترجمته: أنه قتلته الجن، وقالوا:

نحـــن قتلنـــا ســـيد الخـــزرج ســـعد بـــن عبـــادة
رمينـــــاه بســـــهمين فلـــم يخطـــئ فـــؤاده

(وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ) أنصاري أيضا، مات بالطاعون، وفضائله كثيرة، ولعله يأتي ذكر بعضها.

(وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ) أنصاري ممن حفظ القرآن.

(وَزَيْدُ بْنُ ثَابتٍ) أنصاري، وكان من أعلم الناس بالمواريث، ومن كتاب الوحي.

فانظر إلى حرص الأنصار على مجالسة النبي ﷺ.

(فَرُفعَ إِلَى رَسُول الله ﷺ الصَّبيُّ) أي قُرب إليه، يدعو له ويترحم عليه.

(وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ): تضطرب للخروج.

أي: أنه في سياقة النزع الأخير، تكون النفس تكاد تخرج، ثم ترجع، لا ترجع إلى داخل الجسم، ولا تخرج من الجسم، تبقى تقعقع في مكانها، ويتألم منها الميت، انظر إذا عندك في حلقك نخامة أو في حلقك شيء من الأذى كم تبقى تسعل لإزالته أو تتنحنح لإزالة؟ أما هذا لا يستطيع النحنحة، ولا يستطيع ردا لها، ولا يستطيع إخراجا لها، حالة من أسوأ حالات يمر بها الإنسان حشرجة الصدور، وتشنجت الأصابع،

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يخفف عنا سكرات الموت، وإلا بعض إنسان ربما يبقى في السكرات ليلة كاملة، وبعضهم ساعات، وبعضهم أيام.

ولولا أن الله عَزَّوَجَلَّ يخرج الروح على درجات لربما فر الميت وما قبضت روحه إلا هو في الشعاب والأودية، لكن ما يستطيع يقوم، تخور قواه، حتى الأنين يصعب عليه، والتنفس يشق عليه، وربما جاءه ضيقة نفس، النبي ﷺ كان إذا اغتم كشفها، ما يحب أن يرى النور، وما بقي معه إلا أن يـرحمه الله، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤﴾، الأقارب حوله ينظرون والروح في حلقومه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾ [سورة الواقعة: ٨٥-٨٧]، ارجعوها وامنعوها من الخروج، لكن لا يستطيعون هذا ولا هذا.

ويبقى مسكين فاتحا لفيه، وإن لم يكن معه من يحوطه ويرعاه قد جاءت الذباب على أنفه وفمه، ونشف ريقه، وبعضهم يكون ذلك بعد مرض، وقد يبس اللحم على عظامه، والله آية من آيات الله، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ [سورة يس: ٥٠]، انظر إلى فاطمة بنت النبي ﷺ لما دخلت عليه قالت: واكرب أبتاه، رأت ما فيه من الكرب والشدة، قال: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».

(فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) أي عينا النبي ﷺ.

(يَا رسولَ الله، مَا هَذَا) لماذا تبكي وأنت تنهى عن التسخط، وتنهى عن كذا وكذا؟

(هذِهِ رَحمَةٌ) ففرق النبي ﷺ بين البكاء، وبين ما هو من التسخط والنياحة، «**إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا**» وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ.

(هذِهِ رَحمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ) ترق بها القلوب وتوجل، وربما كانت سببا للتوبة والإنابة، وتدل على رقة قلب المسلم، وأما قلب المجرم ربما لا يتأثر بشيء.

(فِي قُلُوبِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ) أي أن الناس يتفاوتون فيها.

فيه: فضيلة الرحمة، وأنها من أسباب رحمة الله عَزَّوَجَلَّ لعباده.

٣٠ - وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رسولَ الله** ﷺ **قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فيمَنْ كَانَ قَبلَكمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ للمَلِكِ: إنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، وَكانَ في طريقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعدَ إِلَيْه وسَمِعَ كَلامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهبِ وَقَعَدَ إِلَيْه، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذلِكَ إِلَى الرَّاهِب، فَقَالَ: إِذَا خَشيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أهلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.**

فَبَيْنَما هُوَ عَلَى ذلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: اليَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمضِي النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَها ومَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهبَ فَأَخبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَومَ أفْضَل منِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكانَ الغُلامُ يُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، ويداوي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاء، فَسَمِعَ جَليسٌ لِلملِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فأتاه بِهَدَايا كَثيرَةٍ، فَقَالَ: مَا ها هُنَا لَكَ أَجْمعُ إنْ أنتَ شَفَيتَنِي، فَقَالَ: إنّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشفِي اللهُ تَعَالَى، فَإنْ آمَنْتَ باللهِ تَعَالَى دَعَوتُ اللهَ

فَشفَاكَ، فآمَنَ بالله تَعالَى فَشفَاهُ اللهُ تَعالَى، فَأَتَى المَلِكَ فَجلسَ إِلَيْهِ كَما كَانَ يَجلِسُ، فقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيري؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلامِ، فَجيء بالغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِىء الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ، فقَالَ: إنِّي لا أَشْفي أحدًا، إِنَّمَا يَشفِي الله تَعَالَى.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيء بالرَّاهِبِ فقيلَ لَهُ: ارجِعْ عَنْ دِينكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ فَوُضِعَ المِنْشَارُ فِي مَفْرق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَليسِ المَلِكِ فقيل لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوضِعَ المِنْشَارُ فِي مَفْرِق رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلَامِ فقيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فاصْعَدُوا بِهِ الجَبَل، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلاَّ فاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ، فقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفنيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبلُ فَسَقَطُوا، وَجاءَ يَمشي إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ الله تعَالَى.

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ وتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإِنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ وإِلاَّ فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنيهِمْ بمَا شِئْتَ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفينةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فعلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانيهمُ الله تَعَالَى، فَقَالَ لِلمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعيدٍ وَاحِدٍ وتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ

السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بسْم الله ربِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِني، فَإنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذلِكَ قَتَلْتَني.

فَجمَعَ النَّاسَ في صَعيد واحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فوقعَ في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ والله نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بأفْواهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وأُضْرِمَ فيهَا النِّيرانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحموهُ فيها، أَوْ قيلَ لَهُ: اقتَحِمْ فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءت امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمهْ اصْبِري فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ». رواه مسلم[1].

«ذِروَةُ الجَبَلِ»: أعْلاهُ، وَهيَ بكَسْر الذَّال المُعْجَمَة وَضَمِّهَا.

و«القُرْقُورُ»: بضَمِّ القَافَينِ نَوعٌ مِنَ السُّفُن.

وَ«الصَّعيدُ» هُنَا: الأَرضُ البَارِزَةُ.

وَ«الأُخْدُودُ» الشُّقُوقُ في الأَرضِ كَالنَّهْرِ الصَّغير.

وَ«أُضْرِمَ»: أوْقدَ، وَ «انْكَفَأتْ» أَي: انْقَلَبَتْ، وَ «تَقَاعَسَتْ»: تَوَقفت وجبنت.

الشرح:

هذا حديث عظيم، قص فيه النبي ﷺ قصة هؤلاء القوم الذين أشار الله عَزَّوَجَلَّ إلى ذكرهم في القرآن بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ

(١) حديث رقم: (٣٠٠٥).

بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [سورة البروج: ١-٨] الآيات.

وقد اختلف في هؤلاء النفر، فقيل: بأنهم كانوا في نجران، وقيل في غير ذلك وسبب مقتلهم: أن ملكهم كان يقال له: ذو نواس الحميري، وكان يهوديا، فأسلم هؤلاء، أي دخلوا في دين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فما كان منه إلا أن قتلهم.

والحديث فيه فوائد كثيرة، وساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى؛ لبيان فضيلة الصبر، فكيف صبر الراهب على أن وُشر بالمنشار، وصبر الوزير على أن وشر بالمنشار، ولم يتغيروا عن دينهم، وهكذا الغلام كانت الدعوة أحب إليه من نفسه، وإلا لو بقي محافظا على نفسه أو أراد الهروب لسلم من هذا المجرم، ولكنه أراد الدعوة إلى الله.

وفيه: أن الهداية بيد الله، قد تكون أسباب الهداية في الشيء الذي لا يتوقع، فهذا الملك قتل الناس؛ لأنه يمانع دخولهم في دين يخالف ما هو عليه من ادعاء الربوبية ومع ذلك عجز عن قتل غلام، استعان عليه بالجيوش، صعدوا به الجبل سلم، البحر، سلم، لا سبيل إلى قتله إلا بالاستعانة بربه.

قال: **(إِنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي)** هذا خبر من صادق، **(حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ)** دعوة، وإقامة حجة، وبيان عجز هذا المجرم، ثم تربطني على خشبة أو وتد، ثم تأخذ سهما من كنانتي وتقول: بسم الله رب الغلام أي: أستعين بالله رب هذا الغلام على قتل الغلام، هو يقول: أنه رب فعجز عن قتل الغلام، فحين قال: بسم الله رب الغلام وقتله قال الناس: آمنا برب الغلام؛ لأنهم عرفوا أنه الرب القادر، الذي لا يعجزه شيء، حتى أن ربهم المزعوم عجز عن قتل غلام مع كثرة جنوده وحشمه وخدمه، حتى استعان برب الغلام.

فعند ذلك دخل الناس في دين الله أفواجا، بدعوة، فغلبوا جانب الدعوة بارك الله فيكم، ولو كانت نصرة الدعوة في ذهاب أرواحنا، وإن كانت نصرة الدعوة في ذهاب أموالنا، وإن كانت نصرة الدعوة في خوفنا وعدم أمننا، فلنغلب الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ومما يدل على الصبر أيضا: صبر الناس على النار، خدت لهم الأخاديد ويلقون فيها على أن يتركوا دينهم فأبوا، أمة من الأمم تحرق بالنار حتى تترك دينها، لم يرضوا لأنفسهم بالتقية، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨]، ومع ذلك لم يرضوا لأنفسهم بالتقية، أو أنها لم تكن مشروعة في عهدهم، المهم أنهم ضحوا بأنفسهم من أجل دين الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ [سورة البروج: ٥] يعني: توقد حتى يخرج منها اللهب، وجُعل على كل أخدود رجال يقحمون الناس فيها إقحاما، ويتضاحكون، ومع ذلك يصبر المؤمنون، حتى جاء دور امرأة معها ابن لها تحمله بين يديها، فجبنت وتقاعست، ربما خوفا على الابن، لا خوفا على أنفسها، فإذا بأمر الله الدال على أنهم على الحق يأتي من قول الغلام: **(يَا أُمهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ)** وتذهب بنفسها وولدها في النار، وهم في الجنة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، كما أخبر في القرآن.

والحديث له فوائد كثيرة، وهذا مما قصه النبي ﷺ من أخبار الأمم السابقة، والله المستعان.

وانظر إلى حرص أهل الدنيا على الدنيا، يستخدمون السحرة والمشعوذين والكهان والعرافين من أجل دنياهم، إذا هلك ساحر جاؤوا بساحر.

وفيه أن الهداية بيد الله، انظر إلى هذا الغلام صغير السن، ومع ذلك كيف وفقه الله لقبول الحق من الراهب، وكيف وفقه الله للاختبار حتى يعلم المحق منهم من

المبطل؛ لأنه لا يعلم أن الساحر كان على باطل، لكن وجد علما يناقض علم الساحر فعند ذلك أراد الاختبار، وقد عرف الله، فسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يريه آية تدل على أن الراهب على حق، فأراه الله تلك الآية العظيمة، إذ أن الناس قد منعوا السير بسبب دابة، وغلام يقتل تلك الدابة، ويخلصهم منها.

وفيه: كرامات الأولياء التي يؤمن بها أهل السنة وينكرها أهل البدعة، فجعل الله على يديه من الآيات من شفاء المرضى، ومداواة الجرحى، واستجابة الدعاء، ما تدل على إكرام الله عَزَّوَجَلَّ له.

وفيه: أن الله إذا كفاك فقد كفاك، فانظر كيف يدعو هذا الغلام بقوله: **(اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ)** فيكفيه الله إياهم، فهذه دعوة طيبة ذكرها النبي ﷺ مقرا لها، فصارت من شرعنا، فإذا تخوفت شيئا فلك أن تقول: اللهم اكفنيه بما شئت، أو: اكفنيهم بما شئت، ادع الله بهذا الدعاء ويستجيب الله عَزَّوَجَلَّ لك.

(وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ) وهكذا شأن كثير من ملوك الدنيا يتخذون السحرة، يتعرفون لهم، ويتكهنون لهم، ويظنون أنهم يثبتون لهم ملكهم.

(إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ) دليل على شدة عناية أهل الباطل بباطلهم، لا سيما صغار السن، يعتنى بهم؛ فإن العلم في الصغر كالنقش في الحجر، فعلى أهل السنة أن يأخذوا من هذا الحديث العناية بصغارهم، فإنهم صغار قوم وغدا سيكون شأنهم أنهم كبار قوم.

(فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ) ما كان من الله أو من الوحي فإنه محبوب إلى أصحاب الفطر والقلوب المستقيمة.

(فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ) تأديبا له.

(إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ) يعني معاريض، هذا ليس بكذب صريح، وإنما فيه معاريض، (حبسني أهلي) يكون الشأن فيه: شغلت بعض شيء بأهلي، وهكذا (حبسني الساحر) شغلت بعض شيء بأمر الساحر، وأيضا عند الاضطرار لا بأس من مثل هذا الكذب؛ لاتقاء الضرر الذي سينزل به، وأيضا كذب ليس فيه ضرر على أحد.

(إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ) دابة من السبعيات.

(فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا) هذا من كرامات الأولياء.

(أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي)؛ لما رأى من الكرامة التي أكرمه الله بها.

(وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى) وهذا أمر وقدر كوني، أن الابتلاء لا بد أن ينزل بأهل الاستقامة؛ ليمحصوا وليمكنوا بعدها، «يبتلى الناس على قدر إيمانهم».

(وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ) أي بإذن الله.

(إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: ٨٠] فضيلة التوحيد.

(دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ) عظيم منزلة الدعاء.

(مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي) مباشرة صرح بالإسلام والإيمان.

(فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ) شدة أهل الباطل على أهل الحق، وهذه من سنن الجاهلية التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه (مسائل الجاهلية): إذا عجزوا عن رد الحجة بالحجة عمدوا إلى الضرب والسجن والقتل ونحو ذلك.

(فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ)؛ لشدة ما نزل به.

(ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى) الثبات على الدين مطلوب، والدعاء به في القرآن والسنة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [سورة آل عمران: ٨]، «يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

(فَأَبَى) الثبات على الدين، كما في الحديث: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ:... وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

(فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ) لا إله إلا الله ما أصبر هذا الرجل! وهل كان الإكراه عندهم غير معمول به أم أنه آثر الثبات حتى الممات؟

(اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا) أراد التنكيل به.

(فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَ شِئْتَ) فاستجاب الله له دعوته.

(وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ) قد يقول قائل: لماذا لم يفر بعد أن خلصه الله منهم؟ أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يظهر عظيم شأن الإسلام في قلوب أصحابه، وأن يدعو الناس إلى هذا الخير الذي علمه الله إياه.

(فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ): سفينة صغيرة.

(كَفَانِيهِمُ اللهُ) الذي لا يعجزه شيء.

(إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ) يعني قطع عليه الطريق حتى لا يبقى يرسله كل يوم مع أناس.

(تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ): مكان واحد، بحيث الجميع يرى الموقف.

(وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ) يربطه؛ ليريهم ضعفه.

(ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ) بمعنى: أنك لن تستطيع قتلي إلا بالاستعانة بربي فإذا استعنت بربي استطعت قتلي.

(ثُمَّ ارْمِنِي) وهذا يستدل به أصحاب العمليات الانتحارية، ولا دلالة لهم فيه؛ فإن هذا لم يقتل نفسه، وهذا أيضا فعل ما فعل في دلالة الملك على هذا؛ لدعوة الناس إلى الخير، فإن الدعوة بلسان الحال أبلغ من الدعوة بلسان المقال.

(فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ) هذا دليل على فهم الناس، انظر كيف فهموا من قوله: (بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ) على أن الرب هو الخالق المالك الرازق المدبر، وأنه المستحق للعبادة، وهذا الملك الذي يدعي الربوبية ويتبجح بها صار شأنه أن يعجز عن قتل طفل.

(قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ) كأنهم يؤمنون بالله في الجملة، ولذلك أقسموا به.

(فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ) وهذا من أشد ما يكون من العذاب، نسأل الله السلامة والعافية.

(فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ) هذا أحد الصغار الذين تكلموا في المهد.

هذا حديث عظيم، وألفاظه مفهومة، وتفسيره يزيده عجمة، فهو من أبلغ ما يكون، كلام النبي الكريم الواضح، وفيه من العبر ما الله به عليم، فيه فضيلة مجالسة الصالحين والسماع منهم، وفي الصبر على البلاء، وفيه الثبات على الحق حتى تلقى الله.

وفيه: دلائل وكرامات من إهلاك الدابة، وهكذا من شفاء المرضى، والأكمه والأبرص، وهكذا كلام الطفل الصغير الذي مثله لا يتكلم.

وقيل: بأن هذه القصة هي المشار إليها بقول لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١
وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا
قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ

ﭐلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠﴾ [سورة البروج: ١-١٠].

واختلفوا في هؤلاء من هم؟ فقيل: بأنهم كانوا في نجران، والذي قام عليهم هو ذو نواس الحميري، وكان يهوديا، ولذلك السبب غزى بعد ذلك الحبشة وبلاد اليمن بحيث استنصروا بقيصر، فلم ينصرهم، وردهم إلى أرض الحبشة، فإنهم كانوا على دينه، والله المستعان وعليه التكلان.

٣١ - وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبكي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فإِنَّكَ لم تُصَبْ بمُصِيبَتِي وَلَمْ تَعرِفْهُ، فَقيلَ لَهَا: إنَّه النَّبيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابينَ، فقالتْ: لَمْ أعْرِفك، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

وفي رواية لمسلم: «تبكي عَلَى صَبيٍّ لَهَا».

الشرح:

قوله: (مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبكي عِنْدَ قَبْرٍ) استدل به بعض أهل العلم على جواز زيارة المرأة للقبور؛ لأن النبي ﷺ لم ينهها عن زيارة القبر، وإنما نهاها عن التسخط والتضجر، وهذه مسألة خلافية بين أهل العلم فجمهور أهل العلم يمنعون المرأة من زيارة القبر، مستدلين بحديث ابن عباس وأبي هريرة: "لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ»، أو: زائرات القبور، والقول الصحيح أنها تزور القبر؛ لأن عائشة سألت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا سألت النبي ﷺ كيف تقول إذا زرت القبر؟ قال: «قولي: السلام عليكم دار قوم مؤمنين»،

(١) أخرجه: البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦) (١٥).

والنبي ﷺ يقول: «**زوروا القبور فإنها تذكركم الموت**»، وهذا أمر عام للرجال والنساء.

وفيه: جواز البكاء على الميت، إلا إذا صاحبه النوح، فالنوح حرام.

(اتّقِي اللهَ وَاصْبِرِي) فيه أن تقوى الله سبب لكل فلاح، وسبب للاستجابة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وفيه فضيلة الصبر.

(فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فإِنَّكَ لم تُصَبْ بمُصِيبَتِي) فيه أن المصاب قد يتكلم بألفاظ لو راعى نفسه وأتى بما يوافق الشرع فهو أولى له وأفضل له.

(وَلَمْ تَعرِفْهُ) أي: لم تعرف النبي ﷺ.

(فَأَتَتْ بَابَ النَّبيِّ ﷺ)؛ لأنها تعرف قدره، تعرف منزلته والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعزرونه ويوقرونه، فلذلك لما علمت أنه النبي ﷺ ذهبت إليه تعتذر من فعلها.

(فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ) كحال الملوك والأمراء وغيرهم، والنبي صل الله عليه وسلم قد عصمه الله، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [سورة المائدة: ٦٧].

(فقالتْ: لَمْ أعْرِفكَ) أي: لو عرفتك لالتزمت أمرك.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الحديث: فِيهِ الِاعْتِذَارُ إِلَى أَهْلِ الْفَضْلِ إِذَا أَسَاءَ الْإِنْسَانُ أَدَبَهُ مَعَهُمْ وَفِيهِ. اهـ

(فقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى) يعني حصر الصبر الممدوح عند الصدمة الأولى، وأما بعد ذلك فكل الناس يتروضون، انظر في مبدئ المصيبة ربما هذا يصيح وهذا يبكي، بعد نصف ساعة وقد هدأت القلوب وارتاحت، والله المستعان.

٣٢ – وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَا لعَبدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجَنَّة». رواه البخاري[(١)].

الشرح:

(أبو هريرة) هو عبد الرحمن بن صخر، من المكثرين في حديث النبي ﷺ، وهو يمني من دوس، واختُلف في اسمه إلى ثلاثين اسما.

قوله: (يَقُولُ اللهُ تَعَالَى) هذا الحديث يسمى الحديث القدسي، ولفظه من الله إلا أنه لا يقرأ به في الصلاة، وفيه إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف وصوت يسمع.

(مَا لعَبدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ) أي أن جزاء المؤمن عظيم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة.

(إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا) أي قُبض حبيبه وصاحبه، ومن قد صفت له مودته من أهل الدنيا، وهذا يكون في الأبناء، والأخوة، والآباء، والزوجة، وحتى في الأصحاب، فهو لفظ عام، أن الإنسان يصبر حتى على موت الصاحب والصديق، ويحتسب هذا عند الله عَزَّوَجَلَّ.

(ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاَّ الجَنَّة) فيه فضيلة الاحتساب، فهو أنه يصبر على المصيبة ويرجو من الله عَزَّوَجَلَّ أجرها، (إلاَّ الجَنَّة) أي أن جزاء الصبر على المصيبة الجنة، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠].

---

(١) حديث رقم: (٦٤٢٤).

٣٣ – وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سَأَلَتْ رسولَ الله ﷺ عَنِ الطّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ تعالى رَحْمَةً للْمُؤْمِنينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ في الطَّاعُونِ فيمكثُ في بلدِهِ صَابرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يصيبُهُ إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أجْرِ الشَّهيدِ». رواه البخاري [(١)].

الشرح:

قوله: (أَنَّهَا سَأَلَتْ رسولَ الله ﷺ عَنِ الطّاعُونِ) الطاعون: مرض يصيب الإنسان، ومثاله الآن مثل الجديعاء، هذا المرض الذي يصعد في الجسم، وتكون حبوب منتشرة في الجسم، وهو شهادة لكل مسلم، قال النبي ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»، ولذلك لما ظهر في معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعل يبرك ويدعو بالبركة فيه، حتى مات فيه هو وأهل بيته.

وكان مرض خطير إلى عهود قريبة، كان إذا دخل في بلد ربما يهلك كثير من الناس، فيعجزون عن الدفن، وعن المداواة، وهو مرض معدي، ولذلك قال النبي ﷺ: «إذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف.

(فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يشَاءُ) يهلكهم به، يسلط عليهم الطاعون فيهلكهم ويذهبهم.

(فَجَعَلَهُ اللهُ تعالى رَحْمَةً للْمُؤْمِنينَ) يصيب المؤمن فيكون كفارة لذنبه، ورفعا لدرجته، إلى غير ذلك.

(١) حديث رقم: (٣٤٧٤).

(فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونِ فيمكثُ فِي بلدِهِ صَابرًا مُحْتَسِبًا) لا يفر ولا يخرج منه.

(يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يصيبُهُ إلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إلاَّ كَانَ لَهُ مِثْلُ أجْرِ الشّهيدِ) في هذا أن له مثل أجر الشهيد، وقد جاء مصرحا أن الطاعون شهادة لكل مسلم.

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١٠/ ١٩٣) بعد أن ذكر الحديث وجملة أحاديث في الباب: فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الطَّاعُونَ قَدْ يَقَعُ عُقُوبَةً بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ فَكَيْفَ يَكُونُ شَهَادَةً وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ بَلْ تَحْصُلُ لَهُ دَرَجَةُ الشَّهَادَةِ لِعُمُومِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ وَلَا سِيَّمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَبْلَهُ عَنْ أَنَسٍ الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ حُصُولِ دَرَجَةِ الشَّهَادَةِ لِمَنِ اجْتَرَحَ السَّيِّئَاتِ مُسَاوَاةُ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ فِي الْمَنْزِلَةِ لِأَنَّ دَرَجَاتِ الشُّهَدَاءِ مُتَفَاوِتَةٌ كَنَظِيرِهِ مِنَ الْعُصَاةِ إِذَا قُتِلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ أَنْ يَحْصُلَ لِمَنْ وَقَعَ بِهِ الطَّاعُونُ أَجْرُ الشَّهَادَةِ وَلَا سِيَّمَا وَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يُبَاشِرْ تِلْكَ الْفَاحِشَةَ وَإِنَّمَا عَمَّهُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ لِتَقَاعُدِهِمْ عَنْ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ. اهـ

٣٤ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عبدي بحَبيبتَيه فَصَبرَ عَوَّضتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ» يريد عينيه، رواه البخاري[1].

الشرح:

قوله: (إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَالَ) هذا حديث قدسي كما تقدم معنا.

---

(١) حديث رقم: (٥٦٥٣).

(إِذَا ابْتَلَيْتُ عبدي بحَبيبتَيه) فيه أن الأمراض والأسقام التي تصيب الإنسان هي من البلاء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود: ٧]، «**لازال البلاء بالمؤمن والمؤمنة حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة**».

(بحَبيبتَيه) أي عينيه، سميت حبيبتين أولا: لشكلهما ومنظرهما، الأمر الثاني: لمحبة الإنسان لهما؛ لأن الإنسان إذا فقد العينين لحقه ضرر كثير، ربما لا يستطيع الخروج لقضاء حاجته، ولا يستطيع تناول الطعام والشراب إلا إذا قرب منه، إلى غير ذلك، والله المستعان.

(فَصَبرَ عَوَّضتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ) وهذا وعد من الله عَزَّوَجَلَّ في شرط الصبر والاحتساب، والله المستعان.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري" (١٠/ ١١٦): وَهَذَا أَعْظَمُ الْعِوَضِ لِأَنَّ الِالْتِذَاذَ بِالْبَصَرِ يَفْنَى بِفَنَاءِ الدُّنْيَا وَالِالْتِذَاذَ بِالْجَنَّةِ بَاقٍ بِبَقَائِهَا وَهُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِك بِالشّرطِ الْمَذْكُورِ وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ فِيهِ قَيْدٌ آخَرُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ بِلَفْظِ: «إِذَا أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْكَ فَصَبَرْتَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ وَاحْتَسَبْتَ» فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الصَّبْرَ النَّافِعَ هُوَ مَا يَكُونُ فِي أَوَّلِ وُقُوعِ الْبَلَاءِ فَيُفَوِّضُ وَيُسَلِّمُ وَإِلَّا فَمَتَى تَضَجَّرَ وَتَقَلَّقَ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ ثُمَّ يَئِسَ فَيَصْبِرُ لَا يَكُونُ حَصَلَ الْمَقْصُودُ. اهـ

٣٥ - وعن عطَاء بن أبي رَباحٍ، قَالَ: قَالَ لي ابنُ عَباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّة؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هذِهِ المَرْأَةُ السَّوداءُ أتتِ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إنّي أُصْرَعُ، وإِنِّي أتكَشَّفُ، فادْعُ الله تَعَالَى لي. قَالَ: «إنْ شئْتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإنْ شئْتِ دَعَوتُ الله تَعَالَى أَنْ يُعَافِيكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إنِّي أتكَشَّفُ فَادعُ الله أَنْ لا أَتَكَشَّف، فَدَعَا لَهَا. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

عطا بن أبي رباح يمني، وكان أسود اللون، ولذلك جاءه عبد الملك بن مروان وطلب منه أن يعلم أبناءه العلم، فقال: يجلسوا مع الناس، فقال لهم: يا أبنائي اطلبوا العلم، فما احتقرت نفسي إلا عند هذا العبد الأسود، وهو من خواص تلاميذ ابن عباس، وفي طبقته عدة أعطية، وفيه: أن العلم سبب رفعة العبد في الدارين.

(ابن عباس) وهو عبد الله بن عباس، أبو العباس.

(أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّة؟)؛ لأن النبي ﷺ قد بشرها بالجنة، وإلا فمذهب أهل السنة والجماعة عدم الجزم لأحد بجنة أو نار إلا لمن جزم له النبي ﷺ.

(فَقُلْتُ: بَلَى) أي: نعم.

(فَقَالَتْ: إنّي أُصْرَعُ) والصرع قد يكون له سببان: صرع بسبب المرض، وصرع بسبب المس الشيطاني، والله أعلم أي الصرعين كان فيها، ولعله الذي بسبب المرض.

(وإِنِّي أتكَشَّفُ) والتكشف هي أنها إذا صرعت ربما أزاحت الثياب من على بدنها، فتظهر عورتها للناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(فادْعُ الله تَعَالَى لِي) فيه بركة الدعاء، ولذلك سألت النبي ﷺ أن يدعو لها.

وفيه سؤال الدعاء من الرجل الصالح، وأن هذا ليس بممنوع، والناس في هذه المسألة ثلاثة مذاهب: منهم من يمنع مسألة الدعاء مطلقًا، ومنهم من يتجوز في طلب الدعاء من كل أحد، والصحيح أنه يكتفي بسؤال الرجل الصالح للدعاء له، ويدخل فيه أيضا المرأة الصالحة؛ لقول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أويس القرني: «فَإِذَا لَقِيتَهُ فَسْأَلْهُ يَسْتَغْفِرْ لَكَ يَا عُمَرُ».

(قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ) أي: على المرض، وهذا وعد من رسول الله ﷺ لها، ولعله بشارة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النبي ﷺ لا ينطق من نفسه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم: ٣-٤].

(وَإِنْ شِئْتِ دَعَوتُ الله تَعَالَى أَنْ يُعَافِيكِ) وهذا أيضا خبر دال على أنها لو سألت العافية لنالتها.

(فَقَالَتْ: أَصْبِرُ) وفي رواية قالت: لا أجعل الجنة خطرا، يعني الجنة قد وعدت بها وتخاطر بها من أجل دنيا فانية وصحة زائلة؟

(فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ) وهذا أيضا يدل على دينها، وعلى فقهها، لم تكتف بالصبر وتنال الجنة، بل سألت النبي ﷺ أن يدعو لها بالستر على نفسها، وفي هذا فضيلة الحجاب، وما يتعين على المرأة من ستر نفسها، فانظر إلى هذه المرأة مع أنها في حالة قد رُفع عنها القلم، في حال الصرع مرفوع عنها القلم، ومع ذلك سألت من النبي ﷺ أن يدعو لها ألا تتكشف، وألا تظهر منها العورة، والله المستعان.

* قلت في شرحي على "صحيح مسلم":

وفيه: فضيلة الصبر، إذ بشرت هذه المرأة بالجنة بسبب صبرها، **وفيها**: أن الجنة تنال بالأعمال الصالحة، لا مدخل للسواد أو البياض، والطول والعرض، والقبيلة

وعدمها في ذلك، فإن المؤمن يوم القيامة أبيض والكافر أسود، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [سورة آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

وفيه أن الصرع ينقسم إلى قسمين: صرع بسبب مرض جسماني، وصرع بسبب مس شيطاني.

وفيه سوء التكشف، لا سيما من النساء، وانظروا إلى هذه المرأة مع مرضها وتحب الستر، والآن كثير من النساء مع عافيتها تتعرض للتكشف، والله المستعان، «نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات». اهـ

٣٦ - وعن أبي عبد الرحمانِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِياءِ، صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرَبه قَوْمُهُ فَأدْمَوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَومي، فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ». مُتَّفَقٌ علَيهِ[١].

الشرح:

(عبد الرحمن بن مسعود) هو أبو عبد الرحمن الهذلي، أسلم قديما، وقال عنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنك غليم معلم**»، وقال عنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أتضحكون من دقة ساقيه؟ لهما في الميزان أثقل من أحد**»، وقد حفظ القرآن على عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسمع من في النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سبعين سورة، وهو القائل: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه، وله غير ذلك، وله غير ذلك من الفضائل.

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رسولِ الله ﷺ) أي: يسمع من النبي ﷺ وهو يخطبهم هذه الخطبة.

(يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِياءِ) أي: يُظهر كيف كان حاله مع قومه، فمثلا يقول: ضربوه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويشير هكذا، أو نحو هكذا، هذا النبي هو محمد ﷺ.

(ضَرَبه قَوْمُهُ فَأَدْمَوهُ) ضربوه بالسيف حتى كسروا الرباعية، وهشموا البيضة على رأسه، وسال دمه.

(وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ)؛ لشدة سيلانه، وفي هذا الحال العصيب لم يدعو عليهم، بل جعل يدعو لهم: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَومي، فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ) وقد استجاب الله دعوته، وغفر لكثير منهم حين دخلوا في الإسلام وهداهم.

وهذه القصة قريبة أو مثل قصة من يسمى بحبيب النجار، ذلك الرجل الذي قتله قومه، فلما دخل الجنة ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة يس: ٢٦-٢٧]، وهكذا المصلح المحتسب، لا يهمه أن يؤذى، ولكن يسعده أن يستجيب الناس لدين الله عَزَّوَجَلَّ، ويدخلون فيه أفواجا، والله المستعان.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتح "الباري" (٦/ ٥٢١): وَفِي صَحِيح بن حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، **قَالَ بن حِبَّانَ**: مَعْنَى هَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَّا شُجَّ وَجْهُهُ أَي اغْفِرْ لَهُمْ ذَنْبَهُمْ فِي شَجِّ وَجْهِي لَا أَنَّهُ أَرَادَ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ مُطْلَقًا إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأُجِيبَ وَلَوْ أُجِيبَ لَأَسْلَمُوا كُلُّهُمْ كَذَا قَالَ وَكَأَنَّهُ بَنَاهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَخَلَّفَ بَعْضُ دُعَائِهِ عَلَى بَعْضٍ أَوْ عَنْ بَعْضٍ وَفِيهِ نَظَرٌ لِثُبُوتِ أَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. اهـ

٣٧ - وعن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

و «**الوَصَبُ**»: المرض.

الشرح:

قوله: (**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ**) أي: من تعب، (**وَلَا وَصَبٍ**) أي: مرض، (**وَلَا هَمٍّ**): ما يلحقه من الغموم بسبب ديون، أو القلة، أو غير ذلك، (**وَلَا حَزَنٍ**) على فقيد أو غائب، (**وَلَا أذًى**) يلحقه من قريب أم من بعيد، (**وَلَا غَمٍّ**) وهو ما يلحق القلوب بسبب عدم القدرة على الإفصاح بما فيها.

(**حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا**) وهي ما يكون من الشجر أو الحديد ونحوه تدخل في الرجل.

(**إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**) يعني كانت كفارات، وسيأتي حديث: «**اصبروا فكل ما يصيب المسلم كفارة**».

* **وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":**

وهذا من عظيم فضل الله على المؤمنين، وإلا لهلكنا كما سيأتي في تفسير الآية في الحديث الآتي: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: ١٢٣]، مصيبة، لو أن كل عامل للسوء يجزى به مصيبة وهلكة وفتنة، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل كفارات، فلا يصل المسلم إلى ربه إلا وقد ذهبت كثير من ذنوبه.

---

(١) أخرجه: البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) (٥٢).

ومن هذه الكفارات: التوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحات، كالصلاة والصيام، والجمعة، والمشي إلى المساجد، وهكذا ما يصيبه من لأواء الدنيا وشدتها وهكذا سكرات الموت، وما في القبر من الفتنة والضمة ونحو ذلك، كل هذه كفارات، وأيضا الدعاء له، ولذلك شرعت صلاة الجنازة. اهـ

٣٨ - وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دخلتُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فقلت: يَا رسُولَ الله، إنَّكَ تُوْعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ: «أجَلْ، إنِّي أوعَكُ كمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُمْ» قلْتُ: ذلِكَ أن لَكَ أجْرينِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، ذلِكَ كَذلِكَ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى شَوْكَةٌ فَمَا فوقَهَا إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ [١].

وَ «الوَعْكُ»: مَغْثُ الحُمَّى، وَقيلَ: الحُمَّى.

الشرح:

(ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمن الهذلي أسلم قديما، وهو من أفاضل الصحابة، ومن حفاظ القرآن، وهو من المبشرين بالرفعة وثقل الميزان.

قوله: (دخلتُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ) أي: يعوده، وعيادة المريض من الأمور التي أمر النبي ﷺ بها على ما يأتي في بابه.

(وهو يُوعَكُ) أي: يتألم من الحمى ونحوها.

(فقلت: يَا رسُولَ الله، إنَّكَ تُوْعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا) أي أكثر من غيره.

(أجَلْ، إنِّي أوعَكُ كمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُمْ)؛ لأنه ﷺ أفضل ولأن البلاء على قدر الإيمان، ولأن الله عَزَّوَجَلَّ يرفع محمدا ﷺ بهذا البلاء.

---

(١) أخرجه: البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١) (٤٥).

(**قلْتُ: ذلِكَ أن لَكَ أجْرينِ؟**) وممن له أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، ورجل أدب امرأة أو جارية فعلمها فأحسن أدبها ثم أعتقها فتزوجها، وزوجات النبي ﷺ ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣١]، وهكذا النبي ﷺ قبل ذلك كما رأيت.

(**قَالَ: أَجَلْ، ذلِكَ كَذلِكَ**) أي: بسبب ذلك.

(**مَا مِنْ مُسْلِمٍ**) وهذا لفظ عام، يشمل الرجال والنساء.

(**يُصِيبُهُ أذًى**) أي نوع من أنواع الأذى، من السب والشتم، والجوع والمرض والسقم.

(**شَوْكَةٌ فَمَا فَوقَهَا**) ذكر الأدنى؛ ليدل على الأعلى.

(**إلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ**) والمراد بالسيئات في الغالب الصغائر، وأما الكبائر فإن صاحبها يحتاج إلى توبة.

(**كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**) وهذا مثل بليغ في تكفير السيئات، فإن بعض الأشجار قد لا تبقي فيها ورقة.

وفي الحديث أن النبي ﷺ دخل على أم مبشر وهي تسب الحمى، فقال: «**مالك يا أم مبشر تزفزفين؟**» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، قال: "**لَا تسبوا الْحمى فَإِنَّهَا تَنْفِي الذُّنُوب كَمَا يَنْفِي الْكِير خبث الْحَدِيد**».

*** قلت في شرحي على "صحيح مسلم":**

وهذا دليل على أن المرض كفارة لذنوب العباد، فما على العبد إلا أن يحتسب وقد اختلف السلف رضوان الله عليهم هل يُؤجر العبد بدون احتساب أم لا بد من الاحتساب؟ والذي يظهر أنه يؤجر مطلقا، احتسب أو لم يحتسب، صبر أم لم يصبر إلا أنه لو صبر كان أجره أكثر وأعظم وأبرك. اهـ

٣٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ». رواه البخاري[١].

وَضَبَطُوا «يُصِبْ» بفَتْح الصَّاد وكَسْرها.

الشرح:

قوله: (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا) أي: في الدنيا والآخرة.

(يُصِبْ مِنْهُ) أي: من الأسقام والأمراض، فتكفر خطاياه، وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: «هَلْ أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قَالَ: «حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَالدَّمِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا وَجَدْتُ هَذَا قَالَ: «يَا أَعْرَابِيُّ هَلْ أَخَذَكَ هَذَا الصُّدَاعُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الصُّدَاعُ؟ قَالَ: «عُرُوقٌ تَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ» قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا فَلَمَّا وَلَّى قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا».

ولذلك تجد أهل الكفر في صحة وتنعم، يأكلون ويتنعمون كما تأكل الأنعام ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [سورة محمد: ١٢]، وتجد المؤمن كالخامة من الزرع، تفيؤها الريح مرة، وتردها مرة، هكذا في جميع أحواله.

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في "فتح الباري" (١٠/ ١٠٨) بعد أن ذكر الحديث وجملة أحاديث في الباب: وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ لِأَنَّ الْآدَمِيَّ لَا يَنْفَكُّ غَالِبًا مِنْ أَلَمٍ بِسَبَبِ مَرَضٍ أَوْ هَمٍّ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ وَأَنَّ الْأَمْرَاضَ وَالْأَوْجَاعَ وَالْآلَامَ بَدَنِيَّةً كَانَتْ أَوْ قَلْبِيَّةً تُكَفِّرُ ذُنُوبَ مَنْ تَقَعُ لَهُ. اهـ

---

(١) حديث رقم: (٥٦٤٥).

٤٠ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خيرًا لِي، وَتَوفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيرًا لِي». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(أنس) وهو أبو حمزة الأنصاري، خادم النبي ﷺ.

الشرح:

قوله: (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ) أي: من الرجال والنساء، (المَوتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ)؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله، ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا.

(فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا) أي: إن كان قد ضاق به الحال، واشتد به المرض حتى احتاج إلى نوع من هذا الدعاء (فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيرًا لِي) أي وبارك لي فيها، لأن الحياة في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ رفعة للإنسان، والحياة في سبيل الله أفضل من الموت في سبيل الله، وذلك أن الحي كلما طال عمره زادت حسناته، ما من يوم إلا وهو يصلي خمس صلوات، وربما صام رمضان، وربما قرأ القرآن، فترفع له الدرجات، ويختم له بخير، فيكون حاله أفضل.

(وَتَوفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيرًا لي) رد الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والله بكل شيء عليم، وفي الأثر: وإذا أردت بعبادك فتنة فتوفني غير مفتون.

* قلت في شرحي على "صحيح مسلم" بعد ذكر الحديث وجملة أحاديث في الباب: في هذه الأحاديث التصريح بالنهي عن تمني الموت، وأن ذلك لا يجوز، وهل ذلك على الكراهة أو على التحريم؟ جمهور أهل العلم على الكراهة؛ لأنه ما سيكون إلا ما قدره الله عز و جل وقضاه، ثم إن الإنسان إذا مات انقطع عمله، «والمؤمن لا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) (١٠).

يزيده عمره إلا خيرًا»، ولو عاش يومًا بعد أخيه، أو أيامًا، أو سنةً، أو شهرًا، يناله الخير العظيم؛ لصلوات صلاها، ولصيام صامه، ولذكر جاء به، ولقرآن قرأه، ولصدقة أمضاها، إلى غير ذلك.

فالمؤمن عمره زيادة في الخير، والكافر عمره زيادة في الشر، فلذلك المؤمن لا يتمنى الموت؛ لأن تمني الموت في الغالب يصدر عن عدم رضى بالواقع الذي هو عليه، فربما يدخله التضجر، وعدم الصبر، والإنسان مأمور بالصبر، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [سورة النحل: ١٢٧]، ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠].

ثم أيضًا الآجال مكتوبة ومقدورة، وتمنيها لا يقدم فيها ولا يؤخر، ثم إن الله ، جعل مندوحة فلا يبقى الإنسان مع الحياة التي أتعبته، ولا يتمنى ما غُيب عنه ولكن ليجعل الخير إلى الله.

فلذلك يحرص الإنسان على طلب العلم، والتأليف، والتصنيف، والإفادة، وإن كان من أهل الجدة فليحرص على الصدقات الجاريات، كآبار الماء، وبناء المساجد، وطباعة الكتب، ووقف السبيل من المساكن، ونحو ذلك، إلى غير ذلك من الأبواب المشروعة في باب الوقف، وفي باب ما يكون صدقة بعد الممات. اهـ من "الإبهاج".

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري" (١٣/ ٢٢٢): **قَالَ النَّوَوِيُّ**: فِي الْحَدِيثِ التَّصْرِيحُ بِكَرَاهَةِ تَمَنِّي الْمَوْتِ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ مِنْ فَاقَةٍ أَوْ مِحْنَةٍ بِعَدُوٍّ وَنَحْوِهِ مِنْ مَشَاقِّ الدُّنْيَا فَأَمَّا إِذَا خَافَ ضَرَرًا أَوْ فِتْنَةً فِي دِينِهِ فَلَا كَرَاهَةَ فِيهِ لِمَفْهُوم هَذَا الْحَدِيث وَقَدْ فَعَلَهُ خلائق من السّلف لذَلِك وَفِيهِ أَنَّ مَنْ خَالَفَ فَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى الضُّرِّ وَتَمَنَّى الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ فَلْيَقُلِ الدُّعَاءَ الْمَذْكُورَ. **قُلْتُ**: ظَاهِرُ الْحَدِيثِ الْمَنْعُ مُطْلَقًا وَالِاقْتِصَارُ عَلَى

الدُّعَاءِ مُطْلَقًا لَكِنَّ الَّذِي قَالَهُ الشَّيْخُ لَا بَأْسَ بِهِ لِمَنْ وَقَعَ مِنْهُ التَّمَنِّي لِيَكُون عونا لَهُ عَلَى تَرْكِ التَّمَنِّي. اهـ

٤١ - وعن أبي عبد الله خَبَّاب بنِ الأَرتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رسولِ الله ﷺ وَهُوَ متوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظلِّ الكَعْبَةِ، فقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحفَرُ لَهُ فِي الأرضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ فَيُجْعَلُ نصفَين، وَيُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحْمِه وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْر حَتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَموتَ لَا يَخَافُ إلاَّ اللهَ والذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، ولكنكم تَسْتعجِلُونَ». رواه البخاري[1].

وفي رواية: «وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينا مِنَ المُشْرِكِينَ شدَّةً».

الشرح:

(أبي عبد الله خَبَّاب بنِ الأَرتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) من الصحابة السابقين الأولين، وهو الذي استنصر النبي ﷺ وهو في ظل الكعبة كما ترى.

قوله: (شَكَوْنَا إِلَى رسولِ الله ﷺ) فيه جواز الشكوى على الأمير ونحوه إذا كانت عنده قدرة في دفع ذلك الباطل، والصبر أفضل إذا كان الإنسان يستطيع التصبر.

(وَهُوَ متوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظلِّ الكَعْبَةِ) فيه أن النبي ﷺ بشر من البشر، يحتاج أن يستظل، وأن يجلس على بردة، أو يجلس على ما يمنعه من حرارة الأرض ونحوها.

(فقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنا؟) أي: ألا تسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينصرنا؟ ألا تدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يفرج عنا ما نحن فيه؟ (فقال) مع محبة صلى الله وسلم للاستنصار لهم، ولكن أراد أن يعلمهم أن هذا السبيل لا بد فيه من الصبر، وعلى قدر

(١) حديث رقم: (٣٦١٢) و(٣٨٥٢).

الصبر يكون الأجر، كما قال النبي ﷺ في حديث عائشة في الصحيح: «**أجرك على قدر نصبك**».

(**يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ فَيُجْعَلُ نصفَينِ، وَيُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ**) وقد تقدم معنا في حديث صهيب ما حل بالراهب والوزير من هذا العمل.

(**مَا يَصُدُّهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ**) يثبت، هل كان عندهم الإكراه غير معمول به أم أنهم آثروا الصبر في ذات الله عَزَّوَجَلَّ؟ لأن النبي ﷺ قد بين أن المكره لا حرج عليه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [سورة النحل: ١٠٦]، لكن يحمل هذا على أن الإكراه لم يكن عندهم، أو أنهم كانوا يؤثرون الموت على الصبر أحسن من الفتنة.

(**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْر حَتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَموتَ**) آمنا مطمئنا بسبب قوة الدين وظهوره.

(**وَقَدْ لَقِينا مِنَ المُشْرِكِينَ شدَّةً**) آذوهم، وصهروهم، وأحرقوهم، وهجروهم.

٤٢ – وعن ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَومُ حُنَيْنٍ آثَرَ رسولُ الله ﷺ نَاسًا في القِسْمَةِ، فَأعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابسٍ مئَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ بْنَ حصن مِثْلَ ذلِكَ، وَأَعطَى نَاسًا مِنْ أشْرافِ العَرَبِ وآثَرهُمْ يَوْمَئِذٍ في القسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: واللهِ إنَّ هذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُريدَ فيهَا وَجْهُ اللهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لأُخْبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ، فَأَتَيْتُهُ فَأخْبَرْتُهُ بمَا قَالَ، فتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كالصِّرْفِ، ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لم

يَعْدِلِ اللهُ وَرسولُهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبر»، فَقُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أرْفَعُ إِلَيْه بَعدَهَا حَدِيثًا. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وَقَوْلُهُ: «كالصِّرْفِ» هُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ المُهْمَلَةِ: وَهُوَ صِبْغٌ أَحْمَر.

الشرح:

قوله: (لَمَّا كَانَ يَومُ حُنَينٍ) وكان في السنة الثامنة من الهجرة في شوال، بعد فتح مكة.

(آثَرَ رسولُ الله ﷺ نَاسًا فِي القِسْمَةِ) أي: أعطى ناسا أكثر من غيرهم، يتألفهم على الإيمان، والإسلام.

(فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابسٍ مئَةً مِنَ الإِبلِ) وهذا كان سيد قومه.

(وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ بْنَ حصن مِثْلَ ذلِكَ) مائة من الإبل.

(وَأَعطَى نَاسًا مِنْ أَشْرافِ العَرَبِ) كمرداس، وكذلك كصفوان بن أمية، وكان يعطي الغنم بين الجبلين، وإعطاء مثل هؤلاء تأليفا لقومهم وتأليفا لهم، دعوة إلى الإسلام، وهو رسول الله ﷺ مخول بهذا، لو كان المال لأحد ما أعطاهم من مال الناس، وهو القائل: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام»، ولكنه أعطاهم من مال الله الذي خوله الله فيه.

(فَقَالَ رَجُلٌ: واللهِ إنَّ هذِهِ قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَا) هذا رجل لا يكون إلا من المنافقين، أما المسلم فرسول الله ﷺ معزر في قلبه موقر.

(وَمَا أُرِيدَ فيهَا وَجْهُ اللهِ) وهذا يمين فيها تألٍّ على الله، ما أدراه بما في قلب النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) (١٤٠).

(فَقُلْتُ: وَاللهِ لأُخْبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ) فيه جواز رفع الكلام إلى الحاكم وغيره، إذا كان فيه مصلحة شرعية.

(فَأَتَيْتُهُ فَأخْبَرتُهُ بمَا قَالَ، فَتَغيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كالصِّرْفِ) فيه أن الإنسان يتأثر وجهه بما في قلبه، ولذلك قال الله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة محمد: ٢٩-٣٠].

(ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لم يَعْدِلِ اللهُ وَرسولُهُ؟) إذا طُعن في عدالة الله وطعن في عدالة رسول الله صل الله عليه وسلم فأين تكون العدالة، وفي حديث أبي سعيد: «**لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أعدل**»، وفي رواية: «**لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل**».

(ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى) تذكر موسى وتأسى به؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠].

(قَدْ أُوذِيَ بأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبر) وموسى نبي بني إسرائيل، وهو من أولي العزم من الرسل، الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥]، فتأول النبي ﷺ هذه الآية وعمل بها، وموسى آذاه قومه أيما أذى، وصبر عليهم وعالجهم.

(فَقُلْتُ: لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْه بَعدَهَا حَدِيثًا) أي لا حرج، لا أرفع بعدها حديثًا؛ حتى لا يوغر صدر النبي ﷺ، وإذا كان من باطل سيظهره الله عليه.

*** قلت في شرحي على "صحيح مسلم":**

فيه: جواز رفع الحديث للحاجة، وفيه أن الإنسان يسوؤه الكلام في عدالته وفي استقامته.

والصرف: صبغ أحمر يصبغ به الجلود، ويسمى الدم أيضًا صرفًا.

وفي هذا: أن حكم الشرع: أن من سب النبي ﷺ كفر وقتل، إلا أنه لم يقتله النبي ﷺ ؛ لما يأتي: «**لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**»، إلا أن يعفو عنه في حياته، وأما بعد موت النبي ﷺ فلا عفو، لو سب إنسان الله عَزَّوَجَلَّ ثم تاب لم يؤاخذ، ولو سب النبي ﷺ ثم تاب قتل حدا لا ردة؛ لأن عرض النبي ﷺ لا يجوز لأحد أن يتنازل به، وقد قتلت تلك المرأة التي سبت النبي ﷺ، وقال النبي ﷺ: «**ألا اشهدوا أن دمها هدر**»، دمها هدر بسبب أنها وقعت في النبي ﷺ.

وفيه: ما عليه النبي ﷺ من الأحوال البشرية، يغضب كما يغضبون، ويرضى كما يرضون، لكن رضاه تبعا للدين، وغضبه تبعا للدين، لا ينتقم لنفسه، مع أن هذا طعن في عدالته والطعن في عدالة النبي ﷺ طعن في الله، لكن كانت المصلحة الشرعية أن لا يقتله، لو قتله ما درى الناس ما السبب وقالوا: انظروا محمد يقتل أصحابه.

انظروا إلى مسألتنا نحن لما نحذر من أهل البدع ما يقول الناس: هؤلاء يذبون عن الدين وينافحون عنه، هؤلاء ما سلم منهم أحد هؤلاء يتكلمون في أنفسهم، هؤلاء، ونحو هذا الكلام، فالناس قد لا يعلمون إلا بما خرج للعيان، ولا يفقهون.

وفي هذا الحديث: قبول خبر الواحد، فإن النبي ﷺ قبل من عبد الله بن مسعود هذا الخبر.

وفيه: جواز نقل الأمر إذا كانت المصلحة في ذلك.

وفيه: أن موسى عليه السلام أوذي أيما أذى، فصبر وتحمل لذات الله عَزَّوَجَلَّ.

وفيه: حرص الصحابة على عدم أذية النبي ﷺ، قال ابن مسعود: (**لَا جَرَمَ لَا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا**) يعني خشية أن يتألم النبي ﷺ، وأما حديث: «**لا يخبرني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا؛ إني أريد أن أخرج وأنا سليم الصدر**» حديث فيه كلام، لا يثبت عن النبي ﷺ.

والواقع أيضا أن النبي ﷺ صبر صبرا عظيما على المخالفين متأسيا بالأنبياء السابقين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠]، ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠].

وفيه: أنه إذا فسد الصالح أين تجد الصلاح؟ وهذا معنى قولهم:

يا معشر القراء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد؟

من قول النبي ﷺ: **(فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ)**.

وفيه: إثبات صفة العدل لله، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، لكمال عدله، وأما اسم العدل فلا يثبت لله.

وفيه: جواز عطف الرسول ﷺ على الله سبحانه وتعالى، وإنما جاء ذلك النهي في حق الصحابي لما قال: ومن يعصيهما فقد غوى؛ لأن الخطبة موطن تفصيل وبيان.

وفيه: الدعاء للرجل الصالح **(يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى)** وكان الصحابة ربما دعوا لبعضهم: يرحم الله فلانا.

وفيه: شدة فتنة المال، إذ أنه سبب لإساءة الظن بكثير من الناس.

وفيه: ما وُضع الحديث بسببه وهو تأنف من يطمع في ثباته وإيمانه.

وفيه: أنه لا يلزم المساواة في القسمة، إنما يلزم العدل، فالنبي ﷺ أعطى بعضهم مائة من الإبل، وبعضهم خمسين من الإبل، وبعضهم واد من الغنم، وبعضهم كذا وكذا. اهـ

٤٣- وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله بعبدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يومَ القِيَامَةِ».

وَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وَإنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»، رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن [1].

الشرح:

(١) أخرجه الترمذي حديث رقم: (٢٣٩٦)، وأخرجه ابن ماجه حديث رقم: (٤٠٣١)، من طريق سعد بن سنان عن أنس به، وقد اختلف في اسمه، فقيل: سعد بن سنان، وكذا هو في الترمذي وابن ماجه، وقيل: سنان بن سعد، وصوبه البخاري، كما في (تقريب التهذيب)، وسنان بن سعد وثقه ابن معين والعجلي، وقال البخاري: سنان بن سعد صالح مقارب الحديث.

قال أحمد: روى خمسة عشر حديثا منكرة، كلها ما أعرف منها واحدا، وتعقبه بن عدي يقول: وليس هذه الأحاديث مما يجب أن تترك أصلا، كما ذكره ابن حنبل، وذكره الدارقطني في (الضعفاء والمتروكين)، كما في (التهذيب وتذييله).

وقال النسائي وابن سعد: منكر الحديث، فسنان بن سعيد هذا ضعيف فالحديث ضعيف.

وللجزء الأول من الحديث شاهد من حديث عبد الله بن مغفل، رواه أحمد من طريق الحسن، عن عبد الله بن مغفل، وروايته عنه في (صحيح البخاري)، وجاء من حديث عمار، عزاه الهيثمي في (مجمع الزوائد) للطبراني، وقال: إسناده جيد، فالفقرة الأولى حسنة من أقل درجاتها، وإن كان كما يقول الهيثمي في حديث عمار فهي صحيحة.

والفقرة الثانية جاء لها شاهد عن محمود بن لبيد عند أحمد، بلفظ: «إذا أحب الله قوما ابتلاهم»، وهو حسن، وبقية فقراته: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»، شواهد كثيرة في الصحيحة وغيرها، حسنه الألباني. أفاده المحقق.

قوله: (إِذَا أَرَادَ الله بعبدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيا) حتى يأتي يوم القيامة وهو صاف من الذنوب، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠١].

ولا يجوز للإنسان أن يتمنى الشر، فإن النبي ﷺ دخل على رجل وهو في حالة فقال: «أَمَا كُنْتَ تَدْعُو؟ أَمَا كُنْتَ تَسْأَلُ رَبَّكَ العَافِيَةَ»؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ، إِنَّكَ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلَا كُنْتَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

(وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ) يعني يعافيه في جسده وماله، وهو يفعل ما شاء من الذنوب.

(حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يومَ القِيَامَةِ) فيجازى عليه.

(إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ) والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

(وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ) فيه إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية اللائقة بجلاله، وقد جاءت في القرآن والسنة بأدلة كثيرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢].

(فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا) من رضي بقدر الله فله الرضا من الله.

(وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ) من تسخط على الله عَزَّوَجَلَّ ناله سخط الله عَزَّوَجَلَّ وفيه إثبات صفة السخط لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية.

٤٤ - وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ ابنٌ لأبي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشتكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ، فَقُبِضَ الصَّبيُّ، فَلَمَّا رَجعَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ: مَا فَعلَ ابْنِي؟ قَالَتْ أمُّ سُلَيم وَهِيَ أمُّ الصَّبيِّ: هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ، فقَرَّبَتْ إليه العَشَاءَ فتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ منْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَتْ: وَارُوا الصَّبيَّ، فَلَمَّا أَصْبحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رسولَ الله ﷺ فَأخْبَرَهُ، فقَالَ: «أعَرَّسْتُمُ اللَّيلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا»، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقَالَ لي أَبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبيَّ ﷺ وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمَراتٍ، فَقَالَ: «أَمَعَهُ شَيءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، تَمَرَاتٌ، فَأَخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا في فِيِّ الصَّبيِّ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبدَ الله. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية للبُخَارِيِّ: قَالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ: فَرَأَيْتُ تِسعَةَ أَوْلادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَؤُوا القُرْآنَ، يَعْنِي: مِنْ أَوْلادِ عَبدِ الله المَولُودِ.

وَفي رواية لمسلمٍ: مَاتَ ابنٌ لأبي طَلْحَةَ مِنْ أمِّ سُلَيمٍ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فقَرَّبَتْ إِلَيْه عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبعَ وأَصَابَ مِنهَا قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيتَ لو أَنَّ قَومًا أعارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أن يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لا، فَقَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ، قَالَ: فَغَضِبَ، ثُمَّ قَالَ: تَرَكْتِنِي حَتَّى إِذَا تَلطَّخْتُ، ثُمَّ أَخْبَرتني بِابْنِي؟ فانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رسولَ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ فِي لَيْلَتِكُمَا»، قَالَ: فَحَمَلَتْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤) (٢٣).

قَالَ: وَكانَ رسولُ الله ﷺ في سَفَرٍ وَهيَ مَعَهُ، وَكَانَ رسولُ الله ﷺ إِذَا أَتى المَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لَا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا فَدَنَوا مِنَ المَدِينَة، فَضَرَبَهَا المَخَاضُ، فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وانْطَلَقَ رسولُ الله ﷺ. قَالَ: يَقُولَ أَبُو طَلْحَةَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبِّ أَنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رسولِ الله ﷺ إِذَا خَرَجَ وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ وَقَدِ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى، تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أجدُ، انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا وَضَرَبَهَا المَخَاضُ حِينَ قَدِمَا، فَوَلَدَت غُلامًا.

فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لا يُرْضِعْهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُو بِهِ عَلَى رسولِ الله ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رسولِ الله ﷺ... وَذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ.

الشرح:

هذا حديث عظيم، فيه فضيلة لأم سليم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، تلك الصابرة المحتسبة وفيه فضيلة لأبي طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأن النبي صل الله عليه وسلم دعا لهما بسبب ما وقع منهما من الصبر، وأكرمها الله بدل هذا الغلام الذي مات صغيرا غلاما آخر دعا له النبي ﷺ بالبركة والخير، فكان منه عشرة كلهم يحفظ القرآن.

وفيه كرامة من كرامات الأولياء، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ مسك مخاضها بعد أن كادت تتولد؛ حتى تدخل مع النبي ﷺ، وتخرج مع النبي ﷺ.

وفيه: حرص الصحابة رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ على التأسي بالنبي ﷺ.

وفيه: أن الحزن قد يحول بين الرجل وبين شيء مما يرغب فيه، لكن مع ذلك إن صبر وتعاطى أمره لا حرج في ذلك.

وفيه: الكنايات، إذ أن النبي ﷺ لم يقل: فعلت بها وفعلت، وإنما قال: أعرستم الليلة؟ ودعا لهما بالبركة في غابر ليلتهما.

وفيه: أن الليلة يقال للماضية قبل الظهر.

وفيه: تحنيك الأطفال، إلا أنه لطلب البركة خاص بالنبي ﷺ، وتحنيكهم من غير النبي ﷺ ليس لطلب البركة، وإنما لحكمة أخرى.

وفيه: أننا جميعًا عبارة عن عارية في هذه الدنيا، فينبغي أن لا نحزن إذا قبض ابن لنا، أي حزن يخرجنا عن المعهود، يخرجنا عن الصبر إلى التسخط، وإلا فإن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، كما قال النبي ﷺ.

٤٥ - وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّمَا الشَدِيدُ الَّذِي يَملكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

«وَالصُّرَعَةُ»: بضَمِّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ وأَصْلُهُ عِنْدَ العَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كَثيرًا.

الشرح:

يقول: (**ليس الشديد**) ليس القوي (**بالصرعة**) الذي يصرع الناس ويضربهم، ويتمكن من العلو عليهم، (**إنما الشديد**) حقًّا (**الذي يملك نفسه عند الغضب**)، فيتحكم في نفسه فلا يستجرينه الشيطان، ولا يحصل منه الأذى لنفسه ولا لغيره، وكظم الغيض يعتبر من أعلى مناقب المسلم، فإن كظم الغيض يدل على الحلم.

وقبض النفس من أعظم الأمور شدة، ولذلك وإن كتم غيظًا دعاه الله على رؤوس الخلائق يخيره من الحور العين ما شاء، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤]، سماه إحسانا؛ لشدة وقعه على النفوس.

---

(١) أخرجه: البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) (١٠٧).

٤٦ - وعن سُلَيْمَانَ بن صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ جالِسًا مَعَ النَّبيِّ ﷺ وَرَجُلانِ يَسْتَبَّانِ، وَأَحَدُهُمَا قدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، وانْتَفَخَتْ أوْدَاجُهُ، فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أعُوذ باللهِ منَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ، ذَهَبَ منْهُ مَا يَجِدُ»، فَقَالُوا لَهُ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «تَعَوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(سليمان بن صرد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وهو صحابي جليل.

الشرح:

في رواية أنه قال: أبيَّ جنون؟ وذلك لشدة الغضب.

قوله: (كُنْتُ جالِسًا مَعَ النَّبيِّ ﷺ وَرَجُلانِ يَسْتَبَّانِ) فيه أن الناس يقع بينهم ما يقع من الخلاف والمسابة، وسبب ذلك الشيطان.

(وَأَحَدُهُمَا قدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ) فيه تغير الوجه بسبب الغضب، وبسبب شدة تدفق الدم من القلب، ولذلك ينبغي للإنسان أن يجاهد نفسه في زوال الغضب، إما بالاغتسال والوضوء، أو بالجلوس، أو بالذهاب أو بغير ذلك، والله المستعان.

(فَقَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ») قد يقول قائل: لماذا لم يفرع بينهم النبي ﷺ؟ لعلهم كانوا بعيدين عنه، أو لعل الأصوات رُفعت ولم يتمكن من تهدئتهم؛ لأن المغضب قد لا يلتفت إلى من حوله.

(أعُوذ باللهِ منَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ) فيه أن الغضب قد يكون من دواعيه الشيطان؛ ليفسد على الإنسان استقامته، ويؤدي بالإنسان إلى الوقيعة في حفرة من النيران، والله المستعان، فالإنسان لا يطلق زوجته إلا بالغضب، ولا يضرب أولاده ربما إلا بالغضب، ولا يهاجر جاره إلا بالغضب، وكثير من الأمور يلحقها الغضب، كما سيأتي

(١) أخرجه: البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) (١٠٩).

معنا في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**لا تغضب**»، قال: فرأيت أن كل شر أصله الغضب، أو بمعنى الحديث.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٠].

(فَقَالُوا لَهُ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: تَعَوّذْ باللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيم) هذا أمر النبي ﷺ ينبغي أن يؤخذ؛ لما فيه من الخير، سواء كان الأمر للوجوب، أو كان الأمر للإرشاد، أو كان الأمر للاستحباب.

٤٧ - وعن معاذِ بنِ أَنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غيظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ». رواه أَبو داود والترمذي، وَقالَ: حديث حسن[١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦)، والترمذي (٢٠٢١) وقال: حديث حسن غريب. =

وأخرجه أيضا ابن ماجه وأحمد من طريق أبي مرحوم عبد الرحيم بن ميمون، عن سهل بن معاذ، عن أبيه به، وأبو مرحوم عبد الرحيم بن ميمون المدني ضعيف، وأبو مرحوم قد توبع عند أحمد، تابعه زبان بن فائد المصري، وهو ضعيف يعتبر به، وتابعه أيضا خير بالنعيم عند أبي نعيم في (الحلية)، وهو صدوق، والراوي عنه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وسهل بن معاذ قال ابن معين: ضعيف.

وذكره ابن حبان في (الثقات) لكن قال: لا يعتبر حديثه ما كان من رواية زبان بن فايد عنه، وقال في (المجروحين): منكر الحديث جدا، فلست أدري أوقع التخليط في حديث منه أو من زبان، فإن كان من أحدهما فالأخبار التي رواها ساقطة، وإنما اشتبه هذا؛ لأن روايته عن سهل زبان، إلا الشيء بعد الشيء.

قال العقيلي: منكر حديث، ووثقه العجلي، وذكر ابن خلفون في (الثقات)، وقال: هو عندي من الطبقة الرابعة من المحدثين، وذكر خليفة بن خياط في الطبقة الأولى من أهل مصر، وفي الطبقة الأولى من أهل الشام، كما في (التهذيب)، و(حاشية تهذيب الكمال).

وقال الحافظ في (التقريب): لا بأس به إلا في رواية زبان عنه.

وقال الخزرجي في (الخلاصة): وقيل صدوق، والضعف من الراوي عنه. انتهى. قال: حسن، يحسنه أكثر العلماء.

الشرح:

يقول: (مَنْ كَظَمَ غَيظًا) أي من جاهد نفسه بعدم إظهار ما في قلبه من الغيظ، وهو الحنق وشدة الغضب.

قال المباركفوري في "تحفة الأحوذي" (٦/ ١٤٠): قَالَ الطِّيبِيُّ وَإِنَّمَا حُمِدَ الْكَظْمُ لِأَنَّهُ قَهْرٌ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:: ﴿وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤]، اهـ.

(وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ): قادر أن ينتقم، قادر أن يتكلم، لكن تركه لله.

(دَعَاهُ اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ): ناداه، وفيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ كما هو معلوم من أدلة أخرى.

(حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ) والحور العين من أفضل نعيم الجنة، وهن نساء خلقهن الله عَزَّوَجَلَّ في الجنة، ولسن من أهل الدنيا.

قال في تحفة الأحوذي: قَالَ الطِّيبِيُّ وَإِنَّمَا حُمِدَ الْكَظْمُ لِأَنَّهُ قَهْرٌ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ

٤٨ - وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنبي ﷺ: أوصِني، قَالَ: «لا تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مِرارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ». رواه البخاري[١].

الشرح:

فيه: طلب الوصية من الرجل الصالح، ومن العالم، وفيه حرص النبي ﷺ على الوصية، وكونه يوصي كل واحد بما يناسب حاله، قال: (لَا تَغْضَبْ) مع أن الرجل

(١) حديث رقم: (٦١١٦).

كغيره من الناس يحتاج إلى وصية ربما في كثير من الأمور، ولكن النبي ﷺ أوصاه بأمر جامع: **(لَا تَغْضَبْ)** فشدة الغضب لا تأتي بخير.

فعلى الإنسان أن يعود نفسه سعة الصدر، وإذا عودت نفسك سعة الصدر توسع كما يقول بعضهم:

ووسع صدري للأذى كثرة الأذى وقد كان أحيانا يضيق بها صدري

انظر لما تكون في أول الأمر يرزقك الله عَزَّوَجَلَّ ولدا بمجرد ما يغضبك تضربه مجرد ما يصيح تقول لأمة: سكتيه، وهكذا، وإذا رزقك الله عدة أولاد يركبون عليك ويتضاربون عندك، ويتشاتمون، وأنت صابر، وإلا إذا كنت تريد أن تضربهم على كل خطأ ما هو إلا الحطمة، النبي ﷺ يقول: «**شر الرعاء الحطم**»، الحطمة: الذي يحطم رعيته، فالنبي ﷺ أمره بأمر جامع: **(لَا تَغْضَبْ)**.

وهذا الحديث قد جاء عن غير أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والمتكلم هو عم الفرزدق.

قال ابن حجر في "فتح الباري" (١٠/ ٥٢٠): **قَالَ الْخَطَّابِيُّ**: مَعْنَى قَوْلِهِ "لَا تَغْضَبِ" اجْتَنِبْ أَسْبَابَ الْغَضَبِ وَلَا تَتَعَرَّضْ لِمَا يَجْلِبُهُ، وَأَمَّا نَفْسُ الْغَضَبِ فَلَا يَتَأَتَّى النَّهْيُ عَنْهُ لِأَنَّهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ لَا يَزُولُ مِنَ الْجِبِلَّةِ، **وَقَالَ غَيْرُهُ**: مَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ الطَّبْعِ الْحَيَوَانِيِّ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّهْيِ لِأَنَّهُ مِنْ تَكْلِيفِ الْمُحَالِ، وَمَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ مَا يُكْتَسَبُ بِالرِّيَاضَةِ فَهُوَ الْمُرَادُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَغْضَبْ لِأَنَّ أَعْظَمَ مَا ينشأ عَنهُ الْغَضَبِ الْكِبْرُ لِكَوْنِهِ يَقَعُ عِنْدَ مُخَالَفَةِ أَمْرٍ يُرِيدُهُ فَيَحْمِلُهُ الْكِبْرُ عَلَى الْغَضَبِ فَالَّذِي يَتَوَاضَعُ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ يَسْلَمُ مِنْ شَرِّ الْغَضَبِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَفْعَلْ مَا يَأْمُرك بِهِ الْغَضَب وَقَالَ بن بَطَّالٍ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ إِنَّ مُجَاهَدَةَ النَّفْسِ أَشَدُّ مِنْ مُجَاهَدَةِ الْعَدُوِّ لِأَنَّهُ ﷺ جعَلَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ أَعْظَمَ النَّاسِ قُوَّةً وَقَالَ غَيْرُهُ لَعَلَّ السَّائِلَ كَانَ غَضُوبًا وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ كُلَّ أَحَدٍ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ فَلِهَذَا

اقْتَصَرَ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُ على ترك الْغَضَب وَقَالَ بن التِّينِ جَمَعَ ﷺ فِي قَوْلِهِ لَا تَغْضَبْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَنَّ الْغَضَب يؤول إِلَى التَّقَاطُعِ وَمَنْعِ الرِّفْقِ وَرُبَّمَا آلَ إِلَى أَنْ يُؤْذِيَ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِ فَيُنْتَقَصُ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ لَعَلَّهُ لَمَّا رَأَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ شَهْوَتِهِ وَمِنْ غَضَبِهِ وَكَانَتْ شَهْوَةُ السَّائِلِ مَكْسُورَةٌ فَلَمَّا سَأَلَ عَمَّا يَحْتَرِزُ بِهِ عَنِ الْقَبَائِحِ نَهَاهُ عَنِ الْغَضَبِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ ضَرَرًا مِنْ غَيْرِهِ وَأَنَّهُ إِذَا مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ حُصُولِهِ كَانَ قَدْ قَهَرَ أَقْوَى أَعْدَائِهِ انْتَهَى. اهـ

٤٩ - وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَا يَزَالُ البَلاَءُ بِالْمُؤمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ». رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن صحيح[1].

الشرح:

(مَا يَزَالُ البَلاَءُ بِالمُؤمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ) البلاء من مرض، من سقم، من فقر، من أذى صاحب جار، إلى غير ذلك.

(فِي نَفسِهِ ووَلَدِهِ وَمَالِهِ) ويؤجر الإنسان على كل ما يلحقه، في نفسه بالمرض والسقم، وولده بالموت وغير ذلك، وماله بالتلف، ونحو ذلك.

(حَتَّى يَلْقَى اللهَ تَعَالَى) فيه إثبات صفة الرؤية لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن اللقي لا يكون إلا برؤية، كما هو قول جماعة العلماء.

(وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ) أي أنها كفارة لذنوبه ومعاصيه.

(١) حديث رقم: (٢٣٩٩)، وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص، والحديث خرجه الشيخ مقبل في (الصحيح المسند)، وخرجه كذلك الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في (الصحيحة)، هو حديث ثابت، وله أيضا شاهد من حديث أبي سعيد.

٥٠ - وعن ابْنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بنِ قَيسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِس عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُشاوَرَتِهِ كُهُولًا كانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيهِ: يَا ابْنَ أخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيهِ، فاسْتَأْذَن فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِي يَا ابنَ الخَطَّابِ، فَواللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أميرَ المُؤْمِنينَ، إنَّ الله تَعَالَى قَالَ لِنَبيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، واللهِ مَا جَاوَزَهاَ عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا، وكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى. رواه البخاري[(١)].

الشرح:

الحديث فيه فوائد كثيرة، منها: أن الأعراب ليسوا كغيرهم، ربما تصدر منهم بعض الألفاظ الجافية، ومع ذلك يلزم الصبر.

ومنها: فضيلة للحر بن قيس، حيث أدناه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مجالسه؛ لأنه من حفاظ القرآن.

وفيه: فضيلة لأهل القرآن، فكلما كان المؤمن حافظا لكتاب الله متبعا له مقتفيا لسنة رسول الله صل الله عليه وسلم كانت رفعته.

وفيه: اتخاذ الاستشارة، ولا يستغني عنها مستغن، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه: وشاورهم في الأمر.

---

(١) حديث رقم: (٤٦٤٢).

(كُهُولًا كانُوا أَوْ شُبَّانًا) فيه أن العبرة بالديانة والعقالة، فكم من كهل عنده سفه وكم من شاب عنده طيش، وكم من كهل عنده وقار، وكم من شاب عنده رزانة.

(لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ) فيه الاستشفاع في الدخول على الأمراء وغيرهم، والنبي صل الله عليه وسلم يقول: «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل».

(فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيهِ، فاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ) فيه تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِي يَا ابنَ الخَطَّابِ) كلمة يقال بها للتنبيه.

(فَواللهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ) أي: لا تعطينا المال الكثير.

(وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْلِ) وهذا قول غير صحيح، فإن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد وزع الأموال في المسلمين حتى أغناهم، وقال: لئن أحياني الله لا أدع امرأة في العراق إلا وقد أغنيتها وأجريت لها من مال الله، أو كما قال.

(فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ)؛ لشدة مقالته، ولطعنه في عدالته، في استقامته.

(حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ) وهو قادر على ذلك؛ لأنه الأمير.

(فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَميرَ المُؤْمِنينَ) فيه تذكير المفضول للفاضل، وفيه الوقوف عند كتاب الله.

(﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾) أي: تجاوز واعف واصفح.

(﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾): بالمعروف من الكلام والقول.

(﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾) مهما غلظ جهلهم تصبر عليهم، فإن في صبرك إن شاء الله صلاح لهم.

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في "فتح الباري" (١٣/ ٢٥٩-٢٦٠): قَالَ الطيبي: مَا مُلَخَّصُهُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَأَمَرَ أُمَّتَهُ بِنَحْوِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ

وَمُحَصَّلُهُمَا: الْأَمْرُ بِحُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ النَّاسِ وَبَذْلُ الْجَهْدِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْمُدَارَاةُ مَعَهُمْ وَالْإِغْضَاءُ عَنْهُمْ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ. اهـ

(وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ) فيه جواز جرح المبطل، وفيه المجيء بالكلام الذي يؤدي إلى هدوء القلب.

(واللهِ مَا جَاوَزَهاَ عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا) فيه الوقوف عند النصيحة.

(وكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى) وهذه فضيلة لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥١ – وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتكونُ بَعْدِي أثَرَةٌ وأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا» قَالُوا: يَا رَسُول الله، فَمَّا تَأْمُرُنا؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسألُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

«وَالأَثَرَةُ»: الانْفِرادُ بالشَّيءِ عَمنَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ.

الشرح:

وفيه دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، إذ أن هذه الأثرة قد وقعت بعد موت النبي ﷺ، والأمور المنكرة قد وقعت بعد موت النبي ﷺ، حتى قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنكم تعملون أعمالا هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.

(يَا رَسُول الله، فَمَّا تَأْمُرُنا؟)؛ لأن الإنسان إذا وقعت الفتنة يحتاج إلى خلاص، وفي سؤال أهل العلم فيما يشكل.

(تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ) أد الذي عليك؛ حتى لا تحاسب به يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

(وَتَسأَلُونَ الله الَّذِي لَكُمْ) فإن أعطاكم في الدنيا وإلا جازاكم به في الآخرة الجزاء الأوفى.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري" (١٣/ ٦): وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الثَّوْرِيِّ: "تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ" أَيْ: بَذْلُ الْمَالِ الْوَاجِبِ فِي الزَّكَاةِ وَالنَّفْسِ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ عِنْدَ التَّعْيِينِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، قَوْلُهُ: "وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ" فِي رِوَايَةِ الثَّوْرِيِّ: "وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ" أَيْ: بِأَنْ يُلْهِمَهُمْ إِنْصَافَكُمْ أَوْ يُبْدِلَكُمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَهَذَا ظَاهِرُهُ الْعُمُومُ فِي المخاطبين. اهـ

٥٢ – وعن أبي يحيى أُسَيْد بن حُضَير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأنْصارِ، قَالَ: يَا رسولَ الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُني كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلانًا، فَقَالَ: «إنكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقوني عَلَى الحَوْضِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ [(١)].

«وَأُسَيْدٌ»: بضم الهمزة. «وحُضيْرٌ»: بحاءٍ مهملة مضمومة وضاد معجمة مفتوحة، والله أعلم.

الشرح:

(أبي يحيى أُسَيْد بن حُضَير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) وهو من خيرة الصحابة، والمسلمين الأوليين بعد هجرة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أسلم على يد مصعب بن عمير، وله كرامة من كرامات الأولياء تأتي معنا إن شاء الله في فضائل القرآن.

(أَلَا تَسْتَعْمِلُني كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلانًا) طلب أن يستعمله على الصدقة.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥).

فيه إثبات حوض النبي ﷺ، وفيه الأمر بالصبر؛ لما فيه من الأجر، وفيه دليل على أن الصبر من أسباب السقي من حوض النبي ﷺ الذي من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا.

٥٣ - وعن أبي إبراهيم عبدِ الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رَسُول الله ﷺ في بعْضِ أيامِهِ التي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ، انْتَظَرَ حَتَّى إِذَا مالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فيهمْ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا الله العَافِيَةَ، فَإِذَا لقيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ».

ثُمَّ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1]، وبالله التوفيق.

الشرح:

قوله: (عبدِ الله بن أبي أوفى) هاجر مع النبي ﷺ، وهو الذي صلى عليه النبي ﷺ حين قدم صدقته: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، امتثالا لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ تسع غزوات نأكل الجراد.

(أنَّ رَسُول الله ﷺ في بعْضِ أيامِهِ التي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ) وكانت أيامه كثيرة التي لقي فيها العدو، فقد غزى أكثر من تسعة عشر غزوة، وفيه حرص النبي ﷺ على وصية أصحابه وتوجيههم وتحريضهم.

(انْتَظَرَ حَتَّى إِذَا مالَتِ الشَّمْسُ)؛ لأنه وقت مبارك، في آخر النهار، ينكسر حرها وينزل النصر.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢).

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ) فيه مناداة الناس: يا أيها الناس، وجاء: يا أيها الذين آمنوا، وجاء: يا بني آدم.

(لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ) لا تتمن الشر وإن كنت ترى نفسك قويا في صده ودفعه فإن الأمر لله، قد تبتلى ولا تستطيع.

(وَاسْأَلُوا الله العَافِيَةَ)؛ لأن الفتن إذا نزلت تتعب، ولا تقل: عندي قوة ولا ما عندي قوة، الفتن متعبة.

(فَإِذَا لقيتُمُوهُمْ) إذا ابتلي الإنسان ولقي عدوه **(فَاصْبرُوا)** هنا لا يقع الفرار، ولا يقع الفتور، ولا يقع التواني.

(وَاعْلَمُوا أنّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ) والنبي ﷺ يقول فيمن لا يفتن في قبره: «**كفى ببارقة السيوف على رؤوسهم فتنة**»، وذلك أن السيوف أشد من الرماية الآن، الرماية تخزق، ويموت أو يجرح، أما السيف يقطعه تقطيعا، والله المستعان.

(اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ) توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بإنزاله الكتاب وهو القرآن، أو أنه أُفرد والمراد به جميع الكتب.

(وَمُجْرِيَ السَّحَابِ) توسل إلى الله بقدرته على إجراء السحاب، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤].

(وَهَازِمَ الأَحْزَابِ) هازم الأمم المخالفة لدين رب العالمين، أو أنه توسل إلى الله بهزيمته للأحزاب يوم الخندق، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [سورة الأحزاب: ٩-١٠]، ومع ذلك نصرهم الله.

(اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ) كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢٥٠﴾ [سورة البقرة: ٢٥٠].

بهذا نكون قد انتهينا من هذا الباب المهم باب الصبر، وما فيه من الفضائل والمكارم، فينبغي للمسلم أن يتحلى بهذه الشعيرة العظيمة، وأن يجاهد نفسه، والصبر بالتصبر، والحلم بالتحلم، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

٤ - باب الصدق

الصدق لفظ عام، يدخل فيه صدق الأقوال، والأفعال والمعتقدات، ولا يستغني أحد عن الصدق، فمن ترك الصدق لحقه الضرر، الصدق منه الصدق مع الله والصدق في امتثال سنة رسول الله ﷺ، والصدق في البيع والشراء والمعاملات، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١١٩]، فكن مع الصادقين في جميع أحوالهم.

الصادق هو الذي يخلص توحيده لله، ويحافظ على الصلوات المكتوبات ويؤدي الزكاة المفروضة، ويصوم على الوجه الذي شرعه الله، ويحج إذا تعين عليه الحج.

والصديق أعلى الدرجات بعد النبوة والرسالة، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: ٦٩].

وضد الصدق الكذب، وهو سيماء أهل النفاق، وقد سمى الله عَزَّوَجَلَّ المنافقين كاذبين، مع أنهم تكلموا بالصدق في مسألة الرسالة، لكن لما كان كلامهم مجردا عن صدق الاعتقاد سماهم الله كاذبين، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون: ١].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١١٩]، **وَقالَ تَعَالَى:** ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥]، **وَقالَ تَعَالَى:** ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [سورة محمد: ٢١].

الشرح:

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾) وهذه الآية نزلت في توبة كعب بن مالك.

(﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾) وفي آخرها: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥]، وقد وصف الله مريم بأنها صديقة: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [سورة المائدة: ٧٥]، وأبو بكر الصديق؛ لكثرة تصديقه للنبي ﷺ.

(﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾) لو صدقوا الله بالاتباع ظاهرا وباطنا فهو خير لهم.

والآيات منها ما هو بالنص، ومنها ما هو بالدلالة على أهمية الصدق وفضيلته حتى قال بعضهم: والله لو نادى مناد من السماء أن الكذب حلال ما كذبت؛ لقبحه، وأبو سفيان يقول: لولا أن يؤثر عليّ كذب لكذبت على النبي ﷺ وسُمي النبي ﷺ بالصادق الأمين قبل بعثته؛ لملازمته للصدق، ومن تميز بشيء عُرف به.

وأما الأحاديث:

٥٤ – فالأول: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البرِّ، وإِنَّ البر يَهدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا**». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

الشرح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [سورة المائدة: ١١٩]، يوم القيامة ينتفع الصادق بصدقه.

ابن مسعود هو أبو عبد الرحمن الهذلي، من المكثرين في رواية الحديث، إلا أنه لم يتعد الألف، ولم يذكر في العبادلة مع أنه من أعلمهم؛ لأن موته كان مبكرا، والعبادلة هم:

ابــن عبــاس وعمــرو وعمــر وابـن الزبير هـم العبادلة الغـررْ

(**إِنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البرِّ**) تتمة الحديث: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر**»، والبر كلمة جامعة لكل خيرَي الدنيا والآخرة، ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

«**البر حسن الخلق**»، فالبر والتقوى إذا اجتمعا دل كل منهما على معنى، وإذا افترق دل كل منهما على معنى آخر.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) (١٠٣)، وجاء عن أبي بكر عند أحمد.

(وإنَّ البر يَهدِي إِلَى الجَنَّةِ) الصدق في القول والفعل والاعتقاد يهدي إلى أعمال الخير، وأعمال الخير البر يهدي إلى الجنة، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة يونس: ٩].

(وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ) في قوله وفعله واعتقاده (حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا).

(وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ) الكذب في القول والفعل والاعتقاد يهدي إلى الفجور، وأعظمه الشرك.

(وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلَى النَّارِ) أي من أسباب دخول النار.

(وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا) في رواية: «ويتحرى الكذب» يتعمد ويتقصد الكذب، والأول يتعمد ويتقصد الصدق، فيأجره الله عَزَّوَجَلَّ بسلامة صدره، وسلامة استقامته.

وفي هذا الحديث بيان أن الصدق والكذب ضدان، هذا يهدي إلى جنة النعيم وذاك يهدي إلى الجحيم.

٥٥ - الثاني: عن أبي محمد الحسن بنِ عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ؛ فإنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ»، رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن صحيح[١].

قوله: «يَرِيبُكَ» هُوَ بفتح الياء وضمها: ومعناه اتركْ مَا تَشُكُّ في حِلِّهِ وَاعْدِلْ إِلَى مَا لا تَشُكُّ فِيهِ.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٥١٨).

(أبي محمد الحسن بنِ عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وهو سبط النبي ﷺ، وقد بشره النبي ﷺ بأنه سيد من سادات شباب الجنة، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، وقال عنه النبي ﷺ: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، وكان شبيها بالنبي ﷺ.

وذلك أن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توفي النبي ﷺ وهو صغير السن، فإن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تزوجت في السنة الثانية من الهجرة، ثم لو أنها حملت في سنتها لكانت وفاة النبي ﷺ وعمره ثمان سنوات، عمر الحسن، ولعله كان أصغر من ذلك، فالأحاديث التي حفظها من النبي ﷺ قليلة، ومع ذلك مراسيل الصحابة كلها ثابتة، مراسيل الصحابة تحمل على الاتصال.

(دَعْ مَا يَرِيبُكَ) أي: اتركه، (ما يريبك): ما تشك فيه.

(إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ) إلى الطمأنينة والصدق، وذلك أن الدين مبني على اليقين ليس على الشكوك.

(فإنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ) طمأنينة في القلب، وطمأنينة في الفعل، تجد الصادق غير متخوف، سواء نُقل عنه الكلام أو كذلك غير ذلك، أما الذي يكذب يكون مضطربا متخوفا أن يفضح بين الحين والآخر.

(وَالكَذِبَ رِيبَةٌ): تهمة وشك، فالريب يأتي بمعني الشك، ويأتي بمعنى الحاجة.

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا الفلولا

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [سورة البقرة: ٢]، وتأتي بمعنى التهمة:

بثينة قالت: يا جميل عرفتني ... فقال: كلانا يا بثينُ مريبُ

هذا الحديث من جوامع الكلم، مع أن المصنف ساقه لفضيلة الصدق إلا أنه من جوامع الكلم، تأتي به في كثير من المسائل العلمية والعملية، (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا

يَرِيبُكَ) يأتي يقول: أنا متشكك، لعل هذا المال حلال أو حرام، أو رجل يقول: هذه المرأة رضعت من أمي ولا أدري أرضعت خمس رضعات أم دون ذلك من الرضعات، ويريد فتوى، نقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، لماذا يدخل الإنسان نفسه في حرج ويبقى متزلزلا في هذه المسألة.

ولذلك كان فتوى بعض أهل العلم أنه حتى لو رضعت مرة واحدة أنه يترك الزواج منها، بينما لو كان قد تزوجها ولم تثبت إلا هذه الرضعة الواحدة لا يفرق بينهما، في الأولى **(دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ)**، في الثانية لا نفرق بين رجل وامرأته بسبب الشك والريب، لا بد أن يفرق بينهما بيقين.

٥٦ - الثالث: عن أبي سفيانَ صَخرِ بنِ حربٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه الطويلِ في قصةِ هِرَقْلَ، قَالَ هِرقلُ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ - يعني: النَّبيّ ﷺ قَالَ أبو سفيانَ: قُلْتُ: يقولُ: «اعْبُدُوا اللهَ وَحدَهُ لا تُشْرِكوا بِهِ شَيئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، ويَأْمُرُنَا بالصَلاةِ، وَالصِّدْقِ، والعَفَافِ، وَالصِّلَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

الشرح:

(أبي سفيان صخر بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أسلم عام الفتح، وحسن إسلامه وإن رغمت أنوف الرافضة، الذين يطعنون فيه وفي زوجه وابنه، وكلهم صحابة، لم يعلم عنهم بعد إسلامهم إلا الخير، وما رأينا أحدا من أصحاب النبي ﷺ يطعن في عدالتهم وإيمانهم، بل لعله قتل شهيدا إن شاء الله، وكان من سادات قريش، وهو صهر النبي ﷺ، تزوج النبي ﷺ ابنته رملة، وهي أم حبيبة.

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(في حديثه الطويلِ في قصةِ هِرَقْلَ) والحديث مخرج في كتاب بدء الوحي من (صحيح البخاري)، وهو في كتاب الجهاد والسير من (صحيح الإمام مسلم)، وقصة هرقل حين دعاه يسأله عن النبي ﷺ حين بعث النبي ﷺ برسالته: من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين.

(قَالَ هِرقلُ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ) يعني هرقل يسأل أبا سفيان: ماذا يأمركم؟ فيه أن أبا سفيان تحمل وهو كافر، وحدث بهذا الحديث وهو كافر عند هرقل، لكن حدث المسلمين وهو مسلم، فصار الحديث مقبولا، وهنا مسألة اصطلاحية، وهي: أن التحمل في حال الكفر يجوز، والتحمل في حال الصغر يجوز، لكن الأداء لا بد فيه من البلوغ والإسلام.

بدأ بالتوحيد؛ لأنه دعوة الرسل، والأساس الذي من أجله بعث محمد صل الله عليه وسلم، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء: ٣٦]، فيها معنى لا إله إلا الله)؛ إذ أنها تضمنت النفي والإثبات، فقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾وحده إثبات، وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ نفي، وهذا كثير في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ

(واتركوا ما يقول آباؤكم) أي من عبادة غير الله، وفيه ذم التقليد؛ لأن كثيرا من الناس إنما ضلوا بالتقليد، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الفتح" (١/ ٣٦): قَوْلُهُ: "وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ" هِيَ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِتَرْكِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْآبَاءَ تَنْبِيهًا عَلَى

عُذْرِهِمْ فِي مُخَالَفَتِهِمْ لَهُ؛ لِأَنَّ الْآبَاءَ قُدْوَةٌ عِنْدَ الْفَرِيقَيْنِ أَيْ: عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالنَّصَارَى.اهـ

(**ويَأْمُرُنَا بالصَلاةِ**) يعني يدعوهم إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك والتنديد، ثم كان من أوائل الأوامر بعد التوحيد الصلاة؛ لعظم شأنها، وسيأتي.

(**وَالصِّدْقِ**) وهو الشاهد من سوق الحديث في هذا الباب، صدق الحديث.

(**والعَفَافِ**): عفة المطعم، وعفة الفرج، وعفة اللسان، والأدلة على سؤال العفاف كثيرة: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى**».

(**وَالصِّلَةِ**): صلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، وسيأتي بيانه في موطنه، وانظروا إلى هذه الأصول العظيمة التي دعا إليها النبي ﷺ في بدء دعوته، هكذا دعوة أهل السنة قائمة على هذا الأمر، قائمة على الدعوة إلى التوحيد، والتحليل من الشرك والتنديد، قائمة على الدعوة إلى الإتباع، وترك التقليد والابتداع قائمة على الحث على الفرائض الأهم فالأهم، داعية إلى مكارم الأخلاق، من صدق الحديث، والابتعاد عن الكذب، وحسن الجوار، وصلة الرحم.

٥٧ – الرابع: عن أبي ثابت، وقيل: أبي سعيد، وقيل: أبي الوليد، سهل ابن حُنَيْفٍ وَهُوَ بدريٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان فضيلة الصدق، فـ(**مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ**) وهي القتل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وبذل النفس في حال المسايفة للكفار (**بِصِدْقٍ**) سألها

(١) حديث رقم: (١٩٠٩).

بصدق، أي ما تمناها من باب الكذب، ومن باب الشجاعة أمام الناس، وإنما كان صادقا في طلبها.

(بَلَّغَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ) بسبب حسن نيته، وقد قيل: نية المؤمن خير من عمله.

(وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)؛ لأن النبي ﷺ يقول: «إن بالمدينة لرجالا ما سرنا مسيرا إلا كانوا معنا حبسهم المرض»، وفي حديث أبي كبشة: «فهم في الأجر سواء».

وقوله: (وَهُوَ بدريٌّ) هذا مما يعرف به صحبة الرجل، وكذلك النسبة إلى غزوة بدر: بدري، وهي من أفضل الغزوات، ومن حضرها شهد له النبي ﷺ بقوله: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم».

٥٨ - الخامس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «غَزَا نبيٌّ مِنَ الأنْبِياءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِقَومِهِ: لا يَتْبَعَنِّي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُريدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلادَها، فَغَزا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأمُورَةٌ وَأَنَا مَأمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ فَجَاءتْ - يعني النَّارَ - لِتَأكُلَهَا فَلَمْ تَطعَمْها، فَقَالَ: إنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبايعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدَ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ فَلْتُبَايِعْنِي قَبيلَتُكَ، فَلَزقت يَدُ رَجُلَين أو ثَلَاثة بيده، فقال: فيكم الغُلُول، فَجَاؤُوا بِرَأْس مثلِ رَأسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعَهَا فَجَاءَت النَّارُ فَأكَلَتْها، فَلَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لأحَدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لَنَا الغَنَائِمَ لَمَّا رَأَى ضَعْفَنا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

---

(١) أخرجه: البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

«الخَلِفَاتُ» بفتحِ الخَاءِ المعجمة وكسر اللامِ: جمع خِلفة وهي الناقة الحامِل.

الشرح:

وهذا حديث عظيم، فيه دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، إذ حدث عن أمر لم يره ولم يشهده، وإنما أطلعه الله عليه.

قوله: (غَزَا نبيٌّ مِنَ الأَنْبِياءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ) وهذا النبي هو يوشع بن نون، وهو صاحب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصتهما في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [سورة الكهف: ٦٠].

وكانت هذه الغزوة هي غزوة فتح بيت المقدس، كانت بعد أن ضُرب عليهم التيه أربعين سنة، فلما رُفع عنهم التيه انطلق بهم هذا النبي الكريم فاتحا.

قوله: (فَقَالَ لِقَومِهِ: لا يَتْبَعَنِّي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا) أي: لا يتبعني رجل قد خطب امرأة وعقد عليها ولم يتمكن من الدخول منها؛ لأن هذا سيكون مشغولا بعرسه، وسيكون قلقا لمفارقتها.

فينبغي لمن أراد عملا من الأعمال أن يتخلص من الشواغل قبل أن يدخل فيه.

(وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا) وذلك أنه قلق من شأن هذه البيوت، يخشى أن يلحقها الضرر، ويتمنى لو أتمها، فربما كان في شغله سبب لهزيمة القوم، ولدخول الدنيا ومحبتها في القلب.

(وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلادَها)؛ لأنه سيكون مشغولا بغنمه، يخشى فواتها أو نفوقها، ونحو ذلك، فالحديث دال على ترك الشواغل، فقبل أن تسافر جهز ما ينبغي لأهلك، وكذلك ما ينبغي لحاجتك؛ حتى لا تشغل.

(فَغزا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ) وهي بيت المقدس.

(صَلاةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذلِكَ) فيه أن صلاة العصر كانت مفروضة على الأمم التي كانت قبلنا.

(فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ) أي: خاطبها، ولعل الله جعل فيها إدراكا لسمع أمره، أي: إنك مأمور بالغروب، وأنا مأمور بفتح بيت المقدس، فكلنا عبد لله وكلنا مأمور بأمر الله.

(اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا) دعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يحبسها؛ لأن الأمر إليه أولا وآخرا ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة هود: ١٠٧].

(فَحُبِسَتْ) أي: بقيت في مكانها؛ حتى يتمكن من فتح بيت المقدس قبل غروبها؛ لأنها لو غربت ربما رصدهم العدو فقتلهم، ونكل بهم، وربما فتر القوم عن الزحف لكن لما يكون الجيش في إقبال يمضي في شأنه حتى يفتح عليه.

(فَجَمَعَ الغَنَائِمَ فَجَاءتْ - يعني النَّارَ - لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطعَمْها)؛ لأنهم كانوا قبل ذلك كانت الغنائم حرام عليهم، تجمع وتأتي النار لتأخذها، دليل على قبولها، إذا جاءت النار وأخذتها دليل على قبولها، أما أهل الإسلام علم الله ضعفهم وحاجتهم وفقرهم فأحل الله لهم الغنائم، حتى قال النبي ﷺ: «**وجعل رزقي تحت ظل رمحي**»، جعل الرزق، فُتحت الفتوح والأمصار، واغتنى الفقراء بسبب هذه الغنائم العظيمات، والأموال الكثيرات، التي كانت تجبى إلى رسول الله ﷺ، وإلى خلفائه.

(فقَالَ: إنَّ فِيكُمْ غُلُولًا) أي من عادة النار إذا لم تأكل أن هناك غلول، والله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل إلا ما كان خالصًا له.

(فَلَزِقَتْ يَدَ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ) أي: لما لزقت يد شيخ القبيلة في يده علم أن الغلول في قبيلته.

(فَلتُبَايِعْنِي قَبِيلتَكَ، فَلَزِقَت يَدُ رَجُلَين أو ثَلَاثة بيده) وهذه لعلها كانت في عهدهم، وإما في زمن النبي ﷺ فقد غل كركرة، ومع ذلك أوحى الله إلى النبي ﷺ أنه يعذب في قبره في شملة غلها أو عباءة.

(فَجَاؤُوا بِرَأْس مثلِ رَأسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ)؛ لأن الغلول فيها الذهب والفضة والألماس وغير ذلك.

(فَجَاءَت النَّارُ فَأَكَلَتْها) أي قبلتها منهم.

(ثُمَّ أحَلَّ الله لَنا الغَنَائِمَ) رحمة منه وفضلا منه.

(لَمَّا رَأَى ضَعْفَنا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنا)؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد رفع عن هذه الأمة كثيرا من الأغلال والآثام التي كانت على من قبلهم، بسبب استجابتهم وامتثالهم لعمل ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأولئك حرم الله عليهم كثيرا من الأمور بسبب بعدهم عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، وبسبب معارضتهم وبسبب اختلافهم على أنبيائهم، فما أعظم الانقياد لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، «**قولوا: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾** [سورة البقرة: ٢٨٥]»، فلما قالوها وذلت ألسنتهم أنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

٥٩ - السادس: عن أبي خالد حَكيمِ بنِ حزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «البَيِّعَانِ بالخِيَار مَا لَمْ يَتَفرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا في بيعِهمَا، وإنْ كَتمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بركَةُ بَيعِهِما». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ (١).

(أبي خالد حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**)** يذكرون في ترجمته: أنه عاش ستين سنة في الإسلام، وستين سنة في الجاهلية، ستين بستين، وكان يتحنث ويتعبد في جاهليته،

(١) أخرجه: البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) (٤٧).

حتى قال: يا رسول الله، أمور كنا نفعلها في الجاهلية من صدقة وعتاق، قال النبي ﷺ: «**أسلمت على ما أسلفت من خير**»، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد.

هذا الحديث يذكر في باب البيوع، في باب خيار المجلس.

(البَيِّعَانِ بالخِيَار مَا لَمْ يَتفَرَّقَا) أي ويكن بينهما خيار، فإن كان بينهما خيار حتى وإن تفرقا فلا يمضي البيع إلا بمضي الخيار، خيار الشرط، أما هذا فهو خيار المجلس، وهناك خيار ثالث وهو: خيار الغبن.

فمن باع من أخيه سلعة فما داما في مجلسهما فلهما الخيار، وإن تفرقا ولم يكن بينهما شرط فقد وجب البيع، ولا خيار، وإذا أرادا الرجوع فهناك ما يسمى بالإقالة.

(مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا) اختلف في هذا، فقيل: تفرق الأبدان، وقيل: تفرق الكلام، والصحيح أنه تفرق الأبدان لا تفرق الكلام، أما لو كان تفرق الكلام الكلام قد فرغ منه، لكن المراد تفرق الأبدان.

(فَإنْ صَدَقا وَبيَّنَا) أي: بإظهار السلعة وما فيها من المحاسن أو المفاسد.

(بُورِكَ لَهُمَا فِي بيعِهِمَا) بورك للبائع في المال الذي أخذه مقابل السلعة، وبورك للمشتري في السلعة؛ لأن الصدق يحتاجه الاثنان: المشتري لا يبخس السلعة، والبائع لا يظهر سلعته، على خلاف ما هي عليه، فإن حصل منهما ذلك بورك لهما في بيعهما؛ لأنه على وفق شرع الله، وهدي رسول الله صل الله عليه وسلم، والبركة من الله، جعلها فيما شاء.

(وإنْ كَتَمَا) العيب، **(وَكَذَبَا)** في البيع، **(مُحِقَتْ بركَةُ بَيعِهِما)** وتجد أن كثيرا من الناس يبيع ويشتري ولا بركة في بيعه وشرائه، إما لكثرة الحلف، «**إياكم وكثرة الحلف فإنه ينفق ثم يمحق**»، وإما للغش، والنبي ﷺ يقول: «**من غشنا فليس منا**»، وإما

للخديعة، والنبي ﷺ يقول: «**إذا بايعت فقل: لا خلابة**» كان الرجل يقول: لا خيابة، إلى غير ذلك من الأمور التي تذهب البركات.

بهذا نكون قد انتهينا من باب الصدق من (رياض الصالحين)، وهو باب تضمن ستة أحاديث وثلاث آيات، ومؤداه إلى حاجة الإنسان إلى الصدق، فإن النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يضع هذا الباب في هذا الموطن؛ إلا لحاجة الإنسان إلى الصدق، فإن الإنسان إذا صدق في حياته العلمية وفي حياته الدعوية وفي بيعه وشرائه وفي جميع شأنه؛ حتى المصاهرات تحتاج إلى صدق، المجاورة تحتاج إلى صدق، صلة الرحم تحتاج إلى صدق، الإخلاص مع الله هو أعظم الصدق، المسافر مع أخيه يحتاج كل منهم إلى صدق، صدق الأفعال أكثر من صدق الأقوال؛ لأن الأقوال كثير من الناس يقولها، كثير من الناس يتكلم ويثني على نفسه، ويمدح نفسه، لكن صدق الأفعال هو الذي يدل على تميز ذلك الشخص.

وهكذا حتى صدق في النيات، «**اصدق الله يصدقك**»، ذلك الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لم أبايعك على الدنيا، إنما بايعتك على أن يدخل سهم من ها هنا - وأشار - ويخرج من ها هنا، وأشار، فجاء سهم غرب فدخل حيث أشار وخرج من حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**صدق الله فصدقه الله**».

وكم للصدق من بركات، حتى قيل في شأنه: عليك بالصدق وإن رأيت فيه الهلكة فإن فيه النجاة، وإياك والكذب وإن رأيت فيه النجاة فإن فيه الهلكة.

يذكرون: أن رجلا كان هاربا من أناس يريدون قتله، فمر على أعرابي، فقال للأعرابي: اخفني منهم، فقال: اختف في هذا المكان، فتعجب منه، قال: هذا مكان ما يختبأ في مثله، قال: اختبئ ومالك إلا يسلمك الله، فجاءوا يجرون، فقالوا: هل رأيت أحدا مر من هاهنا، قال: نعم هو هنا، قالوا: هذا مغفل، وتركوه ومضوا في شأنهم.

وآخر كان عنده رجل مختبئ، وقيل في شأنه: عُلم أنه صادق، فوصلوا إليه وقالوا: فلان عندك؟ قال: نعم عندي، فظنوا أنه قالها استهزاء وسخرية منهم، فتركوه ومشوا، فالأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ما عليك إلا أن تصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ، وعود نفسك صدق الحديث، وأبشر من الله عَزَّوَجَلَّ بالسلامة والعافية، ونسأل الله أن يوفقنا وإياكم لطاعته ومرضاته.

٥- باب المراقبة

مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم ما يسلكه العبد لصلاح دينه ودنياه، فإنه إذا راقب الله عَزَّوَجَلَّ في خلوته وجلوته صلح حاله، وقل خطؤه، وإن وقع شيء بادر بالتوبة والإنابة؛ حياء من ربه عَزَّوَجَلَّ، وأنت تعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ لا تخفى عليه خافية، وفي الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، وسيأتي معنا.

فالله عَزَّوَجَلَّ سميع بصير، عليم محيط، يقول: لا تخفى عليه خافية، فإذا روقب واستحضر القلب مراقبته كان الإنسان في جميع أحواله على خير عظيم، يذكره ويرجوه، ويعتمد عليه ويتوكل عليه.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [سورة التوبة: ٩٥-٢١٩].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: ٤].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة آل عمران: ٥].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [سورة الفجر: ١٤].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [سورة غافر: ١٩].

وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة.

الشرح:

(﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾) إنه هو السميع العليم، وذكر رؤيته بالليل ليدلل باللازم على رؤيته بالنهار من باب الأولى.

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) في الغالب أن يكون في غرفة مظلمة، والناس من حوله نيام، لا يعلمون بحاله، والله عَزَّوَجَلَّ لا يخفى عليه ذلك، وقبل هذه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٧]، اعتمد عليه، واستعن به.

(﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾) معية علم وإحاطة وقهر وسلطان، وهو على عرشه.

(﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾) و(شيء) نكرة في سياق الإثبات، أفادت العموم.

(﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾) يرصد أعمال العباد، قليلها وكثيرها، وكبيرها وحقيرها.

(﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾) بل يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٢٨].

وخائنة الأعين: هي مسارقة الرجل ببصره حتى لا يراه الناس، (وما تخفي الصدور): ما فيه من الوساوس والخطرات.

(وَالآيات فِي البابِ كثيرة معلومة) منها: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: ١٤]، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ [سورة البروج: ٢٠]، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النور: ٦٤].

٦٠ - وأما الأحاديث، فالأول: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبَتَيهِ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ، وَقالَ: يَا مُحَمَّدُ، أخبرني عَنِ الإسلامِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «الإسلامُ: أَنْ تَشْهدَ أَنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله،

وتُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ!

قَالَ: فَأَخْبرنِي عَنِ الإِيمانِ، قَالَ: «أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدقت، قَالَ: فأَخْبرني عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، قَالَ: فأخبِرني عَنْ أَمَاراتِهَا، قَالَ: «أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وأنْ تَرى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ».

ثُمَّ انْطَلَق فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: «فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينكُمْ». رواه مسلم[1].

ومعنى «تَلِدُ الأَمَةُ رَبَّتَهَا» أيْ سَيِّدَتَهَا؛ ومعناهُ: أَنْ تَكْثُرَ السَّراري حَتَّى تَلِدَ الأَمَةُ السُّرِّيَّةُ بِنتًا لِسَيِّدِهَا وبنْتُ السَّيِّدِ في مَعنَى السَّيِّدِ، وَقيلَ غَيْرُ ذلِكَ.

وَ«العَالَةُ»: الفُقَراءُ، وقولُهُ: «مَلِيًّا» أَيْ: زَمَنًا طَويلًا وَكانَ ذلِكَ ثَلاثًا.

الشرح:

هذا حديث يسمى بحديث جبريل، وانفرد به مسلم، وهو أول حديث في كتاب الإيمان من صحيح الإمام مسلم، بل هو أول حديث يفتتح به الإمام مسلم صحيحه بعد المقدمة، وقد شرحه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مصنف مستقل، واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) حديث رقم: (٨).

والراوي له عن عمر بن الخطاب عبد الله بن عمر، وكان سبب سوق الحديث ما جاء في مسلم: عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ... الحديث.

قوله: **(بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ)** وذلك لحرص الصحابة على العلم، ولمرافقتهم لرسول الله صل الله عليه وسلم في حضره وسفره.

(إِذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ) وهذا الحال إنما يصدر من رجل قريب البيت، كثير الملابس.

(شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ) وهذا إنما يقع من رجل ليس بمسافر، وإلا فالشعر يصيبه الشعث، وربما صار إلى البنية متأثرا أيضا بالغبار.

(لا يُرَى عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ) مع أنه غير معلوم عندهم، لو كان معروفا عندهم ما تعجب من ذلك، لكن جاء رجل بصفات لا يعلموها لا يرى عليه أثر السفر، ولا وعثاء السفر، ولا غير ذلك، وفيه أن الملائكة تتشكل إذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ على صور دحية في عدة مرات.

(حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ) جلسة المتعلم المتفقه.

(فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبَتيهِ) أي: جعل ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ.

(وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ) أي: على فخذي نفسه، قال بعضهم: على فخذي النبي ﷺ، وهذا لا يستقيم.

قيل: وهذه جلسة طالب العلم أمام شيخه.

(وَقالَ: يَا مُحَمَّدُ) ناداه باسمه؛ لأنه جاء كالمستخبر وكالمتفقه، والصحابة لا يعرفونه، ولو ناداه بصفته: يا رسول الله؛ لربما لم يكن الحديث في نفوسهم أوقع من لو ناداه: يا محمد، كالرجل الغريب الذي لا يعرفه.

(أخْبرني عَنِ الإسلام) أي: عن أركانه وقواعده وأسسه.

(فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: الإسلامُ: أَنْ تَشْهدَ أَنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأَنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله)

بدأ بالشهادتين؛ لعظيم منزلتهما، ولا يدخل الإسلام أحد إلا بهما خلافا لما ذهب إليه المعتزلة من أن الإسلام يدخل فيه بالنظر أو القصد إلى النظر فهذا قول فاسد، رده عليهم ابن حزم بأحسن عبارة، قال: أرأيتم لو أن رجلا جاء إليكم يريد الإسلام، فقلتم له: نحن لا نقبل منك الإسلام إلا بالنظر والقصد إلى النظر، ثم ذهب لينظر ويقصد النظر فمات في رحلته، هل تحكمون له بجنة أو نار؟ فإن قالوا: حكمنا له بجنة، قيل: كيف تحكمون بجنة لرجل لم يسلم بعد؟ وإن قالوا: حكمنا عليه بالنار قيل: كيف حكمتم بالنار على رجل قد جاءكم بالإسلام قلتم: لا نقبل منك؟

فدل على أنه مذهب باطل، والنبي ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله ﷺ».

ومعنى (تشهد): تقر، فإن الشهادة تأتي لعدة معان.

(أَنْ لا إلهَ إلاَّ الله) وهو إفراد الله بالوحدانية.

(وأن محمدا رسول الله) إفراد محمد ﷺ بالرسالة، ومن تمام ذلك طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وأن يعتقد أنه رسول الله إلى الناس كافة.

(وتُقيمَ الصَّلاةَ) أي: المفروضة، (وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ) أي: المكتوبة.

(وَتَصومَ رَمَضَانَ) أي الشهر، على ما هو مبين، وسيأتي إن شاء الله.

(وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيلًا) والاستطاعة عند جماهير أهل العلم: الزاد، والراحلة، وأمن الطريق، جاء فيها عدة أحاديث، ولا يثبت منها شيء.

(قَالَ: صَدَقْتَ) أي أن هذا هو الإسلام.

(فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ) إذًا لو قال له في أول الأمر: يا رسول الله أخبرني ما سيتعجبون؛ لأنهم يعلمون أن المسلم يعلم هذه الأشياء.

(أنْ تُؤمِنَ باللهِ) وبدأ بالإيمان بالله، وهو أول أركان الإيمان الستة، وأركانه أربعة: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبية، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، ودليله في القرآن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]، الآية.

(وَمَلائِكَتِهِ) الإيمان بهم يكون على أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٦]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦]، وأنهم مخلوقون مربوبون، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٧]، خلقهم الله من نور، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في (مسلم).

ونؤمن بما أخبرنا الله من أعيانهم، ونؤمن بما أخبر الله من صفاتهم، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [سورة الصافات: ١٦٥-١٦٦].

(وَكُتُبِهِ) الإيمان بكتبه يلزم الإيمان بكل كتاب أنزله الله على رسله، وكتبه كثيرة لا تعلم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [سورة الحديد: ٢٥] لكن علمنا منها: بالقرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم موسى، وقيل: بأن صحف موسى هي التوراة.

وكلها قد حرفت وغيرت إلا ما كان من القرآن فإنه كتاب محفوظ، يجب الإيمان أنه كلام الله ووحيه وتنزيله، غير مخلوق، والعمل بما فيه من أحكام، وتصديق ما فيه من أخبار، ورد ما أشكل فيه إلى الله، أو إلى من هو أعلم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٧٦].

(وَرُسُلِهِ) ورسل الله عَزَّوَجَلَّ كما قال الله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة النساء: ١٦٤]، أرسلهم الله بالبشارة والنذارة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [سورة النساء: ١٦٥]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥]، قص الله عَزَّوَجَلَّ علينا في القرآن منهم عددا.

وأكرمهم وأفضلهم أولو العزم من الرسل، وهم خمسة: محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ونوح.

(وَاليَوْمِ الآخِرِ) ويبدأ بالقبر وما فيه إلى ما لا نهاية من أبد الآباد، قال النبي ﷺ: «**القبر أول منازل الآخرة، فمن نجا منه فما بعده أيسر**».

والإيمان باليوم الآخر يتضمن بكل ما فيه، من الصراط، والحوض، والميزان وتطاير الصحف، ورؤية الله عَزَّوَجَلَّ، وخلود الجنة والنار، إلى غير ذلك مما هو من شأن ذلك اليوم، والإيمان بالحوض، والبعث والنشور، سيأتي بعض ذلك.

(وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: ٤٩]، والخير من الله، والشر من الله خلقا وإيجادا، إلا أن الخير محبوب إلى الله، والشر غير محبوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك قال النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»، قيل: لا يرفع إلى الله، وقيل: لا يتقرب به إلى الله، قيل: لا يضاف إلى الله، إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها النووي، وإلا من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الخير والشر من الله.

(قَالَ: فأَخْبرني عَنِ الإحْسَانِ) وهذه هي المرتبة الثالثة من مراتب الدين، فالمرتبة الأولى: الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، هذا إذا كان الترتيب من الأدنى إلى الأعلى، وأما من الأعلى إلى الأدنى: فالإحسان، ثم الإيمان، ثم الإسلام.

والإحسان ينقسم إلى قسمين: إحسان فيما بين العبد وبين الله، وإحسان فيما بين العباد، والذي يريده هنا فيما بين العبد وبين الله، وسيأتي الكلام على الإحسان في موطنه.

(قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) فإن هذا أدعى للخشوع والخضوع، والمراقبة وتمام التوكل، وإلى كل خير في باب العبادة، إذا كنت ترى الله كيف ستكون عبادتك له؟ إذا كان المؤمنون الآن يتعبدون لله عَزَّوَجَلَّ هذا يبكي وهذا يخشع وهذا يرجو وهذا يتوكل، وهذا يعتمد، وهم لم يرونه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، العظيم، الكبير، الواسع، المجيد، الجميل، المتكبر، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى: ١١]، كيف إذا رأوه؟

لكن لما كانت رؤيته ممتنعة في الدنيا، قال النبي ﷺ: «**إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**» قال: **(فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ)** المسألة سهلة، لكن أين أصحاب المراقبة؟

هم الذين يستحضرون رؤية الله عَزَّوَجَلَّ لهم، في ليلهم ونهارهم، وسرهم وجهارهم، في حضرهم وسفرهم، في جميع شؤونهم.

وفيه إثبات الرؤية لله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ يرى عباده بعينين حقيقيتين تليق بجلاله، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [سورة القمر: ١٤]، أي: تجري بمرأى منا، وقال النبي ﷺ: «**إن ربكم ليس بأعور**».

(قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ) الساعة أدهى وأمر، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [سورة القمر: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: ١]، لكن كأنه سأله عن وقتها بالذات، قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: ١٥]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٨٧-٤٣]: ليس إليك أن تحدد وقتها، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [سورة النازعات: ٤٥].

(قَالَ: مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) وهذه خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [سورة لقمان: ٣٤]، يقول لجبريل: ما أنا بأعلم منك عن الساعة.

(قَالَ: فأخبرني عَنْ أَمَارَاتِهَا) أي عن علاماتها، ولها علامات كبرى وصغرى ولعله يأتي ذكر بعضها في موطن آخر.

(أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا): الجارية تلد سيدتها، وقيل غير ذلك.

(وأَنْ تَرَى الحُفَاةَ) يعني أهل جزيرة العرب، ليس المراد أن ترى فقيرا يغتني المراد أهل جزيرة العرب، أهل نجد، أهل الحجاز، الذين كانوا رعاة إبل، رعاة بقر رعاة غنم، يلبسون الصوف، ويسكنون الخيام، وربما سكنوا الجبال، وصارت عندهم ما شاء الله، وهذه ملاحظة الآن، انظروا إلى الأبراج، سواء أبراج المملكة أو أبراج الإمارات، أو أبراج قطر، أو غير ذلك من الأبراج التي انتشرت في بلاد الجزيرة العربية، هذه هي، (وأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ): كانوا فقراء فأغناهم الله.

(رِعَاءَ الشَّاءِ) ذكر الشياه دون غيرها؛ لأن أصحابها أشد فقرا.

(يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ) وقيل: معنى التطاول هنا ليس فقط ارتفاع البنيان إلى أن تكون شاهقة، تكون ناطحة سحاب، مثلا الآن أبراج الساعة تعتبر أطول برج خرصاني في الأرض، أطول برج خرصاني بهذا القيد؛ لأن هناك أبراج أطول منه، لكن برج مبني بالخرصان، لم يبن كما تبنى البيوت بالبلك، وإنما خرسان، طول الخرسانة مثلا خمسة متر، وتركب كما تركب اليايات وغير ذلك، فهو مبني على هذه الهيئة، فهو أطول برج خرصاني في الأرض.

وقيل: التطاول المراد به: التفاخر بالبنيان، لا يلزم منه أن يكون طويلا إلى السماء، ولكن كون الإنسان يبني بنيانا، ويزوقه، ويحسنه، ويجمله، هذا أيضا من التطاول، أعرف بيتا في تنزانيا بناه صاحبه بخمسة وعشرين مليون دولار، ولم يكتمل أخذني بعض الأخوة لما ذهبنا رحلة هناك كان يعمل فيه، وصلنا ولم يكتمل، وقد بلغ ما أنفقه فيه خمسة وعشرين مليون دولار، أشياء عجيبة، فهذا من التطاول، مع أنه عبارة عن دورين، هذا من التطاول.

(ثُمَّ انْطَلَقَ) أي: انطلق رجع إلى شأنه، (فَلَبِثْتُ مَلِيًّا): لبث ما شاء الله أن يلبث ثم سألهم النبي ﷺ فقال: (يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ:

فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ) فسمى ذلك كله دينا الإيمان والإسلام والإحسان.

وقوله: (اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ) إنما يكون في عهد النبي ﷺ، وأما بعد موت النبي ﷺ فيقال: الله أعلم.

٦١ - **الثاني: عن أبي ذر جُنْدُب بنِ جُنادَةَ وأبي عبدِ الرحمانِ معاذِ بنِ جبلٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **عن رسولِ الله** ﷺ **قَالَ: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ وَأتْبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»**. رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن[1].

الشرح:

أما أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمن فضائله: أنه صلى قبل إسلامه ثلاث سنين، كما في (صحيح مسلم)، وكان زاهدا ورعا.

وأما أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل فقد أرسله النبي ﷺ إلى اليمن؛ لعلمه وفقهه وفضله، وهو من حفاظ القرآن.

الحديث من طريق ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذر، وعن معاذ، ولم يسمع منهما، ولكن له طرق.

قوله: (اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ) أي: راقب الله حيثما كنت، بفعل المأمور، وترك المحظور.

(وَأتْبعِ السَّيِّئَةَ): أي فعل سيء **(الحَسَنَةَ)**؛ لأن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة هود: ١١٤].

(١) حديث رقم: (١٩٨٧).

(تَمْحُهَا): تكون كفارة لها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [سورة هود: ١١٤].

(وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) كن مع الناس على أحسن الأخلاق، والخلق الحسن مع الناس بكف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه، وسيأتي بابه إن شاء الله.

٦٢ - الثالث: عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كنت خلف النَّبيّ ﷺ يومًا، فَقَالَ: «يَا غُلامُ، إنِّي أعلّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحفُ». رواه الترمذي، وَقَالَ: «حديث حسن صحيح»[١].

وفي رواية غيرِ الترمذي: «احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ: أنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ: أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا».

الشرح:

الحديث له طرق يحسن بها، وقد حسنه جماهير العلماء، والمحقق هنا ذكر طرقه.

قال: (كنت خلف النَّبيّ ﷺ يومًا) أي: رديف النبي ﷺ، على حمار أو على غيره.

(١) حديث رقم: (٢٥١٦).

(فَقَالَ: يَا غُلامُ) ناداه، وكلمة غلام تطلق على الكبير والصغير، وناداه؛ ليكون أبلغ في الاستماع.

(إنِّي أعلّمُكَ كَلِمَاتٍ) فيه حرص النبي ﷺ على تعليم الأمة وعلى تعليم التوحيد، والغلام الصغير إذا عُلم شيئا رسخ في ذهنه، وفيه اغتنام الأوقات.

(احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ) يحفظ حدود الله، بفعل المأمور، وترك المحظور، يحفظك الله، وإلا فإن الله غني عن العالمين، لكن هذا هو المراد.

(احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ) احفظ الله بالتزام أمره، واجتناب نهيه، تجد ذلك أمامك يوم القيامة، أو تجده تجاهك وهو على عرشه، يسلمك من الشرور والآثام.

(إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ) فيه تعليم التوحيد، لا تعلق قلبك بغير الله، مع أنه يجوز أن يُسأل الحي الحاضر القادر، لكن المراد به هنا سؤال الدعاء، وغير ذلك مما هو من العبادة.

(وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ) ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥]، وهي مرتبة عظيمة، من حققها صلحت حياته وآخرته، ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨]، وصية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، والنبي ﷺ يقول: «**استعن بالله ولا تعجز**».

(وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ) الأمة بأسرها لو اجتمع برها فاجرها على أن ينفعوك بشيء (لَمْ يَنْفَعُوكَ) ولن يقدموا أو يؤخروا (إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ) أي: في الأزل، وفي الحديث الإيمان بالقدر، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد كتب مقادير العباد قبل أن يخلق السماوات الأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء.

(وَإِن اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ): بشر، بأذية، بمرض، بفقر، (لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ) إذًا الأمور عائدة إلى ما في علم الله، وما في كتاب الله الأول

اللوح المحفوظ، فعلى الإنسان أن يتميز بشجاعة وتوكل وحسن اعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الناس لا يقدمون ولا يؤخرون.

وحقيقة الإيمان: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، ما أخطأك لم يكن ليصيبك.

(رُفِعَتِ الأَقْلَامُ) أي: القلم الأول، وإلا فهناك أقلام عمرية، وأقلام سنوية، وأقلام تكليفية، كما بينها ابن أبي العز أنها أربعة أقلام:

القلم الأول: وهو الذي في حديث ابن عباس: **"لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»**.

والقلم الثاني: هو قلم آدم ومن إليه، إذا فصلنا ستكون أكثر من ستة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢].

القلم الثالث: هو القلم «**يكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد، وعمره**»، حديث ابن مسعود، وغيره.

القلم الرابع: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ [سورة الدخان: ٤-٥]، القلم يسمى السنوي.

القلم الخامس: قلم التكليف، **"رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُكْشَفَ عَنْهُ»**.

قوله: (وَجَفَّتِ الصُّحفُ) كناية على أنه قد فرغ من القدر، فلا يزاد فيه ولا ينقص منه، خرج النبي ﷺ إلى أصحابه وفي يده كتابان، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: فَقُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «**هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، وَأَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ، وَلَا يُنْقَصُ**

مِنْهُمْ أَبَدًا، وَهَذَا كِتَابُ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، وَأَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ، فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»[(١)].

وقالوا: يا رسول الله فَفِيمَ الْعَمَلُ أَلِأَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، أَمْ لِأَمْرٍ نَسْتَقْبِلُهُ اسْتِقْبَالًا؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

(احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ) أي في وقت الشدة تجد الله يعافيك ويسلمك وينصرك.

(تعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفك فِي الشِّدَّةِ) بعضهم لا يثبت صفة المعرفة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم يقولون: المعرفة تكون بعد جهل، ويثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة العلم الذي لم يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان، ولكن إذا ثبت الحديث فلا حرج في إثباتها، وإن لم يثبت الحديث فالقول بعدم ثبوتها هو الصواب.

(وَاعْلَمْ: أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبكَ) من خير أو شر، لا تتألم عليه ولا تندم عليه.

(وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ) من خير أو شر، إلا إن كان من خير فاحمد الله عليه، وإن كان من شر فتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه، هذا إذا كان الشر معصية، وإذا كان الشر عبارة عن مصيبة فارض بقضاء الله وقدره، واستغفر ربك، لعله أن يخلف عليك بخير.

(وَاعْلَمْ: أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ) النصر مع الصبر، كما قال النبي ﷺ: «وسلوا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن النصر تحت ظلال السيوف».

(وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ) اشتدي أزمة تنفرجي، ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [سورة الشرح: ٦-٧].

---

(١) أخرجه أحمد حديث رقم: (٦٥٦٣)، عن عبد الله بن عمرو، وهو في (الصحيح المسند)، للشيخ مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريبُ

٦٣ - الرابع: عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّكُمْ لَتعمَلُونَ أَعْمَالًا هي أَدَقُّ في أعيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ مِنَ المُوبِقاتِ. رواه البخاري[1].

وَقالَ: المُوبقاتُ: المُهلِكَاتُ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ ليبين أن الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كانوا في الغاية العليا من مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، فأنس بن مالك يخاطب التابعين، وهم من أكرم الناس بعد صحابة نبينا الكريم، قال النبي ﷺ: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

ومع ذلك يقول لهم: (إِنَّكُمْ لَتعمَلُونَ أَعْمَالًا) أي: تتعاطون أمورا (هي أَدَقُّ في أعيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ) أي: ترونها ليست بمعاصي أو ليست بشيء، (كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ مِنَ المُوبِقاتِ) أي: من الكبائر المقحمات، والله المستعان.

وكلما زاد إيمان العبد كلما زادت مراقبته، وكلما ضعف الإيمان كلما ضعفت المراقبة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في "الفتح" (١١/ ٣٣٠): وَقَالَ بن بَطَّالٍ: الْمُحَقَّرَاتُ إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ كِبَارًا مَعَ الْإِصْرَارِ، وَقَدْ أَخْرَجَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى فِي الزُّهْدِ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَثِقُ بِهَا وَيَنْسَى الْمُحَقَّرَاتِ فَيَلْقَى اللهَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَلَا يَزَالُ مِنْهَا مُشْفِقًا حَتَّى يلقى الله آمنا. اهـ

---

(١) حديث رقم: (٦٤٩٢).

٦٤ – الخامس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيرَةُ الله تَعَالَى، أَنْ يَأتِيَ المَرْءُ مَا حَرَّمَ الله عَلَيهِ» متفق عَلَيهِ[1].

و «الغَيْرَةُ»: بفتحِ الغين، وَأَصْلُهَا الأَنَفَةُ

الشرح:

قال القاضي أبو يعلى في (إبطال التأويلات): والغيرة هي الكراهية للشيء والغيرة صفة حقيقية ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ بهذا الحديث وغيره، وقد جاء في حديث عائشة في (الصحيحين): «لا أحد أغير من الله»، وجاء في حديث ابن مسعود أيضا: «لا أحد أغير من الله»، وجاء في حديث المغيرة بن شعبة: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه والله أغير»، ونثبت الصفة على ما جاءت، بدون تحريف ولا تأويل، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

قوله: (إِنَّ الله تَعَالَى يَغَارُ) ثم فسر غيرة الله: (أَنْ يَأتِيَ المَرْءُ مَا حَرَّمَ الله عَلَيهِ) إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ يكره هذا الأمر، وحرم هذا الأمر، «من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»، فعلى المسلم أن يكون بعيدا عن محارم الله، فإن ذلك من أسباب انتقام الله منه.

٦٥ – السادس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقُولُ: «إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَني إِسْرَائِيلَ: أبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَونًا حَسنًا، فَقَالَ: فَأيُّ المَالِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١).

أَحَبُّ إِليكَ؟ قَالَ: الإِبلُ - أَوْ قالَ: البَقَرُ شكَّ الرَّاوي - فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارِكَ الله لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهبَ عَنْهُ وأُعطِيَ شَعرًا حَسَنًا، قالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلِيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ النَّاسَ؛ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرهُ، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلِيْكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً والدًا.

فَأَنْتَجَ هذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فكانَ لِهذَا وَادٍ مِنَ الإِبلِ، وَلِهذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَرِي فَلا بَلاغَ لِيَ اليَومَ إلاَّ باللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ، والجِلْدَ الحَسَنَ، وَالمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَرِي، فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثِيرةٌ، فَقَالَ: كَأَنِّي أَعرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فقيرًا فأَعْطَاكَ اللهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهذا، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابنُ سَبيلٍ انْقَطَعتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَومَ إلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ بالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرك شَاةً أَتَبَلَّغُ

بِهَا في سَفري، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أعمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ ما أَجْهَدُكَ اليَومَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مالَكَ فِإنَّمَا ابْتُلِيتُمْ. فَقَدْ رضي الله عنك، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيكَ»، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

و «النَّاقةُ العُشَرَاءُ» بضم العين وفتح الشين وبالمد: هي الحامِل.

قوله: «أَنْتَجَ» وفي رواية: «فَنتَجَ» معناه: تولَّى نِتاجها، والناتج لِلناقةِ كالقابِلةِ للمرأةِ.

وقوله: «وَلَّدَ هَذَا» هُوَ بتشديد اللام: أي تولى ولادتها، وَهُوَ بمعنى أنتج في الناقة، فالمولّد، والناتج، والقابلة بمعنى، لكن هَذَا لِلحيوان وذاك لِغيرهِ.

وقوله: «انْقَطَعَتْ بي الحِبَالُ» هُوَ بالحاءِ المهملةِ والباءِ الموحدة: أي الأسباب.

وقوله: «لا أَجْهَدُكَ» معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أَوْ تطلبه من مالي.

وفي رواية البخاري: «لا أحمَدُكَ» بالحاءِ المهملة والميمِ ومعناه: لا أحمدك بترك شيء تحتاج إِلَيْه، كما قالوا: لَيْسَ عَلَى طولِ الحياة ندم: أي عَلَى فواتِ طولِها.

هذا حديث عظيم، ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من دلائل نبوة النبي ﷺ، إذ أخبر وقص لنا شيئا من قصص بني إسرائيل التي أوحاها الله عَزَّوَجَلَّ إليه، وفيه أن الله عَزَّوَجَلَّ يبتلي من شاء من عباده، ويختبرهم، تارة بالشدة، وتارة بالرخاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

وفيه: أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقد رد على الأعمى بصره ورد على الأقرع شعره، ورد على الأبرص جلده، وأعطاهم من المال، وبارك لهم فيه على أكمل الوجوه.

وفيه: أن كفران النعم سبب لسلبها، وذلك أن الأقرع والأبرص أبوا أن يعطوا مما أعطاهم الله، ومما أكرمهم الله، ومنعوا الحق الواجب، فسلبت منهم النعمة، وهذا الأعمى راقب الله عَزَّوَجَلَّ على حسن عطائه، وعظيم منته عليه، فقال لهذا المسكين: خذ ما شئت ودع ما شئت، اعترف بفضل الله عليه، وكذلك أدى ما أوجب الله عليه بل زاد ذلك وضاعف، فأكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بأن سلمه، وسلم ماله، ورد الله أولئك إلى ما كانوا عليه.

وفيه: استجابة الدعاء الرجل الصالح، وفيه غير ذلك، تشكل الملائكة على الهيئة التي يريد الله عَزَّوَجَلَّ، ولولا أن الوقت قصير لأعطينا الحديث أكثر من هذا.

وفيه: معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سورة الشرح: ٦-٢]، فابتلى الله هؤلاء الناس بما ابتلاهم به، كما ابتلاك بالصلاة، والصيام، والحج، والقيام، وطاعة الله، كل هذه الأوامر والنواهي بلاء من الله عَزَّوَجَلَّ، فمن فعل المأمور كان من المكرمين، ومن ارتكب المحظور يُخشى عليه أن يكون من المهانين.

٦٦ - السابع: عن أبي يعلى شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بعدَ المَوتِ، والعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ». رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن صحيح[1].

قَالَ الترمذي وغيره من العلماء: معنى «دَانَ نَفْسَهُ»: حاسبها.

الشرح:

قوله: (الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ) أي: العاقل، الكيس بمعنى العاقل، (من دان نفسه) أي: من لزمها الإدانة والتقصير، وحاسبها على ذلك.

(وَعَمِلَ لِمَا بعدَ المَوتِ) بادر بالأعمال الصالحة؛ لتقربه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٢]، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [سورة السجدة: ١٧].

(والعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا) العاجز الكسل المتواني الذي يتابع هوى نفسه تريد هذا الحرام استخدمه، تريد ترك هذا الواجب ترك.

(وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ) فالنفس أمارة بالسوء، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [سورة يوسف: ٥٣]، والنبي صل الله عليه وسلم كان يقول: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا،

---

(١) حديث رقم: (٢٤٥٩).

قال المحقق: حسن لغيره، رواه الترمذي من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد به، وأبو بكر بن أبي مريم الغساني ضعيف جدًّا، وله شاهد من حديث أنس، وفي سنده محمد بن يونس، وهو الكديمي، كذاب، لا يستشهد به.

وجاء من حديث ابن عمر بلفظ: فأي المؤمن أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكرا للموت، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس»، رواه ابن ماجه من طريق نافع بن عبيد الله، عن فروة بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر، وفروة مجهول، الحديث له الشواهد كما ذكر المحقق.

وأما حديث «المؤمن كيس فطن حذر» فموضوع، كما في (الضعيفة).

ومن سيئات أعمالنا»، وفي الحديث: «أعوذ بك من شر نفسي، وشر لساني، وشر قلبي وشر منيي».

وما أحسن أن يحاسب الإنسان نفسه في كل يوم إن استطاع، حتى يبادر بالتوبة عن كل ذنب اقترفه.

٦٧ – الثامن: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ». حديث حسن رواه الترمذي وغيرُه[(١)].

الشرح:

معناه هو صحيح، (مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ) يعني: من الأفعال الحسنة التي تدل على تمام إسلام المرء والتزامه بشرع الله (تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)، لا يتدخل فيما لا يعنيه، لا بقول ولا بفعل.

وأكثر الفساد الحاصل في الأمة بسبب التدخل في ما لا يعني، تجد المتدخل فيما لا يعني يخرج على أولياء أمور المسلمين، يتكلم فيما هو من شأن علماء المسلمين، ربما يدخل بين المرء وزوجه، كثير من الفساد العريض يقع بسبب أصحاب الفضول، والله المستعان.

قال في "تحفة الأحوذي" (٦/ ٥٠٠): قال القاريء فِي مَعْنَى: "تَرْكِهِ مَا لَا يَعْنِيهِ" أَيْ مَا لَا يُهِمُّهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا وَنَظَرًا وَفِكْرًا، وَقَالَ: وَحَقِيقَةُ مَا لَا يعنيه مالا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ضَرُورَةِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَلَا يَنْفَعُهُ فِي مَرْضَاةِ مَوْلَاهُ بِأَنْ يَكُونَ عَيْشُهُ بِدُونِهِ مُمْكِنًا. اهـ

(١) حديث رقم: (٢٣١٧)، وهو معل بالإرسال، من طريق الزهري عن علي بن الحسين، كما هو عند الترمذي، قال البخاري: ولا يصح إلا عن علي بن الحسين، عن النبي ﷺ.

* **وقلت في شرحي على "الأربعين النووية":**

وهذا الحديث أعلَّه العلماء؛ لأنه لا يصح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما هو مُرسَل عن علي بن الحسين -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

ورجَّح هذا جمعٌ من المتقدمين ومن المتأخرين، ومن المتأخرين شيخنا مقبل -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى، وهكذا شيخنا يحيى حفظه الله تعالى، ومن المتقدمين الإمام أحمد ويحيى ابن معين، والبخاري، والدارقطني، وغيرهم إلا أنه كلام حَسَن كأنه من مشكاة النبوة.

قوله: («مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ»): لا يتدخل فيما لا يعنيه ولا يتكلم إلا بما يعنيه ولا يفعل إلا ما يعنيه فإذا فعل الإنسان ذلك قَل الشر من المجتمعات لأن أغلب الشرور الحاصلة في المجتمعات بسبب هذه التدخلات، هذا يتدخل في شأن ما يتعلق بأولياء الأمور وذلك يتدخل في شأن العلماء، وآخر يتدخل في شؤون الناس وربما دخل بينهم بغير وجه حق، يتعصب مع هذا ويتعصب مع هذا، وتظهر الشرور.

- وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]، أما التدخل في ما لا يعني لغير إصلاحٍ، لغير أمر بالمعروف ونهيٍ عن منكر، لغير علم، فهذا من أسباب الشر، والفساد العريض، بين الأمم والمجتمعات.

- فهذان حديثان طيبان مباركان:

الأول: عن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «دَعْ ما يُرِيبُكَ إلىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ».

والثاني: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والصحيح فيه الإرسال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ»، وتجد أن الإنسان يطبق هذا بنفسه إذا تدخل أحد في ما لا يعنيه يقول دع ما لا يعنيك: من تدخل فيما لا يعنيه وجد ما لا يرضيه، وهكذا كلام الناس، لأن التدخل في ما لا يعني:

- **أولًا**: يسبب قسوة قلب.

- **الأمر الثاني**: قد يجر إلى فتن، وتوسع الشرور.

- **الأمر الثالث**: أنه من السفه وإلا فإن الإنسان يغضب إذا تدخل أحد في شأنه فكيف هو يتدخل في شأن الناس؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلْيَأْتِ إِلَىٰ النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ»(١).

لكن إذا كانت التدخل نصيحة، رأيت عنده خطأ نصحته أو منكرًا **أرشدته، أو جاهلًا علَّمته، أو إلى خير دللته، فهنا لا بأس، أما أن تتدخل فقط** بمجرد الهوى أو الفضول فإن هذا هو الذي لا يُقبَل، **والحمد لله رب العالمين**. اهـ من شرحي على "الأربعين النووية".

---

(١) أخرجه مسلم حديث رقم: (١٨٤٤).

٦٨ - التاسع: عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ». رواه أبو داود وغيره[(١)].

الشرح:

ومع ذلك إذا احتيج إلى هذا السؤال لا سيما من القاضي إذا ترافعوا إلى القاضي أو من الأب إذا كان الأمر إلى ولي المرأة أقصد إلى الولي فلا حرج أن يسأل في ذلك، وإلا يحاول الإنسان أن لا يتدخل فيما لا يعنيه، قد يقع بين الزوج وزوجته بعض الشيء من مضاربة أو مشاتمة أو نحو ذلك، وربما يصطلحون فيما بينهم، وإذا تدخل هؤلاء المتدخلون: لماذا ضربك؟ ولماذا فعل كذا؟ وأنت كذا، وإذا بهم يفسدون بينهما.

الشاهد من هذا الباب: أن الإنسان يكون مراقبا لله عَزَّوَجَلَّ، فيمتثل أمره ويجتنب نهيه وزجره، وليعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يراه، ولا تخفى عليه خافية، وهو مجازيه على عمله الحسن بالإحسان، وربما يجازيه على عمله السيء بالانتقام فالإنسان يكون حريصا على سلامة دينه ودنياه.

ونكون بهذا قد انتهينا من هذا الباب، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أن أستغفرك وأتوب إليك، الحمد لله رب العالمين.

---

(١) حديث رقم: (٢١٤٧)، وهو حديث ضعيف، أخرجه أبو داوود، وأحمد، وابن ماجه حديث رقم: (١٩٨٦)، وغيرهم من طريق داود بن عبد الله الأودي، عن عبد الرحمن المسيلي، عن الأشعث، عن عمر به، وعبد الرحمن المسيلي مجهول، وضعفه الألباني في (الضعيفة) كما قال المحقق.

٦ - باب في التقوى

التقوى: أن تجعل بينك وبين ما تتخوفه وقاية، كما قيل في البيت الشعري:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولتـــه واتقتنـــا باليـــدِ

أي: جعلت يدها بينها وبين الناظرين إليها.

والمتأمل للآيات القرآنية والأحاديث النبوية يجد العجب العجاب في الأمر بهذه الشعيرة، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [سورة النساء: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٨]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [سورة النساء: ١٣١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [سورة الأحزاب: ١].

وحذر من عدم تقواه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٦]، فالتقوى وصية الله، وهي وصية جامعة مانعة، من تزيى بها كان ملتزما للمأمور، مبتعدا عن المنهي، فإن التقوى إذا جمعت مع البر فالبر: فعل المأمور والتقوى: ترك المحظور، وإذا أفردت فهي شاملة لفعل المأمور وترك المحظور.

وانظر إلى آيات القرآن المخبرة عن جزاء المتقين: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [سورة النبأ: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [سورة القمر: ٥٤]، ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [سورة الحجر: ٤٥]، إلى غير ذلك، يخبر الله خبر يقين أنه في الجنة.

والنبي ﷺ يقول: «**أنا أتقاكم لله، وأعلمكم بمن أتقي**»، وحين كان يرسل الجيوش يوصيهم بتقوى الله، وإذا سافر المسافر يوصيه بتقوى الله، وقد تقدم معنا حديث أبي ذر ومعاذ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق**

الناس بخلق حسن»، وقد تقدم معنا حديث عبد الله بن عمر: «**اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه**»، فقام وهي من أحب الناس إليه.

وكم تؤثر هذه الكلمة في المؤمنين، الصادقين المخلصين، المخبتين لرب العالمين، وقد قال النبي ﷺ: «**ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**».

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، **وهذه الآية مبينة للمراد مِنَ الأُولى.**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٠]، **وَالآيات في الأمر بالتقوى كثيرةٌ معلومةٌ.**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٩].

والآيات في البابِ كثيرةٌ معلومةٌ.

الشرح:

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾) قيل: حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وجُمع بين هذه الآية وبين غيرها من: أن حق تقاته بقدر الاستطاعة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

تقوى الله سبب للعلم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢] مع سلوك سبله.

تقوى الله سبب للفرج، ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [سورة الطلاق: ٤]، وكم فيها من الفضائل.

(﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [سورة الطلاق: ٧]، وهذا يكون بفعل المأمور وترك المحظور، ترك المحظور ليس فيه استطاعة؛ لأن البعد عن المحظور ترك، لا يحتاج إلى فعل، ما عليك إلا أن تبتعد عن الحرام، وأما المأمور فيحتاج إلى فعل، ولذلك يفعل الإنسان على استطاعته.

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾) أي: اتقوا الله في أقوالكم، واتقوا الله في أفعالكم، واتقوا الله في عقائدكم، يصلح لكم جميع شأنكم.

وانظر إلى خطب الجمعة لا تخلوا من الوصية بتقوى الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله، كثير من الناس يقول هكذا، ولكن يغني عن ذلك الآيات التي يفتتح بها الخطيب خطبته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [سورة النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، إلى غير ذلك.

(﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾) من جميع ما يهمه؛ لأن (مخرجا) نكرة في سياق الإثبات، فتفيد العموم، وكذلك في سياق الشرط، فتفيد العموم، مخرج من الفتن،

مخرج من الفقر، مخرج من الأعداء، مخرج من الذنوب والمعاصي، مخرج في الدنيا ومخرج في الآخرة.

(﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾) رزق حسي ورزق معنوي، الرزق الحسي: الأكل والشرب والملبس والمركب، والمعنوي: الإسلام والسنة، والعلم والحكمة.

(وَقالَ تعالَى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾) انظر إلى هذا الفضل الجليل، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ تفرقون به بين الحق والباطل، وهذا دليل على أن أكثر المنحرفين عن الصراط المستقيم والطريق القويم بسبب ضعف المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فوعد الله أن يجعل لهم فرقانا يفرقون به بين الحق والباطل.

زد على ذلك: ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ تكفير السيئات، وذلك لكثرة الحسنات زد على ذلك: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ الذنوب بسترها، والتجاوز عنها، والتوفيق فيما يأتي، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الواسع، سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وأما الأحاديث:

٦٩ - فالأول: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رسولَ الله، مَنْ أكرمُ النَّاس؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ»، فقالوا: لَيْسَ عن هَذَا نسألُك، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبيُّ اللهِ ابنُ نَبيِّ اللهِ ابنِ نَبيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ»، قالوا: لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْألُونِي؟ خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ إِذَا فقهُوا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

و «فَقُهُوا» بِضم القافِ عَلَى المشهورِ وَحُكِيَ كَسْرُها: أيْ عَلِمُوا أحْكَامَ الشَّرْعِ.

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

قوله: (قِيلَ: يَا رسولَ الله، مَنْ أكرمُ النَّاس؟) فيه حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ والتفقه في الدين.

قولهم: (مَنْ أكرمُ النَّاس؟)؛ لأن الناس يتفاضلون، سواء في أنسابهم أو في أعمالهم، أو في أموالهم، إلى غير ذلك.

فقال النبي ﷺ: **(أَتْقَاهُمْ)** لله، ذكر أعظم ما يتنافس فيه، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢٦]، وهو كرامة التقوى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]، وأعظم كرامة دوام الاستقامة.

(فقالوا: لَيْسَ عن هَذَا نسألُكَ) يعني: لا نريد معرفة أعلى الناس طبقة من حيث التقوى والاستقامة والدين، فهذا معلوم.

(قَالَ: فَيُوسُفُ) يعني كأنكم تسألون عن شخص بعينه، **(فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابنُ نَبِيِّ اللهِ ابنِ نَبيِّ اللهِ ابنِ خليلِ اللهِ)** نسب عظيم، قد لا يوجد لغير يوسف، رسول نبي، ابن رسول نبي، ابن رسول نبي، ابن خليل الله، وهو رسول نبي، بل ومن أولي العزم من الرسل، وفضائله ﷺ كثيرة، قص الله علينا شأنه في سورة يوسف، فكم لقي من البلاء، وكم ابتلي، ومع ذلك كان صابرا، حتى قال النبي ﷺ: «**لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي**».

وخليل الله هو إبراهيم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟) يعني: من أكرم العرب معدنا وأصيلة ونسبا؟

(خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فقُهُوا) بهذا القيد، كانوا في الجاهلية سادة وقادة لقبائلهم، فدخلوا في الإسلام، فتعلموا العلم، فازدادوا به رفعة إلى رفعتهم، فهذه هي الخيرية العظيمة، خيرية العلم، «**من يرد الله به خيرا يفقه في الدين**».

٧٠ - الثَّاني: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرةٌ، وإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرَ كَيفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسرائيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». رواه مسلم[1].

الشرح:

(أبو سعيد الخدري) هو سعد بن مالك، وقد تقدم.

قوله: (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرةٌ) أي: أنها حلوة المطعم، حلوة الملبس، حلوة المسكن، حلوة الشهوات، ولذلك قال النبي ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»؛ لما فيها من نعم الله عَزَّوَجَلَّ المأكولة، والملبوسة، والمشروبة، وغير ذلك.

(وإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا)؛ لتعمروها بطاعته، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠]، أي: لتعمروها بطاعة الله وبتوحيده.

(فَيَنْظُرَ كَيفَ تَعْمَلُونَ) وهذا على الابتلاء، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود: ٧] وأحسنهم أخلصه وأصوبه، أي ممن أخلص لله عَزَّوَجَلَّ، وتابع السنة.

(فَاتَّقُوا الدُّنْيَا)؛ لشدة فتنتها، (وَاتَّقُوا النِّسَاءَ) يعني: اجعلوا بينكم وبين مطامع الدنيا وقاية، وقد خرج النبي ﷺ وقال: «ٱلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا، حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِي»، الدنيا فتنة، قال النبي ﷺ: "لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَإِنّ فِتْنَةَ أُمّتى المالُ».

وما سميت دنيا؛ إلا لدناءتها، وقيل: لقربها، فهي بالنسبة إلى الآخرة ليست بشيء، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأعلى: ١٦-١٩].

---

(١) حديث رقم: (٢٧٤٢).

﴿وَاتَّقُوا النِّسَاءَ﴾ وفعلا فتنة النساء قال عنها النبي ﷺ: "مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»، كما في حديث أسامة بن زيد في الصحيح، فهي فتنة عظيمة.

انظروا الآن ما من بلد اختلط فيه الرجال بالنساء إلا حصل فيه الشر العريض فالمرأة حقها أن تبقى في بيتها عفيفة مصانة، وإذا خرجت تخرج متجلببة متغطية، «المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان»، «لا يدخل الجنة من النساء إلا من كان مثل هذا الغراب» وأشار إلى غراب أبقع.

ولذلك ركز المشركون من اليهود والنصارى وغيرهم على فتنة النساء، وعلى خروج النساء، وعلى تكشف المرأة، حتى صوروا أن المرأة المحتجبة على رأسها كالخيمة، وأن هذا سبب التخلف، إلى غير ذلك، فأخرجوها بدل أن يُعمل وينفق عليها صارت هي العاملة، وهي المنفقة، وهي المتعب المرهقة.

والله لن تجد النساء مثل دين الإسلام، الذي جعلها مكرمة صغيرة، قال النبي ﷺ في شأن المرأة التي أطعمت ابنتيها: «لقد أوجب الله لها بها الجنة»، وقال النبي ﷺ: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فصبر كن له سترا من النار».

وهي فوق ذلك، وكن يسمين بالعواتق وذوات الخدور، وذلك أنها إذا كبرت لسن الحادي عشر الثاني عشر الثالث عشر تعتق عن الخدمة، وتبقى في بيتها، حتى يأتيها نصيبها، فتكرم عند زوجها، حتى يأتيها أبناؤها، فتكرم من أبنائها، فأي كرامة فوق كرامة الإسلام للمرأة؟

وأما الكفار ما عندهم كرامة للنساء، ما عندهن كرامة عندهم، إنما يستمتعون بهن استمتاع الحمر بالدواب، فإذا كبرت رموا بها في دار المسنين، وإذا كانت أما كانت عاملة، وتدخل على البيت، لا سكنى، ولا نفقة، ولا شيء من شأنها.

(فإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسرائيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ) وذلك؛ لما جاء في حديث أبي سعيد: «أنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ قَصِيرَةً، فَاتَّخَذَتْ لَهَا نَعْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ فَكَانَتْ تَمْشِي بَيْنَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ تَطَاوَلُ بِهِمَا، وَاتَّخَذَتْ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ وَحَشَتْ تَحت فَصِّهِ أَطْيَبَ الطِّيبِ الْمِسْكَ، فَكَانَتْ إِذَا مَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ حَرَّكَتْهُ فَيَفُوحُ رِيحُهُ»، زد على ذلك ما أخبر النبي ﷺ من أن الحيضة سُلطت عليهن بسبب ما وقع منهن من الفتن، والله المستعان، فدُمرت دولة بني إسرائيل وخيبهم الله.

٧١ – **الثالث**: عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ، وَالغِنَى». رواه مسلم(١).

الشرح:

(عبد الله بن مسعود) هو أبو عبد الرحمن الهذلي، أسلم قديما، وكان من أهل القرآن وحفاظه، حتى قال: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه، قال عنه النبي صل الله عليه وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ».

(أَنَّ النَّبيّ ﷺ كَانَ يقول) وهذه تشعر بمداومة النبي صل الله عليه وسلم عليها.

(اللَّهُمَّ) أي: يا الله، (إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى) المراد بالهدى هنا: هداية التوفيق، ولا بأس كذلك بهداية الدلالة والإرشاد، فإن الله قد امتن على نبيه بالتوفيق، وامتن على نبيه بأن جعله مرشدا دالا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى: ٥٢]، والله عَزَّوَجَلَّ جعل علينا قراءة وسؤال الهداية في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: ٦].

(١) حديث رقم: (٢٧٢١).

(وَالتُّقَى) أي: التقوى، وهو أن تجعل بينك وبين الله وقاية، فانظروا إلى سؤال النبي ﷺ لهذه الشعيرة، مع أنه أفضل المتقين، وأعلى المتقين، وأعلم الناس برب العالمين.

(وَالعَفَافَ) عفة البطن، وعفة الفرج، وعفة النظر، إلى غير ذلك، فهي دعوات عامة.

(وَالغِنَى) غنى النفس، وكذلك لا بأس أن يكون غنى المال؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى الله**».

٧٢ – الرابع: عن أبي طريفٍ عدِيٍّ بن حاتمٍ الطائيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَتْقَى للهِ مِنْهَا فَلْيَأْتِ التَّقْوَى». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

وجاء عن غيره.

قوله: (عدِيِّ بن حاتمٍ الطائيِّ) أبوه المشهور بالكرم، وأسلم عدي وأخته سفَّانة بعد أن أُخذت في الأسر، ومن عليها النبي ﷺ بإطلاقها، ثم كان قد فر عدي بن حاتم، ثم جاء وأسلم، وحسن إسلامه.

قال: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ) والمراد باليمين هنا: اليمين المكفرة، لا اليمين الغموس، فإن اليمين الغموس لا كفارة لها إلا التوبة، تدع الديار بلاقع، خاوية على عروشها.

---

(١) حديث رقم: (١٦٥١).

(ثُمَّ رَأَى أَتْقَى للهِ مِنْهَا) رأى في ترك اليمين التقوى، من صلة رحم، وإعطاء فقير وإحسان إلى جار.

(فَلْيَأْتِ التَّقْوَى) فإن هذا أحب إلى الله من أن يمضي في يمينه التي قد حلفها وليأتي التقوى مع تكفير عن يمينه، كما هو في روايات أخرى.

* قلت في شرحي على "صحيح مسلم":

وهذا فيه أن الإنسان لا يمضي على يمينه الذي فيه قطيعة رحم، الذي فيه منع الحقوق، الذي فيه المدبرة والمهاجرة بين الإخوان، وسيأتي معنا أن النبي ﷺ رغب في الحنث إن كان مؤداه إلى الصلة، إن كان مؤداه إلى الإحسان، إن كان مؤداه إلى الخير العظيم.

إذًا الأحاديث جاءت على الروايتين وعلى الوجهين، فإما أن يحمل على أن الواو لا تقتضي الترتيب، ونمضي على الترتيب، وإما أن يحمل على أن المسألة فيها التخيير، وهذا هو الأليق والأرفق بالحال، فمثلا: حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أبى أن يأكل مع بسبب الصبية ثم أكل في حينه، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: والله لا أطعمه ثم أكل في حينه، ليس فيه أنهم كفروا ثم حنثوا، فأحيانا يتعين عليك الحنث قبل الكفارة.

وأحيانا تكون في فسحة من أمرك، مثلا: كان بينك وبين أخيك خصومه، حلفت أن لا تدخل داره، فدخل الناس، فقلت لهم: إن شاء الله أزوره يوم الخميس، وأنت في يوم الإثنين، تستطيع أن تكفر في مساء هذا اليوم، أو في غد الثلاثاء، أو في الذي بعده، ثم تذهب بعد الكفارة، فالمسألة تكون على السهالة، وعلى اليسرية. اهـ

٧٣ - الخامس: عن أبي أُمَامَةَ صُدَيّ بنِ عجلانَ الباهِلِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَخْطُبُ في حجةِ الوداعِ، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللهَ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ». رواه الترمذي، في آخر كتابِ الصلاةِ، وَقَالَ: حديث حسن صحيح[١].

الشرح:

وأبو أمامة صدي بن عجلان، باهلي، وله صحبة، وقد دعا له النبي ﷺ في غير ما موطن، حيث كان يقول: ادع الله أن يرزقني الشهادة، فقال: «**اللهم سلمهم وغنمهم**»، ثم قال له النبي ﷺ: «**عليك بالصوم، فإنه لا مثله له**»، فكانت لا تُرى النار في بيته إلا إذا كان له ضيف.

وباهلة قبيلة من قبائل العرب، ومع ذلك احتُقرت عند بعض الناس، حتى قال بعضهم في أشعاره:

إذا باهلي تحته عبشميةٌ   له ولد منها فذاك المدرعُ

يعني: شبه الولد من نساء بني عبد شمس والزوج باهلي كالفرس المدرع، أي الذي ينزو على أمه الحمار.

ومما يذكرون في عجيب شأنهم: أن بعض الأمراء كان باهليا، فوجد أعرابيا، فقال له الأعرابي: لمن هذا المال؟ قال: لرجل من باهلة؟ قال: أويعطى الله رجلا من باهلة كل هذا المال؟ فقال له: يا أعرابي أتتمنى أن يكون لك هذا المال وتكون من باهلة؟ قال: لا والله، قال: أرأيت لو تكون من أهل الجنة وتكون من باهلة؟ قال: بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي، ثم أخرج له صرة من المال فناوله إياها، فوق مائة دينار،

---

(١) حديث رقم: (٦١٦).

فقال: جزاك الله خيرا، لقد وافقت مني حاجة، ثم قال له: هذه الأموال لي وأنا من باهلة، فقال: خذ مالك، والله لا ألقى الله ولباهلي علي منة.

ومع ذلك انظروا منها هذا الصحابي الجليل، وإنما سقت لكم هذه القصة كالدعابة؛ لأن العرب الجهال يقع منهم أشياء كثيرة، وإلا فـ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

(سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَخْطُبُ في حجةِ الوداعِ) وهذا أعظم موطن جمع الناس فيه لرسول الله ﷺ، ذكروا أنهم أكثر من مائة وأربعة وعشرين ألفا، وقيل غير ذلك، وخطبهم وأسمعهم بتوفيق الله وعونه.

وسميت حجة الوداع؛ لأن النبي ﷺ ودع الناس فيها، وقال: «**لعلي لا ألقاكم بعد عامكم هذا**»، وقال: «**خذوا عني مناسككم**»، ولم يحج النبي ﷺ بعد هجرته غير هذه الحجة، واختلفوا في حجته قبل ذلك والصحيح أنه قد حج قبل بعثته، وربما حج بعد بعثته، إلا أن هذه هي الحجة التي علَّم فيها الناس المناسك.

(فَقَالَ: اتَّقُوا اللهَ) وفي رواية: اعبدوا الله، وهذه الرواية تبين أن معنى اتقوا الله: اعبدوا الله، حتى لا يقول قائل: أين الأمر بالتوحيد؟ مع أن النبي ﷺ يقول: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله**»، بدأ بالتوحيد، وقال لمعاذ بن جبل: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله**»، بدأ بالتوحيد، كيف هذا الحديث بدأ بقوله: (اتَّقُوا اللهَ)؟ اتقوا الله معناها: اعبدوا الله، كما في الرواية الأخرى، فهذا الحديث متضمن لأركان الإسلام الخمسة، فقد جاء ذكر الحج في رواية غير رواية الترمذي.

فإذًا أعلى ما يتقى الله عَزَّوَجَلَّ به التوحيد، وهذا موافق لأول خطاب في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [سورة البقرة: ٢١]، وهنا قال: «**يا أيها الناس اتقوا ربكم**»، وفي الرواية الأخرى: «**اعبدوا ربكم**».

(وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ) والمراد بها الصلوات المفروضات: الفجر، والظهر والعصر والمغرب والعشاء.

(وَصُومُوا شَهْرَكُمْ) أي: شهر رمضان، وذكر ﷺ الفرائض دون النوافل؛ لأن المحافظة على الفرائض واجب، والأخذ بها متعين، والنوافل ممدوحة ومرغب فيها.

(وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ) يعني إذا بلغت النصاب، وحال الحول فيما يجب فيه الحول، أو كذلك ما بلغ النصاب، ولا يجب فيه الحول يخرج يوم الحصاد.

وهذا الأمر خاص بالأغنياء، وأما تقوى الله والصلاة والصوم فهو واجب على الجميع، إلا على معذور.

(وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ) أي في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إنما الطاعة في المعروف**»، كما قال النبي ﷺ: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**»، وكما قلت لكم: قد جاء في بعض الروايات أنه أمرهم بالحج، فالحديث متضمن لأركان الإسلام الخمسة.

(تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ) وهذا وعد من رسول الله ﷺ، وهو وعد من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن هذا الوعد يكون الدخول فيه إما على الابتداء لمن حقق التوحيد، سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وربما يكرم الله عَزَّوَجَلَّ غيرهم، ويكون على المآل لمن كان متلوثا بمعاصي وغير ذلك، وهذا إذا أراد الله تعذيبه؛ لأن صاحب الكبائر فيما دون الشرك تحت المشيئة.

ومـن يمـت ولـم يتـب مـن الخطـا فـأمره مفـوض لـذي العطـا
فـإن يشـاء يأخـذ وإن شـاء انـتقمْ وإن يشـأ يعطـي ويجـزل الـنعمْ

فذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في الباب خمسة أحاديث، ولو أراد الإكثار فإن أحاديث التقوى كثيرة جدًّا، ربما صُنف فيها المصنفات؛ لكثرتها، والله المستعان.

وابن الوردي يقول:

اتـق الله فتقـوى الله مـا جاورت قلب امرئ إلا وصل

يعني يصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون مع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: ٦٩].

٧ - باب في اليقين والتوكل

اليقين: هو الاستيقان بالله عَزَّوَجَلَّ وبوعده، وقد قيل: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة: ٢٤].

والتوكل: هو صدق الاعتماد على الله ظاهرا وباطنا، وهو دأب الصالحين وطريق المؤمنين، كما ستأتي معنا الآيات والأحاديث في هذا الباب، فإذا أردت العون من الله عَزَّوَجَلَّ فاصدق في التوكل عليه، مع ملازمة الأسباب الشرعية والأسباب القدرية، فإن النبي ﷺ لما خرج في أحد خرج بين درعين، ولبس المغفر، ولبس البيضة، وكم من الأحاديث الدالة على هذا الأمر، فلما وصل إلى المدينة قال: «**ليت رجلا صالحا يحرسني الليلة**»، حتى أنزل الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، فترك حراسته.

وهكذا كان يدخر لأهله طعام سنة، وكان إذا خرج لغزوة تجهز لها، فهو القائل: «**من يجهز جيش العسرة وله الجنة؟**»، وهذا من التوكل مع فعل الأسباب، ولهذا قالوا: الاعتماد على السبب شرك، بحيث تعتقد أن هذا السبب هو الذي نصرك، وهو الذي حفظك، وهو الذي عانك، وترك العمل بالسبب قدح في الشريعة، حين تترك العمل بالأسباب الشرعية تجعل السفهاء يتكلمون في الشريعة.

فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [سورة الملك: ١٥]، فهذا من الأسباب القدرية، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [سورة الطلاق: ٢]، وهذا من الأسباب الشرعية، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الجمعة:

١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٩٨]، نزلت فيمن كان يبيع ويشتري في الحج.

وقد كان النبي ﷺ يحتجم ويتداوى، ويرقي نفسه، وأمر أن يُرقَى غيره، مع شدة توكله واعتماده على الله عَزَّوَجَلَّ.

فمذهب الصوفية في هذا الباب مذهب رديء، حتى أن بعضهم ربما لا يدعو ربه يقول: علمك بحالي يغنيك عن سؤالي، ما أمرنا الله بهذا، نحن نعلم أن الله بكل شيء عليم، ولو كان هذا هو الشرع ما دعا الله أحد من الناس؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل، ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ حين التقمه الحوت قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٧]، ومحمد ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣].

ولما جاءه الشيطان يريد أن يحرقه قال: «**ألعنك بلعنة الله، أعوذ بالله منك**»، ما قال: علمك بحالي يغنيك عن سؤالي.

فالتوكل عبادة قلبية، لا تتعارض مع فعل الأسباب الشرعية القدرية، من الدعاء والرجاء، والتداوي، والعمل، وغير ذلك.

وقد تكلف بعض الصوفية في هذا الباب أنه كان إذا أراد أن يخرج بأصحابه أرسل قبله من يجهز له ما يحتاجونه من طعام وشراب وحلوى، فإذا خرجوا في البرية وجاعوا قالوا: جعنا يا حبيب، عطشنا يا حبيب، فيقول لهم: لا تستعجلوا، حتى إذا وصل إلى المكان المعلوم حفر، وأخرج لهم ما يريدون، هذا ليس من التوكل، هذا من التواكل والتكلف.

أما التوكل لما حج اليمنيون قديما وقالوا: نحن المتوكلون أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]، تزود من المأكولات، والمشروبات، والملبوسات والمطعومات، وتزود من التقوى التي هي مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ.

فالتوكل واليقين بهما يقوم الدين، اليقين يجعلك مستيقنا لكل خبر الله، وخبر رسول الله ﷺ، من الوعد والوعيد، فتعمل الصالحات وأنت مستبشر بالوعد، وتبتعد عن المعاصي والسيئات وأنت ترهب من الوعيد، التوكل واليقين سبب لزيادة الإيمان، ورفعة الإنسان.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ **[سورة الأحزاب: ٢٢].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ **[سورة آل عمران: ١٧٣-١٧٤].**

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ **[سورة آل عمران: ١٦٦-١٦٧].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ **[سورة الفرقان: ٥٨].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ **[سورة آل عمران: ١٢٢].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

والآيات في الأمرِ بالتَّوكُّلِ كثيرةٌ معلومةٌ.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: ٣]: **أي كافِيهِ.**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢]، **والآيات في فضل التوكل كثيرةٌ معروفةٌ.**

الشرح:

(﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾) وهذا في غزوة الأحزاب، حين اجتمع على أهل الإسلام عدد من الآلاف يريدون استئصالهم، لكنهم قد علموا وعد الله بالنصر والتمكين والعز، فلم تهتز لهم شعرة، فقالوا: **(قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ)** من السلامة والعافية في الدين، **(وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ)**، صدق الله في خبره، وصدق رسوله ﷺ في خبره بأنه مبلغ عن الله.

(﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾) فيه دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في زيادة الإيمان ونقصانه.

(﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾) وهذه نزلت في غزوة حمراء الأسد، حين زعم أبو سفيان أنه يعود فيستأصل أهل الإسلام، فحث النبي ﷺ أن يقوم بمواجهتهم من حضر أحدا دون غيرهم.

(﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾) إذًا ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب إلا هو لرفعته.

قوله: (﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾) المراد به علم وقوع، وإلا فإن الله بكل شيء عليم (﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾) علم وقوع، وإلا فهو يعلم المنافقين من قبل ومن بعد.

(﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾) وهذا دليل عظيم، ما قال: توكل على الله في هذه الآية، توكل على الرحمن، توكل على الرحيم، توكل على العظيم، مع أنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كذلك، ولكن قال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ الذي له الحياة الأزلية الأبدية، لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وفي حديث ابن عباس: «**أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**».

وجمع الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الموطن بين اسم الحي الثبوتي وبين الصفة السلبية ﴿لَا يَمُوتُ﴾؛ لبيان كمال حياته، سبح بحمده، فاعتمد عليه، فإنه حيٌّ قيوم، لا ينام ولا يموت، ولا يغفل، فما دمت معتمدا عليه فأبشر بالعز والنصر والرزق والرفعة وغير ذلك.

(﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾) حث وتحريض وإخبار أن المؤمنين أهل اعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ في جميع شأنهم، والله لولا هذه الشعيرة ربما ما ثبت أحد على دين الله، ما الذي جعل أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ صلوات الله وسلامه عليهم يقومون بدين الله بين كثرة المخالفين؟ الآن أنت في بلد إسلامي، ربما لو أحاط بك الحزبيون أو المبتدعون تخشى منهم أن تظهر بعض الدين.

فكيف بذلك حين يأتيه الوحي: قل: لا إله إلا الله، ومرهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، وحول الكعبة ثلاثمائة وستين صنم، يعتقدونها آلهة، ويتقربون لها، ويعظمونها ويتمسحون بها، ويطلبون منها الحاجات، إلى غير ذلك، ثم أنت تخرج في فجأة وتقول لهم: هذه آلهة باطلة، لكنه التوكل في قلوب المؤمنين، في قلوب الأنبياء والمرسلين، ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [سورة يونس: ٧١]، ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ [سورة هود: ٥٦].

وهكذا أيضا قول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، تحدي لأهل الباطل، مع كثرة عددهم وعُددهم، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي إلى فرعون مع شدة غطرسته وبطشه، لكنه يحمل في قلبه الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ، فعند ذلك نُصروا وأُعزوا في الدارين.

(﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾) إذا عزمت على أمر من الأمور فاعتمد على الله في قضائه وتيسيره، (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾) إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية.

قال: (والآيات في الأمرِ بالتَّوكُّلِ كثيرةٌ معلومةٌ) ومنها: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [سورة الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]، انظر إلى هذه الأسماء التي قرنها بالأمر بالتوكل، توكل على العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، الرحيم بعباده المؤمنين، الذي يراك حين تقوم: في ظلمة الليل والناس غافلون وتقلبك في الساجدين يرى دعاءك ورجاءك وطلبك، فيستجيب لك، إنه هو السميع لدعائك، العليم بحالك، فآيات عظيمات.

(﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾) يعني: المؤمنون حقا أهل التوكل.

فالنصيحة لي ولكم: بصدق الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لحاجتنا الى هذه الشعيرة، ولأنها سبب لزيادة الإيمان، ولنصر الرحمن، ولضعف الشيطان، ولتحقيق المطالب، ولإبعاد المراهب، وكنت قد أردت أن أذكر موقفا من النبي ﷺ أنه لما جاءه الوحي يقول الله له يأمره بإبلاغ قريش قال: «يا رب، إذًا يثلغوا رأسي فيجعلوه مثل الخبزة».

يعني يقول: يا رب إذا أبلغت قريشا بهذا الدين ربما يضربوا رأسي حتى يصير مثل الخبزة، فقال الله: ابعث جيشا نبعث خمسة أضعافه، وقاتل بمن معك من عصاك، وسأنزل عليك قرآنا تقرؤه نائما ويقظان، لا يغسله الماء، فحصل النصر.

وأما الأحاديث:

٧٤ – فالأول: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبيَّ ومَعَهُ الرُّهَيطُ، والنبيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، والنبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فقيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ، ولكنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرتُ فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ، فقيلَ لي: انْظُرْ إِلَى الأفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظيمٌ، فقيلَ لِي: هذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ».

ثُمَّ نَهَضَ فَدخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ في أُولئكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ وَقالَ بعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا في الإِسْلامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيئًا – وذَكَرُوا أشيَاءَ – فَخَرجَ عَلَيْهِمْ رسولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فقالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا

يَرْقُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ؛ وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُون» فقامَ عُكَّاشَةُ ابنُ محصنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلني مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

«الرُّهَيْطُ» بضم الراء تصغير رهط: وهم دون عشرة أنفس.

وَ«الأُفقُ» الناحية والجانب.

و «عُكَّاشَةُ» بضم العين وتشديد الكاف وبتخفيفها، والتشديد أفصح.

(ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا) وهو أبو العباس، عبد الله بن عباس، أحد العباد المذكورون في هذا البيت:

ابن عباس وعمرو وعمر وابن الزبير هم العبادلة الغرر

وسموا بهذا الاسم؛ لحاجة الناس إليهم، فكانوا إذا احتاجوا إلى الفتوى قيل: سلوا العبادلة، قال بهذا العبادلة، وأما ابن مسعود فقد مات قبلهم.

هذا حديث عظيم، قد استوفينا الكلام على معانيه في كتابنا (فتح الوهاب شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب)، ونمر هنا على بعضه سريعا.

قال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ) لعله في ليلة الإسراء، أو لعلها رؤيا منام.

(فَرَأيتُ النَّبيَّ ومَعَهُ الرُّهَيطُ) أي: العدد اليسير من الناس، وهم دون العشرة الأنفس.

(والنبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ) تعني لم يتبعه إلا رجل، ولم يتبعه إلا رجلان.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤).

(والنبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) وفي هذا قلة السالكين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الإنسان لا يستوحش إذا كان وحيدا أو كانوا قليلا، فإن الحق هو الجماعة، وهو الكثرة، وإن كان ضعيفا في نظر الناظر، ولذا سمي بعض السلف بالجماعة، وسمي أهل السنة بالسواد الأعظم.

(إِذْ رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظيمٌ) أي: أمة كثيرة، والسواد يطلق على الشخص الشاخص الذي لم تعرف ملامحه.

(فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي)؛ لكثرتهم.

(فقيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ) وهذا دليل على كثرة بني إسرائيل.

(ولكنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ) والأفق: الشيء البعيد، والناحية والجانب.

(فقيلَ لِي: هذِهِ أُمَّتُكَ)؛ لأن هذه الأمة أكثر أهل الجنة، قال النبي ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها**»، وقال النبي ﷺ: "**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ثَمَانُونَ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**».

(وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ ألفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ) وكان اليهود يعلمون هذا، ولذلك قالوا له: يا محمد كم يدخل الجنة من أمتك؟ أو قال له: كم يدخل الجنة من أمتك بغير حساب ولا عذاب؟ قال: سبعون ألفا، قالوا: لكننا نرى أصحابك دون ذلك، فأخبرهم: أما سيكون مع كل ألف سبعون ألفا، لكن أبوا الإيمان.

والمراد (بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ) أنهم يدخلون كرامة من الله عَزَّوَجَلَّ، بدون مقاصصة أو محاصة، «**ومن نُوقش الحساب عُذب**».

(فَخَاضَ النَّاسُ في أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ) فيه حرص الصحابة على معرفة أهل الفضل؛ حتى يتأسوا بهم ويكونوا مثلهم.

(فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذينَ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ) فيه فضل الصحبة، وأنه لا يعدلها شيء، فقد ﵃ ورضوا عنه.

(وَقالَ بعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الَّذِينَ وُلِدُوا في الإِسْلامِ) فيه الاجتهاد في زمن النبي ﷺ، إذ أن النبي ﷺ لم ينكر عليهم ذلك، وفيه فضيلة الولادة في الإسلام، إذ أن كثيرا من أهل الإسلام لم يعملوا شيئا من الشرك، وهذه منقبة عظيمة، ولكن الإنسان يحتاج إلى معرفة الشر.

عرفت الشر لا للشرْر لكن لتوقيه ... ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

وفيه: خطر الشرك من قولهم: (فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيئًا).

(وذَكَرُوا أشيَاءَ) أي مما اختلفوا فيه.

(مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟) فيه أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وفيه أن النبي ﷺ سألهم سؤالا؛ ليجيبهم بالواقع.

(هُمُ الَّذِينَ لا يَرْقُونَ) هذه اللفظة شاذة، شذ بها سعيد بن منصور، وهي في (مسلم) انفرد بها، وقد رقى جبريل النبي ﷺ، ورقى النبي صلى الله عليه غير واحد، وقال النبي ﷺ: «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»، فكيف يأمر بالرقية ثم يخبر أن الفضل في تركها؟ بل هي من الإحسان.

(وَلا يَسْتَرقُونَ) هذه هي الثابتة؛ لأن المسترقي قد يضعف يقينه.

(وَلا يَتَطَيَّرُونَ) والطيرة ما أمضاك أو ردك، وسيأتي بابها في موطنه، قال النبي ﷺ: «الطيرة شرك، الطيرة شرك»، قال عبد الله: وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل.

(وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُون) وهذه عماد ما تقدم، لا يسترقون ولا يتطيرون؛ لعظم توكلهم على الله عَزَّوَجَلَّ.

(عكاشة بن محصن) الأسدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أسلم قديما، قتله طليحة بن خويلد، ثم أسلم رضي الله عنهم جميعًا.

(ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلني مِنْهُمْ) فيه المسارعة في الخيرات، والسباق والمسابقة إليها.

وأدخل أهل العلم هذا الحديث في باب الشفاعة؛ لأنه جاء في بعض الروايات: أن النبي ﷺ قال: «**اللهم اجعله منهم**».

وفيه التزكية لمن أمنت عليه الفتنة، وفي فضيلة الصحابة إذ أنهم يعلمون أنهم من أهل الجنة وما زالوا على الأرض.

(ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ) قيل: إنه من المنافقين، ولم يرد النبي ﷺ أن يزكيه، وقيل: بأنه من المسلمين، وهذا هو الأظهر، إلا أن النبي ﷺ أراد أن يقطع الدور؛ حتى لا يقوم الآخر ويقول: ادع لي، والثاني، وهكذا.

والشاهد من الحديث قوله: **(وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُون)**.

٧٥ - الثاني: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أيضًا: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْك تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ أَعُوذُ بعزَّتِك، لَا إِلهَ إلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّني، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا تَمُوتُ، وَالجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُونَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، وهذا لفظ مسلم واختصره البخاري[1].

الشرح:

هذا من حديث ابن عباس الطويل في دعاء النبي صل الله عليه وسلم في قيام الليل، ولعله يأتي بعضه.

(اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ) أي: استسلمت وانقدت.

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

(وَبِكَ آمَنْتُ): أي: صدقت وأقررت بكل ما أخبرت به ودعوت إليه.

(وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ) أي: اعتمدت في قضاء حوائجي، ودفع المراهب.

(وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ) أي: رجعت من ذنوبي ومعاصي وما يلزم من ذلك.

(وَبِكَ خَاصَمْتُ) أي: من أجلك، خاصمت المخالفين.

(اللَّهُمَّ أَعُوذُ بعزَّتِكَ) فيه جواز الاستعاذة بصفة الله عَزَّوَجَلَّ، وأما الدعاء فلا يجوز، لا يجوز أن تقول: يا عزة الله، ولا: يا رحمة الله، وإنما تقول: يا عزيز، يا رحيم.

(لَا إلهَ إلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي) توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بألوهيته أن يثبته على الدين وأن لا يضله عن الصراط المستقيم.

(أَنْتَ الحَيُّ) والنبي ﷺ كان من دعائه: «يا حي يا قيوم»، وجمع الله بينهما؛ لأن عليهما مدار الأسماء الحسنى، الحي: الذي اتصف بالحياة الأزلية الأبدية، والقيوم: القائم بنفسه المقيم لغيره.

(الَّذِي لَا تَمُوتُ) الذي لا تموت؛ لكمال حياته وقيوميته.

(وَالجِنُّ والإِنْسُ يَمُوتُونَ) ولا يسلم من هذا العطب إلا من استثناه الدليل.

ثمانية حكم البقاء يعمها من الخلق، والباقون في حيز العدمْ
هي العرش، والكرسي، نار، وجنة وعجب، وأرواح، كذا اللوح والقلم

٧٦ - الثالث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا، قَالَ: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبرَاهيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إيْمانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ. رواه البخاري[1].

(١) حديث رقم: (٤٥٦٣).

وفي رواية لَهُ عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ آخر قَول إبْرَاهِيمَ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ: حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكِيلُ.

الشرح:

في هذا الحديث أن الذي قالها هو محمد صل الله عليه وسلم، ولا مانع أنه ابتدأها، ثم قالها الصحابة رَضِوَانُٱللَّهِعَلَيۡهِمۡ؛ تأسيا بالنبي ﷺ.

ومعنى (حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ) أي: الله كافينا، وكثير من الناس لا يعرف معنى هذه الكلمة، وهي دعاء، إذا أحد آذاك وقلت: حسبي الله عليك كأنك تقول: اللهم اكفني شر هذا الرجل.

ومرة من المرات كنا في الحرم، وركبنا الباص، فجاء واحد يريد يدخل، فبعضهم دهفه، فقلت له: يا أخي اتق الله، فأعرض، فقلت: حسبي الله ونعم الوكيل، قال: تُحَسْبِل علي؟ قلت: أحسبل حسبي الله ونعم الوكيل، فيتهيبون من هذه الكلمة في أرض الحرمين؛ لمعرفتهم بقيمة هذا الدعاء؛ لأنهم كانوا يسمعون الأحاديث والآيات في التوحيد.

٧٧ - الرابع: عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَقْوامٌ أفْئِدَتُهُمْ مِثلُ أفْئِدَةِ الطَّيرِ». رواه مسلم[1].

قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رَقِيقَةٌ.

الشرح:

قلوبهم رقيقة؛ لعظم توكلهم على الله ومراقبتهم له.

* قلت في شرحي على "صحيح مسلم":

(١) حديث رقم: (٢٨٤٠).

يعني في رقتها وضعفها، وهؤلاء أصحاب الخشية، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر: ٢٨]، بينما أهل النار قلوبهم غليظة شديدة، لا تستجيب لموعظة، ولا ترهب من ترهيب، ولا ترغب في ترغيب، أما قلوب المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢].

هذا الحديث يعله الدارقطني، قَالَ: وَالْمُرْسَلُ الصَّوَابُ.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا كَلَامُ الدَّارَقُطْنِيِّ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ لَا يَقْدَحُ فِي صِحَّةِ الْحَدِيثِ؛ فَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّلِ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّ الْحَدِيثَ إِذَا رُوِيَ مُتَّصِلًا وَمُرْسَلًا كَانَ مَحْكُومًا بِوَصْلِهِ عَلَى الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ.

هذا مذهب الفقهاء، مذهب الفقهاء دائما عدم النظر إلى الشذوذ والعلة، ولذلك النووي كثيرا ويدفع إعلال الدارقطني بمثل هذا الأمر، ولا يسلِّم له، لكن قد يثبت الإعلال وقد لا يثبت، لكن النووي أغلب الأحاديث مر عليها بهذه الصورة، يعني أنه إذا رُوي مرسلا ومتصلا الحكم للاتصال، إذا روي موقوفا ومرفوعا الحكم للمرفوع هذه صار عليها جماهير الأصوليين وجماهير الفقهاء، ولذلك العلماء قالوا في تعريف الصحيح يعني عند المحدثين قالوا: تعريف الصحيح عند المحدثين: هو الحديث الذي يتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ولم يكن شاذا ولا معللا، أما الأصوليون لم يزيدوا: ولم يكن شاذا ولا معللا، خلاص: ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط إلى منتهاه. اهـ

٧٨ – الخامس: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّهُ غَزَا مَعَ النبي ﷺ قِبلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُول الله ﷺ قَفَلَ معَهُمْ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كثير العِضاه، فَنَزَلَ رَسُول الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُول الله ﷺ تَحتَ سَمُرَة فَعَلَّقَ بِهَا سَيفَهُ**

وَنِمْنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رسولُ الله ﷺ يَدْعونا وَإِذَا عِنْدَهُ أعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «إنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيفِي وَأنَا نَائمٌ فَاسْتَيقَظْتُ وَهُوَ في يَدِهِ صَلتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ - ثلاثًا» وَلَمْ يُعاقِبْهُ وَجَلَسَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية قَالَ جَابرٌ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بذَاتِ الرِّقَاعِ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لرسول الله ﷺ فجاء رَجُلٌ مِنَ المُشْركينَ وَسَيفُ رَسُول الله ﷺ معَلَّقٌ بالشَّجَرَةِ فَاخْتَرطَهُ، فَقَالَ: تَخَافُنِي؟ قَالَ: «لَا» فَقَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللهُ».

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي[2] في (صحيحه)، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللهُ». قَالَ: فَسَقَطَ السيفُ مِنْ يَدهِ، فَأخَذَ رسولُ الله ﷺ السَّيْفَ، فَقَالَ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مني؟». فَقَالَ: كُنْ خَيرَ آخِذٍ، فَقَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ الله وَأَنِّي رَسُول الله؟» قَالَ: لَا، وَلَكنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبيلَهُ، فَأَتَى أصْحَابَهُ، فَقَالَ: جئْتُكُمْ مِنْ عنْد خَيْرِ النَّاسِ.

قَولُهُ: (قَفَلَ) أي رجع، وَ(الْعِضَاهُ): الشجر الَّذِي لَهُ شوك، و(السَّمُرَةُ) بفتح السين وضم الميم: الشَّجَرَةُ مِنَ الطَّلْح، وهيَ العِظَامُ مِنْ شَجَرِ العِضَاهِ، وَ(اخْتَرَطَ السَّيْفَ) أي: سلّه وَهُوَ في يدهِ، (صَلْتًا) أي: مسلولًا، وَهُوَ بفتحِ الصادِ وضَمِّها.

الشرح:

(قُلْتُ: اللهُ – ثلاثًا) أي: الله، الله، الله، لكن كلمة عظيمة تخرج من في رسول الله صل الله عليه وسلم، وليست كلمة مجردة، بل إنها كلمة متضمنة للدعاء والتوكل

(١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).

(٢) وأبو بكر الإسماعيلي له مستخرج على الصحيح.

وصدق الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك رهب منها ذلك الأعرابي، وسقط السيف من يده.

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظيم التوكل، وعظيم توكل النبي ﷺ، وفيه حرص الكفار على قتل النبي ﷺ والتخلص منه، وفيه العمل بالأسباب، إذ أنهم كانوا يستظلون.

وفيه حب الصحابة لرسول الله ﷺ، إذ أنهم كانوا يتركون له الشجرة الظليلة، وفيه فضيلة القائلة، فإنه يستعان بها على قيام الليل، وفيه الإخبار بالأمر المستعجَب، فإن النبي ﷺ دعا أصحابه وأخبرهم.

وفيه العفو عند المقدرة، فإن النبي ﷺ عفا عنه، والعفو من صفات الكرام.

(كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بذَاتِ الرِّقَاعِ) وهي غزوة ذات الرقاع، سميت بهذا الاسم؛ لأنهم لبسوا الرقاع على أرجلهم من شدة الحر، ولم تكن لهم نعال.

(فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: الله) الإنسان في مثل هذه المواقف يثبت، وإلا الإنسان يرهب من الموت، لكن في مثل هذا الموقف اثبت، وإن شاء الله ما هو إلا النصر والسلامة.

(تَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاَّ الله وَأَنِّي رَسُول الله؟) فيه الدعوة إلى الإسلام.

وهذا من الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ بلسان الحال والمقال، والنبي ﷺ يقول: «**ملكت فاسجح**»، بعض الناس إذا تمكن منك ما عاد يرحمك، لا يا أخي، إذا مكنك الله من خصمك اعف واصفح، لا سيما إذا كان العفو والصفح سبب لتأليف القلوب، وزيادة الإيمان، وحصول الخير.

٧٩ - السادس: عن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا». رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن(١).

معناه: تَذْهبُ أَوَّلَ النَّهَارِ خِمَاصًا: أي ضَامِرَةَ البُطُونِ مِنَ الجُوعِ، وَتَرجعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَانًا أَي: مُمْتَلِئَةَ البُطُونِ.

الشرح:

بهذا الحديث احتج الصوفية ومن إليهم إلى ترك العمل بالأسباب، وهذا الحديث رد عليهم، كما قال شيخ الإسلام: لا يستدل مبتدع بدليل صحيح يرى له فيه دلالة إلا كان فيه رد عليه، فأثبت النبي ﷺ للطيور أنها تغدو وتروح، فتفعل الأسباب، بخلاف رجل جالس في زاوية، ولا يعمل ولا شيء، ويرجو ويتمنى على الله الأماني.

وليس من هذا طلب العلم، فإن طلب العلم من أعظم الأسباب الشرعية والقدرية للرزق، وهذا أمر مجرب قد رأيناه ولاحظناه في أنفسنا وفي غيرنا، فكنا فقراء أغنانا الله، وكنا قلة كثرنا الله، وهكذا، فالأمر لله من قبل ومن بعد، فما عليك إلا أن تصدق مع الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ) أي: تعتمدون وتصدقون.

(عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ): كما يجب وكما هو له.

(لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ) لراحت عليكم أرزاقكم غدقا.

٨٠ - السابع: عن أبي عُمَارة البراءِ بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «يَا فُلانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فراشِكَ، فَقُل: اللَّهُمَّ أَسْلَمتُ نَفْسي إلَيْكَ، وَوَجَّهتُ وَجْهِي

(١) حديث رقم: (٢٣٤٤).

إِلَيْكَ، وَفَوَّضتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلجأْتُ ظَهري إِلَيْك رَغبَةً وَرَهبَةً إِلَيْك، لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ، آمنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ؛ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيرًا» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية في الصحيحين، عن البراءِ، قَالَ: قَالَ لي رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءكَ للصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيمَنِ، وَقُلْ» ... وذَكَرَ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ: «وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ».

الشرح:

ذكر المصنف هذا الحديث؛ لبيان ما فيه من حسن الاعتماد على الله.

(يَا فُلانُ) أي: قال له رسول الله: يا براء، أو يا أبا عمارة، لكن لم يذكر الاسم.

(إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فراشِكَ) أي: للنوم.

(فَقُل: اللَّهُمَّ أَسْلَمتُ نَفْسي إِلَيْكَ) والله حافظها.

(وَوَجَّهتُ وَجْهِي إِلَيْكَ) صادقا مخلصا.

(وَفَوَّضتُ أَمْري إِلَيْكَ) متوكلا معتمدا.

(وَأَلجأْتُ ظَهري إِلَيْكَ) يعني يستحفظ الله أن يحفظه من جميع الشرور والآثام.

(رَغبَةً) فيما عندك، (وَرَهبَةً) من بطشك وغضبك.

(لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ) ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٠].

(آمنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ) القرآن على محمد صل الله عليه وسلم.

(وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ) محمد صل الله عليه وسلم.

(فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ): التوحيد والإسلام.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

وفيه فضل الوضوء قبل النوم، وفيه فضل النوم على الشق الأيمن.

٨١ – الثامِنُ: عن أبي بكرٍ الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبدِ اللهِ بنِ عثمان بنِ عامرِ بنِ عمر ابنِ كعب بنِ سعدِ بن تَيْم بنِ مرة بن كعبِ بن لُؤَيٍّ بن غالب القرشي التيمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم قَالَ: نَظَرتُ إِلَى أَقْدَامِ المُشْرِكِينَ وَنَحنُ في الغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنا، فقلتُ: يَا رسولَ الله، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبا بَكرٍ باثنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا؟». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

الشرح:

(أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الصديق الأكبر، وصاحب النبي ﷺ في الغار، وسماه الله صاحبه، المبشر بالجنة على لسان رسول الله صل الله عليه وسلم، المبشر برضوان الله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [سورة الضحى: ٥]، إلى غير ذلك من الفضائل والشمائل، وهو أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ، وهو خليفة رسول الله ﷺ.

وقد ذكرنا كثيرًا من شمائله وفضائله في شرحنا على الوسطية، وكذلك في كتابنا (سلامة الخلف في طريقة السلف)، وفي شرحنا على الحائية.

ذكروا: أنه لم يخالف النبي ﷺ في مسألة من المسائل، تبغضه الروافض، ولا حض لهم في الإسلام، إذ عمدوا إلى أفضل الأمة بعد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويبغضونه، ورسول الله ﷺ أقر الصحابة على قولهم: أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، كما في حديث عبد الله بن عمر الذي اتفق عليه الشيخان.

(مَا ظَنُّكَ يَا أَبا بَكرٍ باثنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا) وهذا مذكور في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [سورة التوبة: ٤٠]، وهذا

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

الغار هو غار ثور، لا غار حراء، غار حراء في جبل حراء، وهو ما يسمى الآن بجبل النور، وغار ثور في جبل ثور، وهو الذي يلي حي الهجرة، وفي غربه بطحاء قريش، وفي شرقه حي النسيم وفي جنوبه العوالي.

صعد بعض الأخوة، قالوا: حوالي ساعتين، يمشى من حي الهجرة إلى غار ثور في حوالي ساعتين، مع أنه قد عُمل له درج، فكيف بمسير النبي ﷺ وصاحبه ولم يكن ثمة طريق؟ ومع ذلك حفظهم الله.

(نَظَرتُ إِلَى أَقْدَامِ المُشْرِكِينَ)؛ لأنهم ذهبوا يتتبعونهم، وغار ثور ليس على طريق المدينة، وإنما ذهب إليه النبي صل الله عليه وسلم؛ ليعميهم، وإلا طريق المدينة إلى جهة التنعيم، لكن هم سيذهبون يبحثون في جهة التنعيم، فهو خرج خلف الحرم بمسافة سبعة كيلو متر.

(وَنَحنُ فِي الغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنا) وهذا من حفظ الله لهم، انظر إلى الكافر فوقه، وهو داخل الغار، (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحتَ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنَا) ولكن الرسول ﷺ ثابت الجأش، مطمئن بعظيم توكله على الله عَزَّوَجَلَّ.

(فقلتُ: يَا رسولَ الله، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحتَ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنَا) وأبو بكر قال هذا القول خشية على رسول الله ﷺ، لا خشية على نفسه.

(فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبا بَكرٍ باثنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا) يعني: أنا وأنت والله ثالثهما يحوطهما ويحفظهما وهو على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* قلت في شرحي على "صحيح مسلم":

وهذا الحديث فيه تثبيت للمؤمنين، فالذي حفظ الدين وما بين المشركين وبين أن يقضوا على حملته إلا أن ينظر أحدهم تحت قدميه سيحفظ الدين، وقد كثر

المسلمون، وإن تمالأ على هذا الدين من تمالأ، ومكر به من مكر، وأراد به الشر من أراد. اهـ

٨٢ – التاسع: عن أم المُؤمنينَ أمِّ سَلَمَةَ وَاسمها هِنْدُ بنتُ أَبِي أمية حذيفةَ المخزومية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النَّبيّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيتِهِ، قَالَ: «بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أعُوذُ بِكَ أَنْ أضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»، حديثٌ صحيح، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحةٍ، قَالَ الترمذي: حديث حسن صحيح، وهذا لفظ أبي داود[١].

الشرح:

(أم سلمة) تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة، و هو عبد الله بن عبد الأسد، وهاجرت الهجرتين: إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وكانت من خيرة زوجات النبي ﷺ.

والشاهد منه: أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته دعا بهذا الدعاء متوكلا على الله، قال:

(بِسْمِ اللهِ) أي: استعنت بالله في مسيري هذا.

(تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ) أي: اعتمدت عليه في جلب المنافع ودفع المضار.

(اللَّهُمَّ إِنِّي أعُوذُ بِكَ أَنْ أضِلَّ أَوْ أُضَلَّ) أضل في نفسي، أو أُضل من غيري.

(أَوْ أَزِلَّ) في نفسي، **(أَوْ أُزَلَّ)** من غيري، **(أَوْ أظْلِمَ)** نفسي، **(أَوْ أُظْلَمَ)** من غيري.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، والترمذي (٣٤٢٧).
أعله بعضهم بعدم سماع الشعبي من أم سلمة، وقد ذكر شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحفظنا منه هذا: أن سماعه منها قد ثبت، كما نقله الآجري عن أبي داود، والحديث ثابت.

(أَوْ أجْهَلَ) على غيري، (أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ).

هذا حديث عظيم، ينبغي أن يدعو به أهل الإسلام، لعل الله أن يقيهم هذه الشرور، فإن الإنسان إذا ظُلم مصيبة، قد لا يتحمل من ضيق الصدر، وإذا ظَلم مصيبة.

٨٣ - العاشر: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ - يَعْني: إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ -: بِسمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، يُقالُ لَهُ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيطَانُ». رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، وَقالَ الترمذي: حديث حسن[١].

زاد أبو داود: «فيقول - يعني: الشيطان - لِشيطان آخر: كَيفَ لَكَ بِرجلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟».

الشرح:

والجمع بين الحديثين أمر طيب، لو جمع بين حديث أم سلمة وحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وساقه المصنف؛ لما فيه من حسن الاعتماد على الله، من قوله: (تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ)، لا حول لي ولا قوة إلا بالله عَزَّوَجَلَّ.

(يُقالُ لَهُ: هُدِيتَ) أي من الملك.

(وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيطَانُ)؛ لأن الشيطان يخرج خلف الإنسان برايته إذا كان في معصية الله، وإذا خرج في طاعة الله يخرج معه الملك برايته.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦)، والنسائي في (الكبرى) (٩٩١٧).

٨٤ - وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ أَخَوانِ عَلَى عهد النَّبيّ ﷺ وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبيَّ ﷺ وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا المُحْتَرِفُ أَخَاهُ للنبي ﷺ فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ».

رواه الترمذي بإسناد صحيحٍ عَلَى شرطِ مسلم[1].

«يحترِف»: يكتسب ويتسبب.

الشرح:

قوله: (كَانَ أَخَوانِ عَلَى عهد النَّبيّ ﷺ) أي: أخوان لأب وأم.

(وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبيَّ ﷺ) أي: للتفرغ لطلب العلم وللعبادة، ونحو ذلك.

(وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ) أي: يعمل في أرضه أو مزرعته أو سوقه.

(فَشَكَا المُحْتَرِفُ أَخَاهُ للنبي ﷺ) من أنه لا يساعده ولا يعمل معه، وهذا حال كثير من الناس الآن، أنهم يتذمرون إذا رأوا إخوانهم أو من يليهم يطلبون العلم: لماذا لا يعملون؟ لماذا لا يؤمنون مستقبلهم؟ وما درى المسكين أن المستقبل الحقيقي هو الآخرة، وتأمينها بالعلم والعمل، وأن مستقبل الدنيا لن يضيع مع العلم الشرعي.

فصاحب العلم الشرعي هو المقدم للخطابة، والإمامة، والتأليف والتصنيف، وكم من إمام كالشيخ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ، مع أن شيخ الإسلام يرى أنه يجوز أن تنسب نفسك إلى العلماء؛ لأنهم شيوخ الإسلام، كان يبني من حقوق نشره المساجد، ويعين طلاب العلم، ويعين الفقراء، فالحمد لله ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ العلم مضيعة، ولا جعل أهلهما مضيعة.

---

(١) حديث رقم: (٢٣٤٥)، والحديث في (الصحيح المسند) لشيخنا مقبل رَحِمَهُٱللَّهُ، ويصححه الألباني أيضا رَحِمَهُٱللَّهُ.

(فَقَالَ: لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ) أي: لعل ما يأتيك من الرزق والبركة بسبب طاعة أخيك وسع الله لك في رزقك، وامتن الله عليك به.

فمن هذه الأحاديث ينبغي لطلاب العلم وغير طلاب العلم أن يعلموا عظيم هذه العبادة الجميلة، عبادة التوكل، وما فيها من البركات والهبات، وإنما ساق المصنف هذه الأحاديث وترك غيرها؛ من باب الاختصار، وإلا لو أراد أحد أن يصنف فيه كتابا مستقلا لكان ذلك من الآيات والأحاديث، لوقائع النبي ﷺ ووقائع الصحابة وأقوال الصحابة والتابعين ومن إليهم.

٨ - باب في الاستقامة

والاستقامة: هي ملازمة طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الأمور المهمة شرعا وقدرا، أما شرعا فلثناء الله على أهلها، ولثناء رسول الله ﷺ على أهلها، ولملازمة الأنبياء والمرسلين والصالحين لها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: ٩٩]، وأما قدرا فلأن المنقطع عن الاستقامة يصير إلى المهانة، والنبي ﷺ يقول: «**الأعمال بالخواتيم**».

وأعظم كرامة دوام الاستقامة، أعظم كرامه يكرم الله بها العبد أن يبقى مستقيما حتى يموت، فيبعث عليها.

والاستقامة على الصراط المعنوي الذي هو الإسلام استقامة على الصراط الحسي يوم القيامة الذي هو الجسر الممدود على متن جهنم، والحصة بالحصة ولهذا كان من دعاء المسلمين في كل ركعة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: ٦]، أي: الإسلام كما في حديث النواس بن سمعان عند أحمد: قال النبي ﷺ: «**الصراط الإسلام**»، فمن هُدي على هذا الصراط هدي على ذلك الصراط يوم القيامة.

ومن دعاء النبي ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، «**يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك**».

ومن دعاء ابن مسعود الذي أقره النبي ﷺ عليه: «**اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد**».

ومن دعاء ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: اللهم لا تسلب مني الإيمان بعد أن أعطيتنيه.

ومن دعاء أبي الدرداء: اللهم إني أسألك إيمانا دائما.

وقبل ذلك في قول الله عَزَّوَجَلَّ مخبرا عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [سورة آل عمران: ٨].

كل هذه الأدلة تدل على أهمية الاستقامة على دين الله عَزَّوَجَلَّ، ستأتي بعض الأدلة في أمر الله لنبيه بها، والأمر لنبي الله ﷺ هو أمر لنا، إلا ما كان من خصوصياته.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ **[سورة هود: ١١٢].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ **[سورة فصلت: ٣٠-٣٢].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ **[سورة الأحقاف: ١٣-١٤].**

الشرح:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) (ومن تاب معك)، أي: استقم يا محمد كما أمرك الله، ومن تاب معك يجب عليهم أن يستقيموا كما أمرهم الله، فالاستقامة أمر الله.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ) أي: آمنا بالله ربا، **(ثُمَّ اسْتَقَامُوا)** على هذا الإيمان بفعل أوامره، واجتناب نواهيه **(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ)** أي: عند موتهم، **(أَلاَّ تَخَافُوا)** مما تقدمون عليه، **(وَلا تَحْزَنُوا)** على ما فارقتموه، **(وَأَبْشِرُوا)**: استبشروا بوعد الله عَزَّوَجَلَّ وهو الجنة، **(بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)** ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [سورة النبأ: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ [سورة القمر: ٥٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ) أي: الملائكة أولياء للمستقيمين.

(فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [سورة الانفطار: ١٠-١١]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الرعد: ١١]، ويحضرون مجالسهم، «**إن لله ملائكة سيارة يتبعون حلق الذكر**»، ويدعون لهم «**والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مجلسه**».

(وَفِي الآخِرَةِ) يشفعون أيضا، كما في حديث أنس: «**شفع النبيون، وشفع الملائكة، وشفع المؤمنون**».

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ) أي: في الجنة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وسيأتي.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ): ما تطلبون.

(نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ) كرامة للمؤمنين، **(من غفور)** رب متجاوز، يعفو ويصفح، **(رحيم)** موفق لكل خير، يرحم عباده، ولهذا سمى الجنة: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشياء**».

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ) واستقاموا على هذا القول بالفعل، وهذا دليل على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

(فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) كما تقدم.

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) خالدين فيها أبدا، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة أن أهل الجنة يخلدون في الجنة، بخلاف معتقد المعتزلة ومن إليهم.

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) والباء هنا باء سبب، لأن النبي ﷺ يقول: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**»، فالباء المنفية باء العوض، والباء المثبتة باء السبب، العمل الصالح سبب لدخول الجنة، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يكرم المؤمن حتى يستحق دخول

الجنة، وإلا فكم هي الأعمال التي نتقرب بها إلى الله مقابل ما في الجنة من النعيم المقيم والخير العظيم.

والآيات في الباب كثير معروفة، ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [سورة هود: ١١٢]، فمن أسباب البعد عن الاستقامة: اتباع الهوى، ومن أسباب البعد عن الاستقامة: الطغيان، ومن أسباب البعد عن الاستقامة: محبة الدنيا والركون إليها، وكم هي أسباب البعد عن الاستقامة.

٨٥ - وعن أبي عمرو، وقيل: أبي عَمرة سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُول الله، قُلْ لي في الإسْلامِ قَولًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». رواه مسلم(١).

الشرح:

(سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) الثقفي، كان أميرا لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الطائف.

قوله: (قُلْتُ: يَا رَسُول الله) فيه حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ في شأن دينهم.

قوله: (قُلْ لي في الإسْلامِ قَولًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ) أي قولا وجيزا إن عملت به، طبعا مع الفرائض، ويكون قولا جامعا مانعا؛ لأن شرائع الإسلام كثيرة، فكان كثير من الصحابة يحرصون على أهمها، فإذا قصر الإنسان في شيء وهو حريص على المهمات كان له عند الله مكرمات.

(قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ) والإيمان بالله يلزم منه الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، ويلزم منه أن يطاع فلا يعصى، وأن

---

(١) حديث رقم: (٣٨).

يشكر فلا يكفر، وأن يعبد فلا يشرك معه غيره، لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، وبدأ بالإيمان بالله؛ لعظيم شأنه، فإن النبي ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله».

(ثُمَّ اسْتَقِمْ) على هذا القول، أما تقول: آمنت بالله وتخالف ما قلت فهذا دليل على الخذلان، والناس ينظرون إلى الإنسان هل يعمل بما يقول؟ فهذا هو المحبوب.

اعمل بعلمك تفلح أيها الرجل   لا يحسن القول إن لم يحسن العملُ

(ثُمَّ اسْتَقِمْ) وهذا هو الشاهد من ذكر الحديث في هذا الباب.

٨٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بعَمَلِهِ» قالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «وَلَا أنَا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ برَحمَةٍ مِنهُ وَفَضْلٍ» رواه مسلم[١].

وَ(المُقَارَبَةُ): القَصدُ الَّذِي لا غُلُوَّ فِيهِ وَلَا تَقْصيرَ، وَ(السَّدادُ): الاستقامة والإصابة.

وَ(يتَغَمَّدني): يلبسني ويسترني.

قَالَ العلماءُ: مَعنَى الاِسْتِقَامَةِ لُزُومُ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، قالوا: وهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمِ، وَهِيَ نِظَامُ الأُمُورِ، وباللهِ التَّوفِيقُ.

الشرح:

قوله: (قَارِبُوا) أي: بفعل المأمور.

(وَسَدِّدُوا) أي: في أعمالكم، واجتنبوا ما نها الله عَزَّوَجَلَّ عنه.

(وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بعَمَلِهِ)؛ لأن الإنسان مهما عمل فهو مقصر، والجزاء عظيم، ومع ذلك من كرم الله عَزَّوَجَلَّ أنه يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

بعض أهل البدع يرد هذا الحديث بدعوى: أنه يتعارض مع قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٧٢] والصحيح أن لا تعارض، فإن المنفي في الحديث باء العوض، والمثبت في الآية باء السبب، فالعمل سبب لدخول الجنة وأما الوصول إليه إنما هو بمنه الله ورحمته، وعظيم فضله على الناس.

(قالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟)؛ لأنه قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

(قَالَ: وَلَا أَنَا) أي: لا أنجو بعملي.

(إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحمَةٍ مِنهُ وَفَضْلٍ) فالجنة رحمته، الجنة فضله، يهبها لمن يشاء، ولذلك قيل:

ما للعباد عليه حق واجبُ ... كلا ولا سعي لديه ضائعُ
إن عُذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسعُ

وانظر حين يذكر الله الجنة يقول: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحديد: ٢١].

وقوله: **(قَارِبُوا)** أي: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير، فتكون بين الغلو والتقصير، وابن القيم يقول: ما من عمل إلا وللشيطان فيه نزغتان: نزغة إلى الغلو، ونزغة إلى الجفاء؛ لأن الناس يتفاوتون، منهم من يميل إلى العمل، فيأتيه بالغلو، ومنهم من يميل إلى الكسل والفتور، فيأتيه بالجفاء.

والسداد: الاستقامة، ولذلك كان من دعاء علي بن أبي طالب الذي علمه النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الهدى والسداد**»، والسداد هو الاستقامة.

٩ - باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله تَعَالَى وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها عَلَى الاستقامة

ونحن مأمورون بالتفكر في آلاء الله عَزَّوَجَلَّ، منهيون عن التفكر في ذات الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإنسان مهما بلغ عقله وعلمه فإن الله عَزَّوَجَلَّ أعظم وأعظم وأعظم، فهو متصف بالكمال المطلق من كل وجه، والعقل إنما له كمال مقيد، فلذلك نهينا عن التكييف، وعن التمثيل، وعن غير ذلك مما يؤدي إلى تعطيل الباري عن كماله المقدس.

وفي الحديث: «**تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله**»، وسيأتي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [سورة الغاشية: ١٧]، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٥].

(وفناء الدنيا) أيضا يتفكر الإنسان في فناء الدنيا الزائلة الفانية، فإن ذلك يجعله يزهد فيها وما هو من شأنها، مهما كثرت وبلغت.

(وأهوال الآخرة)؛ لأن أهوال الآخرة وذكر الآخرة يزهد في الدنيا، ولهذا قال النبي ﷺ: «**زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة**»، وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ. إبراهيم وإسحاق ويعقوب بذكر الآخرة: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [سورة ص: ٤٥-٤٦]، قيل: جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ يذكرون الآخرة في جميع شأنهم، ولذلك يعملون لها، ويبادرون إليها، وانظر إلى إسماعيل وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يرفعان بناء الكعبة: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ [سورة البقرة: ١٢٧-١٢٨].

وكم لله عَزَّوَجَلَّ من فضائل وشمائل وكم في مخلوقاته من دلائل على عظم شأنه وعلو قدره وقوته، وغير ذلك، وفي الحديث: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة**

الله ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، ورأسه منعطف تحت العرش، ورجله قد مرقت في الأرض السفلى، وهو يقول: سبحانك ما علم عظمتك من عصاك».

(وسائر أمورهما): تتفكر في سائر أمورها، من الحوض والميزان، والصراط وتطاير الصحف، وتخشى على نفسك أن تكون من المبعدين المقصيين عن رب العالمين، وتتفكر كذلك في ابتلاء السرائر، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [سورة البقرة: ١٢٧-١٠]، فضيحة حين يخرج ما في قلبك من الباطل، ومع ذلك لا ناصر ينصرك ولا قوي يعينك.

(وتقصير النفس وتهذيبها) والنفس ضعيفة، فتحتاج إلى تهذيب، وإلى ترويض على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»، ومن دعاء النبي ﷺ: «**أعوذ بك من شر نفسي**»، ومن دعاء النبي ﷺ: «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا**».

(وحملها عَلَى الاستقامة) احمل نفسك وجاهدها، ولهذا في الحديث: «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عَزَّوَجَلَّ**»، إلى غير ذلك.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سورة سبأ: ٤٦].

وَقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١] **الآيات.**

وَقال تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [سورة الغاشية: ١٧-٢١].

وَقال تَعَالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [سورة يوسف: ١٠٩]**، والآيات في الباب كثيرة.**

ومن الأحاديث الحديث السابق: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»

الشرح:

(﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ [سورة سبأ: ٤٦]) يقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعارضين لدين رب العالمين: **(إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)**: إنما أذكركم بأمر واحد لا ثاني له: **(أَنْ تَقُومُوا لله مَثْنَى)** اثنين اثنين، **(وَفُرَادَى)** واحد واحد، **(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بصاحبكم من جنة)**؛ للدلائل التي جاء بها دالة على صدقه، فكان يلقب بالصادق الأمين، وأتى بدعوة لا تناقض فيها ولا خلف فيها، وادعى أنه رسول الله صل الله عليه وسلم، وما كان له أن يصدق في شأن الناس ويكذب في حق الله عَزَّوَجَلَّ، إلى غير ذلك.

(﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) **الآيات** هذه الآيات نزلت وتلاها النبي ﷺ على عائشة وقال: «**يا عائشة نزلت علي آيات الويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن**».

(﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) السماوات الطباق، البعيدة، التي بناها الله عَزَّوَجَلَّ بغير عمد ترونها، وزينها بالكواكب والنجوم ليُهتدى بها، والأرض التي مهدها وأنبت فيها، وسخرها للإنسان.

(﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾) يقبل النهار ويدبر الليل، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [سورة يس: ٤٠]، هذه من آيات الله العظيمات، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [سورة فصلت: ٣٧].

(﴿لَأَيَٰتٍ﴾): لدلائل وعلامات.

(﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾): لأصحاب العقول الصافية، العقول التي تقبل الحق، وليس كل عاقل يعقل الأمور الدنيوية عاقل أخرويا، قد يكون عنده علم بالدنيا ولا عقل له في الآخرة، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٧]، فلو كانوا يعقلون ما عبدوا حجرا، ولا شجرا، ولا بقرا، ولا نارا، ولكن عقول سيئة.

(﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا﴾) من أوصاف هؤلاء أولي الألباب أنهم يذكرون الله قياما، أي في صلواتهم، وفي مشيهم، وفي كثير من شأنهم.

(﴿وَقُعُودًا﴾) أي: حال قعودهم في الصلاة وفي غير ذلك.

(﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾): عند نومهم، وغير ذلك، ويدخل فيه أيضا الصلاة، «**صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب**».

(﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) فيتوصلون بالفكرة في المخلوق إلى معرفة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانظر إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا

لَمُوسِعُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٤٧]، بنيناها بقوة، ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين سماء وسماء خمسمائة عام، وسمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، شيء عظيم، والكرسي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، وما السماوات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة، والله فوق ذلك، فهو العظيم الواسع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾) ما خلقت السماوات ولا الأراضين باطلا وعبثا، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥]، بل أرسل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسلا مبشرين ومنذرين.

(﴿سُبْحَٰنَكَ﴾) تُنزه أن يكون في ملكك هذا العبث.

(﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾) فإنه الحكيم العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتوسلوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بتفكرهم وتدبرهم في أن يقيهم الله عَزَّوَجَلَّ من عذاب النار.

(﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾) انظر إلى هذا الحيوان، هذا الحيوان يقوده الطفل الصغير، لو لم يكن مذللا للإنسان لبطش به، وألقاه وكسره، ولكن ذلَّله الله، جعله صبورا على العطش، جعل رجليه في غاية من الاتساع؛ حتى لا تغوص في الرمال، لو كانت رجل الإبل كرجل الحمير لتعب في الرمال وغاص، ومع ذلك يعيش في الرمال، ويتحمل الحر، ويتحمل القر، ويحمل ما يعجز عن حمله أعداد من البشر، أيضا ارتفاع في جسمه، وطول في رقبته؛ حتى يتوصل إلى ما لا يتوصل إليه من المأكول، وغير ذلك، وربما يأكل الشوك، وكم فيه من الحكم ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مفتاح دار السعادة).

(﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾) كم بيننا وبينها، بغير عمد، أتحدى أكبر مهندس في العالم يأتي يبني مثل هذا المسجد بدون أعمدة، ما يستطيع، يعجز، يعجز مع توفر الآلات، وهذه سماء عظيمة كبيرة بدون عمد، بناها الله عَزَّوَجَلَّ.

(﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾) ويقول العلماء: بأن ما من جبل ظاهر إلا وفي الأرض مدفون أضعاف ارتفاعه الظاهر، حتى تثبت به الأرض، فمن آيات الله الجبال العظيمة، وهناك في البحار جبال أطول من جبال الأرض، أنت حين تذهب إلى جزر القمر، جزر القمر هي عبارة عن جبل في البحر، جزر المالديف هي عبارة عن جبال في البحر؛ لأنها في أعماق المحيط، وتظهر جزر فيه، فتلك عبارة عن جبال، فجعل الله جبالا في اليابسة وجبالا في البحار؛ لتثبيت هذه الأرض.

(﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾) سطحها، ومهدها، يبني الناس عليها، ويسقون عليها، ويحرثون عليها، ويعيشون عليها.

(﴿فَذَكِّرۡ﴾) أي: سبب هذا الأمر بالتفكر والتدبر للذكرى، (﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾).

(﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾): يتفكروا ويتدبروا.

١٠ - باب في المبادرة إلى الخيرات وحثّ من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٤٨].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

الشرح:

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات) المبادرة إلى الخيرات من الأمور التي ينبغي أن يسارع إليها المسلم، يبادر، كما قال النبي ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»، الحديث أخرجه الحاكم[1] عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر حين ضرب بمنكبه: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، الغريب هل سيتخذ بيتا ودارا؟ ما سيشغل بشيء أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يزيد عليها: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح.

فالمبادرة إلى الخيرات ينبغي أن تكون نصب كل عين، والله لو أراد الإنسان أن يصلي الضحى يأتيه الشيطان يقول له: لو تؤخرها، ويؤخرها وما عاد يصليها، ينتهي من صلاة العشاء إذا أراد أن يصلي النافلة يقول له الشيطان: لو تأخرها الصلاة في البيت أفضل، ونعم الصلاة في البيت أفضل، لكن إذا دخل البيت يقول له: لو تجلس وترتاح وتتعشى ثم تقوم تصلي، وإذا بها تفوته، فالإنسان مطالب بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة، من صيام، وقيام، وحج، وقرآن، وعمرة، وغير ذلك.

---

(١) حديث رقم: (٧٨٤٦).

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات) وهذا أمر لجميع المسلمين أن يستبقوا كل خير، ومعنى استبقوه أي: بادروا إليه، وسارعوا إلى العمل به.

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) أتى بلفظ: (وسارعوا) كناية عن شدة المبادرة إلى الأعمال، وعدم التسويف، وعدم التأخير، فما أدراك أيها المسلم كم بقي في عمرك، إياك أن يأتيك الشيطان ويقول لك: ما شاء الله ما زال شعرك أسودا، وأنت في خمسة وعشرين، وهذا يأتيه الشيطان ويقول له: أنت في ثلاثين، باقي لك ثلاثون، ما أدراه أنه بقي ثلاثون سنة، هذا تسويب، فعلينا أن نعمل ونجعل الموت نصب أعيننا، ربما يحال بيننا وبين ما نحن فيه في ليلة وضحاها، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سورة سبأ: ٥٤]، فالمسارعة تكون إلى مغفرة الله في تجاوزه عن عباده.

(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) انظر إلى قوله: (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) ولم يقل: إلى مغفرة من الله، ولا: إلى مغفرة من الرحمن، ولا إلى مغفرة من القوي، (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)؛ لأن الرب في حق المؤمن هو الذي يحوطه، ويحفظه، ويرحمه، وينصره، ويسدده، ويعينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قالوا في جميل ابتداء الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [سورة الفاتحة: ٢-٣]، ثنى بالرحمن الرحيم بعد رب العالمين؛ لما فيها من الرجاء.

وأما الأحاديث:

٨٧ - فالأولُ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فتنًا كقطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤمِنًا ويُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا». رواه مسلم[1].

الشرح:

هذا حديث عظيم فيه أن المبادرة بالأعمال الصالحة من أسباب السلامة من الفتن، وفيه أن الفتن تحول بين العبد وبين طاعة ربه عَزَّوَجَلَّ، وفيه أن من أعظم الصوارف من الإيمان إلى الكفر والإجرام هي الفتن، نسأل الله السلامة والعافية.

قوله: (بَادِرُوا) أي: سابقوا، (بِالأَعْمَال) أي: الصالحة.

(فتنًا) أي: تقدم عليكم، (كقطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِم) فتنة الرجل في بيته وأهله وسوقه، وهذه الآن فتن عظام، فتن القتل والقتال، وغير ذلك.

(يُصْبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا) على إيمان، على تقوى، على طاعة، (وَيُمْسِي كَافِرًا) سبحان الله! ما هناك وسط، هذا دليل على شدة الردة في آخر الزمن، يصبح مؤمنا على الإيمان، إن مات في ذلك الوقت كان من أهل الجنة، ولا يأتي المغرب إلا هو كافر ويمسي كافرا، يكون من أهل النار.

(وَيُمْسِي مُؤمِنًا ويُصْبِحُ كَافِرًا) ما السبب؟ (يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا) في بعضها: «قليل»، ما السبب؟ وظيفة، كما هو حال كثير الآن من الذين يتوظفون مع الصليب الأحمر، مع المنظمات الدولية، مع كذلك مثل هؤلاء الزنادقة مثل علي البخيتي، وتوكل كرمان، وهذه الشلل، عدنان إبراهيم، والقرضاوي، أحدهم يبيع دينه بعرض

[1] حديث رقم: (١١٨).

من الدنيا، يصبح يتكلم بالكفر الصراح، طاعة لأسياده، نعوذ بالله من الضلال والخسران.

فالمسلم يكون في حذر، إذًا ما سبب الثبات على الدين؟ المبادرة بالأعمال الصالحة، وما سبب الانحراف عن دين رب العالمين؟ التواني عن الأعمال الصالحة، فالله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٦].

ولو تأملنا حياة الصحابة لرأينا العجب العجاب من مبادرتهم إلى الأعمال الصالحة، كان أحدهم إذا سمع من النبي ﷺ كذا بادر، قال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت أين أنا؟ وسيأتي، قال: «في الجنة»، قال: إنها لحياة طويلة حتى آكل هذه التمرات، وألقى بالتمرات، وذهب يقاتل.

٨٨ - الثَّاني: عن أبي سِروْعَة - بكسر السين المهملة وفتحها - عُقبَةَ بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيتُ وَرَاءَ النَّبيِّ ﷺ بالمَدِينَةِ العَصْرَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيهِمْ، فَرأى أَنَّهُمْ قَدْ عَجِبُوا مِنْ سُرعَتِهِ، قَالَ: «ذَكَرتُ شَيئًا مِنْ تِبرٍ عِندَنَا فكَرِهتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرتُ بِقِسْمَتِهِ»، رواه البخاري[١].

وفي رواية لَهُ: «كُنتُ خَلَّفتُ في البَيْتِ تِبرًا مِنَ الصَّدَقةِ فكَرِهتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ».

(التِّبْرُ): قِطَعُ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

الشرح:

(عقبة بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**)** له قصة مع النبي ﷺ، وذلك: أنه تزوج امرأة فزعمت إحدى النساء أنها أرضعته والتي تزوج بها، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا

(١) حديث رقم: (٨٥١).

رسول الله إني تزوجت امرأة فزعمت فلانة أنها أرضعتني والتي تزوجت بها، فقال النبي ﷺ: «فارقها، كيف وقد قيل؟».

(صَلَّيتُ وَرَاءَ النَّبيِّ ﷺ بالمَدِينَةِ) فيه حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الجماعة خلف النبي ﷺ، مع بعد المسافات التي كانوا يقطعونها للوصول إلى المسجد.

(العَصْرَ) وهي الصلاة الوسطى، على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

(بالمَدِينَةِ) كانت تسمى يثرب، ونهى الله عن هذا الاسم.

(فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا) أي: سلم من الصلاة، فيه جواز الخروج من الصلاة بدون أذكار دبر الصلاة لمن كان مشغولا بشيء، وله أن يأتي بها ولو في مشيه.

(فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ) فيه جواز تخطي رقاب الناس للحاجة، مع أن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

(إِلَى بعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ) أضيفت الحجر إلى نسائه؛ لأنهن كن يسكن فيها، وإلا فهو المالك ﷺ لهذه الحجر، إلا إذا كان قد وهبها لهن.

(فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ)؛ لأن من عادته ﷺ أن يبقى جالسا في المسجد، يذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ويسمع حديث أصحابه، ويقضي حوائجهم.

(فَخَرَجَ عَلَيهِمْ) فيه العودة إلى أصحابه بعد أن قضى حاجته.

(فَرأى أَنَّهُمْ قَدْ عَجبُوا مِنْ سُرعَتِهِ) عرف ذلك من وجوههم، ومن النظر إليه، فبادر إلى ذكر ما يرفع ذلك العجب.

(ذَكَرتُ شَيئًا) فيه جواز التفكر في الصلاة، وأنه لا يبطلها، فإن النبي ﷺ ذكر ذلك وهو في الصلاة، إلا أن الإنسان ينبغي له أن يجاهد نفسه على ترك الخواطر التي تؤدي إلى الانشغال عن الخشوع وغيره.

(مِنْ تِبرٍ) أي: من ذهب أو فضة، وقيل: هو المعدن الذي يكون في ترابه، والله أعلم.

(عِندَنَا) لعله من الصدقة.

(فَكَرِهتُ أَنْ يَحْبِسَنِي): أن يكون سببا لحبسي يقول: إذا قُبضت.

(فَأمَرتُ بِقِسْمَتِهِ) فيه التوكيل فيما يصح فيه التوكيل، ويقسم بين الفقراء والمساكين والمحتاجين على الأوجه الشرعية.

وقوله: (كُنتُ خَلَّفتُ فِي البَيْتِ تِبرًا مِنَ الصَّدَقةِ فَكَرِهتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ) أي كره النبي ﷺ أن يبقى هذا المال في بيته بدون قسمة، وهذه عادته ﷺ، ففي حديث بلال: أن النبي ﷺ جاءته أربع نوق، فقال: يا بلال اقض دينك ووزعها، فمكث النبي ﷺ في المسجد ثلاثا، ثم قال: «**يا بلال أبقي منها شيء؟**» قال: يا رسول الله بقي منها كذا، فذكر له أنه يريد أن يدخل، وأبى النبي ﷺ أن يرجع إلى البيت حتى يقسم كل ما كان من الصدقة.

فانظر إلى مبادرته، مع أنه المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بنا نحن أهل التفريط، والله المستعان، لا سيما طالب العلم والله ينبغي له أن لا يفرط في أوقاته، ولا يضيع، ينتبه لبحوثه، ينتبه لفتاويه، ينتبه لجميع شأنه، يبادر إلى الجنة، يبادر إلى ما يفيد الناس، يبادر إلى ما يكون سببا لسعادته إن قبضه الله عَزَّوَجَلَّ.

٨٩ - الثالث: عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: قَالَ رجلٌ للنبي ﷺ يَومَ أُحُد: أَرَأَيتَ إنْ قُتِلتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: «فِي الجَنَّةِ» فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

(قال رجل) هذا مبهم، ولا يضر الإبهام في المتن.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٤)، ومسلم (١٨٩٩).

(يَومَ أُحُد) وهو يوم شديد، قُتل من المسلمين سبعون، وجرح عدد كثير.

(أَرَأيتَ إنْ قُتِلتُ فَأَيْنَ أَنَا؟) يقول: أخبرني، أرأيت هنا بمعنى أخبرني، (إن قتلت أي في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، (فأين أنا؟).

(قَالَ: فِي الجَنَّةِ) وهذا علم من أعلام النبي ﷺ، إذ أخبر بأمر لم يكن يراه، وإنما هو بوحي الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه فضيلة الجهاد.

(فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ في يَدِهِ) يحتاج إلى أكلهن، وإلى التزود بهن.

(ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ) لأن الآخرة خير لك من الأولى.

٩٠ - الرابع: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رسولَ الله، أيُّ الصَّدَقَةِ أعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أنْ تَصَدَّقَ وَأَنتَ صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخْشَى الفَقرَ وتَأْمُلُ الغِنَى، وَلَا تُمهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغتِ الحُلقُومَ قُلْتَ لِفُلان كذا ولِفُلانٍ كَذا، وقَدْ كَانَ لِفُلانٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

(الحُلقُومُ): مَجرَى النَّفَسِ، وَ(المَرِيءُ): مجرى الطعامِ والشرابِ.

الشرح:

قوله: (جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ) حرص الصحابة على سؤال النبي ﷺ.

(أيُّ الصَّدَقَةِ أعْظَمُ أَجْرًا؟)؛ لأن الصدقات تتفاوت في الأجر، فمنها ما يكون أعظم عند الله، ومنها ما دون ذلك، ومنها ما تضاعف إلى سبعمائة ضعف، ومنها دون ذلك، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ [سورة البقرة: ٢٦٢].

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(أَنْ تَصَدَّقَ) أي: تتصدق، (وَأَنتَ صَحِيحٌ) أي: في بدنك، (شَحِيحٌ): بخيل؛ لأن الصحيح الشحيح يريد أن يجمع أكثر، بينما الرجل الذي قد مرض ودنا منه الموت يريد أن ينفق لعله أن يكفر عنه، فالإنفاق في حال الصحة أفضل منه في حال المرض.

(تَخشَى الفَقرَ) أي تقول: إذا أنفقت ربما ما يبقى لأبنائي.

(وتَأمُلُ الغِنَى) تقول: لو جمعت هذا المال مع المال الذي يأتي يكون أكثر.

(حَتَّى إِذَا بَلَغتِ الحُلقُومَ) أي عند الغرغرة، والتوبة عند الغرغرة لا تنفع، كما سيأتي معنا إن شاء الله.

٩١ - الخامس: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يَومَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «مَنْ يَأخُذُ مِنِّي هَذَا؟» فَبسطُوا أَيدِيَهُمْ كُلُّ إِنسَانٍ مِنْهُمْ يقُولُ: أَنَا أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ يَأخُذُهُ بحَقِّه؟» فَأَحْجَمَ القَومُ فَقَالَ أَبُو دُجَانَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا آخُذُهُ بِحَقِّهِ، فأخذه فَفَلَقَ بِهِ هَامَ المُشْرِكِينَ. رواه مسلم[(١)].

الشرح:

قوله: (أخذ سيفًا يَومَ أُحُدٍ) أي: ليعطيه من يستحق أن يقاتل به.

(فَبسطُوا أَيدِيَهُمْ) فيه جواز الاستشراف للهدايا ولغيرها إذا قد عُرضت.

(كُلُّ إِنسَانٍ مِنْهُمْ يقُولُ: أَنَا أَنَا)؛ حرصا على الأخذ من رسول الله ﷺ، والقيام به في الجهاد.

(قَالَ: فَمَنْ يَأخُذُهُ بحَقِّه؟) ففهم الصحابة أنه يحتاج إلى مبادرة، وبذل نفس.

اسم أبي دجانةَ: سماك بن خَرَشة.

قوله: (أحجَمَ القَومُ): أي توقفوا، وَ(فَلَقَ بِهِ): أي شق.

---

(١) حديث رقم: (٢٤٧٠).

(هَامَ المُشرِكِينَ): أي رُؤُوسَهم.

٩٢ – السادس: عن الزبير بن عدي، قَالَ: أتينا أنسَ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فشكونا إِلَيْه مَا نلقى مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «اصْبرُوا؛ فَإنَّهُ لَا يَأتِي زَمَانٌ إلاَّ والَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ حَتَّى تَلقَوا رَبَّكُمْ» سَمِعتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ. رواه البخاري[1].

الشرح:

(الزبير بن عدي) من خيار التابعين.

(أنس بن مالك) أبو حمزة الأنصاري.

(فشكونا إِلَيْه مَا نلقى مِنَ الحَجَّاجِ) من الظلم والقتل والسجن وغير ذلك، فقد كان ظالما غاشما.

(فَقَالَ: اصْبرُوا) أي على ظلمه.

(فَإنَّهُ لَا يَأتِي زَمَانٌ إلاَّ والَّذِي بَعدَهُ شَرٌّ مِنهُ) أي الزمان الذي بعد الحجاج سيأتي أشر من الزمان الذي فيه الحجاج.

(حَتَّى تَلقَوا رَبَّكُمْ) وهذا في الجملة، وإلا قد يقع لبعض الناس من الفرج بعد الشدة ما لم يكن في الزمن الذي قبلهم.

وفيه فضيلة الصبر، حتى نلقى الله عَزَّوَجَلَّ، ولقيا الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالنظر إلى وجهه.

قوله: (سَمِعتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ) أي أن الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ، فقول النبي ﷺ ينبغي أن يؤخذ به، فأمره بالصبر قد يكون للوجوب، وقد يكون للاستحباب، وهو هنا للإرشاد، والله أعلم.

(١) حديث رقم: (٧٠٦٨).

٩٣ - السابع: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقرًا مُنسيًا، أَوْ غِنىً مُطغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوتًا مُجْهزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَرُّ» رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن[(١)].

الشرح:

قوله: (بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا) أي هذا الذي من أجله ذكر الحديث، وهو المبادرة بالأعمال قبل أن تأتي هذه السبع المؤذية المصرفة عن طاعة الله.

(هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقرًا مُنسيًا) يعني: فقر ينزل بكم حتى تنسون العبادة.

(أَوْ غِنىً مُطغِيًا) غنى يكثر معه المال حتى يخرج الإنسان عن الطاعة.

(أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا) يفسد الأبدان والعقول.

(أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا) هرم يلحق الإنسان حتى يُذهب قواه، فيعجز على الطاعات.

(أَوْ مَوتًا مُجْهزًا) فيحال بينه وبين ما يشتهي من الطاعات أو غيرها.

(أَوْ الدَّجَّالَ) وسيأتي بيانه في آخر الكتاب.

(فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ) وما من نبي إلا وحذر من الدجال.

(أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَرُّ) كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾

---

(١) حديث رقم: (٢٣٠٦)، وهو ضعيف، من طريق محرز بن هارون، وقد روى بشر بن عمرو وغيره عن محرز بن هارون هذا، وقد روى معمر هذا الحديث عن من سمع سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فالحديث ضعيف، وهو في (الضعيفة) للشيخ الألباني.

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النازعات: ٤٢-٤٦].

٩٤ - الثامن: عَنْهُ[1]: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ يومَ خيبر: «لأُعْطِيَنَّ هذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَفتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيهِ» قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: مَا أحبَبْتُ الإِمَارَةَ إلاَّ يومَئِذٍ، فَتَسَاوَرتُ لَهَا رَجَاءَ أنْ أُدْعَى لَهَا، فَدَعا رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فَأعْطَاهُ إيَّاهَا، وَقالَ: «امْشِ وَلَا تَلتَفِتْ حَتَّى يَفْتَح اللهُ عَلَيكَ»، فَسَارَ عليٌّ شيئًا ثُمَّ وَقَفَ ولم يلتفت فصرخ: يَا رَسُول الله، عَلَى ماذا أُقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: «قاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلاَّ اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله، فَإِذَا فَعَلُوا فقَدْ مَنَعوا مِنْكَ دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلاَّ بحَقِّهَا، وحسَابُهُمْ عَلَى الله». رواه مسلم[2].

(فتَسَاوَرْتُ) هُوَ بالسين المهملة: أي وثبت متطلعًا.

الشرح:

وقد جاء الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وهو من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(يومَ خيبر) وكان في السنة السادسة من الهجرة، وقيل: في السنة السابعة من الهجرة، وقد غنم النبي ﷺ من اليهود غنائم كثيرة، وفتح الله على المسلمين فتح خيبر.

(لأُعْطِيَنَّ هذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ) فيه إثبات وحرص المؤمنين على محبة الله ومحبة رسوله صل الله عليه وسلم، وأنها من أعظم عرى الإيمان.

---

(١) أي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث رقم: (٢٤٠٥).

(ويحبه الله ورسوله) فيه إثبات محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية.

(يَفتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيهِ) وهذه فضيلة لهذا الرجل، إذ أن النبي ﷺ شهد له بمحبة الله وبمحبة رسول الله ﷺ، وشهد له من أن الله عَزَّوَجَلَّ يحبه، ويحبه رسول الله ﷺ، وهذه من أعلى المناقب وأعلى المراتب.

(يَفتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيهِ) هذا من أخبار ودلائل نبوة النبي ﷺ من أن الفتح سيكون غدا، وقد حاصر النبي ﷺ خيبر أياما.

(قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أحبَبْتُ الإمَارَة إلاَّ يومَئِذٍ) فيه زهد الصحابة رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ في الإمارة، وما يليها؛ لعلمهم أنها مشغلة عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال النبي ﷺ: «**إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة**»، وسيأتي.

(فَتَسَاوَرتُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا) فيه الحرص على الخير، والتطلع له، وأن هذا ليس من التطلع المذموم.

(فَدَعا رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) في حديث سهل بن سعد: أنه أتي به وقد أصابه الرمد، فبصق النبي ﷺ في عينيه، فشفاه الله.

(فَأعْطَاهُ إيَّاهَا) أي: سلمه الراية، وقد اختلف العلماء، فقيل: الراية واللواء شيء واحد، وقال بعضهم: الراية سوداء، واللواء أبيض، وقيل غير ذلك.

(وَقَالَ: امْشِ وَلَا تَلتَفِتْ) فيه وصية الإمام لرعيته ومن يليه، امش ولا تلتفت لعل في ذلك حكمة، وهو عدم التهيب من العدو، أو ربما يكون الالتفات هنا معنوي، وهو: أنك لا تلتفت إلى الدنيا، أو إلى غير ذلك من الأمور.

(حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيكَ) بالنصر المبين، وهذا من دلائل نبوة النبي ﷺ، إذ أخبر بالنصر قبل أن يقع.

(فَسَارَ عليٌّ شيئًا) أي ممتثلا لأمر النبي ﷺ.

(ثُمَّ وَقَفَ)؛ لسؤال النبي ﷺ.

(ولم يلتفت) معناه: أن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهم من قوله: **(ولا تلتفت)** على حقيقتها.

(فصرخ: يَا رَسُولَ الله، عَلَى ماذا أُقَاتِلُ النّاسَ؟) وفي هذا حرص الصحابة على امتثال أمر النبي ﷺ، أي: أقاتلهم حتى ماذا يفعلون يا رسول الله؟ ليس معناه أنه يجهل ما يقاتل عليه، لكن يريد: أقاتلهم حتى يقع منهم ماذا؟

(قَالَ: قاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلاّ اللهُ) وهذا دليل على أنه يدخل في الإسلام بلا إله إلا الله، خلافا لما ذهب إليه المعتزلة وغيرهم من النظر أو القصد إلى النظر.

(وَأَنَّ مُحَمدًا رسولُ الله) ﷺ، وقد يعبر عنه بشهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن من لوازمها أيضا شهادة أن محمدا رسول الله، فمن أقر لله بالألوهية ولم يقر لمحمد ﷺ بالرسالة لم يؤمن، ومن أقر لله بالألوهية ولمحمد ﷺ بالرسالة فهو المؤمن، ومن أقر لمحمد بالرسالة ولم يقر بالألوهية فليس بمؤمن.

(فَإِذَا فَعَلُوا ذلك) أي: دخلوا في الإسلام.

(فقَدْ مَنَعوا مِنْكَ دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)؛ لقول النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم**».

(إلاَّ بحَقِّهَا) أي كالزكاة، أو كذلك ممن يرتكب جرما يستحق عليه العقوبة.

(وحسَابُهُمْ عَلَى الله) أي: فيما بينهم وبين الله عَزَّوَجَلَّ، لكن اليهود لم يقع منهم هذه الاستجابة.

وساق المصنف هذه الأحاديث؛ لبيان أهمية المبادرة إلى الطاعات والمسارعة إليها، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ولكن هذه إلماحات ذكرها المصنف تغني عن كثير من النقولات، والحمد لله رب العالمين.

١١ - باب في المجاهدة

والمراد بالمجاهدة في هذا الموطن: بذل الجهد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ وسيأتي: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]، وفي الحديث: «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عَزَّوَجَلَّ**».

والجهاد والمجاهدة أنواع، منه ما يكون بالقول، ومنه ما يكون بالفعل، ومنه ما ما يكون بالمال، هذا جهاد المخالفين، وأما مجاهدة العبد لنفسه فتكون بالتشمير في أوجه الطاعة، والإقبال على العبادة، بامتثال أوامر الله واجتناب نهيه، ويتعين عليه أن يبدأ بالواجبات، ثم ما يليها من المندوبات والمستحبات.

وإذا لم يجاهد الإنسان نفسه عجز عن كثير من الطاعات؛ لميل النفس إلى الهوى والدعة والسكون والفتور والكسل، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**».

فأنت تحتاج إلى أن تجاهد نفسك حتى تقوم تصلي، وتجاهد نفسك لحضور الجماعات، وتجاهد نفسك لحضور مجالس الذكر، وتجاهد نفسك لبذل المال، وقد تكلم ابن القيم عن أنواع الجهاد، ومنها: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكفار.

ولا يمكن للإنسان أن يجاهد الكافرين ويجاهد الشيطان الرجيم إلا بعد أن يجاهد نفسه التي بين جنبيه، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [سورة يوسف: ٥٣]، انظر هذا خبر من الله، (إن النفس) وهو الغالب في الأنفس، (لأمارة بالسوء﴾، تأمر صاحبها بالسوء والشر، (إلا ما رحم ربي)، والمرحوم قليل، كما بين ذلك الله عَزَّوَجَلَّ في آيات كثيرات: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [سورة ص: ٢٤].

والنفس كالراحلة، إن تعودت على الطاعة ألفتها، وإن تعودت على الخمول ألفته، ولذلك ينبغي أن يسير معها الإنسان على التوسط، فلا شدة حتى يؤدي إلى انقطاعها، ولا خمول حتى يؤدي إلى تأخرها، والله المستعان.

ومن أعظم الأسباب لمجاهدة النفس: معرفة ما لله عَزَّوَجَلَّ من فضل على عباده المؤمنين.

ومنها: دعاء رب العالمين.

ومنها: التأسي بالنبي الكريم ﷺ.

ومنها: السعي في السير على منهج السلف الصالحين.

ومنها: الدعاء، سواء الدعاء بإصلاحها، أو الدعاء بتخليصها من الكسل ونحوه.

ومنها: البعد عن المعاصي، فكلما ابتعد العبد عن المعاصي نصره الله، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٧].

ومنها: حفظ القرآن والسنة والعمل بهما، فإن من بادر في هذا الباب أكرمه الله، إلى غير ذلك.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ **[سورة العنكبوت: ٦٩].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ **[سورة الحجر: ٩٩].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ **[سورة المزمل: ٨]: أي انْقَطِعْ إِلَيْه.**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ **[سورة الزلزلة: ٧].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ **[سورة المزمل: ٢٠].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ **[سورة البقرة: ٢٧٣].**

والآيات في الباب كثيرة معلومة.

الشرح:

(﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾) هذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ بأن من جاهد في ذات الله بالتزام الطاعات والبعد عن المعاصي والسيئات ليهدينهم الله إلى سبل السلام، وهنا قسم محذوف، أقسم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بنفسه المقدسة أن من جاهد في ذات الله هداه الله، هداه إلى سبل الحق.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق، فإن الله يوفق عباده المؤمنين.

(﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾) معية نصر وتأييد وحفظ، مع أن الله مع جميع مخلوقاته من حيث الإحاطة والقهر والعلم، إلا أنه مع المحسنين معية خاصة.

(﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾) أي أن المجاهد لا تكون في وقت دون وقت وفي زمن دون زمن، أو مكان دون مكان، بل ينبغي للعبد أن يعبد ربه ويلازم تلك العبادة، حتى يأتيه اليقين، والمراد باليقين هنا الموت، خلافا لما ذهب إليه بعض أهل البدع والضلال، كغلاة الصوفية ونحوهم: أن اليقين المراد بها درجة يصل إليها المكلف، فتحل له المحرمات، وترفع عنه التكاليف، هذا فهم خاطئ، وفهم سيء، بل المراد: أن النبي ﷺ ومن سار على سيره يعبد ربه حتى يأتيه الموت.

(﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾) أي: انقطع، والمراد بالذكر هنا ذكر اللسان مع كذلك ذكر الطاعة، فإن من أطاع الله فقد ذكره وإن لم يتكلم بلسانه، كما هو المأثور عن سعيد بن جبير وغيره.

(﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾) أي: انقطع إلى عبادته، والتفرغ لذلك، وقد استأذن الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ النبي ﷺ في التبتل فنهاهم عن ذلك، أرادوا الانقطاع الكلي، لا يتزوجون النساء، ولا يتركون الصيام، ولا ينامون الليل، فنهاهم عن ذلك، ودلهم على ما هو أحسن، كما سيأتي في باب السنة.

(﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾) من جاهد نفسه لله عَزَّوَجَلَّ حتى ولو عمل مثقال الذرة من الخير لقيه عند الله.

(﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾) مهما قدمتم من الصالحات وفعلتم من القربات فإنكم ستجدونه عند الله على أكمل حال وأحسن هيئة وأعظم جزاء، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٠].

(﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾) يعني: مهما فعل الإنسان من الخيرات عظمت أو صغرت قلت أو كثرت فإن الله حافظ له أجره.

وأما الأحاديث:

٩٥ - فالأول: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إنَّ الله تَعَالَى قَالَ: مَنْ عادى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وَمَا تَقرَّبَ إلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أحِبَّهُ، فَإذَا أَحببْتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشي بِهَا، وَإنْ سَأَلَني أعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ». رواه البخاري[(١)].

«آذَنْتُهُ»: أعلمته بأني محارِب لَهُ. «اسْتَعَاذَنِي» روي بالنون وبالباءِ.

الشرح:

(اسْتَعَاذَنِي روي بالنون وبالباءِ) استعاذ بي، واستعاذني، وكله صواب.

(١) حديث رقم: (٦٥٠٢).

قوله: (إِنَّ الله تَعَالَى قَالَ) هذا يسمى بالحديث القدسي، وفيه إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بكلام متى شاء كيف شاء، بحرف وصوت.

(مَنْ عادى لي وَلِيًّا) أي: من عادى عبدا لله تقيا، لأنه كما تقدم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [سورة الأعراف: ١٨٧-٦٣].

(فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ) وحرب الله عَزَّوَجَلَّ له أن يأتيه من حيث لا يحتسب، وأن يفسد عليه حاله، وأن يلحقه البلاء العظيم.

ومعنى (آذنته): أعلمته بأني محارب له.

(وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيهِ) فيه دليل على أن المتعين على العبد أن يبادر بالفرائض قبل النوافل؛ لأن الفرائض تاركها يأثم، والنوافل تاركها إنما لا يحصل على الخير والأجر الذي يترتب عليها.

ومن أفرض الفرائض التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج وهكذا ما يليه من الأعمال الصالحة.

وقد تكلم على هذا الحديث وتوسع في شرحه الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (قطر الولي على حديث الولي).

ثم قال: (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) بنوافل الصلاة، أو الصيام، أو الحج، أو الذكر، والدعاء، وغير ذلك، إلى أن يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فيه إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وفيه أن التقرب بالفرائض أحب إلى الله من التقرب بالنوافل، حتى لو صلى الليل أجمع وفاتته صلاة الفجر فقد ضيع الفريضة حرصا على النافلة، وصار آثما.

قال: (فَإِذَا أَحبَبْتُهُ) إذا أحب الله العبد قال: (كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشي بِهَا) قيل: يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ للخير، وليس الظاهر أن الله عَزَّوَجَلَّ يصبح سمعا لهذا العبد، أو بصرا لهذا العبد، أو يدا لهذا العبد، أو رجلا لهذا العبد، فإننا نعتقد ونقر بأن الله على عرشه استوى، وأنه بائن من خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [سورة الشورى: ١١].

(وَإِنْ سَأَلَني أعْطَيْتُهُ)؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠]، فصار كريما على الله بحيث يكرمه بإجابة دعوته، وتفريج كربته.

(وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي) أي: مما ينوبه من مكر الأعداء أو غير ذلك (لأُعِيذَنَّهُ) يحفظه الله عَزَّوَجَلَّ، «فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به».

والشاهد من الحديث: قوله: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ)، أي أنه يجاهد نفسه على الإتيان بالفرائض، ثم يجاهد نفسه على المحافظة على النوافل.

٩٦ - الثاني: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه عَزَّوَجَلَّ قَالَ: «إِذَا تَقرب العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقربْتُ إِلَيْه ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَربْتُ مِنهُ بَاعًا، وإِذَا أتَانِي يَمشي أَتيْتُهُ هَرْوَلَةً» رواه البخاري[1].

الشرح:

الحديث فيه: إثبات صفة الهرولة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية التي تليق بجلاله، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [سورة الشورى: ١١]، وفيه أيضا فضيلة التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالطاعات، والبعد عن المعاصي والسيئات، فكلما قرب

(١) حديث رقم: (٧٥٣٦).

العبد من ربه كلما قرب الله عَزَّوَجَلَّ منه، وهو على عرشه، كما في الحديث: "إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ قَرِيبًا مُجِيبًا يَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ، وَيَسْتَجِيبُ»، وكما في حديث عمرو بن عبسة قال النبي ﷺ: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ».

وعلى قدر مجاهدتك لنفسك في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ يكون إكرام الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، والله المستعان.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري" (١٣/ ٥١٣): قَالَ ابن بَطَّالٍ: وَصَفَ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى عَبْدِهِ وَوَصفَ الْعَبْدَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ وَوَصَفَهُ بِالْإِتْيَانِ وَالْهَرْوَلَةِ كُلُّ ذَلِكَ يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ فَحَمْلُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ يَقْتَضِي قَطْعَ الْمَسَافَاتِ وَتَدَانِي الْأَجْسَام وَذَلِكَ فِي حَقِّهِ تَعَالَى مُحَالٌ فَلَمَّا اسْتَحَالَتِ الْحَقِيقَةُ تَعَيَّنَ الْمَجَازُ لِشُهْرَتِهِ فِي كَلَام الْعَرَبِ فَيَكُونُ وَصفُ الْعَبْدِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ شِبْرًا وَذِرَاعًا وَإِتْيَانُهُ وَمَشْيُهُ مَعْنَاهُ التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَأَدَاءِ مُفْتَرَضَاتِهِ وَنَوَافِلِهِ وَيَكُونُ تَقَرُّبُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عَبْدِهِ واتيانه وَالْمَشْي عبارَة عَن إثابته عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقَرُّبِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَكُونُ قَوْلُهُ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً أَيْ أَتَاهُ ثَوَابِي مُسْرِعًا. اهـ[١]

٩٧ - الثالث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغبونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ». رواه البخاري[٢].

(١) حديث رقم: (٦٤١٢).

(٢) قول الحافظ هذا تأويل فاجر يخالف أدلة الكتاب والسُّنة ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم بإمرار الصفات كما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، **وذكرت قول الحافظ في هذا الموطن للرد عليه وبيان مخالفته لمنهج السلف، فتنبه لمثل هذه الزلقة الخطيرة.**

الشرح:

هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه، حاثا المؤمن على المحافظة على نعم الله عَزَّوَجَلَّ، ونعم الله على عباده كثيرة، لا تعد ولا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤]، ومع ذلك ذكر منها نعمتين من فرط فيهما فهو مغبون:

نعمة الصحة، فكم من إنسان يتلف صحته في غير طاعة الله، مع أن استخدام الصحة في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ من أسباب رفع الدرجات، فيستطيع أن يصوم، ويصلي، ويحج، ويعتمر، ويجاهد، ويطلب العلم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بينما المريض قد يحال بينه وبين بعض الطاعات والقربات، مع حرصه عليها، قال النبي ﷺ: "**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**».

ومعنى (مَغبونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ) أي: يلحقهم الغبن على ما يفوتهم من الأجر العظيم فيهما، فالصحة إذا استخدمت في طاعة الله كم من الأجور فيها؟ وإذا صرفت لغير طاعة الله كانت من أسباب ارتكاس العبد في الدنيا والآخرة.

والفراغ، فإن كثيرا من الناس يشغلون، هذا يُشغل بجلب رزقه، وهذا يشغل مع أهله، حتى أن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ شغل عن الجمعة بزوجه حين مرض، وعثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ تخلف عن غزوة بدر بأمر النبي صل الله عليه وسلم حين مرضت زوجته رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، وكم من الأعمال التي تشغل الإنسان عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا كان الإنسان متفرغا فعليه باغتنام الصحة والفراغ، ومن أعظم فساد العبد:

إن الشباب والفراغ والجدةْ مفسدة للمرء أي مفسدة

والنبي ﷺ يقول: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»، الحديث أخرجه الحاكم[(١)] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآن أنت متفرغ تستطيع أن تحفظ القرآن، بعد أيام تعجز عن حفظه، متفرغ لحفظ ما شئت من أحاديث النبي ﷺ، بعد أيام تعجز عن حفظها متفرغ للكتابة والتصنيف والتأليف، بعد أيام تشغل، فمن الآن قال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا، والأيام تمضي، والأشغال لا تنتهي، لكن الإنسان يقدم الأهم فالأهم يقدم ما يكون سببا لسعادته الدنيوية والأخروية، أما أن يقدم ما السعادة الدنيوية على الأخروية هذا والله من الخذلان، نسأل الله السلامة.

٩٨ - الرابع: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يقُومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصنَعُ هَذَا يَا رسولَ الله، وَقدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِك وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، هَذَا لفظ البخاري[(٢)].

ونحوه في الصحيحين من رواية المغيرة بن شعبة[(٣)].

الشرح:

قوله: (أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يقُومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ) أي صلاة النافلة، وكان يجاهد نفسه، مع أن صلاة النبي ﷺ جالسا كصلاته قائما، ومع ذلك يجاهد نفسه، كما قال ﷺ: «**ما أنتما بأقوى مني، ولا بأحرص على الأجر مني**»، أو كما قال ﷺ.

(فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصنَعُ هَذَا يَا رسولَ الله) فيه السؤال عما يشكل.

(١) حديث رقم: (٧٨٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩).

(وَقدْ غفَرَ الله لَكَ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وهذه خصيصة لرسول الله ﷺ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [سورة الفتح: ١-٢].

(أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أكُونَ عَبْدًا شَكُورًا) هذا هو غاية العبادة، والتذلل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعدم الركون إلى ما علم العبد من الفضائل، حتى وإن كانت الفضائل دالة على علو قدرك وعظيم منزلتك فمن تمام العبادة أن تحافظ على شكر الله وعبادة الله، محبة له، ورغبة فيما عنده، وإرضاء لنفسه، إلى غير ذلك.

فلا يكون الإنسان يحرص فقط على العبادة من أجل أن يؤجر، هذا منها، لكن لا بد أن يحرص على إرضاء الله، وعلى شكر الله، وعلى التعرض لما يأتي من الله عَزَّوَجَلَّ بالخير العظيم.

قوله: (المغيرة بن شعبة) هو أحد دهاة العرب، الثقفي.

٩٩ - الخامس: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، أَنَّها قَالَتْ: كَانَ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ أَحْيَا اللَّيلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَر. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

والمراد: العشر الأواخر مِنْ شهر رمضان.

والمِئْزَرُ: الإزار، وَهُوَ كناية عن اعتزالِ النساءِ. وقيلَ: المُرادُ تَشْمِيرُهُ لِلعِبَادةِ، يُقالُ: شَدَدْتُ لِهَذَا الأمْرِ مِئْزَري: أي تَشَمَّرْتُ وَتَفَرَّغْتُ لَهُ.

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أهمية المجاهدة، لاسيما في العشر الأواخر من رمضان؛ لعظيم فضلها، فإن فيها ليلة خير من ألف شهر، وهي ليلة القدر، كما سيأتي معنا إن شاء الله.

(إِذَا دَخَلَ العَشْرُ أَحْيَا اللَّيلَ) أي: ولم ينم، وليس معنى ذلك أنه يحيي الليل بالصلاة من أوله إلى آخره، فقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ولم يصلّ النبي ﷺ ليلة حتى أصبح، وإنما يحيي الليل تارة بالصلاة، تارة بالدعاء، تارة بالذكر، وهكذا.

(وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ) فيه أمر الأهل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لما في ذلك من الفضل، وهو امتثال قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [سورة التحريم: ٦]، وهو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد طبق النبي ﷺ هذا كثيرا كما سيأتي في قوله ﷺ: «أيقظوا صواحب الحجر، فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة».

(وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَر) قيل: كنايه عن ترك الجماع ومعاشرة النساء.

١٠٠ - السادس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ وَفي كُلٍّ خَيرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ. وَإنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أنّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعلَ؛ فإنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ». رواه مسلم[١].

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أن المؤمن المسارع إلى مرضاة الله المجاهد لنفسه في ذات الله خير عند الله وأحب عند الله من المؤمن الضعيف، كلاهما مؤمن لكن هذا يصلي جماعة، ويحافظ على الجمع، ويلتزم الطاعات والقربات، ويراقب الله في

(١) حديث رقم: (٢٦٦٤).

السراء والضراء، ويجاهد نفسه في ذات الله، إيمانه زائد وقوي، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة المدثر: ٣١]، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣].

(خَيرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ)؛ لأن المؤمن الضعيف وإن كان في الجملة على خير إلا أنه يفوته خير عظيم، وربما يتسلط عليه الشيطان في بعض الأحيان، بينما المؤمن القوي محفوظ من الشيطان بحفظ الله له، ولعجز الشيطان عن أذيته، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [سورة الحجر: ٤٠]، قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [سورة الحجر: ٤٢].

(وَفِي كُلٍّ خَيرٌ) مهما كان ما دام مؤمن مسلم وإن كان على أي حال فهو خير من الكافر؛ لأن الكافر يخلد في النار، الكافر مغضوب عليه، الكافر شر البرية، إلى غير ذلك.

(احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ) وهذه وصية النبي ﷺ، **(احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ)** في جميع الأبواب، لا يختص به باب دون باب، احرص على ما ينفعك في التوحيد، في الصلاة، في الصيام، في الحج، في القيام، في طلب العلم، في الأمر معروف والنهي عن المنكر، في بر الوالدين، في كل ما يكون سببا لنفعك الديني والدنيوي احرص عليه، وإياك والمعاصي، فإنها من أعظم أسباب الضرر الديني والدنيوي.

(واسْتَعِنْ بِاللهِ)؛ لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئا بدون عون الله.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥]، ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨]، «**رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي**»، «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»، فالإنسان عاجز إن لم يعنه الله عَزَّوَجَلَّ، والله ما

تستطيع أن تدخل لقمة في فيك إلا بعون الله، ولا تستطيع أن تصلي ركعة إلا بعون الله، ولا تستطيع أن تطلب علما إلا بعون الله، فاستعن بالله في كل شيء.

(وَلَا تَعْجَزْ) أي: افعل السبب، لا تقول: أنا مستعين بالله وأنت في الشارع بعيد عن طاعة الله، أو مستعين وأنت على فراشك ما تفعل السبب، لا، من كمال الاستعانة فعل الأسباب الشرعية.

(وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ) أي من الأقدار **(فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)**؛ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(وَلَكِنْ قُلْ: قَدرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعلَ) وهذا فيه استسلام لله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الرضا بالقدر، ولا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

(فإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ) وهل هذه على عمومها؟ قد بوب البخاري في (صحيحه): باب اللو، والنبي ﷺ يقول: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لسقت الهدي**».

فـ(لو) التي تفتح عمل الشيطان هي التي فيها الاعتراض على القدر، وأما التي لا اعتراض فيها على القدر كأن يتمنى الإنسان أن يكون له الخير العظيم، فيسارع إلى مرضاة الرب الكريم، كما قال ذلك الرجل: لو أن لي مثل فلان لفعلت كما فعل، فهما في الأجر سواء، فاللو أحيانا لا يذم فاعلها، والنبي ﷺ قد قالها كثيرا، وأما إذا كانت على رد القدر والاعتراض على القدر فهذا هو المذموم.

وفي الحديث: أن الإنسان يجب عليه أن يغلق مداخل الشيطان، لا تجعل للشيطان سبيلا إلى نفسك، أو سبيلا إلى عملك، أو سبيلا إلى اعتراضك على الله عَزَّوَجَلَّ، أو على شرعه، فإن الشيطان حريص، في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يأتي الشيطان**

أحدكم فيقول: من خلق كذا؟» انظر إلى سفه الشيطان، الإنسان يعرف أن الله خالق كل شيء، هذا أمر معلوم بالفطرة، حتى الكفار، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة لقمان: ٢٥]، لكن يأتيه: من خلق هذا؟ الله، من خلق كذا؟ الله من خلق الله؟ قال النبي ﷺ: «فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ولينته»، وفي رواية: «فليقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، إلى غير ذلك مما قاله النبي ﷺ.

فالإنسان يكون حريصا على إغلاق مداخل الشيطان، انظر إلى النبي ﷺ رد زوجته إلى بيته، فرأى رجلين يسرعان، أولوها حياء من النبي ﷺ حياء أن يكونا قريبين من النبي ﷺ ومعه امرأته، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية»، هما في هذا الحال لم يشكا في النبي ﷺ، ما وقع في قلبهم أي شك، حتى أنهم قالوا: يا رسول الله سبحان الله! ما كنا لنشك بك، أو كما في الحديث، فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وخشيت أن يقذف في قلوبكما شرا».

في مبدئ الأمر أحيانًا الشيطان ما يدخل، لكن إذا جعلت له سبيلًا دخل، وإذا دخل بدأ يلعب، الظنون، والشكوك، والوساوس، ووإلى إلخ، لا ينتهي لا يرحم، كلما ازداد الإنسان شدة بوسواس الشيطان كلما تسلط عليه وأهانه، فلا تجعل للشيطان عليك سبيلا.

حتى في قراءة الفاتحة، قرأتها لا يأتيك يقول لك: ما قرأت، أو: أنت تقول: لعلي قرأت، لا كذا، يقول: يا أخي أيش يضرك لو زدتها مرة؟ أنت سيخليك تزيدها الثالثة، الرابعة، الخامسة، في الطهارة إذا صدقته سيخليك تتوضأ عشرين مرة، فلا تبالي يا أخي، اعمل على الأمر وأغلق مداخل الشيطان.

أيضا الوساوس بين الأهل، قد يقع الإنسان في نفسه على أهله، أو في نفسه على ولده، أو كذا، فيبدأ الشيطان، ويعمق الهوة بين الرجل وبين زوجته، حتى يؤدي بهم إلى الطلاق، على وساوس، فلذلك الإنسان يغلق مداخل الشيطان.

١٠١ - السابع: عَنْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية لمسلم: «حُفَّتْ» بدل «حُجِبَتْ» وَهُوَ بمعناه: أي بينه وبينها هَذَا الحجاب فإذا فعله دخلها.

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أن الجنة تحتاج إلى مجاهدة؛ لأن المكاره قد أحاطت بها، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ، قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

فحفت الجنة بالمكاره، تحتاج أن تلتزم الصلاة في وقتها، والصوم في وقته، والحج، وتغض طرفك، وتطيع أباك وأمك، وتبر الوالدين، وتصبر، إلى غير ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٣).

وحجبت النار بالشهوات، أي: بما هو موافق لميل النفس، فعلى الإنسان أن يجاهد نفسه على أعمال الآخرة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتم عنه فاجتنبوه**»، انظر إلى الفرق بين الأمرين، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [سورة الطلاق: ٧]، في باب الفعل؛ لأن الفعل يحتاج إلى مجاهدة، وقد يعجز الإنسان.

وأما في باب الترك «**ما أمرتكم به فاجتنبوه**»، لا يحتاج إلى مجاهدة، إلا أن تجاهد نفسك بالترك، بخلاف الطاعة، الطاعة تحتاج إلى أعمال كثيرة حتى تؤدى.

١٠٢ - الثامن: عن أبي عبد الله حُذَيفَةَ بنِ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيلَةٍ فَافْتَتَحَ البقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المئَةِ، ثُمَّ مَضَى. فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا في ركعَة فَمَضَى، فقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقرَأَهَا، يَقرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بآيَة فِيهَا تَسبيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ»، ثُمَّ قَامَ طَويلًا قَريبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. رواه مسلم[١].

الشرح:

---

(١) حديث رقم: (٧٧٢).

(حذيفة بن اليمان) وهو حذيفة بن حسل رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، شهد المواقع مع النبي ﷺ إلا بدرا؛ لأن الكفار اشترطوا عليه ألا يقاتل مع النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله على قتالهم**»، وكان صاحب سر النبي ﷺ.

ساق المصنف الحديث؛ لعظيم شأن النبي ﷺ في مجاهدة نفسه، مع أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

(صَلَّيْتُ مَعَ النَّبيّ ﷺ ذَاتَ لَيلَةٍ) فيه جواز صلاة الجماعة نافلة.

قال: (فَافْتَتَحَ البقَرَةَ) أي: سورة البقرة، وفيه جواز تسمية البقرة بهذا الاسم، خلافا للحجاج بن يوسف، فإنه كان يقول: السورة التي ذكرت فيها البقرة، والسورة التي ذكر فيها آل عمران.

(فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المئَةِ) فيه أن المأموم قد يقع له شيء من الوسواس، لكن عليه أن يجاهد نفسه، وفيه أن الإنسان قد يعجز عما يستطيعه غيره من المجاهدين لأنفسهم في ذات الله.

(فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا في ركعَة فَمَضَى) أي ينتهي.

(فقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا) أي أنه يصلي بها في ركعة.

(ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا) فيه جواز عدم الترتيب عند قراءة القرآن، فإن آل عمران في ترتيب المصحف مقدمة على النساء، ومع ذلك افتتح النبي ﷺ سورة النساء قبلها.

(يَقرَأُ مُتَرَسِّلًا) أي: بغير هذٍّ، وإنما يقرأ قراءة مترسلة متأنية.

(إِذَا مَرَّ بآية فِيهَا تَسبِيحٌ سَبَّحَ) يقول: سبحان الله.

(وَإذَا مَرَّ بسُؤَالٍ سَأَلَ) يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار.

(فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحوًا مِنْ قِيَامِهِ) وهذا قيام طويل جدًّا، وركوع طويل جدًّا، إذا كان سورة البقرة وآل عمران والنساء ثم الركوع قريب من ذلك.

(ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ) وهذا القيام يبقى يذكر الله فيه، فلا حرج من ذلك.

(سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى) دليل على أن الله على عرشه، وأن الله بائن من خلقه.

وفيه الاكتفاء بقول: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى في الصلاة، ولو جاء بغيرهما أجزأه.

١٠٣ - التاسع: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيلَةً، فَأَطَالَ القِيامَ حَتَّى هَمَمْتُ بأمْرِ سُوءٍ! قيل: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أجْلِسَ وَأَدَعَهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

الشرح:

الحديث فيه ما تقدم في الذي قبله.

*** وقد قلت في شرحي على "صحيح مسلم" بعد ذكر هذا الحديث وحديث معه:**

هذان الحديثان فيهما تطويل القراءة في قيام الليل، والنبي ﷺ كان من المبادرين المنقادين المستكثرين مما يقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك لا يستطيع أحد ما استطاعه رسول الله ﷺ، فها هو حذيفة بن اليمان مع إمامته وجلالته وحرصه على الخير يظن أن الركوع سيكون عند مائة آية، ثم ظن أن الركوع سيكون بختم سورة البقرة، وإذا به ﷺ يفتتح النساء، ثم آل عمران، وفي هذا دليل على جواز قراءة السورة التي هي قبل بعد التي هي بعدها، أو نحو ذلك.

(١) أخرجه البخاري (١١٣٥)، ومسلم (٧٧٣).

وعبد الله بن مسعود قام حتى هم أن يجلس ويدع النبي ﷺ قائمًا، وفي هذا ينبغي الأدب مع الأئمة الكبار، وأن لا يخالفوا بفعل ولا قول، ما لم يكن حرامًا.

"وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا شَقَّ عَلَى الْمُقْتَدِي فِي فَرِيضَةٍ أَوْ نَافِلَةٍ الْقِيَامُ وَعَجَزَ عَنْهُ جَازَ لَهُ الْقُعُودُ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقْعُدِه ابْنُ مَسْعُودٍ لِلتَّأَدُّبِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهِ: جَوَازُ الِاقْتِدَاءِ فِي غَيْرِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَفِيهِ: اسْتِحْبَابُ تَطْوِيلِ صَلَاةِ اللَّيْلِ". أفاده النووي.

وفي هذا الحديث جواز الدعاء في حال القيام في صلاة النافلة، الاستعاذة فيما يلزم فيه الاستعاذة، والتسبيح فيما يلزم فيه التسبيح، وهكذا، بينما ذهب بعضهم إلى أن هذا الحديث شامل للفريضة والنافلة، والذي يظهر عدم ذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يؤثر عنه أنه فعله.

ثم هذه القراءة التي قرأها بها النبي ﷺ ربما يقول قائل: قبل أن يتم ترتيب المصحف على هذه السياقة؛ لأن المصحف كان كتابته وإرساله إلى الآفاق في عهد عثمان، وبداية جمعه في عهد أبي بكر، وهكذا في عهد عمر، فقيل: بأن هذا الترتيب عن اجتهاد، وقيل: بأنه عن توقيف عن النبي ﷺ، والذي يظهر كون الصحابة أجمعوا عليه أنه على دليل؛ لأن الإجماع أنما يكون على دليل، والنبي ﷺ كان إذا أنزلت عليه آيات قال: دعوها في سورة كذا، والله أعلم. اهـ

١٠٤ - العاشر: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «يَتْبَعُ المَيتَ ثَلَاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرجِعُ اثنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبقَى عَمَلُهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

ساق المصنف الحديث؛ لبيان فضيلة مجاهدة الإنسان نفسه على العمل، فإن ذلك يؤدي إلى نفعه في وقت يتركه القريب والبعيد.

(يَتْبَعُ المَيتَ ثَلَاثَةٌ) هذا من أخبار النبي صل الله عليه وسلم.

(أَهْلُهُ) يعني أبناؤه، لا يلزم أن تكون زوجاته بين ذلك.

(وَمَالُهُ) أي: خدمه وحشمه.

(وَعَملُهُ) أي العمل الصالح أو السيء الذي كان قد لازمه.

(يَرجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ) يتنافس الأهل في تقسيم المال.

(وَيَبقَى عَملُهُ) يحاسب ويجازى عليه، فإن كان عملا صالحا أُكرم به، كما في حديث البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند أحمد[1] وابن أبي شيبة[2]: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»، والثاني يقول: «أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّء».

١٠٥ - الحادي عشر: عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبيّ ﷺ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثلُ ذلِكَ». رواه البخاري[3].

الشرح:

(الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ) أي إذا جاهد في ذات الله عَزَّوَجَلَّ وبادر إلى العمل الصالح.

(١) حديث رقم: (١٨٥٣٤).
(٢) حديث رقم: (١٢٤٣٢).
(٣) حديث رقم: (٦٤٨٨).

(وَالنَّارُ مِثلُ ذلِكَ) إذا عصى الله عَزَّوَجَلَّ، ما بين الإنسان وبين الجنة إلا التوحيد والطاعة، وبين الإنسان وبين النار الشرك والمعصية والبدعة، إن لم يتدارك الله عَزَّوَجَلَّ العصاة برحمته، لأن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن العصاة تحت مشيئة الله من أمة محمد صل الله عليه وسلم، قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

١٠٦ - الثاني عشر: عن أبي فِراسٍ ربيعةَ بنِ كعبٍ الأسلميِّ خادِمِ رَسُول الله ﷺ ومن أهلِ الصُّفَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ فآتِيهِ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ: «سَلْنِي» فقُلْتُ: اسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ. فَقَالَ: «أَوَ غيرَ ذلِكَ»؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ». رواه مسلم[1].

الشرح:

فيه خدمة الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لرسول الله صل الله عليه وسلم، حتى ولو لم يكونوا من العبيد، وفيه ما عليه أهل الصفة من السكنى في المسجد؛ لحاجتهم وفقرهم.

وفيه جواز البيتوتة مع الرجل في داره أو في منزله إن كان واسعا.

قال: (فآتِيهِ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ) فيه خدمة المفضول للفاضل.

(فَقَالَ: سَلْنِي) فيه المجازاة على فعل الخير.

(فقُلْتُ: اسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ) أي أن أكون معك في الجنة، وهذا سؤال عظيم.

(فَقَالَ: أَوَ غيرَ ذلِكَ؟) أي: من شأن الدنيا، أو حتى من شأن الآخرة.

(فأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) أي أن الجنة لا تنال بالكسل، ولا تنال بالأماني، إنما تنال بالعمل الصالح، (فأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ)، وسيأتي حديث ثوبان، وفيه بيان أن السجود من أسباب الرفعة.

---

(١) حديث رقم: (٤٨٩).

١٠٧ - الثالث عشر: عن أبي عبد الله، ويقال: أَبُو عبد الرحمان ثوبان - مولى رَسُول الله ﷺ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ؛ فَإنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ للهِ سَجْدَةً إلاَّ رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرجَةً، وَحَطَّ عَنكَ بِهَا خَطِيئَةً». رواه مسلم[١].

الشرح:

في هذا فضيلة السجود، وعلى المسلم أن يجاهد نفسه بالإكثار منه، وليس المراد بالسجود هنا السجود المجرد، ولكن المراد بالسجود مع الصلاة، ولم يذكر أن النبي ﷺ كان يتطوع بسجدة أو بسجدتين، إلا ما كان من سجود الشكر، أو سجود التلاوة، أما صلاة بسجدة فلا، أو صلاة بركعة، إلا ما كان من صلاة الوتر.

(**فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ للهِ سَجْدَةً**) أي لن تصلي لله ركعة وقيل: لن تصلي لله صلاة وعُبر بالسجود؛ لأنه من أعظم أركان الصلاة.

فيحتاج الإنسان أن يجاهد نفسه في كثرة السجود والصلاة، ولهذا اختلف العلماء أيهم أفضل: إطالة القيام أو الإكثار من الركوع والسجود؟ والذي عليه كثير من العلماء أن الإكثار من الركوع والسجود أفضل.

١٠٨ - الرابع عشر: عن أَبي صَفوان عبد الله بنِ بُسْرٍ الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «خَيرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ». رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن[٢].

«بُسْر» بضم الباء وبالسين المهملة.

الشرح:

(١) حديث رقم: (٤٨٨).

(٢) حديث رقم: (٢٣٢٩).

قوله: (خَيرُ النَّاسِ) أي عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومن المسلمين.

(مَنْ طَالَ عُمُرُهُ) أي في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال النبي ﷺ: «**فإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا**».

(وَحَسُنَ عَمَلُهُ) أي: إذا كان طول العمر مع حسن العمل فهذا خير الناس، أما طول عمر مع سوء العمل فما هو إلا ذنوب يتحصلها الإنسان، نسأل الله السلامة، ولهذا كان في الدعاء: اللهم إني أسألك الحياة إذا كانت الحياة خيرا لي، والموت إذا كان الموت خيرا لي، كما سيأتي، فالإنسان يجاهد نفسه من أجل طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الحديث من جوامع كلم النبي ﷺ، **(خَيرُ النَّاسِ)** أي عند الله **(مَنْ طَالَ عُمُرُهُ)** في طاعة الله، **(وَحَسُنَ عَمَلُهُ)**.

١٠٩ - الخامس عشر: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قِتالِ بدرٍ، فَقَالَ: يَا رسولَ الله، غِبْتُ عَنْ أَوّل قِتال قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشركِينَ لَيُرِيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ. فَلَمَّا كَانَ يَومُ أُحُدٍ انْكَشَفَ المُسْلِمونَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ - يعني: أَصْحَابهُ - وأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ - يَعني: المُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعدُ بْنُ مُعاذٍ، فَقَالَ: يَا سعدَ بنَ معاذٍ، الجَنَّةُ وربِّ النَّضْر إنِّي أجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سعدٌ: فَمَا اسْتَطَعتُ يَا رسولَ الله مَا صَنَعَ، قَالَ أنسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمانِينَ ضَربَةً بالسَّيفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمَثَّلَ بِهِ المُشْرِكونَ، فما عَرَفهُ أَحَدٌ إلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ.

قَالَ أنس: كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أن هذِهِ الآية نزلت فِيهِ وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣]، **إِلَى آخِرِها. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ**[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

قوله: «لَيُرِيَنَّ اللهُ» روي بضم الياء وكسر الراء: أي لَيُظْهِرَنَّ اللهُ ذلِكَ للنَّاس، وَرُوِيَ بفتحهما ومعناه ظاهر، والله أعلم.

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظم المجاهدة للنفس في جهاد الكفار، فإن سعد بن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع أنه اهتز له العرش حين موته؛ لعظيم شأنه وعلو منزلته ومع ذلك ما استطاع أن يصنع كما صنع أنس بن النضر من المسابقة إلى مجاهدة الكفار في هذا الموطن، وبذل النفس والمهجة، حتى أنه لكثرة المجاهدة بشر بالجنة وهو يمشي: **(إِنِّي أجِدُ رِيحَهَا منْ دُونِ أُحُدٍ)**.

قوله: (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن قِتالِ بدرٍ) لعله كان في سفر، أو لعله لم يخرج مع النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ حين خرج لبدر لم يكن على نية القتال، وبدر هي أول غزوة غزاها النبي ﷺ، أي قاتل فيها، غزوة بدر الكبرى، وكانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان.

(فَقَالَ: يَا رسولَ الله، غِبْتُ عَنْ أوّل قِتال قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ) فيه التحسر على عدم فعل الخير، وفيه الحسرة إن فات الإنسان سبيل الخير، وفيه الفضيلة لأهل بدر، قال النبي ﷺ: «**لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم**».

(لَئِن اللهُ أشْهَدَنِي قِتَالَ المُشركِينَ لَيُرِيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ) وفي رواية: **(لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع)**، أي: أن الله سيري الناس ماذا صنع أنس بن النضر.

(فَلَمَّا كَانَ يَومُ أُحُدٍ انْكَشَفَ المُسْلِمونَ) أي بعد أن عصى الرماة النبي ﷺ، ونزلوا من الجبل.

(فَقَالَ: اللَّهُمَّ أعْتَذِرُ إلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ) أي الرماة الذين نزلوا من الجبل.

(وأبْرَأُ إلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ يَعني: المُشرِكِينَ) من الحطمة للمسلمين، حتى أنهم أدموا رسول الله ﷺ وأرادوا قتله.

(ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعدُ بْنُ مُعاذٍ) الذي تقدم ذكره، اهتز له العرش حين موته، قُتل في عزوة الأحزاب، وأحياه الله حتى حكم في قريظة.

(الجَنَّةُ وربِّ الكعْبَةِ إنِّي أجِدُ ريحَهَا منْ دُونِ أُحُدٍ) أي: من جهة أحد.

(قَالَ سعدٌ: فَمَا اسْتَطَعتُ يَا رسولَ الله مَا صَنَعَ) فيه أن الناس يختلفون من حيث المبادرة إلى الطاعات والقربات.

(قَالَ أنسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمانينَ ضَربَةً بالسَّيفِ)؛ لكثرة ما ضُرب وهو يجاهد، يعني أنه لم ينكسر.

(وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمَثَّلَ بِهِ المُشْرِكونَ فما عَرَفهُ أَحَدٌ إلاَّ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ) وغالبا أن المشركين إنما يمثلون بمن أبلى فيهم؛ لشدة ما صنع بهم أرادوا أن يشفوا غيظهم بالتمثيل به، ومع ذلك عرفته أخته ببنانه؛ لعلامة كانت في إصبعه.

١١٠ – السادس عشر: عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيةُ الصَّدَقةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيءٍ كَثيرٍ، فقالوا: مُراءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فقالُوا: إنَّ اللهَ لَغَنيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٧٩]، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، هذا لفظ البخاري[١].

وَ(نُحَامِلُ) بضم النون وبالحاء المهملة: أي يحمل أحدنا عَلَى ظهره بالأجرة ويتصدق بها.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

الشرح:

(أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) نسب إلى بدر ولم يشهدها، وإنما نزل فيها.

أي لما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ الأمر بالصدقات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤] إلى غير ذلك.

(كُنَّا نُحَامِلُ) فيه حرص الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على الصدقة، حتى أنهم تكفلوا أو تحملوا وجاهدوا أنفسهم في الحصول عليها من أجل أن يتصدقوا، لم يكن عندهم الحال على يسر، ومع ذلك يعملون حتى يقع منهم الصدقة.

(فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيءٍ كَثيرٍ) لمحبته للصدقة بذل في ذات الله وجاهد نفسه.

(فقالوا: مُراءٍ) كما هو حال المنافقين ومن إليهم في لمز المؤمنين، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ [سورة الهمزة: ١-٢]، يعني: يلمزون المؤمنين في الصدقات.

(وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصاعٍ) أي على جهده وقدره.

(فقالُوا: إنَّ اللهَ لَغَنيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا) بينما إذا قبل الله هذا الصاع ربما كان من أسباب رحمة الله للعبد، وانظر كيف دافع الله عَزَّوَجَلَّ عن هؤلاء المؤمنين الذين بذلوا وجاهدوا أنفسهم في الإنفاق في أوجه الخير.

(﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾) أي المنافقون الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين، يلمزونهم في الكلام في أعراضهم، هذا مراء، وهذا لا يحتاج إليه.

(﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾) يسخر الله منهم ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [سورة النبأ: ٣٦].

١١١ - السابع عشر: عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أَبِي إدريس الخولاني، عن أبي ذر جندب بن جُنادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ فيما يروي، عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أنَّهُ قَالَ: «يَا عِبادي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسي وَجَعَلْتُهُ بيْنكم مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادي، كُلُّكُمْ ضَالّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاستَهدُوني أهْدِكُمْ، يَا عِبَادي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أطْعَمْتُهُ فَاستَطعِمُوني أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ، يَا عِبَادي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيلِ وَالنَّهارِ وَأنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُوني أغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفعِي فَتَنْفَعُوني، يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذلِكَ في مُلكي شيئًا، يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذلِكَ من مُلكي شيئًا، يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوني فَأعْطَيتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْألَتَهُ مَا نَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كَما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادي، إنَّمَا هِيَ أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيرًا فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ».

قَالَ سعيد: كَانَ أَبُو إدريس إِذَا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثَا عَلَى رُكبتيه. رواه مسلم[١].

وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَيْسَ لأهل الشام حديث أشرف من هَذَا الحديث[٢].

(١) حديث رقم: (٢٥٧٧).

الشرح:

(أبي إدريس الخولاني) عائذ الله.

(أبي ذر جندب بن جُنادة) وهو من زهاد الصحابة، وأبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذكر عن نفسه: أنه صلى قبل أن يسلم بثلاث سنين، كان يصلي حيث وجهه الله، وله قصة في إسلامه، فقد دخل مكة وأظهر الإسلام بين ظهراني الكفار.

هذا الحديث عظيم، وحقه جليل، يحتاج إلى وقت كثير، إلا أن المصنف ساقه؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: (فَمَنْ وَجَدَ خيرًا فَلْيَحْمَدِ الله) أي: من جاهد نفسه في ذات الله عَزَّوَجَلَّ فليحمد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنه سيجد بركة هذه الأعمال الصالحة عند الله في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

(وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ) أي: الأعمال السيئة والتفريط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ (فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ)؛ لفتوره، وعدم مجاهدته لنفسه.

قوله: (يَا عِبَادي) ينادي الله عَزَّوَجَلَّ عباده، وعباد الله ينقسمون إلى قسمين: عبودية قهر وعبودية خاصة، وهي عبادة المؤمنين، لكن إذا أضافهم إلى نفسه فإنها المراد بها عبودية المؤمنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣].

(إنِّي حَرَّمْتُ الظُلْمَ عَلَى نَفْسي) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، وهذه من الصفات المنفية، وضابط الصفة المنفية: أن تنفى عن الله عَزَّوَجَلَّ

(٢) قال: هذه المقالة لم أقف عليها معزوة لأحمد في غير (رياض الصالحين)، و(فيض القدير) ونحوه ممن قلد النووي فيما يظهر، وفي (تاريخ دمشق) بسنده من قول أبي مسهر، وهو أقرب، لا سيما وأبو مسهر أحد رجال الإسناد عند مسلم وغيره وقد عزاه الذهبي في (تاريخ الإسلام) لأبي مسهر الدمشقي عبد الأعلى بن مسهر.

مع إثبات كمال الضد، وكمال الضد في نفي الظلم هو العدل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم أحدا، بل هو كامل في عدله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

(وَجَعَلْتُهُ بينكم مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا) سيأتي باب في تحريم الظلم، قال النبي ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

(يَا عِبَادي، كُلُّكُمْ ضَالّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاستَهدُوني أهْدِكُمْ) يعني: كل الناس في عماية وفي ضلالة، إلا من هداه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ [سورة الكهف: ١٧]، إلا أنه ينبغي للإنسان أن يستهدي الله عَزَّوَجَلَّ ويسأله الهداية، ومن دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى**»، «**اللهم إني أسألك الهدى والسداد**»، ومن دعاء ﷺ الذي علمه الحسن: «**اللهم اهدنا فيمن هديت**»، ومن الدعاء الذي أوجبه الله علينا في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: ٦].

(يَا عِبَادي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أطْعَمْتُهُ فَاستَطعِمُوني أُطْعِمْكُمْ) يعني الناس في حاجة وفقر، إلا إذا أطعمهم الله ورزقهم الله، فينبغي لهم أن يبادروا إلى سؤال الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله يرضى عن عبده إذا سأله، ويستجيب دعاءه، حتى أن الله ربما استجاب لبعض الكافرين، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾ [سورة الإسراء: ٦٧].

(يَا عِبَادي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ) والعري يدخل فيه عري البدن من الملابس، وعري الإنسان من الدين، فيسأل الله عَزَّوَجَلَّ لباس التقوى، ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ اللباس الحسي.

(يَا عِبَادي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيلِ وَالنَّهارِ وَأَنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُوني أغْفِرْ لَكُمْ) ولا يسلم أحد من الخطأ، إما أن يكون الخطأ بفعل الكبيرة، أو يكون

الخطأ بفعل الصغيرة، أو يكون الخطأ بترك الواجب، كله خطأ، فيحتاج الإنسان أن يستغفر الله، وسيأتي باب الاستغفار.

(يَا عِبَادي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني) فإن الله غني عن العالمين، ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾ [سورة فاطر: ١٥-١٧].

(وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفعِي فَتَنْفَعُوني) فإن الله غني عن العالمين عبدوه أم أشركوا معه.

(يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذلِكَ فِي مُلكي شيئًا) لأن الله عَزَّوَجَلَّ متصف بصفة الغنى المطلق الغنى الذاتي الذي لا يلحقه نقص ولا فقر أبدا، ولذلك حين تهلك البرية وينفخ في الصور، فصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله يقول: «**أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»، فإنه غني حميد، بينما الإنسان ربما إذا افتقد مائة ألف ريال يصبح فقيرا، أو إذا مات ولده يصبح ذليلا حقيرا، بينما الله وله المثل الأعلى له الغنى المطلق.

(يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذلِكَ من مُلكي شيئًا) إذًا الإنسان ما عليه إلا أن يرحم نفسه، ويبادر إلى طاعة ربه، فإن الله حين أمرنا بعبادته أمرنا وهو غني عنا، ويستطيع أن يأتي بغيرنا، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝٢٠﴾ [سورة إبراهيم: ١٩-٢٠].

(يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَألُوني فَأعْطَيتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْألَتَهُ) مهما بلغت، لو طلب مثل الأرض وأعطاه الله عَزَّوَجَلَّ مسألته ما نقص ذلك مما عند الله **(إلاَّ كما يَنْقصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ)** وما عساه

ينقص؟ ما عسى المخيط ينقص إذا أدخل في البحر؟ وهذا دليل على غنى الله المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «ألم تر ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه»، لم ينقص ما في يمينه منذ خلق السماوات الأرض إلى الآن، وإلى أن تقوم الساعة، فالله عَزَّوَجَلَّ عن العالمين، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، إلى غير ذلك.

(يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ) أعمالكم الخيرة أو السيئة، (أحصيها لكم) أي: أحفظها لكم، فإن الإحصاء يأتي بمعنى الحفظ.

(ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا) أي يوم القيامة، كل يأخذ عمله، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: ١٣].

(فَمَنْ وَجَدَ خَيرًا) من أعمال البر والهدى والتقى (فَلْيَحْمَدِ الله) الذي وفقه ليس بحوله ولا بقوته ولا بجهده، هو الله الذي أعانه ووفقه، وسدده، وهداه، وقبل منه.

(وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ) من فجور وشر وإعراض (فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ) هو الذي عمل هذه الأمور، وابتعد عن التزام شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١٢ - باب الحث عَلَى الازدياد من الخير في أواخر العمر

والازدياد من الخير يطلب من الإنسان في كل وقت وأوان؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٤٨]، ويقول: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، والنبي صل الله عليه وسلم يقول: «**بادروا بالأعمال فتنا**».

إلا أن في أواخر العمر كلما كبر الإنسان في السن تعين عليه المسارعة، وذلك؛ لدنو الأجل، وخشية الانقطاع، وضعف القوى عن كثير مما كان يتعناه الشباب، ولذلك يقول الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

بل ذكروا: أن الطب الحديث أثبت أن قوى الإنسان تبدأ بالضعف في سن التاسعة والثلاثين، فيكون من بداية الأربعين والإنسان قد ظهر ضعفه، فيحتاج إلى أن يتزود من الطاعات، من الدعاء والذكر ونحوه، ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾ [سورة النمل: ١٩]، نعم كثيرة مر بها الإنسان، ربما مضت عليه خمس وعشرون سنة وهو في سن التكليف، لو أراد الحفظ حفظ، لو أراد العلم تعلم، ولو أراد الحج والعمرة حج واعتمر، ولو أراد أن يبني مسجدًا أو يجري ماء أو غير ذلك من الخيرات لاستطاع في هذا العمر الطويل.

ودخلت مرة عند الطبيب في الرياض من أجل البصر، فقلنا له: يا دكتور نحتاج إلى عملية ما نستخدم فيها النظارة، وتعجبنا من ضعف النظر، قال: كم العمر؟ قلنا: حوالي كذا حوالي ثلاثة وأربعين في ذاك اليوم، قال: إذا قد دخل الإنسان في الأربعين

يضعف نظره، وتضعف قواه، ولذلك قال: إذا عملنا لك عملية من أجل طول النظر سيقع عندك ضعف في قصر النظر.

فالشاهد أن الإنسان كلما كبر ضعفت قواه، ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [سورة مريم: ٤]، يضعف العظم الذي ربما كنت تحمل به الحمل الثقيل، يعجز عن حمل الإنسان، وإن استطاع الإنسان أن يقوم به يشعر بثقل، وغير ذلك.

بدل الجري أصبح يمشي، وبدل المشي باستقامة أصبح يمشي محدودب الظهر، وبدل المشي الصحي أصبح يمشي ويلهث؛ لتسدد الشرايين، وكثرة الدهون، ونحو ذلك، وربما كانت تأتيه الزكمة فتمر بدون علاج، والآن ما تخرج إلا بالمضادات الحيوية، وربما كان يأتيه الحمى فيطفيه بالماء، الآن إذا جاءه الحمى يهده هدا.

وتصبح الأطعمة اللذيذة في حقه غير لذيذة، وإن أكل ربما الجسم لا يستفيد، فما أعظم كلام النبي ﷺ إذ يقول: «**اغتنم خمسا قبل خمس**» ومنها: «**صحتك قبل مرضك**، **وشبابك قبل هرمك**».

والذي يهمنا هنا هو التزود من الخيرات، الذكي الزكي هو الذي يتزود من الخيرات في أواخر أيامه، يخشى أن يلقى الله بذنوبه فيتوب، ويخشى أن ينقطع عن أعماله الصالحات فيتزود، انظر إلى السلف قال: لولا ظمأ الهواجر، وقيام الليل، وصحبة الإخوان؛ لتمنيت أن أموت الآن.

لكن كانوا يحبون طول العمر لصيام النهار، وقيام الليل، والمجالسة من أجل ذكر الله، كما قال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سورة سبأ: ٥٤]، هذه الآية هي في حق الكفار لكنها عامة، كل إنسان يحال بينه وبين ما يشتهي في آخر الزمان، لا سيما إذا جاء الموت، وحصل الفوت، فلا عمل، وإنما وقوف وحساب بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [سورة فاطر: ٣٧].

قَالَ ابن عباس والمُحَقِّقُونَ: معناه أَو لَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً؟ [(١)] وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الَّذِي سنذْكُرُهُ إنْ شاء الله تَعَالَى.

وقيل: معناه ثماني عَشْرَة سَنَةً، وقيل: أرْبَعينَ سَنَةً، قاله الحسن والكلبي ومسروق ونُقِلَ عن ابن عباس أيضًا[(٢)].

وَنَقَلُوا: أنَّ أَهْلَ المدينَةِ كانوا إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أربْعينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبادَةِ.

وقيل: هُوَ البُلُوغُ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [سورة فاطر: ٣٧] قَالَ ابن عباس[(٣)] والجمهور: هُوَ النَّبيّ ﷺ، وقيل: الشَّيبُ، قاله عِكْرِمَةُ وابن عُيَيْنَة[(٤)] وغيرهما، والله أعلم.

الشرح:

(﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾) وهذا رد من الله عَزَّوَجَلَّ على الكافرين حين يتمنون الخروج من النار، فيقول الله لهم: (أولم نعمركم؟): أولم تتعمروا زمنا طويلا يتذكر فيه من شاء التذكر والتعلم والتعقل والعمل؟

---

(١) وأثر ابن عباس ثابت، رواه ابن جرير.

(٢) وهو **ضعيف**، من طريق مجالد على الشعبي، وفيه عنعنة هشيم.

(٣) قال: عزوه لابن عباس وهم، بل رواه البيهقي من طريق الحسن بن عبد الله بن عطية، عمن حدثه، عن ابن عباس، قال: يعني به الشيب، والحسن بن عبد الله ضعيف، وشيخه مبهم، فهو ضعيف.

(٤) في (تفسيره)، صحيح.

(وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ) وهو محمد ﷺ، ورسول كل أمة نذير لها وذهب بعضهم إلى أن النذير هو الموت، وذهب بعضهم إلى أن النذير هو الشيب، والصحيح الأول، وفي الحديث: «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد».

(وَيُؤَيِّدُهُ الحديث الَّذِي سنذْكُرُهُ إنْ شاء الله تَعَالَى) حديث أبي هريرة: «أعْذَرَ الله إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً»، أيُّ عذر له عند الله؟ رجل عاش ستين سنة ثم يأتي وهو محمل بالمعاصي والسيئات، خفيف من الحسنات والقربات، بماذا يعتذر؟ ما هناك وقت؟ ما هناك شباب؟ ما هناك مال؟ ما هناك غير ذلك؟ قد مر به الشباب، مر به المال، مر به الفراغ، مرت به الصحة، فماذا يقول؟

وأنتم مسؤولون عن أعمالكم أمام الله عَزَّوَجَلَّ، «لن تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه».

(وقيل: معناه ثماني عَشْرَة سَنَةً) انظر بعضهم يرى أن النذير ثمانية عشر سنة، قد ذهب عنه الطيشان وعثرات الشباب، وأصبح مقبلا على العبادة، وفي الغالب أن السلف كانوا في هذا السن قد تزوج كثير منهم.

(وقيل: أرْبَعينَ سَنَةً) موافق لظاهر الآية.

(وَنَقَلُوا أنَّ أَهْلَ المدينَةِ كانوا إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أربعينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعِبادَةِ) يشعر أنه قد دنا أجله، وقرب موته، فيستعد للرحيل، والآن كثير من الناس إذا بلغ الستين بدأ في النهمة، يحرص على التزود من المال، ويأخذ أرض هذا، ويأخذ من حق هذا، تكون عنده نهمة، كما قال النبي ﷺ: «منهومان لا يشبعان»، وذكر منهم: «منهوم في دنيا لا يشبع»، كما قال النبي ﷺ: «يكبر الإنسان وتشب معه خصلتان: حب المال وطول العمر».

والصحيح أن النذير هو النبي ﷺ، ونبي كل أمه، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [سورة النساء: ١٦٥].

وأما الأحاديث

١١٢ - فالأول: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «أعْذَرَ الله إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً». رواه البخاري[١].

قَالَ العلماء: معناه لَمْ يَتْرُكْ لَهُ عُذرًا إِذْ أمْهَلَهُ هذِهِ المُدَّةَ. يقال: أعْذَرَ الرجُلُ إِذَا بَلَغَ الغايَةَ فِي العُذْرِ.

الشرح:

وهذا حديث عظيم، فيه حث على الاجتهاد في الطاعات والقربات كلما دنا العمر والأجل، حتى لا تقف بين يدي إلا فيحاججك على عملك، وتقول: يا رب كذا يا رب كذا، لا تنفع هذه الأعذار؛ لأنه قد عمرك ستين سنة، الستين سنة هذه يستطيع الإنسان فيها أن يعمل الأعمال الكثيرة، من صلاة، وصيام، وحج، وقيام، وبر وإحسان، وتوبة لمن كان قد ألم بالذنوب والمعاصي.

والنبي ﷺ يقول: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»، ويقول: «**من مات هو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»، ويقول: «**الأعمال بالخواتيم**»، ويقول: (يبعث كل عبد على ما مات عليه».

وقوله: (امْرِئٍ) يدخل فيه الرجال والنساء ممن عُمر إلى هذا الوقت.

---

(١) حديث رقم: (٦٤١٩).

(أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً) والله المستعان، وأغلب الأمة تموت ما بين الستين إلى السبعين، كما قال النبي ﷺ: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وقل من يجوز ذلك**».

وفيه: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يؤاخذ أحدًا من الناس إلا بعد إقامة الحجة عليه، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: ١٥]، ولذلك حين يُسأل الكفار في النار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الزمر: ٧١].

١١٣ - الثاني: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدرٍ فكأنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ في نفسِهِ، فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا معنا ولَنَا أبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إنَّهُ منْ حَيثُ عَلِمْتُمْ، فَدعاني ذاتَ يومٍ فَأدْخَلَنِي مَعَهُمْ، فما رَأيتُ أنَّهُ دعاني يَومَئذٍ إلاَّ لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تقُولُون في قولِ الله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١]؟ فَقَالَ بعضهم: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نَصرنَا وَفَتحَ عَلَيْنَا، وَسَكتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيئًا، فَقَالَ لي: أكَذلِكَ تقُول يَا ابنَ عباسٍ؟ فقلت: لا، قَالَ: فما تقول؟ قُلْتُ: هُوَ أجَلُ رَسُول الله ﷺ أعلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١] وذلك علامةُ أجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر: ٣]، فَقَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أعلم مِنْهَا إلاَّ مَا تقول. رواه البخاري[(١)].

الشرح:

(١) حديث رقم: (٤٢٩٤).

وهذا حديث عظيم، ساقه المصنف؛ لبيان أن الله عَزَّوَجَلَّ شرع لنبيه كثرة الاستغفار قبل موته، مع أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فمن باب أولى نحن الذين قد فرطنا في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وأهملنا، فينبغي علينا أن نلازم الاستغفار في ليلنا ونهارنا، وفي سرنا وجهارنا، فإنه من لازم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا.

قال: (كَانَ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) وهو أمير المؤمنين.

(يُدْخِلُنِي مَعَ أشْيَاخِ بَدرٍ) وهم الذين حضروا بدر، وكان الذين حضروا بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر وقيل: سبعة عشر.

(فكأنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ في نفسِهِ)؛ لأن ابن عباس كان صغير السن، كان عمره في خلافة عمر في مبدئها ربما ستة عشر أو سبعة عشر سنة، فكان يدخل مع الكبار.

(فقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا معنا ولنَا أبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟) ولم يدخلوا كما يدخل.

(فَقَالَ عُمَرُ: إنَّهُ منْ حَيثُ عَلِمْتُمْ) أي ابن عم رسول الله صل الله عليه وسلم، وعنده خير من العلم والعمل.

(فَدعانِي ذاتَ يَومٍ فَأدْخَلَنِي) أي للاختبار، وليريهم فضله ومنزلته.

(فما رَأيتُ أنَّهُ دعانِي يَومَئِذٍ إلاَّ لِيُرِيَهُمْ) يعني ما ظن في نفسه إلا أنه سيريهم أن ابن عباس عنده خير عظيم أهَّله لهذا المجلس؛ لأن مجلس عمر كان يدخله حفظة القرآن.

(فَقَالَ بعضهم: أُمِرْنَا نَحمَدُ اللهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نَصرنَا وَفَتحَ عَلَيْنَا) قال بظاهره.

(وَسَكتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيئًا) وفيه عدم القول بغير علم.

(هُوَ أجَلُ رَسُول الله ﷺ أعلَمَهُ لَهُ) يعني جعل الله علامة لأجله فتح مكة، إذا فُتحت الفتوح ومصرت الأمصار ودخل الناس في دين الله أفواجا فاعلم أن أجلك قد

دنى، ولذلك قالت عائشة: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول قبل موته: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، يتأول القرآن، وسيأتي.

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، وفيه فضل التسبيح والتحميد.

(وَاسْتَغْفِرْهُ) أي بقولك: أستغفر الله، واستحضار التوبة.

(إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) وهذا دليل على أن الله يتوب على من تاب إليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ [سورة التوبة: ١١٨]، صيغة مبالغة من التوب والرجوع والمغفرة.

١١٤ – الثالث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا صلّى رَسُول الله ﷺ صلاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلتْ عَلَيهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [سورة النصر: ١] إلاَّ يقول فِيهَا: «سُبحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية في الصحيحين عنها: كَانَ رَسُول الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يقُولَ في ركُوعِهِ وسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي»، يَتَأَوَّلُ القُرآنَ.

معنى: (يَتَأَوَّلُ القُرآنَ) أي يعمل مَا أُمِرَ بِهِ في القرآن في قوله تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [سورة النصر: ٣].

وفي رواية لمسلم: كَانَ رَسُول الله ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبلَ أَنْ يَمُوتَ: «سُبحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». قَالَتْ عائشة: قُلْتُ: يَا رَسُول الله، مَا هذِهِ الكَلِمَاتُ الَّتِي أرَاكَ أحْدَثْتَها تَقُولُهَا؟ قَالَ: «جُعِلَتْ لي عَلامَةٌ في أُمَّتِي إِذَا رَأيْتُها قُلْتُها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ **[سورة النصر: ١] ... إِلَى آخِرِ السورة».**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧) و (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

وفي رواية لَهُ: كَانَ رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ مِنْ قَولِ: «سبْحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ أَسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إِلَيْهِ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ، أَراكَ تُكثِرُ مِنْ قَولِ سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتُوبُ إِلَيْه؟ فَقَالَ: «أخبَرَني رَبِّي أنِّي سَأرَى عَلامَةً في أُمَّتي فإذا رَأيْتُها أكْثَرْتُ مِنْ قَولِ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [سورة النصر: ١] فتح مكّة، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [سورة إبراهيم: ١٩-٣]».

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث بطرقه؛ ليبين أن الله عَزَّوَجَلَّ قد رغب نبيه وحثه على الإكثار من الخير قبل موته، مع أنه كان مسارعا إلى الخير في جميع شأنه، فإذا كان هذا في حق نبينا ﷺ إذ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بنا ونحن نتجرأ على الله في الصباح والمساء وفي السر والجهر وبالقلب والجوارح واللسان؟ ولم يسلم إلا من سلمه الله.

إن نظرنا إلى ألسنتنا وجدنا الألفاظ التي لا تجوز، وإن نظرنا إلى أعمالنا وجدنا الأعمال التي لا تجوز، وإن تفكرنا ما في قلوبنا لوجدنا فيها من مسببات الذنوب ما الله به عليم، من الحسد، والغل، والحقد، وسوء الظن، وغير ذلك، ولذلك ينبغي للإنسان أن يستغفر ربه من ذنوبه الظاهرة والباطنة، نسأل الله السلامة والعافية.

(مَا صلّى رَسُول الله ﷺ صلاةً بَعْدَ أَنْ نَزلَتْ عَلَيهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [سورة النصر: ١] إلاَّ يقول فِيهَا: سُبحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي) فيه

ملازمة العمل الصالح، وملازمة الدعاء لفضله وأهميته، وفضيلة سؤال المغفرة؛ لأن المغفرة هي الستر والتجاوز والتوفيق للخير العظيم.

وفيه فضيلة التسبيح، وقد جاء في حديث عبدالله بن عمرو عند أحمد: «**وسبحان الله وبحمده مفتاح كل شيء، وبها يرزق الخلق**»، وجاء في حديث أبي ذر: «**أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**».

(كَانَ رَسُول الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يقُولَ فِي ركُوعِهِ وسُجُودِهِ) فيه دليل على جواز الدعاء في الركوع، وإنما يكثر الإنسان من الدعاء في السجود؛ لأنه أحرى في الإجابة؛ لقول النبي ﷺ: «**فأكثروا فيه من الدعاء؛ فقمن أن يستجاب له**».

(سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) وهذا دعاء.

(يَتَأَوَّلُ القُرآنَ) أي: يعمل به، والتأويل تأتي على عدة معان:

الأول: العمل، كما في هذا الحديث.

والثاني: الحقيقة والمآل، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: ٥٣].

الثالث: التفسير، وهو ما يطلقه العرب تأويل هذه الآية كذا وكذا، ويستدل له بقوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [سورة آل عمران: ٧]، إذا لم نقف على لفظ الجلالة وأما إذا كان الوقف على لفظ الجلالة فالمراد بالتأويل الحقيقة لا يعلمها إلا الله، وأما المعاني فيعلمها من علمه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [سورة يوسف: ٧٦].

(معنى: (يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ) أي يعمل مَا أُمِرَ بِهِ فِي القرآن في قوله تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾) فجمع بين التسبيح والاستغفار، «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**»، هذا التسبيح، «**اللهم اغفر لي**»، وفيه أن من أعظم أسباب استجابة الدعاء التوسل إلى

الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، والتوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالأعمال الصالحة، فهو هنا يتوسل إلى الله بتنزيهه عن النقائص والعيوب، ثم يستغفر، فيكون هذا أحرى لاستجابة الدعاء.

وفيه: علم من أعلام نبوة النبي ﷺ.

وفيه: سؤال الفاضل عن سبب عمله لبعض ما لا يُعلم.

وفيه: أن الشيء إذا تم نقص، لكل شيء إذا ما تم نقصانُ، فانظر في الوقت الذي أتم الله الدين لمحمد ﷺ بدأت أيامه بالقهقرى، حتى ذكر أهل العلم: أن بين قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [سورة المائدة: ٣] قريب من واحد وثمانين يوم، حتى قال بعضهم: لم ينزل الله عَزَّوَجَلَّ بعدها شيئا من الأحكام.

وفيه: الإكثار من ذكر الله، كان يكثر من سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفر الله وأتوب إليه، وهذا اللفظ ليس مختصا بالصلاة، هناك كثير من الأذكار والأدعية جاءت مقيدة في الصلاة وفي أذكار الصباح والمساء، لكن الصحيح إذا دعا بها الإنسان في غير هذه الأوقات كانت أدعية نافعة، كقول النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي**»، هذا يجوز أن تدعو به في قيام الليل، وتدعو به في سفرك، وتدعو به في حضرك، وكذلك: «**اللهم إني أسألك خير هذا اليوم، وأستعيذ بك من شر هذا اليوم**»، وهكذا سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، وقول: لا إله إلا الله الصباح والمساء، وفي أي وقت.

وفيه: دليل لمذهب بعض أهل العلم أنه من شروط التوبة التلفظ بها، لأن بعضهم قال: لا يلزم، يكفي الإقلاع عن الذنب، لكن بعضهم يقول: يشترط التلفظ بها؛ لحديث النبي ﷺ: «**يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني واستغفرتني غفرت لك ولا أبالي**»، وهنا: **(سبْحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ أَسْتَغفِرُ اللهَ)**.

والاستغفار هو دعوة الرسل، لو تأملتم كثير من القصص الذي ذكره الله في سورة هود تجدون هذا، مبدؤهم بمحمد ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [سورة هود: ٣]، وهكذا يقول في غيره، كلهم يدعون إلى الاستغفار، فإن من لوازم الاستغفار ترك الشرك والتزام التوحيد، وترك الذنوب والتزام الطاعة، وترك البدع والتزام السنن.

(أخبَرَني رَبِّي) أي: أعلمني، إما أن الله أوحى إليه مع جبريل، أو أن الله أطلعه كما يريد.

(أنِّي سَأرَى عَلامَةً في أُمَّتي) يعني: آية تكون دليلا على دنو أجلي.

(﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [سورة النصر: ١] **فتح مكّة**) وأيضا إيمان أهل اليمن من الفتح، إسلام أهل اليمن من الفتح، إذا رأيت الله أقبل بقلوب العباد عليك فاعلم أن ذلك من الفتح إذا رأيت أن الناس أقبلوا على طاعة الله فاعلم أن ذلك من الفتح، وفي الحديث لما جاء أهل اليمن قال رسول الله ﷺ: «**جاء نصر الله والفتح، جاء أهل اليمن، هم أرق قلوبا وألين أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان**».

فكان إيمانهم فتحا، وأيما فتح؟ أسألك بالله لما يكون الإسلام محصورا في مدينة في قرية في بعض قبائل وفجأة أمة من الأمم تدخل في الإسلام، حتى سمي ذلك العام بعام الوفود؛ لكثرة من وفد على رسول الله ﷺ من اليمن وغيره، فتح عظيم.

والانتصار على الكافرين فتح، وكف الشر فتح، ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [سورة الفتح: ١]؛ لأن الله كف شرهم ودفعه، قال عمر: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فتح، فليس الفتح فقط في أن تدخل قرية، الفتح قد يكون بكف الشر عنك، الفتح قد يكون باستجابة دعوة منك، الفتح قد يكون بإقبال قلوب العباد عليك، الفتح قد يكون

بنصرك على المعرضين، الفتح قد يكون بيوم القيامة، يوم الفتح، كما في أواخر سورة السجدة.

(﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾) بعد أن كانوا يدخلون فرادى أصبحوا يدخلون أفواجا، شيء عظيم، وهذا والله حصل في دعوتنا في اليمن، شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين خرج من السعودية خرج الدولة تتنكر له، والحزبيات تتنكر له، والبدع تتنكر له، وهو بينهم كالغريب، ربما إذا رأوه في الطريق ما يركبوه في السيارة، وإذا بفتح الله يأتي، يقبل الله عليه بقلوب العباد، حتى مشايخ القبائل الذين عندهم تقصير في الدين يقبل الله بقلوبهم.

لما وقعت المضاربة في مسجد الهادي رجع الشيخ مقبل ومر على قائد شويط رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال له: يا شيخ مقبل والله لو تأتي براس فَلِيتة في يدك ما واحد يستطيع يفعل بك شيئا وأنت في بيتي، فجعل الله فتحا على يد مشايخ القبائل، ففتح الله إذا جاء لا يسده ساد.

١١٥ - الرابع: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ تَابَعَ الوَحيَ عَلَى رسولِ الله ﷺ قَبلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تُوُفِّيَ أكْثَرَ مَا كَانَ الوَحْيَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشرح:

وهذا الحديث استدل به المصنف على كثرة الأعمال الصالحة وملازمتها قبل الموت، فانظر إلى ربنا عَزَّوَجَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تابع الوحي قبل موت النبي ﷺ؛ لحاجة الناس إلى الوحي، ولأن النبي ﷺ إذا مات انقطع الوحي من السماء، ولذلك لما دخل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقبل ذلك أبو بكر على أم أيمن بركة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أم أسامة بن زيد

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم (٣٠١٦).

بكت، فقالا: ما يبكيك؟ ما عند الله لرسوله ﷺ خير مما عندنا، فقالت: إني لا أبكي على ذلك، ولكن أبكي أن انقطع الوحي من السماء، فهيجتهما على البكاء.

فالدليل أن الله عَزَّوَجَلَّ تابع الوحي، تابع الآيات والأحكام، وتابع كل ما فيه مصالح العباد، حتى توفي النبي ﷺ وقُبض النبي ﷺ وقد تم الدين وكمل، لا يحتاج الناس إلى غيره.

١١٦ – الخامس: عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيهِ». رواه مسلم[١].

الشرح:

وهذا الحديث والله من المهمات التي ينبغي أن لا يغفل عنها العبد، فإن الإنسان يبعث على ما مات عليه، سواء كان ذكرا أو أنثى، سواء كان برا أو فاجرا، سواء كان مؤمنا أو كافرا، فكلٌّ سيلقى عمله، وكل يقبل على الله عَزَّوَجَلَّ بعمله، والنبي ﷺ يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»، ويقول: «**أنا عند ظن عبدي بي**».

فعليك عبد الله أن تتخير من الأعمال ما تلقى الله عَزَّوَجَلَّ به وهو راض عنك.

وفي هذا الحديث دليل على أن العمل بالخواتيم كما تقدم، والله المستعان.

الآن عندهم موت الشموخ أن يموت يغني، طلال مدَّاح ذهب يغني في سمرة وبينما هو فوق المنصة يضرب العود مات، وكانت الحلقة بث مباشر، فقام بعض الصحفيين وكتب: ومات طلال مدَّاح موت الشموخ، أيش من شموخ؟ حين يموت وهو يغني، المسلم يحرص أن يموت وهو يصلي، يموت، ساجدا، يموت صائما، يموت قارئا للقرآن، وهذا يموت يغني.

---

(١) حديث رقم: (٢٨٧٨).

والآخر مدرب في الزمالك مات بسبب ضربة جزاء، أعطوا على الفريق حقه ضربة جزاء دخلت الضربة هدف في المرمى، والرجال مات، يا أخي أيش هي الكرة هذه حتى تموت من أجلها؟ أو الأغاني حتى تموت من أجلها؟ سبحان الله قد أنكر السلف من صعق بالقرآن، يقولون: لم يكن هذا على عهد السلف أن يقرأ شيئا من القرآن ثم يغمى عليه، فكيف بهؤلاء الذي يصعق من أجل كرة قدم؟ ومن أجل أغنية، ومن أجل هذا الضياع، يا الله رُحماك، يا الله رحماك.

وآخر العجائب رأيناها أو سمعنا عنها: أن رجل في الرابعة والسبعين من عمره في القاهرة، سعودي في القاهرة، وجدوه هو وامرأة داخل الحمام أمواتا وهم عراة، جاء المحققون وجدوا أنهم ماتوا بالغاز حق هذا البلاء الغاز حق السخان، ووجدوا في غرفتهم من الشر ما الله به عليم.

على الإنسان أن يتقي الله ويراقب الله، كلنا مذنب، كلنا مقصر، كلنا مفرط، ما ندعي لأنفسنا العصمة، لكن أقل شيء الإنسان يستغفر، يكثر من الدعاء أن يستره الله في الدنيا والآخرة، وأن يختم الله له بالخير في الدنيا والآخرة، وأن يثبته الله في الدنيا والآخرة.

انظر إلى نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠١]، وهو نبي كريم يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتوفاه مسلما، وأن يحلقه بالصالحين، وأن يثبته حتى الممات، نسأل الله لنا ولكم العون والسداد، والله المستعان.

١٣ - باب في بيان كثرة طرق الخير

كل طاعه من طرق الخير الموصلة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكل معصية تُترك لله عَزَّوَجَلَّ من طرق الخير الموصلة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فباب الخير واسع، منه ما يكون بأفعال القلوب، ومنه ما يكون بأفعال الألسن، ومنه ما يكون بأفعال الجوارح.

ولذلك جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»، وسيأتي، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [سورة آل عمران: ١١٥]، ويقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: ٧]، وستأتي.

فالشاهد أن سبل الخير كثيرة، يدخل فيه امتثال الواجبات، وترك المحرمات والمسارعة إلى المندوبات، والورع عن المكروهات، واحتساب المباحات، ويدخل فيها الذكر، ويدخل فيها الدعاء، والنصيحة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ويدخل فيها كل فعل تقوم به الجوارح في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وامتثال الطاعة.

ولذلك قال بعضهم في بيان حديث «**الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة**» قسمها بين الجوارح، للقلب كذا وكذا، وللسان كذا وكذا، وللجوارح كذا وكذا، فطرق الخير كثيرة، تستطيع أن تطرق الخير وأنت على فراشك، وأن تطرقه وأنت في سيارتك، غض البصر من طرق الخير، كف الأذى من طرق الخير، سماع الخير من طرق الخير، طلب العلم من أوسع سبل الخير.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]، في جميع شأنه، هذا من طرق الخير، «**ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»، كيف ما كان، سواء كان الأمر على الوجوب أو الاستحباب.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٥].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: ٧].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، **والآيات في الباب كثيرة.**

الشرح:

(﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾) أي خير يفعله الإنسان فإن الله به عليم، ومعنى ذلك: أنه يجازيه عليه، يجازي بالحسنات إحسانا، ويجازي بالسيئات عفوا وغفرانا، فأنت إذا عملت شيئا للناس تحتاج أن تخبر الإنسان: عملت كذا وكذا؛ من أجل أن يشكرك على فعلك، أما الله عَزَّوَجَلَّ له المثل الأعلى، ما من خير تفعل فإن الله به عليم، ويجازي عليه بالحسنات المضاعفة، ورفع الدرجات، ونحو ذلك.

(﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾) على المعنى الأول، فلا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

(﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾) فإذا كان لا يعزب عنه مثاقيل الذر فمن باب أولى ما هو أعظم وأكبر.

(﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾)، وكل هذه من ألفاظ العموم.

(والآيات في الباب كثيرة) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل: ٩٧]، ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١-٣]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [سورة النور: ٥٢]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٢]، وسيأتي.

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا، وهي غيرُ منحصرةٍ فنذكُرُ طرفًا مِنْهَا:

١١٧ - الأول: عن أبي ذر جُنْدبِ بنِ جُنَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ الله، أيُّ الأعمالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ باللهِ وَالجِهادُ فِي سَبيلِهِ»، قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أنْفَسُهَا عِنْدَ أَهلِهَا وَأَكْثَرهَا ثَمَنًا»، قُلْتُ: فإنْ لَمْ أفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ»، قُلْتُ: يَا رَسُول الله، أرأيْتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ العَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ؛ فإنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْك عَلَى نَفْسِكَ». مُتَّفَقٌ عليه[١].

(الصَّانِعُ) بالصاد المهملة هَذَا هُوَ المشهور، وروي (ضائعًا) بالمعجمة: أي ذا ضِياع مِنْ فقرٍ أَوْ عيالٍ ونحوَ ذلِكَ، (وَالأَخْرَقُ): الَّذِي لا يُتقِنُ مَا يُحَاوِل فِعله.

الشرح:

كتب الترغيب والترهيب هي في هذا الباب، لبيان كثرة طرق الخير والترغيب في ملازمتها، وبيان سبل الشر والترهيب من سلوكها.

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان طرق الخير العظيمة الكثيرة، إلا أن بعضها أفضل من بعض، فالرسول ﷺ يُسأل: (أيُّ الأعمالِ أَفْضَلُ؟) وفيه حرص أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ملازمة العمل الصالح، ولذلك سأل عن أفضلها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

(قَالَ: الإِيمَانُ باللهِ وَالجِهادُ فِي سَبيلِهِ) لأن الإيمان بالله لا يصلح أي عمل إلا به، فهو أساس صلاح الظاهر والباطن، والجهاد في سبيله لأن الجهاد في سبيل الله من أوسع الطرق لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، ونشر هذا الدين.

والجهاد أنواع يأتي بيانها في باب الجهاد إن شاء الله.

قوله: (فِي سَبيلِهِ) دليل على أهمية الإخلاص، لم يقل: والجهاد، كثير من الناس يجاهدون، لكن من الذي يجاهد في سبيل الله، (وَالجِهادُ فِي سَبيلِهِ).

(قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟) ذكر العمل اللازم، ثم ذكر العمل المتعدي إلى الغير، (أيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟) أي: عند العتق.

(قَالَ: أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهلِهَا وَأَكثَرهَا ثَمَنًا) ولذلك كان عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يعتق من العبيد والإماء أحبهم إليهم، فكلما كان العبد محبوبا إلى سيده وأعتقه أو كان ثمنه مرتفعا واشتراه وأعتقه كان أجره أكثر، وانظر إلى عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أعتقت بريرة بتسع أواق من ذهب، اشترتها بتسع أواق من ذهب.

(تُعِينُ صَانِعًا) تعين صانعا إن كنت تحسن الصنعة، أو بتقريب الأدوات إليه، وعلى المعنى الآخر: (تعين ضائعا) أي: تدله على الطريق، ومن أشد الضياع الضياع عن العلم والدين والاستقامة، فإذا أعنت الغير بدلالته على الخير كان هذا من أعظم الأعمال.

(أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ): رجل لا يحسن الصناعة، ولا يتقن ما يحاول أن يفعله، فإذا أعنته جزاك الله خيرا، وفيه التعاون على الخير، وسيأتي قول النبي ﷺ: وإعانتك لأخيك على دابته صدقة.

(أرأيْتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ العَمَلِ؟) يعني: لحقني الضعف، سواء في باب الجهاد، أو في باب الفرائض، إلا أن الإنسان يأتي بالواجب منها، أو في باب

المستحبات، بقي هناك عمل ترك، من رحمة الله على عباده أن وسع لهم، عمل فعل وعمل ترك.

(قَالَ: تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ) لا تؤذيهم بالسب، ولا بالشتم، ولا باللعن، ولا بسوء الظن، ولا بشيء مما يُؤذى به الإنسان، تكف شرك عن الناس.

(فإنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ) وأجر عظيم لمن كف شره عن الناس، وكما قال النبي ﷺ: «أرأيت إذا وضعها في حرام يكون عليه وزر؟» قال: نعم، قال: «كذلك إذا وضعها في حلال»، وكذلك كف الشر عن الناس كم فيه من الأجور؟ لا تؤذي جارا، ولا تعق والدا، ولا تقطع رحما، ولا تسب عبدا ولا أمة، ولا صغيرا ولا كبيرا، تكون محبوبا إلى الناس، أحسن إلى الناس تستجلب مودتهم.

١١٨ - الثاني: عن أبي ذر أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «يُصْبحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ: فَكُلُّ تَسبيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَة، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكبيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقةٌ، وَيُجْزِىءُ مِنْ ذلِكَ رَكْعَتَانِ يَركَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى». رواه مسلم[(١)].

«السُّلامَى» بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم: المفصل.

الشرح:

وسيأتي أن الإنسان خلق على ثلاثمائة وستين مفصل.

قوله: (يُصْبحُ) من الصباح.

(عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) من الرجال أو النساء.

---

(١) حديث رقم: (٧٢٠).

(فَكُلُّ تَسبيحَةٍ صَدَقَةٌ) يعني الإنسان يعجز أن يدفع كل يوم خمسة ريال ربما عشرة ريال، يتصدق بشيء من الطعام والشراب، لكن جعل الله عَزَّوَجَلَّ صدقة سهلة، ربما تستطيع أن تؤديها وأنت في أذكار الصباح، تستطيع أن تؤديها وأنت في طريقك إلى البيت أو العمل، تستطيع أن تؤديها وأنت على فراشك، وسيأتي أن هناك شيء يجزئ عن هذه الصدقات، **(فَكُلُّ تَسبيحَةٍ صَدَقَةٌ)** سبحان الله! في أقل من ثانية، الحمد لله، الله أكبر، لا إله إلا الله، ونحو ذلك.

(وَكُلُّ تَحمِيدَةٍ صَدَقَة) تسبيحة قول: سبحان الله، والتحميدة قول: الحمد لله.

(وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ) قول: لا إله إلا الله، ومن عجيب هذه الصدقه أن الإنسان يستطيع أن ينطقها ولا يشعر به أحد، ليس فيها حروف شفويه، لا إله إلا الله، يستطيع أن يقولها سرا، وهذا قيل من إخلاصها، وكذلك كلمة إن شاء الله، يستطيع أن ينطقها الإنسان بدون أن يُعلم أنه نطقها.

(وَكُلُّ تكبيرَةٍ صَدَقَةٌ) الله أكبر.

(وَأَمْرٌ بِالمَعرُوفِ صَدَقَةٌ) وربما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم في الصدقات مما تقدم؛ لأن الأعمال الأولى عملها لازم، نفعها لازم للعبد، بينما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نفعها متعدي، ولا سيما إذا كان الأمر بالمعروف هو الدعوة إلى التوحيد الخالص، والدين القويم، والصراط المستقيم، والسنة الصحيحة، والعلم النافع.

(ونَهيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقةٌ) النهي عن المنكر، والمنكر كل ما خالف الكتاب والسنة، قال النبي ﷺ: «**كل معروف صدقة**».

(وَيُجزِىءُ مِنْ ذلِكَ رَكْعَتَانِ يَركَعُهُما مِنَ الضُّحَى) إذا كان الإنسان يشغل عن الذكر، وعن إعانة الغير، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا أقل من أن يصلي ركعتين، ما بين صبحه إلى ظهره، بعد خروج وقت الزوال.

١١٩ - الثالث: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِىءِ أعمالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ». رواه مسلم[1].

الشرح:

الحديث دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ عرض على محمد ﷺ أعلى الأعمال وأدناها، إلا أن النبي صل الله عليه وسلم ذكر الأدنى؛ لبيان قيمة العمل الصالح ومنزلة العمل الصالح، فإذا كان من محاسن الأعمال الأذى يماط عن الطريق كحجرة أو شوكة أو حتى شيء مما يؤدي إلى أذية الإنسان فما بالك بالتوحيد وما دونه؟

والنخاعة أيضا تكون في المسجد لا تدفن، هذا من مساوئ الأعمال، فكيف إذا كان يفعل في المسجد أعظم من هذا البلاء؟ مثل الشرك، والتنديد، والبدعة، والكبائر والعظائم، إذا كانت النخاع من أعمال الإنسان المكتوبة عليه إذا لم يزلها من المسجد فكيف إذا ارتكب أجل منها؟

قوله: (عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي) لعلها رؤيا منام، أو لعلها في ليلة المعراج.

(أُمَّتِي) المراد بها أمة الإجابة، لا أمة الدعوة.

(حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا) حسنها: الموافق للكتاب والسنة، وسيئها: المخالف للكتاب والسنة.

(١) حديث رقم: (٥٥٣).

(فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ) يعني: وجدت أعمالا كثيرة من المحاسن، ومنها: الأذى يماط عن طريق المسلمين، عن طريق المسلمين بهذا القيد، وسيأتي أن رجلا دخل الجنة في شوكة أماطها من الطريق.

(وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِىءِ أعمَالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ) فيه فضيلة المساجد، وأهمية العمارة لها، وتطهيرها، وإزالة القذر منها، حتى قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تصان المساجد مما يصان منه العين، فتبخر، وتجمر، وتكنس.

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":

هذا إذا كانت الأرض ترابية، أما إذا كانت مفروشة فلا يجوز التعرض لها بأذى.

وساق المصنف الحديث؛ لما بوب عليه المبوب من أن المصلي لا يبصق قبل وجهه، ولا يبصق بين يديه ولا يبصق عن يمينه، وإنما يبصق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى، فإن بادرته بادرة بصق في ثوبه ثم مسحها ورد بعضه على بعض.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن البصاق إلى جهة القبلة ممنوع، سواء كان في الصلاة أو خارج الصلاة، والبصاق إلى جهة اليمين ممنوع عندهم سواء كان في الصلاة أو في خارج الصلاة.

والذي يظهر أن المنع متعلق بالصلاة، ومع ذلك بما أنهم قد كرهوا هذا الأمر لو تنخع ودفنها أو تنخع عن يساره أولى من أن يتنخع قبل وجهه أو عن يمينه.

وهذه من الأعمال اليسيرة في الصلاة التي لا تبطلها، كالسعلة والامتخاط والتنخع وإزالة بعض ما لصق في الوجه، كل هذه أعمال لا تبطل الصلاة. اهـ

١٤٠ - الرابع: عَنْهُ: أنَّ ناسًا قالوا: يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ أهلُ الدُّثُور بالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوَلَيسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ، إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكبيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأمْرٌ بالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يَا رسولَ اللهِ، أيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا في حَرامٍ أَكَانَ عَلَيهِ وِزرٌ؟ فكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا في الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ». رواه مسلم[1].

«الدُّثُورُ» بالثاء المثلثة: الأموال وَاحِدُهَا: دثْر.

الشرح:

قوله: (عَنْهُ) أي: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (أنَّ ناسًا) قد جاء مصرحا به في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن ناسا من فقراء المهاجرين.

(قالوا: يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ أهلُ الدُّثُور) أي: أهل الأموال.

(بالأُجُورِ) أي: بالحسنات الكثيرة، وذلك أنهم يجمعون بين العبادات الجسمية ويزيدون إلى ذلك العبادات المالية.

(يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي) وهذا مما يشترك فيه الفقراء والأغنياء.

(وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ) وسواء كان الفرض أو النفل مما يشترك فيه الفقراء والأغنياء.

(١) حديث رقم: (١٠٠٦).

(وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ) أي: بالزائد من أموالهم، وفي حديث أبي هريرة: ويتصدقون ولا نتصدق، فهذا دليل على أن أصحاب الأموال إذا كانوا من الشاكرين لله المبادرين إلى مرضاة الله الممتثلين لكتاب الله أنهم أعظم أجرا من الفقراء؛ لأن الفقير عمله محدود، عمل بدني، أما الغني عمله متعدي، يحج، ويعتمر، ويجهز الحاج والمعتمر، أو يعين الفقير والمسكين، وربما صارت أعماله ماضية عليه، كبناء المساجد، وإجراء القناطر، وإصلاح الطرقات، وتزويج الشباب، وطباعة الكتب، ونحو ذلك من الأجور.

(قَالَ: أَوَلَيسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟) هذا سؤال ليس بالاستفهام وإنما للتنبيه، وفيه فضل الله الواسع، أنه جعل لكلٍّ ما يستطيع من العبادات.

(إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً) والصدقة بعشر أمثالها.

(وفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ) والبضع: هو معاشرة الرجل لزوجته، فكما أن معاشرة الرجل لزوجته فيها صدقة كذلك إفساد المرء لنفسه في غير هذا الباب فيه خطيئة، وصدقته من جهات:

الأول: من جهة محافظته على نفسه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [سورة المؤمنون: ٥-٧].

الثاني: أنه يسعى في إعفاف امرأته.

الثالث: أنه يسعى في حصول الولد، وكل ذلك من الصدقات.

(قالوا: يَا رسولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟) الشهوة إذا استخدمت في طاعة الله على وفق كتاب الله فيها أجر، وإذا صرفت على غير هذا الوجه فيها وزر.

(أَرَأَيتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرامٍ أَكَانَ عَلَيهِ وِزرٌ؟) الجواب: نعم، فاكتفى بمعرفته عن سماع قولهم، (فكذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ).

استدل بهذا الحديث من يرى القياس؛ لأن النبي ﷺ قاس.

وهذا دليل على سعة فضل الله على عباده، وهكذا ليس هذا في بضع أحدكم فقط، إنما مثل به، وإلا في تعاطي الحلال بجميع أنواعه، في اجتناب الحرام بجميع أنواعه، في سلوك سبل الخير، والابتعاد عن سلوك سبل الشر.

١٢١ – الخامس: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئًا وَلَوْ أَنْ تَلقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ». رواه مسلم[١].

الشرح:

(عنه) أي عن أبي ذر.

(قَالَ لِي النَّبيّ ﷺ) أي أوصاه بهذه الوصية، ولا بأس أن يخص إنسان بوصية ويعم مع غيره.

(لَا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئًا) أي: لا تستقل شيئا من المعروف وتقول: هذا شيء يسير، وهذا ما من ورائه فائدة، لا، المعروف من ورائه خير، ولو كان يسيرا.

(وَلَوْ أَنْ تَلقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ) وأنت منبسط إليه وجهك، كما قال النبي ﷺ: «فإن ذلك من المعروف»، أن تلقى أخاك بانبساط الوجه، فكيف إذا زدت على ذلك انشراح الصدر، وحسن الكلام، وحسن العطاء والأداء، كم لك من الأجور؟ ولذلك عُرف حسن الخلق بأنه: بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

(١) حديث رقم: (٢٦٢٦).

وفي هذا دليل على أن المعروف منه ما هو أعظم من هذا، فينبغي للإنسان أن ينتبه لنفسه في ملازمة الطاعات، والبعد عن المعاصي والسيئات، وفي هذا عظيم حق المسلم على المسلم، من إدخال السرور عليه، والإحسان إليه، ولو بالابتسامة، والله ربما ينشرح صدره إذا رآك مبتسما له، ويضيق صدره، إذا رآك مشمئزا منه، فأدخل السرور على أخيك، يرجع إلى بيته مسرورا فرحا، لا سيما إن كنت ذا شأن، ربما يكون ابتسامتك دعوة، كان أن عبوسك دعوة إذا كان لإعلاء كلمة الله، والغضب لوجه الله، إلى غير ذلك، فالإنسان عليه أن يكون داعيا بلسان الحال وبلسان المقال.

وانظر إلى كلمة: (وَلَوْ أَنْ تلقَى أَخَاكَ) الأخ هو المسلم، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٠] «المؤمن للمؤمن كالبنيان»، أو كالبنان، وشبك بين أصابعه.

وإذا كان هذا الأمر لا يحتقر فكيف إذا كان الأمر أعلى من هذا؟

١٢٢ - السادس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يوم تَطلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وبكلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

ورواه مسلم[(٢)] أيضًا من رواية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنْسانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وثلاثِمائَة مَفْصَل، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وحَمِدَ الله، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ الله، وَاسْتَغْفَرَ الله، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظمًا عَن

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٢) حديث رقم: (١٠٠٧).

طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوف، أَوْ نَهَى عَنْ مُنكَر، عَدَدَ السِّتِّينَ والثَّلاثِمِائَة فَإنَّهُ يُمْسِي يَومَئِذٍ وقَدْ زَحْزَحَ نَفسَهُ عَنِ النَّارِ».

الشرح:

قوله: (كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ) (كل) من ألفاظ العموم، وقد تقدم حديث أبي ذر: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة»، وهل هذا على الوجوب أم الاستحباب؟ الذي يظهر أنه على الاستحباب وليس على الوجوب؟ والله أعلم.

(كُلَّ يَومٍ تَطلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ) أي ليس يوم واحد في السنة، ولا يوم واحد في الشهر، ولا يوم واحد في الأسبوع، كل يوم، عليك أن تتصدق على بدنك؛ لسلامته من النار، ولسلامته من غضب الجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(تَعْدِلُ بَينَ الاثْنَينِ صَدَقَةٌ) تصلح بين الناس؛ لإزالة ما في قلوبهم على بعضهم من الشحناء والبغضاء، والتقاطع والتدابر، وتضيق مداخل الشيطان بملازمة العدل، والعدل قد يكون بالصلح، وقد يكون بإعطاء كل ذي حق حقه، ولكل مقام مقال.

(تَعْدِلُ بَينَ الاثْنَينِ صَدَقَةٌ) سواء كانوا متخاصمين، أو كانوا على غير ذلك.

(وتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ) تحمل متاعه، سيارة غرزت، كيس دقيق يريد يرفعه، أو كيس يريد ينزله، تعين الرجل في دابته.

(فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا) إذا عجز عن الطلوع ارفع معه، لا سيما إذا كان كبيرا في السن.

(أَوْ تَرفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ) وأيما صدقة عظيمة تدل على التعاون على البر والتقوى.

(وَالكَلِمَةُ الطَيِّبَةُ صَدَقَةٌ) إن عجزت عن هذا وهذا الكلمة الطيبة، أعانك الله، وفقك الله، يسر الله أمرك، ما شاء الله، نحو هذا الكلام الطيب الذي يدخل السرور على نفس المؤمن.

(وبكلِّ خَطْوَةٍ تَمشِيهَا إِلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ) أي إلى الصلاة في المسجد، سيأتي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وذلك أن الرجل إذا توضأ فأحسن الوضوء كانت خطواته إحداها ترفع درجة والأخرى تحط خطيئة**»، فإذا كانت الخطوات إلى المسجد صدقة؛ لأنها في طاعة الله فكيف بترك الخطى إلى الحرام؟ صدقة، كما أن الخطى إلى الحرام إثم ووزر.

(وتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) أي أذى، المسامير أذى، مياه البيارات أذى، المطبات أذى، الشوك أذى، الحجارة أذى، الزجاج أذى، كثير الأذى، روث الإنسان، حتى روث الحيوان وإن لم يكن نجسا إلا أنه أذى، فإذا أزاله الإنسان عن طريق الناس يؤجر، صدقة.

(إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنْسانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وثلاثمِائَة مَفْصَل) فيه: علم من أعلام النبوة، إذ أخبر النبي ﷺ بعدد سلامى ومفاصل الإنسان، وهذا إنما يحتاج إلى علم، يحتاج إلى علم، وفيه قدرة الله العظيمة، إذ ركب هذا الجسم الصغير من هذا العدد الكبير من الأعضاء، وجعلها مترابطة، إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وجعلت على هيئة المفاصل؛ ليستمتع بها الإنسان، وإلا لو كانت أصبعك هذه ما عندها مفاصل كم تتعب؟ انظر لو كانت هكذا أو كانت الأصابع جميعا ما ستستطيع تأخذ الماء، ولا تمسك القلم، ولا تقلب الكتاب، ربما، ولذلك جعلها الله على هيئة مفاصل، بحيث أن الإنسان يستقيم فيكون مثل العمود، وينعطف فيكون مثل الشيء الذي يتلوى، مثل الإسفنجة أو نحو ذلك، هذا من نعمة الله.

وانظروا لو في شخص مشلول نسأل الله السلامة لنا ولكم ولجميع المسلمين كم يتعبون مسكين في رفعه إلى السيارة، يحتاج مقعدة كاملة حتى يُلقى فيها، ما يستطيع

يقوم، ما يستطيع يجلس، ما يستطيع يمشي؛ لأنه صار كالعمود، بينما هذا الجسم الذي يتحرك هذه نعمة من الله، رابطها الله بالأعصاب، وإلا سبحان الله إذا ذهبت هذه الأعصاب التي ترابط الإنسان هو عبارة عن عظم، كل عظم يذهب لحدته، لكن رابطه الله بالأعصاب، فيصير تحرك اليد، وتحمل، وتقبض، وتكسر، ويجري، ويقوم، هذا شيء عظيم يدل على قدرة الله العظيمة، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٢١]؟

والصدقات على هذه الأعضاء شكر لله عليها، قال أحد السلف قالوا له: مالك يا فلان كبر سنك وما زال نظرك قويا وكذا وكذا؟ قال: أعضاء حفظناها في الشباب فحفظها الله في الكبر، من شكر الله أن تحفظ البصر، فيحفظه الله لك، تحفظ اليد، يحفظها الله لك، تحفظ الرجل يحفظها الله لك، تحفظ الفرج يحفظه الله لك، تحفظ القلب يحفظه الله لك.

أما إذا أفسدت جسمك فسد، كثير من المدخنين يفسدون الرئة، ولو تنظر إلى رئته تتعجب، في حالة يرثى لها، وغير المدخن حافظ على نفسه من هذا الشر وهذا البلاء.

(فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ): الله أكبر، **(وحَمِدَ الله)**: الحمد لله، ولا بأس أن يزيد عليها: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرًا.

(وَهَلَّلَ اللهَ): لا إله إلا الله، وإن زاد عليها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كل شيء بحقه كما يقال.

(وَسَبَّحَ الله): سبحان الله، لا سيما مع الاستحضار، أن تدري أن معنى كلمة الحمد لله هذه الكلمة التي تتكون من حروف: الألف، واللام، والحاء، والميم، والدال، خمسة حروف، ولفظ الجلالة ثلاثة حروف، ثمانية حروف، هذه الكلمة معناها بالتضمن: إثبات كل كمال لله عَزَّوَجَلَّ، وبالإلتزام: نفي كل نقص عن الله عَزَّوَجَلَّ، كلمة

الحمد لله؛ لأن الألف واللام عندهم للاستغراق، فأنت حين تقول: الحمد لله على سمعه وبصره وقدرته وغضبه ورضاه وسخطه ورزقه وعونه غير ذلك.

كما أن كلمة سبحان الله تتضمن نفي جميع النقائص عن الله عَزَّوَجَلَّ، سبحان الله أن يكون له شريك، أو مثيل، أو نظير، أو معين، أو صاحبة، أو ولد، أو يكون عاجزا أو فقيرا، إلى غير ذلك، سبحان الله تنزهه عن كل نقيصة، وتستلزم إثبات جميع المحامد لله؛ لأنه إذا ثبت الكمال نُفي النقص، وإذا نفي النقص ثبت الكمال.

ثم قال: (وَاسْتَغْفَرَ الله) يطلب من الله مغفرة الذنوب، وستر العيوب سيأتي بيانها.

(وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ) وهذا ليس على التخصيص، بل الحجر وما في بابه، لا سيما على الخطوط السريعة، لا تقل: هذا الحجر، ربما حجر يكسر سيارة بعده، وربما حجر تحركه كفر السيارة ربما يخزق بطن ولد، وربما يؤدي إلى تشويه، إلى غير ذلك، وربما أدى إلى انقلابات، فإزالة المطبات من الأمور المهمة.

(أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ) كل ما يؤذي.

(فَإِنَّهُ يُمْسِي يَومَئِذٍ وقَدْ زَحْزَحَ نَفسَهُ عَنِ النَّارِ) فيه أن الإنسان كلما فعل الطاعات زُحزح عن النار، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥]، وهذا معنى حديث: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب**»، يعني أنك تدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يزحزحك عن ذنوبك ومعاصيك، وعن النار.

١٢٣ - السابع: عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَدَا إِلَى المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

النُّزُلُ: القوت والرزق وما يُهيأُ للضيف.

الشرح:

(عنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن أُعد له رزقه فهو نائله بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

(مَنْ غَدَا) أي: أتى المسجد في الغدوة، وهو الصباح.

(أَوْ رَاحَ) في العشي، يعني أنه ملازم للمسجد في صلاة أول النهار وفي صلاة آخر النهار.

(أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ) ومن أُعد له شيء في الجنة فهو نائله بإذن الله، وفيه سعة كرم الله عَزَّ وَجَلَّ، وسعة فضله.

١٢٤ - الثامن: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(٢).

قَالَ الجوهري: الفرسِن مِنَ البَعيرِ كالحَافِرِ مِنَ الدَّابَةِ قَالَ: وَرُبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي الشَّاةِ.

الشرح:

(يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ) هذا حث لنساء المسلمات، لأن النساء ربما ما تنتبه لطرق الخير، وربما لا سيما عند طباختها وإصلاح شأنها تتقالل ما تعطي، أيش يفعل هذا؟ مثلا في شيء من المرق في أسفل الإناء، أو شيء من الملوخية، أو شيء من السلطة،

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).

أو ربما حبة طماط، أو حبة بطاط، ربما الذي ترسله إليه بحاجة إليها، أو ربما كان مريضا، أو امرأته مريضة، فيفرح بمثل هذا.

فالإنسان لا يحتقر المعروف، لو لم يكن إلا إدخال السرور، تقول: والله فلانة طيبة، مهتمة بي، وجزاها الله خيرا، ويقع الأنس بينها وبين جارتها.

(لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا) أي: مما تعطيه لها.

(وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ) قد تكون هي تراه قليلا وتلك تراه كثيرا، وهذا الأمر وإن كان للنساء فهو أيضا في حق الرجال، لا تحقرن من المعروف شيئا يا أخي، لا تحقرن شيئا من المعروف، عود السواك من المعروف، وإن كان الإنسان يراه مثلا قليلا، مسحة عطر من المعروف، وإن كان الإنسان يراه ربما قليلا، ثوب بالي أنت تراه باليا وغيرك يراه جديدا، ثوب لست بحاجته أنت تراه باليا؛ لتوسيع الله عليك، وغيرك يراه جديدا، فتعطيه، وهكذا، ما زال الناس يستفيد بعضهم من رزق بعض.

١٢٥ - التاسع: عَنْهُ، عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبعُونَ أَوْ بِضعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً: فَأفْضَلُهَا قَولُ: لَا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والحَيَاءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمانِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(البِضْعُ): من ثلاثة إِلَى تسعة بكسر الباء وقد تفتح، وَ(الشُّعْبَةُ): القطعة.

الشرح:

قوله: (الإيمانُ) أي: أعمال الإنسان التي يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، وهو بهذا اللفظ انفرد به مسلم، واتفقا عليه باللفظ الأول، مع أن الحافظ ابن حجر يرى أن (بضعا وسبعون) شاذة.

(بِضْعٌ وَسَبعُونَ أَوْ بِضعٌ وسِتُونَ شُعْبَةً) وهي ما تسمى بشعب الإيمان، وقد ألف في هذا الباب البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب (شعب الإيمان)، وهو كتاب واسع.

(بِضْعٌ وَسَبعُونَ) يعني ما بين الثلاثة إلى التسعة.

(أَوْ بِضعٌ وسِتُونَ شُعْبَةً) هذا تشكك من الراوي.

(فَأَفْضَلُهَا قَولُ: لَا إِلهَ إِلاَّ اللهُ) هذا دليل على أن الإيمان منه أعلى وأدنى، وأنه يزيد وينقص، وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح، فقول: لا إله إلا الله قول واعتقاد؛ لأنها إذا كانت مجردة عن الاعتقاد لا يستفيد صاحبها.

(وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ) عمل جارحة.

(والحَياءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمان) عمل قلب.

فهذا الحديث دل على مذهب أهل السنة والجماعة من أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":

((وهذا حديث عظيم القدر وعالي المنزلة، فهو دليل من دلائل أهل السنة والجماعة المتكاثرة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، ودليل من دلائل أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان، ودليل من دلائل أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص، إذ أن النبي ﷺ ذكر أعلى وأدنى.

وعليه بنى الحليمي كتابه في (شعب الإيمان)، وهكذا ابن حبان، وأحسن من صنف في ذلك البيهقي كتاب (شعب الإيمان)، وتوسع فيه جدًّا.

وقد اختلف العلماء في عدها، إذ جاءت الروايات على أنها سبع وستون وسبع وسبعون وبضع وسبعون وأربع وسبعون، ورجح الحافظ وغيره على أنها سبع وستون، ومع ذلك ترى أنها جاءت في الصحيحين على الجزم وعلى الشك.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قيل: فأهل الحديث والسنة عندهم أن كل طاعة فهي داخلة في الإيمان، سواء كانت من أعمال الجوارح أو القلوب أو من الأقوال، وسواء في ذلك الفرائض والنوافل، هذا قول الجمهور الأعظم منهم، وحينئذ فهذا لا ينحصر في بضع وسبعين، بل يزيد على ذلك زيادة كثيرة، بل هي غير منحصرة/ قيل: يمكن أن يجاب عن هذا بأجوبة:

أحدها: أن يقال: إن عد خصال الإيمان عند قول النبي ﷺ كان منحصرا في هذا العدد، ثم حدثت زيادة فيه بعد ذلك، حتى كملت خصال الإيمان في آخر حياة النبي ﷺ.

والثاني: أن تكون خصال الإيمان كلها تنحصر في بضع وسبعين نوعا، وإن كان أفراد كل نوع تتعدد كثيرًا، وربما كان بعضها لا ينحصر، وهذا أشبه، وإن كان الموقوف على ذلك يعسر أو يتعذر.

والثالث: أن ذكر السبعين على وجه التكثير للعدد لا على وجه الحصر، كما في قوله تعالى ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [سورة التوبة:٨٠]، والمراد تكثير التعداد من غير حصوله هذا في العدد، ويكون ذكره للبضع يشعر بذلك، كأنه يقول: هو يزيد على السبعين المقتضية لتكثير العدد وتضعيفه، وهذا ذكره أهل الحديث من المتقدمين، وفيه نظر.

والرابع: أن هذه البضع وسبعين هي أشرف خصال الإيمان وأعلاها، وهو الذي تدعو إليه الحاجة منها. اهـ.

والذي يظهر أن القول الثاني هو المترجح في هذه المسألة.

وقال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري": قال القاضي عياض: تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان. اهـ.

قال الحافظ: ولم يتفق من عد الشعب على نمط واحد، وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان، لكن لم نقف على بيانها من كلامه، وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره، وهو: أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن، فأعمال القلب فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه المسألة في القبر، والبعث والنشور، والحساب والميزان، والصراط، والجنة والنار، ومحبة الله، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

وأعمال اللسان، وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن وتعلم العلم وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه الاستغفار، واجتناب اللغو.

وأعمال البدن، وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختص بالأعيان وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسا وحكما، ويدخل فيه اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضـًا ونفلا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه

إطعام الطعام، وإكرام الضيف، والصيام فرضـًا ونفلا، والحج والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الإيمان، وأداء الكفارات.

ومنها ما يتعلق بالاتباع وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة أو الرفق بالعبيد.

ومنها ما يتعلق بالعامة وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود والجهاد، ومنه المرابطة وأداء الأمانة، ومنه أداء الخمس، والقرض مع وفائه وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق.

فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدها تسعـًا وسبعين خصلة باعتبار إفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر، والله أعلم. اهـ)). اهـ.

١٢٦ - **العاشر: عَنْهُ: أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ:** «**بَيْنَما رَجُلٌ يَمشي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشربَ، ثُمَّ خَرَجَ فإذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبُ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أمْسَكَهُ بفيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهَ لَهُ،**

فَغَفَرَ لَهُ» قالوا: يَا رَسُول اللهِ، إنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا؟ فقَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية للبخاري: «فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، فأدْخَلَهُ الجَنَّةَ».

وفي رواية لهما: «بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يقتلُهُ العَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إسْرَائِيل، فَنَزَعَتْ مُوقَها فاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ».

(المُوقُ): الخف، وَ (يُطِيفُ): يدور حول (رَكِيَّةٍ): وَهِي البئر.

الشرح:

هذا حديث عظيم، إذا كان الإحسان إلى كلب من أسباب رضا الله عن العبد وأسباب توبة الله عَزَّوَجَلَّ عن العبد وأسباب مغفرة الله للعبد فكيف ببذل الخير في الإنسان المحترم؟ لا سيما إذا كان من المسلمين، المسارعين إلى مرضات رب العالمين.

قوله: (بَينَما رَجُلٌ) هذا إخبار عن أخبار بني إسرائيل، أطلع الله نبيه على ذلك.

(يَمشي بِطَرِيقٍ) كأنه مسافر.

(اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ)؛ لعدم وجود الماء والآبار.

(فَوَجَدَ بِئرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشربَ) يعني ربما ما وجد دلوا أو غير ذلك؛ لأنها بئر على الطريق.

(فإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ) وهو حيوان بهيم.

(فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبُ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي) فيه أن الإنسان العاقل لا يؤذي حتى الحيوان، لا يقتل إلا ما أمر الشرع بقتله، ولا يكون

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٣)، و(٢٣٦٣) و(٢٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٤).

مفسدا، كما هو حال بعض الناس، ربما يمشي بسيارته ويصدم القطة لدون ما سبب، أو يصدم الكلب لغير ما سبب، إلا هكذا تعود على الحطمة.

وفيه أن الإنسان يذكر حاله في أيام الحاجة بالإحسان إلى غيره إذا كان قد رفع الله عنه تلك الحاجة.

(فَنَزَلَ البِئْرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً) وهذا لشدة احتسابه، لو لم يكن عنده احتساب ما نزل بئرا، يقول: أيش دخلني فيه؟ كلب، لكن نزل إلى البئر، ولم يكن هناك لا قنينة ماء، ولا كوب، ولا شيء، وإنما وضع له في خفه الذي يلبسه، وهذا من شدة الإحسان.

(فَشَكَرَ اللهَ لَهُ، فَغفَرَ لَهُ) ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٣]، ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [سورة إبراهيم: ٧].

(قالوا: يَا رَسُول اللهِ، إنَّ لَنا في البَهَائِمِ أَجْرًا) فيه سؤال الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عن الخير.

(فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ) صغر أم كبر، إلا ما كان من الحيوان الذي أمر الله بقتله فهذا يُستجاب لأمر الله.

(فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، فأدْخَلَهُ الجَنَّةَ)؛ لأن من شكر الله للعبد أن يغفر له، ويوفقه لكل خير، ومن شكر الله للعبد أن يدخله الجنة، والأعمال تتلازم، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧٢﴾ [سورة الزخرف: ٧٢].

وقال: (بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ) الركية: هي البركة الصغيرة، وأيضا البئر.

(إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إسْرَائِيل): زانية كثيرة الزنا، ليست زانية مرة مرتين، قد شُهرت بهذا الأمر، حتى صار ملازما له، وعرفت به.

(فَغُفِرَ لَهَا بِهِ) لعلها احتسبت، وكان في ذلك الاحتساب توفيق للتوبة؛ لأن الإنسان إذا فعل العمل الصالح قد يوفقه الله عَزَّوَجَلَّ للتوبة، والله المستعان.

١٤٧ – الحادي عشر: عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَقدْ رَأيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ في الجَنَّةِ في شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤذِي المُسْلِمِينَ». رواه مسلم[1].

وفي رواية: «مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لأُنْحِيَنَّ هَذَا عَنِ المُسْلِمينَ لا يُؤذِيهِمْ، فَأُدخِلَ الجَنَّةَ».

وفي رواية لهما: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوكٍ عَلَى الطريقِ فأخَّرَه فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ».

الشرح:

فيه إخبار من النبي ﷺ، ودليل من دلائل نبوته، إذ أطلعه الله عَزَّوَجَلَّ على بعض أهل الجنة.

(لَقدْ رَأيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ في الجَنَّةِ) ليس معنى التقلب ما يتصوره البعض من التقلب على الجانبين، لا، وإنما يتقلب في نعيم الجنة، ينتقل من نعيم إلى نعيم، ومن خير إلى خير.

(في شَجَرَةٍ قَطَعَهَا) السبب الظاهر في هذا أنه قطع شجرة من طريق المسلمين وإلا فأعظم عمل هو التوحيد، لا يمكن أن يدخل الجنة مشرك مندد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠]، لكن المراد هنا أنه عمل هذا العمل، وكان من أسباب مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ له.

(كَانَتْ تُؤذِي المُسْلِمِينَ) والسبب الذي جعله يبعد هذه الشجرة هو الحرص على عدم أذية المسلمين، فلهذا كان أجره عظيما.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤) و(١٩١٤).

(قَطَعَهَا) (لأُنْحِيَنَّ) (فأَخَّرَه) على المعنى الأول أنه قطعه، وعلى الثاني أنه نحاه، وعلى الثالث أنه أخره قليلا، كم له من الأجر؟ فعلينا عباد الله أن نحتسب مثل هذه الأعمال، لعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرفعنا بها الدرجات، وأن يتجاوز عن السيئات والزلات، فإن الذنوب كثيرة، والله المستعان.

١٢٨ – الثاني عشر: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الجُمعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ وَزِيادَةُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الحَصَا فَقَدْ لَغَا» رواه مسلم[1].

الشرح:

(عنه) يعني عن أبي هريرة، هذا الباب أغلبه عن أبي ذر وأبي هريرة.

فيه: فضيلة الوضوء، وما يكفر من السيئات، وسيأتي إن شاء الله.

(ثُمَّ أَتَى الجُمعَةَ) أي: لصلاتها، (فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ) أي: للخطيب.

وفي زيادات: «أن لا يفرق بين اثنين»، ونحو ذلك، وسيأتي.

(وَمَنْ مَسَّ الحَصَا فَقَدْ لَغَا) في زيادة: «ومن لغى فلا جمعة له»، ومثله مس التلفون، أو إجابة التلفون ونحو ذلك.

((قال العلماء: معنى المغفرة له ما بين الجمعتين وثلاثة أيام أن الحسنة بعشر أمثالها، وصار يوم الجمعة الذي فعل فيه هذه الأفعال الجميل في معنى الحسنة التي تجعل بعشر أمثالها.

---

(١) حديث رقم: (٨٥٧).

قال بعض أصحابنا: والمراد بما بين الجمعتين من صلاة الجمعة وخطبتها إلى مثل الوقت من الجمعة الثانية حتى تكون سبعة أيام بلا زيادة ولا نقصان ويضم إليها ثلاثة فتصير عشرة)). اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

١٢٩ - الثالث عشر: عَنْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ، أَو المُؤمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَينيهِ مَعَ المَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، فَإِذا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيهِ كُلُّ خَطِيئَة كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مشتها رِجْلَاهُ مَعَ المَاء أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

وهذا الحديث فيه فضيلة الوضوء، وما يكفر من السيئات، وهو موافق لحديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي.

قوله: (إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ، أَو المُؤمِنُ) شك من الراوي، لأن الإيمان والإسلام شرط في قبول العمل.

(فَغَسَلَ وَجْهَهُ) يعني على الوجه الذي غسل به النبي ﷺ.

(خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَينيهِ مَعَ المَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ) ثم كذلك تخرج خطايا أنفه وخياشيمه، وغير ذلك، على ما يأتي في حديث عمرو بن عبسة.

---

(١) حديث رقم: (٢٤٤).

(خَرَجَ مِنْ يَدَيهِ كُلُّ خَطِيئَة كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ) هذا شك من الراوي، ومعنى ذلك: أن خطايا اليد تخرج وتكفر بسبب هذه العبادة الصالحة.

(حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ) وسيأتي حديث جابر: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، مَا تَقُولُونَ؟ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «ذَاكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهَا الْخَطَايَا».

١٣٠ - الرابع عشر: عَنْهُ، عن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّراتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

فيه فضيلة الصلوات الخمس، والمبادرة إليها، وهي من طرق الخير الكثيرة، إذ تتكرر في كل يوم وليلة، ومع كل صلاة من الصلوات، نوافل قبلية وبعدية في الغالب، فالفجر لها نافلة قبلية، والظهر لها نافلة قبلية وبعدية، والعصر يجوز أن يصلي الإنسان قبلها؛ لحديث: «بين كل أذانين صلاة»، وكذلك المغرب يجوز قبلها وبعدها؛ لحديث «صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب»، وبعدها كان النبي ﷺ يصلي بعدها ركعتين، والعشاء يجوز أن يصلي قبلها وبعدها؛ لما تقدم.

(وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ) ومعنى ذلك: صلاة الجمعة وما يلحقها.

(وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ) أي: بالصوم.

بهذا الحديث وما في بابه احتج أهل العلم على أن الكبائر لا بد لها من توبة وذهب بعض أهل العلم إلى أن بعض الأعمال تكفر الكبائر، كالحج؛ لقول النبي ﷺ: «من

(١) حديث رقم: (٢٣٣).

حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من حجه كيوم ولدته أمه»، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [سورة النجم: ٣٢].

هذا الكتاب الذي أنصح طلاب العلم بحفظه، ودراسته، وتدريسه، فمن حفظه صار خطيبا مفوها، وواعظا مصقعا، لا سيما من أتقنه لا يحتاج إلى تحضير، قم يا فلان الخطبة عندك، يقفز على المنبر: باب الإخلاص، أو باب الصبر، أو باب التوبة، باب الصدق، باب المراقبة، باب حسن الخلق، باب المجاهدة، باب الاستغفار، باب الذكر والدعاء، باب الصلاة على النبي ﷺ، باب التحذير من الكذب، باب التحذير من الغيبة، باب التحذير من النميمة، باب التحذير من النار، باب الترغيب في الجنة، كتاب عظيم، كتاب عظيم.

(رياض الصالحين)، روضة، لا تجد فيه إلا الأحاديث الصحيحة، أو ما يندرج تحت الأحاديث الصحيحة، وفيه أحرف يسيرة بالنسبة لحجم الأحاديث في الكتاب هي في الباب، وما كان من نكارة يترك، والحمد لله.

صحيح أنكم ينبغي أن تجتهدوا في هذا الباب، نحن الآن نأخذ في الأسبوع عشرة أحاديث، أو عشرين حديثا، أو خمسة عشر حديثا، ما يستطيع أحدكم يحفظها؟ هذا قصور أن يكون الإنسان بعيدا عن المحفوظات، احفظ فكل حافظ إمام، يا رسول الله مرنا بأمر نعمل به، قال: «احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم».

فكان السلف يحرصون على الحفظ، لا سيما وأنت مازلت ما شاء الله شابا، ومازلت متفرغا، إذا رتبت وقتك الأمر سهل، لا تقل: أمور صعبة، العلم ما هو صعب، الصعب أن الإنسان يريد أن يطلب علما على هواه، هذا هو الصعب، يوم يقوم الفجر ويوم يقوم الساعة ثمانية، ما يصلح.

لا بد أن تلتزم بوقت، مثلا من بعد الفجر إلى الساعة كذا حفظ، بعد كذا ترتاح قليلا وصبوح نحو ذلك، مراجعة، دروس، قيلولة، وحفظ، ومراجعة، تكون كالآلة التي تعمل، لا بد أن تنتج، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القمر: ١٧]، والأحاديث هي من الذكر.

والحفظ يأتي بالحفظ، والفهم يأتي بالفهم، والاستنباط يأتي بالاستنباط، لكن هذا الكتاب سلس؛ لأنه على الأبواب، وربما تستطيع أن تخطب في باب الإخلاص وتدخل أحاديثا من باب التوبة، من باب الصدق، من باب الصبر، من باب الصلاة، من باب الصيام، من باب القرآن.

لكن في الجملة الكتاب يستفيده استفادة عظيمة المبتدي، ولا يستغني عنه المنتهي، وقد كان يسألني بعض الأخوة في دماج وفي غيرها: هل نحفظ (صحيح مسلم) أم نحفظ (رياض الصالحين)؟ وبعضهم يقول: هل نحفظ (صحيح مسلم) أم نحفظ (بلوغ المرام)؟

الحق أن صحيح مسلم كتاب جامع، وهو في المرتبة الثانية بعد صحيح البخاري، لكن قد يكون الطالب ضعيفا في الاستنباط، فلا يستطيع أن يحضر خطبة من (صحيح مسلم)، إلا بشق الأنفس، وربما ضعيف في الفقه، فلا يستطيع الاستدلال بما في (صحيح مسلم)، إلا في الباب الذي وُضع الحديث فيه وبوب عليه النووي.

لكن إذا حفظت مثل (رياض الصالحين) أحاديث الصدق مميزة، المراقبة مميزة، الإخلاص مميز، وهكذا، وإذا حفظت في (بلوغ المرام) و(عمدة الأحكام)، أحاديث الطهارة مميزة، وأحاديث الحج مميزة، والصلاة مميزة، وهكذا.

١٣١ - الخامس عشر: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رسولَ اللهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ». رواه مسلم[١].

الشرح:

(وعنه) أي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول النبي ﷺ لأصحابه: (أَلا أَدُلُّكُمْ) أي: أخبركم، (عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا): يكون تكفيرا للخطايا والذنوب، والمعاصي والسيئات، (وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟) أي في الجنة.

(قَالُوا: بَلَى، يَا رسولَ اللهِ)؛ لحرصهم على الخير.

(قَالَ: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ) أي في الشتاء، وفي حال التعب والنصب.

(وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ)؛ لما يأتي من فضلها.

(وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ) صليت المغرب وتنتظر العشاء، أو هكذا.

(فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ) أي: ذلكم الرباط حقًا، مع أن المرابطة تكون في حال الجهاد في سبيل الله، لكن هذه المرابطة أيضًا من الأمور الممدوحة.

((وأصل الرباط: الحبس على شيء، كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة، وقيل: يحتمل أنه أفضل الرباط كما قيل: الجهاد جهاد النفس، ويحتمل أنه الرباط المتيسر الممكن، أي أنه من أنواع الرباط، قال النووي: هذا آخر كلام القاضي، وهذا هو

(١) حديث رقم: (٢٥١).

الصحيح أنه من الرباط في سبيل الله وليس هو كل الرباط، ويؤجر الإنسان على المرابطة من أجل الطاعة. اهـ)) اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

١٣٢ - السادس عشر: عن أبي موسى الأشعرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

(البَرْدَانِ): الصبح والعصر.

الشرح:

(أبو موسى الأشعري) عبد الله بن قيس، هاجر إلى النبي ﷺ فأخطأت السفينة إلى الحبشة، ثم قدم في خيبر مع جعفر بن أبي طالب، وكان حسن الصوت بالقرآن، ولاه النبي ﷺ على زبيد وما حولها.

قال: (مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ) أي: من حافظ عليهما في جماعة، بشروطهما وأركانهما، والبردان: الصبح والعصر.

(دَخَلَ الجَنَّةَ) أي: كان من أسباب دخول الجنة، وهذا مع التوحيد.

١٣٣ - السابع عشر: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا». رواه البخاري[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٢) حديث رقم: (٢٩٩٦).

أعله الدارقطني بالسكسكي، إلا أن له شواهد: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةٍ حَسَنَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ، ثُمَّ مَرِضَ قِيلَ لِلْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِهِ: اكْتُبْ لَهُ مِثْلَ عَمَلِهِ إِذْ كَانَ طَلِيقًا حَتَّى أُطْلِقَهُ أَوْ أَكْفِتَهُ إِلَيَّ»، رواه أحمد، حديث رقم: (٦٨٩٥)، وهو في (الصحيح المسند).

والحديث الثاني: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إِذَا ابْتُلِيَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ قَالَ اللهُ لِلْمَلَكِ: اكْتُبْ لَهُ صَالِحَ عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، فَإِنْ شَفَاهُ غَسَّلَهُ وَطَهَّرَهُ، وَإِنْ قَبَضَهُ غَفَرَ لَهُ وَرَحِمَهُ»، رواه أحمد حديث رقم: (١٣٥٠١).

الشرح:

(**عنه**) أي: عن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فيه فضيلة المرض، وأنه كفارة للذنوب على ما يأتي.

وفيه أن الله كريم، إذا كنت على حال حسن وانقطعت عنه لمرض أو سقم أو نحو ذلك كُتب لك الأجر كاملا.

ومعنى (**كُتِبَ**) يعني: كتبت له كحسنات، وفيه فضيلة العمل الصالح.

١٣٤ - الثامن عشر: عن جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ». رواه البخاري[١]، ورواه مسلم مِنْ رواية حُذَيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٢].

الشرح:

(**كل**) من ألفاظ العموم.

وهذا حديث قصير في المبنى عظيم في المعنى، ثلاث كلمات: (**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ**) لكن يدخل تحته جميع الدين.

(**كُل**) من ألفاظ العموم.

(**معروف**) التوحيد فما دونه، حتى إزالة الأذى عن الطريق.

(**صدقة**) صدقة للعبد، تلقى أجرها وخيرها وبرها عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الحديث لا يقال فيه: متفق عليه، وإنما أخرجه البخاري عن جابر، ومسلم عن حذيفة.

قال شيخنا يحيى في (أحكام المسافرين): ولم أجد شاهدا للفظ: (أو سافر) المذكور في الحديث، فتبقى على الضعف. أفاده المحقق.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢١).

(٢) حديث رقم: (١٠٠٥).

١٣٥ - التاسع عشر: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنهُ لَهُ صَدَقَةً، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةً». رواه مسلم(١).

وفي رواية لَهُ: «فَلَا يَغرِسُ المُسْلِمُ غَرْسًا فَيَأْكُلَ مِنهُ إنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَيْرٌ إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقة إِلَى يَومِ القِيَامةِ».

وفي رواية لَهُ: «لَا يَغرِسُ مُسْلِمٌ غَرسًا، وَلَا يَزرَعُ زَرعًا، فَيَأْكُلَ مِنهُ إنْسَانٌ وَلَا دَابَةٌ وَلَا شَيءٌ، إلاَّ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً».

ورَوياه جميعًا من رواية أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

قوله: (يَرْزَؤُهُ) أي: ينقصه.

الشرح:

قوله: (عنه) أي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ) أي من الرجال والنساء.

(يَغْرِسُ غَرْسًا) أي: زرعا، سواء من الثمار أو من الأشجار.

(إلاَّ كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً) سواء كان الأكل إنسانا أو دابة.

(وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً) حتى وإن أخذ غصبا عنه، فالسرقة غصب، نوع من الغصب، ومع ذلك له صدقة.

(وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ) أي: لا يسأله أحد شيئا فينقص مما له.

(إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقَةً) حتى ما ينفق على أبنائه كما تقدم.

---

(١) حديث رقم: (١٥٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

(فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَيْرٌ) ذكر جميع أنواع الحيوان، الإنسان: الحيوان العاقل، والدابة: الحيوان البهيم، والطير: الحيوان الطائر.

(إلاَّ كَانَ لَهُ صَدَقة إِلَى يوم القِيَامةِ) أي بسبب أكله لذلك الطعام.

(لَا يَغرِسُ مُسْلِمٌ غَرسًا) سواء كان من العنب أو التمر أو نحوه.

(وَلَا يَزرَعُ زَرعًا) سواء كان من العلف، أو الذرة، أو الشعيرة، أو نحوه.

(وَلَا شَيءٌ) وهذا لفظ عام، يدخل فيه حتى الخنافس والعناكب والدود، يأكل منه شيء (إلاَّ كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً)، فأين تجد هذه الفضائل؟ لا توجد إلا في مكرمة الله عَزَّوَجَلَّ إذ أكرم عباده بذلك.

فهذا من طرق الخير، مزارع يزرع في صحراء، يأتي الدود يأكل، الدابة تأكل، الطير يأكل، الإنسان يأكل، وله صدقات.

١٣٦ - العشرون: عَنْهُ، قَالَ: أراد بنو سَلِمَةَ أَن يَنتقِلوا قرب المسجِدِ فبلغ ذلِكَ رسولَ الله ﷺ فقَالَ لهم: «إِنَّهُ قَدْ بَلَغَني أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنتَقِلُوا قُربَ المَسجِدِ؟» فقالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُول اللهِ قَدْ أَرَدْنَا ذلِكَ. فقَالَ: «بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ، تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ». رواه مسلم[(١)].

وفي روايةٍ: «إنَّ بِكُلِّ خَطوَةٍ دَرَجَةً». رواه مسلم.

رواه البخاري أيضًا بِمَعناه مِنْ رواية أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٢)].

وَ (بَنُو سَلِمَةَ) بكسر اللام: قبيلة معروفة مِنَ الأنصار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

وَ(آثَارُهُمْ): خطاهُم.

---

(١) حديث رقم: (٦٦٤).

(٢) حديث رقم: (١٨٨٧).

الشرح:

(عن) أي: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: (أراد بنو سَلِمَةَ) بيت من الأنصار، بيوتهم بعيدة شيئا عن المسجد، أرادوا أن ينتقلوا قرب مسجد النبي ﷺ؛ ليلازموا الصلاة، وحضور مجالس الذكر.

(فبلغ ذِلكَ رسولَ الله ﷺ) فيه جواز نقل الكلام إذا كان للمصلحة، وليس من الغيبة أو النميمة في شيء.

(فَقَالَ لهم) فيه النصح والتوجيه.

(إنَّهُ قَدْ بَلَغَني أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنتَقِلُوا قُربَ المَسجِدِ) فيه التأكد من الأمر قبل النصيحة فيه؛ حتى لا يقال: أنت استعجلت في النصيحة.

(فقالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُول اللهِ قَدْ أَرَدْنَا ذلِكَ) فيه الصدق، فالصدق نجاة.

(فَقَالَ: بَنِي سَلِمَةَ) أي: يا بني سلمة، ناداهم؛ لينتبهوا لنصيحته وتوجيهه.

(دِيَارَكُمْ) أي: الزموا دياركم.

(تُكْتَبْ آثَارُكُمْ) أي: تكتب خطواتكم، ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ [سورة يس: ١٢].

(دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ) كرر النصيحة؛ لأهميتها.

(إنَّ بِكُلِّ خَطوَةٍ دَرَجَةً) وسيأتي أن في كل خطوة درجة والأخرى تحط خطيئة وهذا من فضل الله الواسع، الآن ربما إذا بعد المسجد مائة متر بضعهم يصلي في البيت، يقول: يا أخي المسجد بعيد، كسل عن طاعة الله، والله المستعان.

١٣٧ - الحادي والعشرون: عن أبي المنذِر أُبيِّ بنِ كَعْب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ لا أَعْلَمُ رَجلًا أَبْعَدَ مِنَ المَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلاةٌ، فَقِيلَ لَهُ أَوْ فَقُلْتُ لَهُ: لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ في الظَلْمَاء وفي الرَّمْضاء، فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أنَّ مَنْزِلي إلَى جَنْبِ المَسْجِدِ إنِّي أريدُ أنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إلَى المَسْجِدِ وَرُجُوعِي إذَا رَجَعْتُ إلَى أهْلِي، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذلِكَ كُلَّهُ» رواه مسلم[١].

وفي رواية: «إنَّ لَكَ مَا احْتَسَبْتَ».

(الرَّمْضَاءُ): الأَرْضُ التي أصابها الحر الشديد.

الشرح:

(أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ) قال له النبي ﷺ: «يا أبي إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ [سورة البينة: ١]»، قال: أوسماني يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فبكى أبي، مكرمة عظيمة أن الله يسميك، عند من؟ عند رسوله ﷺ، وهو من حفاظ القرآن، ومن حفاظ الصحابة.

قوله: (كَانَ رَجُلٌ) أي: من الأنصار.

(لا أَعْلَمُ رَجلًا أَبْعَدَ مِنَ المَسْجِدِ مِنْهُ) أي بيته بعيد من المسجد.

(وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلاةٌ)؛ لحرصه على الخير، لا صلاة الليل ولا صلاة النهار.

(فَقِيلَ لَهُ) نصحه بعض الصحابة؛ رفقا به.

(لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ في الظَلْمَاء وفي الرَّمْضَاء) في الظلماء يتقي به الثعابين والحيات، وهوام الأرض، وفي الرمضاء يتقي به حر الشمس؛ لأنه يمشي سريعا.

(١) حديث رقم: (٦٦٣).

(فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ المَسْجِدِ) يعني قال له: أنت تنصحني من أجل أن أكون قريبا آتي المسجد بسرعة، أنا لا يسرني ولا يفرحني أن يكون بيتي جنب المسجد، أنا مرتاح بما أنا عليه من الخير.

(إِنِّي أريدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمشَايَ إِلَى المَسْجِدِ) مع كثرة الخطى.

(وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي)؛ لأنه أيضا من العمل.

وفيه فضيلة العمل الصالح، وفيه معنى قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء**».

وفيه شدة حرص الصحابة على أعمال الخير، لا يتواكلون، بل كانوا في حرص عظيم على طاعة الملك الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفيه رفق الصحابة بعضهم ببعض، حيث دله على شراء الحمار لركوبه.

وفيه أن من جاء أيضا على سيارة أو على حمار يرجى له هذا الفضل، يرجى له مشيه إلى المسجد ورجوعه من المسجد، ولا يستدل بهذا الحديث على تعذيب تعليم المسلم لنفسه من أجل أن يحصل على الأجر الكثير، لا، وإنما هذا الأمر غير شاق عليه، وإلا فلما رأى النبي ﷺ تلك المرأة أبت أن تركب قال: «**تركب وتكفر عن يمينها**»، «**كفارة النذر كفارة يمين**»، وهكذا لما رأى الرجل لم يركب: «**ويحك اركب**».

١٣٨ - الثاني والعشرون: عن أبي محمد عبدِ اللهِ بنِ عمرو بن العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً: أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَة مِنْهَا؛ رَجَاءَ ثَوَابِهَا وتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا، إلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ». رواه البخاري[١].

(المَنِيحَةُ): أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا لِيَأْكُلَ لَبَنَهَا ثُمَّ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ.

الشرح:

(عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وهذا شأنه عظيم في العبادة، وفي العلم، وفي العمل، أما العبادة فكان متنسكا عابدا في ليله ونهاره، حتى أنه زُوج امرأة فلم يكشف لها غطاء، فقيل له قال: يا رسول الله إني أصوم النهار وأقوم الليل، فقال: «**إن لنفسك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، فصم وأفطر، وصل وارقد**»، وقال له رسول الله ﷺ: «**أطع أباك ما دام حيًا**»، فما فارقه، حتى قال: أنا معكم ولست أقاتل، في صفين وفي غيرها من الحروب لم يقاتل.

وأما في العلم فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولا أعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثًا مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب.

إلا أن العلماء قالوا: كيف إذًا صار أبو هريرة أكثر حديثا من عبد الله بن عمرو؟ قيل: عبد الله بن عمرو شُغل بمرافقة أبيه، وقيل: بأن عبد الله بن عمرو وجد زمالتين من زمائل أهل الكتاب فزهد الناس في حديثه.

---

(١) حديث رقم: (٢٦٣١).

قال الحافظ: لَكِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ عَبْد الله وَهُوَ الْكِتَابَة لَمْ يَكُنْ مِنِّي، سَوَاء لَزِمَ مِنْهُ كَوْنَهُ أَكْثَر حَدِيثًا لِمَا تَقْتَضِيه الْعَادَة أَمْ لَا، وَإِنْ قُلْنَا: الِاسْتِثْنَاء مُتَّصِلٌ فَالسَّبَب فِيهِ مِنْ جِهَات:

أَحَدهَا: أَنَّ عَبْد الله كَانَ مُشْتَغِلاً بِالْعِبَادَةِ أَكْثَر مِنْ اِشْتِغَاله بِالتَّعْلِيمِ فَقَلَّتْ الرِّوَايَة عَنْهُ.

ثَانِيهَا: أَنَّهُ كَانَ أَكْثَر مُقَامُهُ بَعْد فُتُوح الْأَمْصَار بِمِصْرَ أَوْ بِالطَّائِفِ وَلَمْ تَكُنْ الرِّحْلَة إِلَيْهِمَا مِمَّنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ كَالرِّحْلَةِ إِلَى الْمَدِينَة، وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَة مُتَصَدِّيًا فِيهَا لِلْفَتْوَى وَالتَّحْدِيث إِلَى أَنْ مَاتَ، وَيَظْهَر هَذَا مِنْ كَثْرَة مَنْ حَمَلَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، فَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيّ أَنَّهُ رَوَى عَنْهُ ثَمَانمِائَةِ نَفْس مِنْ التَّابِعِينَ، وَلَمْ يَقَع هَذَا لِغَيْرِهِ.

ثَالِثهَا: مَا اُخْتُصَّ بِهِ أَبُو هُرَيْرَة مِنْ دَعْوَة النَّبِيّ ﷺ لَهُ بِأَنْ لَا يَنْسَى مَا يُحَدِّثهُ بِهِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ قَرِيبًا.

رَابِعُهَا: أَنَّ عَبْد الله كَانَ قَدْ ظَفِرَ فِي الشَّام بِحِمْلِ جَمَل مِنْ كُتُب أَهْل الْكِتَاب فَكَانَ يَنْظُر فِيهَا وَيُحَدِّث مِنْهَا فَتَجَنَّبَ الْأَخْذَ عَنْهُ لِذَلِكَ كَثِير مِنْ أَئِمَّة التَّابِعِينَ. والله أعلم.

ما شاء الله ما شاء الله، هذا الحديث **(أَرْبَعُونَ خَصْلَةً)** أربعون سببا من أسباب دخول الجنة أبواب كثيرة، ما عندك صدقه عندك كلمة طيبة، ما عندك كلمة طيبة كف شرك عن الناس، إلى غير ذلك.

(أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ العَنْزِ) أعلى هذه الأربعين منيحة العنز، يعني حلبة شاة أو حلبة معزة، فكيف ستكون أدناها؟ والله أن هذا أجر عظيم، **(أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ العَنْزِ)**، ربما تعطيك كوبا من اللبن أو كأسا من اللبن، هذه أعلى الأربعين.

(مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا) أي من هذه الخصال، وقد ذكر الحافظ في هذا الباب عدة منها.

(رَجَاءَ ثَوَابِهَا) يعني النية الصالحة.

(وتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا) تصديق النبي ﷺ في وعده.

الشاهد أن هذا حديث عظيم، على الإنسان فقط أن يكثر من الطاعات الموصلة له إلى مرضاة الرب عَزَّوَجَلَّ.

قال الحافظ: قَالَ ابن بَطَّالٍ مَا مُلَخَّصُهُ: لَيْسَ فِي قَوْلِ حَسَّانَ مَا يَمْنَعُ مِنْ وِجْدَانِ ذَلِكَ، وَقَدْ حَضَّ ﷺ عَلَى أَبْوَابٍ مِنْ أَبْوَاب الْخَيْر وَالْبر لَا تحصى كَثْرَة، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ كَانَ عَالما بالأربعين الْمَذْكُورَة، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهَا؛ لِمَعْنًى هُوَ أَنْفَعُ لَنَا مِنْ ذِكْرِهَا، وَذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ لَهَا مُزَهِّدًا فِي غَيْرِهَا مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ.

قَالَ: وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَهُمْ تَطَلَّبَهَا فَوَجَدَهَا تَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ، فَمِمَّا زَادَهُ: إِعَانَةُ الصَّانِعِ، وَالصَّنْعَةُ لِلْأَخْرَقِ، وَإِعْطَاءُ شِسْعِ النَّعْلِ، وَالسَّتْرُ عَلَى الْمُسْلِمِ، وَالذَّبُّ عَنْ عِرْضِهِ، وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِ، وَالتَّفَسُّحُ فِي الْمَجْلِسِ، وَالدَّلَالَةُ عَلَى الْخَيْرِ، وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ، وَالْغَرْسُ وَالزَّرْعُ، وَالشَّفَاعَةُ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَالْمُصَافَحَةُ، وَالْمَحَبَّةُ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ لِأَجْلِهِ، وَالْمُجَالَسَةُ لِلَّهِ، وَالتَّزَاوُرُ وَالنُّصْحُ وَالرَّحْمَةُ، وَكُلُّهَا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

وَفِيهَا مَا قَدْ يُنَازَعُ فِي كَوْنِهِ دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ، وَحَذَفْتُ مِمَّا ذَكَرَهُ أَشْيَاءَ قَدْ تَعَقَّبَ ابن الْمُنِيرِ بَعْضَهَا، وَقَالَ: الْأَوْلَى أَنْ لَا يُعْتَنَى بِعَدِّهَا؛ لِمَا تَقَدَّمَ.

وَقَالَ الْكَرْمَانِيُّ: جَمِيعُ مَا ذَكَرَهُ رَجْمٌ بِالْغَيْبِ، ثُمَّ أَنَّى عَرَفَ أَنَّهَا أَدْنَى مِنَ الْمَنِيحَةِ؟ قُلْتُ: وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِمَا ذَكَرْتُهُ مِنْهَا تَقْرِيبَ الْخَمْسَ عَشْرَةَ الَّتِي عَدَّهَا حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ، وَهِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَا تَخْرُجُ عَمَّا ذَكَرْتُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنَا مُوَافِقٌ لِابْنِ بَطَّالٍ فِي إِمْكَانِ تَتَبُّعِ أَرْبَعِينَ خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ أَدْنَاهَا مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، وَمُوَافِقٌ لِابْنِ الْمُنِيرِ فِي رَدِّ كَثِيرٍ مِمَّا ذكره ابن بَطَّالٍ مِمَّا هُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ فَوْقَ الْمَنِيحَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وكلام حسان بن عطية موصولا في البخاري، قَالَ حَسَّانُ: فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ مِنْ رَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَنَحْوَهُ، فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَةَ عَشَرَ خَصْلَةً.

قال الحافظ في شرح الحديث (٥/ ٢٤٥): (حسان) هو ابن عطية راوي الحديث، وهو موصول بالإسناد المذكور، قال ابن بطال ما ملخصه: ليس في قول حسان ما يمنع من وجدان ذلك وقد حض ﷺ على أبواب من أبواب الخير والبر لا تحصى كثرة، ومعلوم أنه ﷺ كان عالما بالأربعين المذكورة إنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها، وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهدا في غيرها من أبواب البر، قال: وقد بلغني أن بعضهم تطلبها فوجدها تزيد على الأربعين، فمما زاده إعانة الصانع، والصنعة للأخرق، وإعطاء شسع النعل، والستر على المسلم، والذب عن عرضه، وإدخال السرور عليه، والتفسح في المجلس، والدلالة على الخير، والكلام الطيب، والغرس، والزرع، والشفاعة، وعيادة المريض، والمصافحة، والمحبة في الله، والبغض لأجله، والمجالسة لله، والتزاور، والنصح، والرحمة - وكلها في الأحاديث الصحيحة، وفيها ما قد ينازع في كونه دون منيحة العنز، وحذفت مما ذكره أشياء قد تعقب ابن المنير بعضها، وقال: الأولى أن لا يعتنى بعدها لما تقدم.

وقال الكرماني: جميع ما ذكره رجم بالغيب، ثم أنى عرف أنها أدنى من المنيحة ؟ قلت: وإنما أردت بما ذكرته منها تقريب الخمس عشرة التي عدها حسان بن عطية، وهي إن شاء الله تعالى لا تخرج عما ذكرته، ومع ذلك فأنا موافق لابن بطال في إمكان تتبع أربعين خصلة من خصال الخير أدناها منيحة العنز، وموافق لابن المنير في رد كثير مما ذكره ابن بطال مما هو ظاهر أنه فوق المنيحة والله أعلم. اهـ

وقال الحافظ (١٠/ ٥٢٠-٥٢١): قال الخطابي: معنى قوله: " لا تغضب ": اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه؛ لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة، وقال غيره: ما كان من قبيل الطبع الحيواني لا يمكن دفعه، فلا يدخل في النهي؛ لأنه من تكليف المحال، وما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة فهو المراد، وقيل: معناه: لا تغضب؛ لأن أعظم ما ينشأ عن الغضب الكبر؛ لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب، فالذي يتواضع حتى يذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب. وقيل: معناه: لا تفعل ما يأمرك به الغضب. وقال ابن بطال: في الحديث الأول أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة. وقال غيره: لعل السائل كان غضوبا، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب. وقال ابن التين: جمع ﷺ في قوله: " **لا تغضب** " خير الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يئول إلى التقاطع ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين. وقال البيضاوي: لعله لما رأى أن جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته ومن غضبه، وكانت شهوة السائل مكسورة، فلما سأل عما يحترز به عن القبائح نهاه عن الغضب الذي هو أعظم ضررا من غيره، وأنه إذا ملك نفسه عند حصوله كان قد قهر أقوى أعدائه. انتهى، ويحتمل أن يكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى؛ لأن أعدى عدو للشخص شيطانه ونفسه، والغضب إنما ينشأ عنهما، فمن جاهدهما حتى يغلبهما مع ما في ذلك من شدة المعالجة كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضا أقوى. وقال ابن حبان بعد أن أخرجه: أراد: لا تعمل بعد الغضب شيئا مما نهيت عنه، لا أنه نهاه عن شيء جبل عليه ولا حيلة له في دفعه، وقال بعض العلماء: خلق الله الغضب من النار وجعله غريزة في

الإنسان، فمهما قصد أو نوزع في غرض ما اشتعلت نار الغضب وثارت حتى يحمر الوجه والعينان من الدم؛ لأن البشرة تحكي لون ما وراءها، وهذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب فيصفر اللون حزنا، وإن كان على النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر، ويترتب على الغضب تغير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن غير ترتيب واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، هذا كله في الظاهر، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد، وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضا في الفعل بالضرب أو القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه فيمزق ثوبه ويلطم خده، وربما سقط صريعا، وربما أغمي عليه، وربما كسر الآنية وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: " لا تغضب " من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه والوقوف على نهايته، وهذا كله في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني كما تقدم تقريره في الباب الذي قبله، ويعين على ترك الغضب استحضار ما جاء في كظم الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان كما تقدم في حديث سليمان بن صرد، وأن يتوضأ كما تقدمت الإشارة إليه في حديث عطية، والله أعلم.

وقال الطوفي: أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه؛ لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جل وعلا، وهو خلاف العبودية. قلت: وبهذا يظهر السر في أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان؛ لأنه إذا توجه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان أمكنه استحضار ما ذكر، وإذا استمر الشيطان متلبسا متمكنا من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك، والله أعلم)). اهـ

١٣٩ - الثالث والعشرون: عن عَدِي بنِ حَاتمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت النَّبيّ ﷺ يقول: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بشقِّ تَمْرَةٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية لهما عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرى إلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنظُرُ بَيْنَ يَدَيهِ فَلَا يَرَى إلاَّ النَّار تِلقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

الشرح:

(أبو طريف عدي بن حاتم) أبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، لكن كرمه ليس بشيء أمام كرم النبي ﷺ، الذي ما سئل شيئا فقال: لا، وأسلم عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسن إسلامه، مع أخته سفانة، وقدم على النبي ﷺ، وروى عنه أحاديث.

قال: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بشقِّ تَمْرَةٍ)، يعني: اجعل بينك وبين النار وقاية بصدقة، أو كلمة، أو صلاة أو صيام، فإن عجزت عن شيء من ذلك ولو بشقة تمرة، أي: بعض

(١) أخرجه البخاري (١٤١٧) و(٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

تمرة تتصدق به على فقير أو مسكين، بل على ابنتك أو ابنك، بل على زوجتك، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلَتْنِي فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَأَخَذَتْهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ وَابْنَتَاهَا، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»، متفق عليه.

(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ) أي من الرجال والنساء.

(إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ) إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية الفعلية، وأدلتها متواترة، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٦]، وهو كلام حقيقي، يليق بجلال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بحرف وصوت، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [سورة الشورى: ١١].

(لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ) أي أن الله عَزَّوَجَلَّ يكلم كل عبد بما يفهمه، ولا يحتاج إلى مترجم ولا إلى مبلغ، وربما يثبت من هذا إثبات النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن اللقي يكون بالرؤية.

(فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ) أي: من الأعمال الصالحة.

(وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرى إِلاَّ مَا قَدَّمَ) أي من الأعمال السيئة.

فانظر إلى طرق الخير العظيمة، ألا وأن أعظم الكلام الطيب لما يقوم به الدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: ٣٣]، ألا وأعظم ذلك الدعوة إلى التوحيد، وبيان التوحيد، والتحذير من الشرك والتنديد، ويليه الدعوة إلى السنة، والتحذير من البدعة، وهكذا تبليغ الواجب فالواجب، والمستحب فالمستحب.

فيا طلاب العلم ما هناك أبرك ولا أوسع من طرق الخير التي يسلكها طلاب العلم، فما عليكم إلا أن تسلكوا هذا السبيل، وأن تستعينوا بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن تتزودوا من حفظ كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، وأن تستعينوا بالله على الثبات على هذا الدين، وأبشروا بالخير، قال النبي ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلا واحد خير لك من حمر النعم**»، وسيأتي إن شاء الله.

١٤٠ – الرابع والعشرون: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ الأَكْلَةَ، فَيحمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا». رواه مسلم[(١)].

وَ(الأَكْلَةُ) بفتح الهمزة: وَهيَ الغَدْوَةُ أو العَشْوَةُ.

الشرح:

يعني أن الإنسان كل ما حمد الله على رزق الله كان ذلك من أسباب رضا الله عن العبد.

(إنَّ اللهَ لَيَرْضَى) فيه إثبات صفة الرضى لله، وهي من الصفات الفعلية، وهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع.

(عَنِ العَبْدِ) أي المسلم؛ لأن غير المسلم حتى وإن حمد الله لا بركة في حمده، فلو كان مشركا منددا وحمد الله لا بركة في حمده، ولا قبول لحمده.

(أَنْ يَأكُلَ الأَكْلَةَ) سواء كانت غدوة أو عشوة، أو كانت حتى حبة كيك، أو بسكت، أو غير ذلك، ويحمد الله عليها، يرضى الله عنه.

---

(١) حديث رقم: (٢٧٣٤).

(أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ) سواء من الماء أو العصيرات، أو نحو ذلك، فيحمده عليها، وفيه فضيلة الحمد، فهي من أعظم العبادات، قال النبي ﷺ: «والحمدلله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض»، قال النبي ﷺ: «فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين كتب له ثلاثون»، أو كما قال النبي ﷺ.

والحمد والشكر بينهما عموم وخصوص، فحين تحمد الله عَزَّوَجَلَّ على هذه النعمة أنت تشكره، الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [سورة إبراهيم: ٧]، وسيأتي معنا آداب الطعام والشراب، وما يتعلق بذلك، الذي لا ينبغي أن يُهمل؛ لأن الإنسان لا يستغني عن طعام وشراب في صبحه وعشيه وليله.

فلو سلكنا المسلك الشرعي؛ لكانت الأجور متحققة للعبد المسلم.

١٤١ – الخامس والعشرون: عن أَبِي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قَالَ: أرأيتَ إنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ»، قَالَ: أرأيتَ إن لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ» قَالَ: أرأيت إنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، قَالَ: «يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَوِ الخَيْرِ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

وانظر إلى هذا الحديث الجامع في أبواب طرق الخير، قال: (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ) من الرجال أو النساء، من جميع المكلفين، من الجن والإنس، عليه أن يكون متصدقا لشراء نفسه من الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٢)، ومسلم (١٠٠٨).

(قَالَ: أرأيتَ إنْ لَمْ يَجِدْ؟)؛ لأنهم ظنوا وفهموا أن المراد بالصدقة الصدقة العينية، من مال، كسوة، طعام، شراب، وغير ذلك.

(يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ) يشتغل، فيحصل على شيء من المال، ينفق على نفسه، ينفق على أبنائه، ويعين المحتاج.

(قَالَ: أرأيتَ إن لَمْ يَسْتَطِعْ؟)؛ لعجزه، لشغله، لعدم تفرغه.

(قَالَ: يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ) يعني بما يستطيع، خائف، محتاج، في شدة، فتعينه بما تستطيع.

(يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أوِ الخَيْرِ) ينتقل من العمل اليدوي إلى العمل القولي، يأمر بالمعروف أو الخير، مر بالصلاة، بالصيام، بالعلم، بغير ذلك، والمعروف والخير شيء واحد، وإنما هو خلاف من الراوي، أو تشكك من الراوي، والمعروف قد تقدم أن أعلاه لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق.

(قَالَ: أرَأيْتَ إنْ لَمْ يَفْعَلْ؟) لا تصدق بمال، ولا أعان، ولا عمل بنفسه، ولا أمر بالمعروف.

(قَالَ: يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإنَّهَا صَدَقَةٌ) وهذا دليل على أن ترك الحرام فعل يؤجر عليه الإنسان، قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**انظروا إلى عبدي فإن تركها فاكتبوها له حسنة؛ فإنما تركها من جرائي**»، فيا أخي أمسك عن الشر؛ فإنه صدقة على نفسك، وسلامة لغيرك إن كان الشر متعديًا، والله المستعان.

١٤ - باب في الاقتصاد في العبادة

ساق المصنف هذا الباب؛ لبيان أن التشدد سبب للانقطاع، وأن التشدد ليس من الدين، وقد هلك بالتشدد الخوارج، قال عنهم النبي ﷺ: «**يحقر أحدكم صلاته عند صلاته، وصيامه عند صيامه**»، وكان الصحابة ينظرون في وجوههم كأن فيها كَرُكَب المعزى؛ من شدة وطول سجودهم عليها، وينظر إلى وجوههم وهي عابسة من شدة قيامهم بالليل، وصيامهم بالنهار، ومع ذلك مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

فالقصد القصد تبلغوا، عليكم هديا قاصدا، عليكم بطريقة النبي ﷺ، القولية والفعلية، والاعتقادية، وسيأتي: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»، «**تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء، لا يزيغ عنها إلا هالك**».

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ **[سورة طه:١-٢].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ **[سورة البقرة: ١٨٥].**

الشرح:

(طه) قيل: أنها اسم لمحمد، ولا دليل على ذلك، وقيل: بأن معناها: يا رجل، وقيل غير ذلك.

(﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾) أي أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن على محمد ﷺ ليتعبد به، وليس لأن يتكلف ما لا يستطيع، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

(﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾) الإرادة هنا إرادة شرعية، لا إرادة كونية؛ لأن بعض الناس يأبى إلا أن يسلك سبيل العسر.

١٤٢ – وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النَّبيّ ﷺ دخل عَلَيْهَا وعِندها امرأةٌ، قَالَ: «مَنْ هذِهِ؟» قَالَتْ: هذِهِ فُلاَنَةٌ تَذْكُرُ مِنْ صَلاتِهَا. قَالَ: «مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَواللهِ لاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا» وكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وَ(مهْ): كَلِمَةُ نَهْي وَزَجْر.

ومَعْنَى (لاَ يَمَلُّ اللهُ): لاَ يَقْطَعُ ثَوَابَهُ عَنْكُمْ، وَجَزَاء أَعْمَالِكُمْ ويُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ المَالِّ حَتَّى تَمَلُّوا فَتَتْرُكُوا، فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مَا تُطِيقُونَ الدَّوَامَ عَلَيهِ لِيَدُومَ ثَوابُهُ لَكُمْ وَفَضْلُهُ عَلَيْكُمْ.

الشرح:

قوله: (لَا يَقْطَعُ ثَوَابَهُ عَنْكُمْ) هذا تأويل بلا دليل، والنووي عنده في هذا الباب، وقد أخرج الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله رسالة لأنه كان يرجو أن يجد كلاما للنووي وكلاما للحافظ ابن حجر على أنهما على منهج السلف، والكلام في الجملة طيب، وجد كلاما لهما، لا سيما في رسالة للنووي فيها إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، ويصرح بأنه على منهج السلف، وهكذا وجد كلاما للحافظ ابن حجر ينقله عن السلف، ويصرح على أنه على منهج السلف.

فالذي يظهر أنهم في الجملة على خير في هذا الباب، إلا أن عندهم زلات وعندهم بعض التأويلات، مع أن الشيخ لعله ذهب إلى أن رسالة (الحرف والصوت) للنووي ألفها قبل موته أو فرغ منها قبل موته بخمسة أشهر أو ستة أشهر، أو نحو هذا، فيقول: كأن هذا توبة منه وتراجع عن كل ما وقع.

(١) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

ومع ذلك نسأل الله أن يرحمهما، ولهما أقوال كثيرة يوافقون فيها السلف، وربما وجدت لهم أقوال يخالفون فيها السلف، وفي الجملة هم من أهل السنة وعندهم زلات، هكذا يقال، هم من أهل السنة وعندهم زلات.

أما من ذهب إلى عدم الاستفادة من كتبهما فهذا قول بعيد، وقول المتشددين والمتنطعين.

قوله: (أَنَّ النَّبِيّ ﷺ دخل عَلَيْهَا) إما في نوبتها، وإما في غير نوبتها؛ لأنه كان يمر على نسائه.

(وعِندها امرأةٌ) سميت في (صحيح مسلم) بأنها: الحولاء بنت تُوَيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، من قريش.

(تَذْكُرُ مِنْ صَلاتِهَا) أي أنها تذكر أنها تقوم الليل، وأنها تصوم النهار، امرأة كانت عابدة، كانت متنسكة، إلا أنها شددت على نفسها.

(قَالَ: مَهْ) كالمنكر عليها، ما هذا الفعل؟ وما هذا الصنيع؟

(عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ) افعلوا العمل الذي تطيقونه وتقدرون عليه، بدون تكلف ولا تشدد ولا تنطع، فإن الدين يسر، لجسمك عليك حق، كما أن لربك عليك حق، الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [سورة طه: ٢]، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [سورة القمر: ١٧]، فالإنسان يرفق بنفسه.

ومعنى (مَا تُطِيقُونَ) موافق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [سورة الطلاق: ٧].

(فَواللهِ) فيها القسم بغير استحلاف، وهو يجوز؛ للتأكيد ونحوه.

(لَا يَمَلُّ اللهُ) ذهب بعض أهل العلم إلى أن صفة الملل من الصفات الثبوتية، وبعض أهل العلم إلى أنها من الصفات المنفية، ركزوا معي هذه الفائدة تحتاج إلى نوع تأمل، الذي يقول بأنها من الصفات الثبوتية يقول: إثبات صفة الملل وإثبات صفة السآمة لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والذي يقول بأنها من الصفات المنفية ضابطها: أن يثبت لله كمال الضد، أي: أن الله لا يمل؛ لكمال حياته وقيوميته، وقدرته، ونحو ذلك.

وكان أخونا أبو حفص العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ألف رسالة في هذا الموضوع، ورجح على أنها من الصفات المنفية، والذي سمعناه من شيخنا مقبل ومن شيخنا يحيى وأظن عليه كذلك الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها من الصفات الثبوتية، وأيٌّ كان فهي من صفات الله عَزَّوَجَلَّ على الوجه الذي يليق بجلاله.

واعتمد أخونا أبو حفص فيما قرأت رسالته على نقل عن الحافظ ابن حجر، والصحيح أن الحافظ ابن حجر وحده غير مأمون في هذه المسألة، يحتاج إلى أن يوافقه غيره من أهل العلم، ووجد لبعض السلف من يقول بهذا، وهذا الذي يرجحه المحقق أخونا الشيخ أبو عمرو يرجح هذا على أنها من الصفات المنفية.

لكن الصحيح الذي ظهر لنا أنها ليست منها، وإنما هي من الصفات الثبوتية على ما يليق بالله عَزَّوَجَلَّ.

(وكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ) فيه أن المداومة على العمل الصالح من أعظم أسباب الرفعة في الدارين، والله المستعان.

فعلى الإنسان أن يداوم على العمل الصالح، وإياه والانقطاع؛ فإن المنقطع منقطع كما يقال، المنقطع عن العمل الصالح ينقطع عن الأجر، وينقطع عن الوصول إلى

المطلوب، وينقطع عن صلة الله له، وينقطع عن التأسي بالنبي ﷺ، وينقطع عن العمل بالعلم، وينقطع عن البركة، وينقطع عن كثير من الخير.

والله أنه شيء مجرب، الإنسان المحافظ على الأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم، وأذكار دبر الصلاة، وغير ذلك من الأذكار، يجد بركة في وقته، وانشراحا في صدره، وعونا من الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا قُصر في هذا الباب تجد أثرا كبيرا كثيرا يصل إليك، لكننا لا ننتبه لمثل هذا.

فإياك والانقطاع فتنقطع عن سبيل الخير والهدى والصلاح، وفي الحديث: «**إذا قام أحدكم يصلي فإن الله يقبل بوجهه قبل وجهه ما لم ينصرف، فإذا انصرف هكذا وهكذا انصرف الله عنه**».

فأنت إياك أن تنصرف عن الخير، وإياك أن تنقطع عن الخير، وإن قُدر أنك تركت بابا من أبواب الخير فلا تترك الباب الآخر، أما أن تترك الخير بالكلية هذه خذيلة وقطيعة، لكن إن قُدر مثلا اليوم تحفظ غدا ما استطعت تحفظ راجع يا أخي، اقرأ هكذا قراءة عادية، اليوم تصلي إحدى عشر ركعة بالليل، هذه الليلة ما استطعت صل سبع، تسع، خمس، ثلاث، واحدة، وهكذا، صل ثمان ركعات الضحى، عجزت عن ذلك صل ولو ركعتين، وهكذا، لا تنقطع عن الخير، لا تنقطع عن مجالس العلم، لا تنقطع عن كل سبيل يوصلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

١٤٣ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِروا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا وَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أحدُهُم: أَمَّا أنا فَأُصَلِّي اللَّيلَ أبدًا، وَقالَ الآخَرُ: وَأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا وَلا أُفْطِرُ، وَقالَ الآخر: وَأَنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فجاء رسولُ الله ﷺ إليهم، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا واللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». مُتَّفقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

(أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو أبو حمزة الأنصاري.

هذا حديث عظيم، ساقه المصنف؛ لبيان أن الاجتهاد في العبادة أن يكون على وفق سنة النبي ﷺ، فإن هؤلاء الرهط قد عزموا على عدم الراحة، وعلى زيادة العبادة، حتى أنهم حرموا على أنفسهم بعض المباح، فلما رآهم النبي ﷺ أنكر عليهم ذلك، وأخبر أن الإنسان يجمع بين حق الله وحق النفس وحق الزوج، على ما يأتي، وحق الضيف.

والله عَزَّوَجَلَّ قد فرض فرائض وحد حدودا وشرع سننا، فيأتي بكل شيء بحسبه، والنبي ﷺ كانت له زوجات، وكان يفطر، وكان ينام من الليل، حتى قالت عائشة: لم يصل ليلة حتى أصبح، ولا صام شهرا غير رمضان.

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف
تدري أخي أين طريق الجنةْ طريقها القرآن ثم السنةْ

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وفيه: أن الناس تتنوع هممهم، فهذا همته في الصيام، والآخر همته في الصلاة، والثالث همته في اعتزال النساء.

والتبتل هو صنيع أصحاب الصوامع، ولهذا حين استأذن النبي ﷺ في التبتل نهاهم عن ذلك، حتى قالوا: ولو أذن له لاختصينا، يعني أراد عثمان بن مضعون أن يتبتل في الصوامع ويتفرغ للعبادة، فقال الصحابي الآخر: لو أذن له لاختصينا، أي: مبالغة في التبتل؛ لأن الإنسان مهما حاول التنزه مع وجود الآلة ربما غلبته شهوته.

ولو تأملتم إلى فضائح الرهبان والراهبات في الكنائس التي تصدر بين الحين والآخر لرأيتم العجب العجاب، فإن الزواج محرم على القساوسة في دينهم المحرف المبدل، وإذا بهم يتعاطون هذا البلاء بغير الطريق الشرعي، والحمد لله أن دين الإسلام دين وسط، بين الغلو والجفاء، بين التشديد والتساهل.

وفي هذا الحديث إنكار المنكر، وفي بعض الروايات: أن النبي ﷺ قال: «**ما بال أقوام؟**»، وفيه جرح على الإجمال، ويجوز الجرح على التعيين.

قال: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟) كالمنكر عليهم، هذا سؤال إنكار وليس سؤال تثبت.

(أَمَا واللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ): أشدكم خشية لله، ومع ذلك أتعاطى ما أحل الله من زواج النساء، وقيام الليل مع نومه، وأكل ما تيسر من الطعام، ولهذا أنكر السلف على الصوفية لبس المرقَّع من الثياب لغير ما ضرورة، ربما اشترى الثوب من أول يوم ثوب مرقع، لبدة من اللون الأبيض، والأخرى أسود، ويسمونها الخرقة، وربما أخذوا هذه الخرقة بالسند المتصل إلى النبي ﷺ زعموا، وما هي إلا إلى جهالهم.

وإلا فالنبي ﷺ خاطت له امرأة ثوبا جديدا فلبسه كالمحتاج إليه، وقال له عمر: يا رسول الله لو اشتريت حلت عطارد تلبسها للجمعة والوفد، فقال النبي ﷺ: «**لا ينبغي هذا للمتقين**»، فتركها لأنها حرير، وأقر عمر على أصل التزين للوفود والعيد.

وتجد هؤلاء الذين يزعمون أن علم الخرق أفضل من علم الورق يتعاطون الشركيات، والبدع والخرافات، والمعاصي والسيئات، وقد سطروا بأنفسهم من الفضائح ما يتحرج المستقيم عن ذكره في أماكن الدرس، وفي الخطب والمواعظ؛ لأنها أمور مستقبحة شرعا وعقلا، بل تمجها العقول السليمة والفطر المستقيمة.

وكم طعن الكفار في الإسلام وأهل الإسلام بسبب وجود هؤلاء الذين يتزيون بغير الإسلام، فإذا رآهم: انظروا إلى هؤلاء الدراويش، دين الإسلام ليس بدين الدروشة، دين الإسلام دين العزة، «**إن الله جميل يحب الجمال**».

انظروا إلى المسلم يستنجي في كل دخلة وخرجة للخلاء، والاستنجاء عليه واجب، النبي ﷺ يقول: «**إذا استجمر أحدكم فليستجمر ثلاثا**»، حتى ذكر أهل العلم إذا لم يجد ثلاثة أحجار أن يستجمر بالحجر في ثلاثة مواطن، أو ما يقوم مقام الحجر، كالمناديل ونحوها.

وأولئك إذا دخلت إلى أماكن قضاء حوائجهم تكاد أن تتقيأ؛ مما فيها من الرائحة النتنة، وإذا غسلت ملابسك مع ملابسهم رجعت ملابسك أسوأ مما أعطيتهم إياها، لا سيما الملابس الداخلية.

وهذا الذي تشمونه ويسمونه العطر الفرنسي هذا النفاذ هم صنعوه؛ لتغطية رائحة أجسامهم الكريهة، أما المسلم قد لا يحتاج إلى هذا العطر؛ لأنه يغتسل من الجنابة، ويغتسل كل جمعة على أقل التقدير، يغسل رأسه وجسده، كما قال النبي ﷺ: «**على المسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده**».

أما أولئك لا يغتسلون من جنابة، ولا يغتسلون من نجاسة، ولا يختتنون، حالة مزرية، ومع ذلك تجد كثيرا ممن تأثر بالغرب لا ينظر إلى هذه الفضائل التي هو عليها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

والله لقد رأينا مرة في مطار فرانكفورت يأخذون ملابسهم في الحقائب الصغيرة مثل تلك التي يوزعوها في الحرم التي مكتوب عليها موبايلي، ثنتين فنايل، واثنين سراويل نكس تأخذها المرأة فوق ظهرها وترحل، بلا حياء، بلا خجل، بلا مروءات، ماذا تقول؟ ونحن عندنا دين العزة، عورتك مستورة، وجسمك مغطى، وثوبك نظيف، ورائحتك طيبة، وتتطهر بأمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال: (أَمَا واللهِ إنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ) فيه جواز التحدث بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وجواز ثناء الرجل على نفسه؛ لبيان ما يحتاج إلى بيان.

وفيه أن التقوى والخشية مصدرها العلم، فكلما ازداد علم الإنسان ازدادت خشيته، ولهذا جاء في بعض الروايات: «**والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي**».

(لَكِنِّي) مع ذلك **(أَصُومُ وَأُفْطِرُ)** ولا يتعارض مع الخشية ولا التقوى.

(وأُصَلِّي وَأَرْقُدُ) ولا يتعارض مع الخشية ولا التقوى.

(وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ) بل إن ذلك من التقوى، أن تعف نفسك وتعف غيرك، «**وفي بضع أحدكم صدقة**».

(فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) وهذا يدل على أن ترك هذه الأمور تعبدا تعتبر من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها، والمراد بالسنة هنا: الطريقة.

إذًا لا تحتج بشيخ الإسلام، ولا بالنووي، ولا بفلان ولا علان، تقول: فلان ما تزوج من العلماء، يقال لك: إن كان الحجة بالدليل فالدليل يدل على الزواج للمستطيع، وإن احتججت بالرجال فالرسول ﷺ أكمل الرجال، ومع ذلك تزوج.

١٤٤ – وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قالها ثَلاثًا.

رواه مسلم[(١)].

(المُتَنَطِّعونَ): المتعمقون المشددون في غير موضِع التشديِد.

الشرح:

(ابن مسعود) هو أبو عبد الرحمن، واسمه عبد الله.

قوله: (أنّ النَّبيّ ﷺ قَالَ: هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ) أي: دعا عليهم، وقيل: أخبر، فإن كان دعا عليهم فأغلب دعاء النبي ﷺ يستجاب، وإن كان أخبر فخبر النبي ﷺ واقع، فالمتشدد هالك بدعاء النبي ﷺ عليه، أو بخبر النبي ﷺ عليه، فعليك هديا قاصدا، «إن الله لا يمل حتى تملوا».

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم بن الحجاج":

وهذا فيه ذم الغلو، وأصل كثير من البدع الغلو، فالرافضة غلوا في حب علي بن أبي طالب، وغلوا في بغض الصحابة.

والمرجئة غلوا في باب الرجاء، وجفوا في باب الخوف.

والخوارج غلو في باب الخوف، وجفوا في باب الرجاء.

والمعطلة غلوا في باب التنزيه، وجفوا في باب الإثبات.

والممثلة غلوا في باب الإثبات، وجفوا في باب التنزيه.

والجبرية غلوا في باب إثبات القدر، وجفوا في إثبات أفعال العباد.

والقدرية النفاة غلوا في إثبات أفعال العباد، وجفوا في إثبات ما هو من شأن الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) حديث رقم: (٢٦٧٠).

إذًا البدع دائرة بين الغلو في الجانبين، إما غلو إلى جهة الإفراط، أو غلو إلى جهة التفريط، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن عيسى بن مريم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٧٧]، وكان غلو اليهود: أن زعموا أن عيسى ولد زنية، وهو وأمه برآء من هذه الأقوال الزائفة، والنصارى جعلوه إلها أو ابنا أو شريكا لله عَزَّوَجَلَّ، تعالي الله عن قول المبطلين.

فإذًا كما قال بعض أهل العلم: ما من عمل إسلامي إلا وللشيطان فيه نزغتان: نزغة إلى الغلو، ونزغة إلى الجفاء، ولذلك لا تظهر بدعة إلا وتظهر في مقابلها بدعة أخري، يعني بدعة إلى الغلو وبدعة إلى الجفاء.

وإذا وقعت فتنة في الدعوة السلفية في أي زمن أي عصر أي مصر ستجد أنها تخرج على ثلاث أنحاء: أهل الحق والإنصاف، وأهل غلو، وأهل جفاء، ولا بد إلا أن يشاء الله، نسأل الله السلامة والعافية. والحمد لله رب العالمين. اهـ من "الإبهاج".

١٤٥ – عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ إلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ». رواه البخاري[(١)].

وفي رواية لَهُ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا».

قوله: (الدِّينُ): هُوَ مرفوع عَلَى مَا لَمْ يسم فاعله. وروي منصوبًا وروي «لن يشادَّ الدينَ أحدٌ».

(١) حديث رقم: (٣٩).

وقوله ﷺ: «**إلا غَلَبَهُ**»: أي غَلَبَهُ الدِّينُ، وَعَجَزَ ذلِكَ المُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ؛ لِكَثْرَةِ طُرُقِهِ.

وَ(الغَدْوَةُ): سير أولِ النهارِ. وَ(الرَّوْحَةُ): آخِرُ النهارِ. وَ(الدُّلْجَةُ): آخِرُ اللَّيلِ.

وهذا استعارة وتمثيل، ومعناه: اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالأَعْمَالِ فِي وَقْتِ نَشَاطِكُمْ وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ، بِحَيثُ تَسْتَلِذُّونَ العِبَادَةَ، ولا تَسْأَمُونَ، وتبلُغُونَ مَقْصُودَكُمْ، كَمَا أَنَّ المُسَافِرَ الحَاذِقَ يَسيرُ فِي هذِهِ الأَوْقَاتِ ويستريح هُوَ وَدَابَّتُهُ فِي غَيرِهَا، فَيَصِلُ المَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَب، واللهُ أعلم.

الشرح:

يقول رسول الله ﷺ: (**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ**) أي: إن دين الإسلام يسر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القمر: ١٧]، فانظروا إلى فرائضه تجدون الصلاة في اليوم خمس مرات على أوقات متباعدة، وتجدون الصيام في السنة مرة، وتجدون الحج في العمر مرة، وتجدون الزكاة إنما تجب على من كان لديه من المال ما بلغ النصاب، وحال عليه الحول فيما يشترط فيه الحولان، أو ما بلغ النصاب فيما لا يشترط عليه الحولان.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، فلا يذهب أحد ويكلف على نفسه.

قال: (**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ إِلاَّ غَلَبَهُ**) أي: أنه من شاد الدين غلبه الدين، فإن المنبت لا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع، ينقطع، يكلف نفسه حتى ينقطع، كالراحلة إذا شددت عليها انقطعت، وإذا رفقت بها وصلت.

ويذكر بعضهم: أنه مر برجل يحتطب أو نحو ذلك، فقال: هل مر أحد من عندك؟ قال: نعم، قال: قبل كم؟ قال: قبل كذا وكذا، قال: هل سألحقهم؟ قال: إن مشيت ببطء لحقتهم، وإن أسرعت لم تدركهم، فقال: هذا مغفل، كيف هذا الخبر؟ إذا مشيت ببطء أدركتهم وإذا أسرعت سبقوني؟ فأراد أن يمشي، فانكسرت رجل بعيرة، وأصبح ينتظر من يمشي معه، بينما لو مش الهوين وصل في الوقت المناسب.

وكثير ممن يتعمقون في الدين آخره الضلال والانحراف، يشد على نفسه بقيام الليل، بصيام النهار، وفي غير ذلك من الأمور، حتى يصاب بالخمول، ويلحقه الفتور، بينما النفس كالراحلة، أعطها راحتها، إذا مرت بالخصب اجعلها تأكل، وإذا مرت بالجدب سارع بها السير.

فهكذا إذا رأيت نفسك تتوق إلى القراءة والطاعة افعل ذلك، وإذا رأيت نفسك عاجزا فلا أدنى من أن تفعل الواجب، وما تيسر من المستحب، كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدِ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ سُنَّةٍ فَقَدْ ضَلَّ**».

قال: (فَسَدِّدُوا) أي: اعملوا السداد في ملازمة الكتاب والسنة.

(وَقَارِبُوا) يعني: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

(وَأَبْشِرُوا) أي من الله بالأجر والثواب والتوفيق.

(وَاسْتَعِينُوا) على الطاعة، **(بِالغَدْوَةِ)** أي: بالصباح، يقوم الإنسان نشيطا، فكما أن المسافر يسافر بالصباح؛ لبرودة الجو ورطوبته وغير ذلك من المميزات كذلك أنت، بادر في الصباح بشيء من قراءة القرآن، شيء من الحفظ، شيء من الدروس، ابق اذكر الله حتى تطلع الشمس في هذا الوقت المبارك، والنفس منشرحة.

(**وَالرَّوْحَةِ**) أي في آخر النهار؛ لأن الإنسان يكون قد ذهب لأعماله الدنيوية، ذهب إلى السوق، وجاء بما يلزم، أو ذهب إلى الدكان وقام بما يلزم، ثم يرجع إلى بيته فيبقى مع الذكر، مع الدعاء، مع غير ذلك.

(**وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**) بالليل، فالليل طويل، والنبي ﷺ من كل الليل قد صلى، من أوله، ووسطه وآخره.

وأيضا قال: (القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا) يعني: امشوا الهوين، ولا تشددوا على أنفسكم إذا أردتم أن تبلغوا آخر الطريق.

١٤٦ - وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الحَبْلُ؟» قالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُلُّوهُ، لِيُصلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشرح:

زينب هي زوج النبي ﷺ.

وفيه إنكار ما لم يكن معهودا من الدين، فإن النبي ﷺ رأى حبلا ممدودا بين الساريتين، والمسجد ينبغي أن يكون مصانا عن ربط الحبال، ووضع ما يؤذي المصلين.

(**فَقَالَ: مَا هَذَا الحَبْلُ؟**) دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، أو أنه لم يسأل عن ماهية الحبل، فالحبل معروف، ولكن سأل لماذا ربط هذا الحبل؟

(**قالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ**) أي لزوجك يا رسول الله، ومع أن النبي ﷺ أنكر على زينب هذا الصنيع، إلا أن في الحديث دليل على أن نساء الصحابة رضوان الله عليهن

(١) أخرجه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

كن في غاية من العبادة والإقبال عليها، فهذه امرأة كانت تصلي من الليل، فإذا فترت تعلقت بالحبال.

فأين رجالنا؟ وأين شبابنا؟ وأين شيوخنا؟ وأين نسائنا؟ كلنا في فتور، ربما لا نأتي بما يلزم.

(فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: حُلُّوهُ) أي: ابعدوه، فيه تغيير المنكر باليد.

(لِيُصلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ) أي في حال قوته.

ومن النشاط أن يصلي قائما أو يصلي قاعدا، كما ثبت على النبي ﷺ أنه كان يفعل ذلك.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري" (١/ ٩٥): وَمُنَاسَبَةُ إِيرَادِ الْمُصَنِّفِ لِهَذَا الْحَدِيثِ عَقِبَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي قَبْلَهُ ظَاهِرَةٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَضَمَّنَتِ التَّرْغِيبَ فِي الْقِيَامِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْأَوْلَى لِلْعَامِلِ بِذَلِكَ أَنْ لَا يُجْهِدَ نَفْسَهُ بِحَيْثُ يَعْجِزُ وَيَنْقَطِعُ بَلْ يَعْمَلُ بِتَلَطُّفٍ وَتَدْرِيجٍ ليدوم عمله وَلَا يَنْقَطِع. اهـ

١٤٧ - وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان يسرية الدين، فإن النبي ﷺ أخبر أن الإنسان عليه أن ينال حظه من النوم.

(١) أخرجه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

(إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي) أي من الرجال والنساء، وهذا في الغالب في قيام الليل.

(فَلْيَرْقُدْ) وهذا الأمر قد يكون للوجوب إذا كان لا يستطيع أن يصلي مطلقا، فقد يكون للإرشاد إذا كان يستطيع مع المشقة.

(حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّومُ) يعني يعطي لنفسه حظه وحقه.

(فإِنَّ أَحَدَكُم إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ) بينما هو يقول: اللهم إني أسألك الجنة وإذا به يقول: المهم إني أسألك النار، صحيح يقع هذا؛ لأن الإنسان إذا علاه النعاس يتكلم بدون شعور وبدون عقل، والله المستعان.

مرة من المرات أطالوا السجود في دماج في قيام رمضان، وبينما هم على ذلك الإطالة صاح أحدهم وهو ساجد: يا الرافضة باتموتون، الشاهد أنه خرج من الصلاة وجاء بالزامل، فغيره كثير، ربما يحصل مثل هذا، والله المستعان.

١٤٨ - وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ النَّبيِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ، فَكَانتْ صَلاتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا. رواه مسلم[1].

قوله: (قَصْدًا): أي بين الطولِ والقِصرِ.

الشرح:

وهذا رسول الله ﷺ، قال: (كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ النَّبيِّ ﷺ) وكان الصحابة يحرصون على الصلاة خلف النبي ﷺ؛ لمحبتهم له، ولوجوب وتعين الجماعة، وجابر بن سمرة يقول: صليت خلف النبي ﷺ أكثر من ألفين صلاة.

(فَكَانتْ صَلاتُهُ قَصْدًا) أي: لا يطيلها حتى يشق على نفسه وعلى غيره.

---

(١) حديث رقم: (٨٦٦).

(وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا) أي: لا يطيلها حتى يشق على نفسه وعلى غيره.

((يعني صلاته كانت متقاربة، ما يطيل حتى يؤدي إلى ملال من خلفه، ولا كذلك في الخطبة يطيل حتى يؤدي إلى سآمة من يسمع، وفي نفس الوقت لا يقصر حتى لا يستفيد أحد، ولا يخشع مصلي، ولكن بين الإطالة والتخفيف، وسيأتي أن قصر الخطبة ممدوح وطول الخطبة مذموم، وطول الصلاة ممدوح في الجمعة وقصر الصلاة مذموم، ولا أحسن من هدي النبي ﷺ، خطبته بنحو سورة (ق)، إلا أن الناس هداهم الله قد يتعجبون من هذا، وإلا لو التزم الإنسان بخطبة مثل سورة (ق) إذا كانوا يتقدمون في الحضور يستفيدونها ويفيدون منها.

لكن المشكلة الآن أن كثيرًا من الناس لا يفقهون، لو قرأت عليهم سورة (ق) سيخرج من المسجد ما هو داري أين الأمر وأين النهي، وأين الوعد وأين الوعيد، الخطيب يبدئ ويعيد ويخرج بعضهم بشيء من الفهم.

وأما بعضهم وكثير منهم الخُطبة عنده إنما زيادة خير، لا يهتم بحضورها، ولا الاستعداد لها، وهذا من ضعف الإيمان، ضعف الإيمان، المؤمن يبكر، ويغتسل، ويمس من الطيب، ويتسوك، وإن كانت فيه أمور تحتاج إلى إزالة، كشعر العانة، وشعر الإبط، وقص الأظفار، وقص الشارب أو حلق الشارب، كل هذا يبادر إليها، بخلاف عوام المسلمين، والله ربما يتخلف عن خطبة الجمعة بقصد شراء القات وبعضهم ربما تفوته صلاة الجمعة من أجل القات، وحين ذلك يقولون: نحن ونحن ونحن يتألمون من الواقع الذي هم فيه، وهم سبب البلاء الذي نزل بهم، المعاصي، فإن المعاصي تذهب البركات، ويضيق معها الصدور، وتشتد معها الفتن)) اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

١٤٩ - وعن أبي جُحَيْفَة وَهْب بنِ عبد اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: آخى النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبي الدَّرْداءِ، فزارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرداءِ فَرَأى أُمَّ الدَّرداءِ مُتبَذِّلَةً، فقَالَ: مَا شَأنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرداءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ في الدُّنْيَا، فَجاءَ أَبُو الدَّرْداءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ لَهُ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أنا بِآكِلٍ حَتَّى تَأكُلَ فأكل، فَلَمَّا كَانَ اللَّيلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرداءِ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ: نَمْ، فنام، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ: نَمْ. فَلَمَّا كَانَ من آخِرِ اللَّيلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُم الآن، فَصَلَّيَا جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيكَ حَقًّا، فَأعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ». رواه البخاري(١).

الشرح:

قوله: (أبو جحيفة) وهو ابن عبد الله السوائي، أسلم في عام الفتح.

(قَالَ: آخَى النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبي الدَّرْداءِ) سلمان هو الفارسي، وأبو الدرداء هو عويمر الأنصاري، من زهاد الصحابة رضون الله عليهم.

(فَزارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرداءِ) وفيه الزيارة في الله عَزَّوَجَلَّ، لا سيما بين المتآخين.

(فَرَأى أُمَّ الدَّرداءِ مُتَبَذِّلَةً) لعل هذا قبل أن يضرب الحجاب، أي رآها غير متزينة لزوجها، غير مهتمة بنفسها، وفي هذا أن المرأة ينبغي أن تتزين لزوجها ولما هو أدعى للرغبة فيها.

(فَقَالَ: مَا شَأْنُكِ؟)أي: ما الذي حملك على هذا الأمر؟

(١) حديث رقم: (٦١٣٩).

(قَالَتْ: أخُوكَ أَبُو الدَّرداءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ في الدُّنْيَا) أي: ليس له حاجة في النساء وفي غيرها، فلذلك لم تبالي بإصلاح محل نظره.

(فَجاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ) أي من خارج البيت.

(فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا) إكراما للضيف.

(فَقَالَ لَهُ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ) أي: متطوعا.

(قَالَ: مَا أنا بِآكِلٍ حَتَّى تَأكُلَ) فيه إيناس الضيف بالأكل معه والشرب معه، فإن ذلك يدخل السرور عليه.

(فَلَمَّا كَانَ اللَّيلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرداءِ يَقُومُ) أي يصلي من أول الليل بعد العشاء.

(فَقَالَ لَهُ: نَمْ) أي: خذ حظك من النوم والراحة.

(فَلَمَّا كَانَ من آخِرِ اللَّيلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُم الآن) أي بعد أخذ الراحة، وهذه الليلة إنما أمره بالنوم؛ لأنه كان بجانبه، وإلا لو أراد في أول الليل أن يكون مع أهله ثم يكون في آخر الليل مع ربه لا حرج، فأعط كل الذي حق حقه.

(فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا) وهذا يدل على فقه سلمان رضوان الله عليه، وهو توحيده، والقيام بأمره على وفق ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به.

(وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيكَ حَقًّا) حتى لا تشق عليها ويؤدي إلى انقطاعها.

(وَلأَهْلِكَ عَلَيكَ حَقًّا) ما تزوجتك إلا من أجل أن تؤدي لها الحق الذي لها.

(فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ) وإلا كنت مسيئا، لا يقول: أنا سأتفرغ لربي، سيكون مسيئا في شرع الله، ويكون مسيئا مع من يختلط به.

قوله: (فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ) لفظ عام، يدخل في جميع شؤون الدين، وقد وصى النبي ﷺ بهذا الحديث عبد الله بن عمرو بن العاص لما كان يصوم النهار ويقوم الليل، قال له بمثل هذا على ما يأتي إن شاء الله.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "فتح الباري" (٤/ ٢١١-٢١٢): وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَشْرُوعِيَّةُ الْمُؤَاخَاةِ فِي اللهِ وَزِيَارَةُ الْإِخْوَانِ وَالْمَبِيتُ عِنْدَهُمْ وَجَوَازُ مُخَاطَبَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ وَالسُّؤَالُ عَمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْمَصْلَحَةُ وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ لَا يَتَعَلَّقُ بِالسَّائِلِ وَفِيهِ النُّصْحُ لِلْمُسْلِمِ وَتَنْبِيهُ مَنْ أَغْفَلَ وَفِيهِ فَضْلُ قِيَامِ آخِرِ اللَّيْلِ وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ تَزَيُّنِ الْمَرْأَةِ لِزَوْجِهَا وَثُبُوتُ حَقِّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ فِي حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَقَدْ يُؤْخَذُ مِنْهُ ثُبُوتُ حَقِّهَا فِي الْوَطْءِ لِقَوْلِهِ وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ثُمَّ قَالَ وَائْتِ أَهْلَكَ وَقَرَّرَهُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ وَفِيهِ جَوَازُ النَّهْيِ عَنِ الْمُسْتَحَبَّاتِ إِذَا خَشِيَ أَنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ وَتَفْوِيتِ الْحُقُوقِ الْمَطْلُوبَةِ الْوَاجِبَةِ أَوِ الْمَنْدُوبَةِ الرَّاجِحِ فِعْلُهَا عَلَى فِعْلِ الْمُسْتَحَبِّ الْمَذْكُورِ وَإِنَّمَا الْوَعِيدُ الْوَارِدُ عَلَى مِنْ نَهَى مُصَلِّيًا عَنِ الصَّلَاةِ مَخْصُوصٌ بِمَنْ نَهَاهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَفِيهِ كَرَاهِيَةُ الْحَمْلِ عَلَى النَّفْسِ فِي الْعِبَادَةِ. اهـ

١٥٠ - وعن أَبي محمد عبدِ اللهِ بنِ عَمْرو بن العاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: أُخْبرَ النَّبيُّ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللهِ لأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلأَقُومَنَّ اللَّيلَ مَا عِشْتُ. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «أنتَ الَّذِي تَقولُ ذلِكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بأبي أَنْتَ وأمِّي يَا رسولَ الله، قَالَ: «فَإنَّكَ لَا تَستَطِيعُ ذلِكَ، فَصُمْ وَأَفطِرْ، وَنَمْ وقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أيَّامٍ، فإنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَذَلكَ مِثلُ صِيامِ الدَّهْرِ»، قُلْتُ: فَإِنِّي أُطيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ، قَالَ: «فَصُمْ يَومًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ»، قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أفضَلَ مِنْ ذلِكَ، قَالَ: «فَصُمْ يَومًا وَأَفْطِرْ يَومًا فَذلِكَ صِيَامُ دَاوُد ﷺ وَهُوَ أَعْدَلُ الصيامِ»، وفي رواية: «هُوَ أَفْضَلُ الصِّيامِ»، فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُطيقُ أفْضَلَ مِنْ ذلِكَ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «لا أفضَلَ مِنْ ذلِكَ»، وَلأنْ أكُونَ قَبِلْتُ الثَّلاثَةَ الأَيّامِ الَّتي قَالَ رَسُول الله ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلي وَمَالي.

وفي رواية: «أَلَمْ أُخبَرْ أنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وتَقُومُ اللَّيلَ؟» قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُول الله، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ: صُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وقُمْ؛ فإنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنَيكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ في كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أيَّامٍ، فإنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ»، فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إنِّي أجِدُ قُوَّةً، قَالَ: «صُمْ صِيَامَ نَبيِّ الله دَاوُد وَلَا تَزد عَلَيهِ»، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ دَاوُد؟ قَالَ: «نِصْفُ الدَّهْرِ»، فَكَانَ عَبدُ الله يقول بَعدَمَا كَبِرَ: يَا لَيتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَة رَسُول الله ﷺ.

وفي رواية: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهرَ، وَتَقْرَأُ القُرآنَ كُلَّ لَيْلَة؟» فقلت: بَلَى، يَا رَسُول الله، وَلَمْ أُرِدْ بذلِكَ إلاَّ الخَيرَ، قَالَ: «فَصُمْ صَومَ نَبيِّ اللهِ دَاوُد، فَإنَّهُ كَانَ أعْبَدَ النَّاسِ، وَاقْرَأ القُرْآنَ في كُلِّ شَهْر»، قُلْتُ: يَا نَبيَّ اللهِ، إنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ؟ قَالَ: «فاقرأه في كل عشرين» قُلْتُ: يَا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ في كُلِّ عَشْر»، قُلْتُ: يَا نبي اللهِ، إنِّي أُطيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ؟ قَالَ: «فاقْرَأْهُ في كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذلِكَ»، فشدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ، وَقالَ لِي النَّبيّ ﷺ: «إنَّكَ لا تَدرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمُرٌ»، قَالَ: فَصِرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أنِّي كُنْتُ قَبلتُ رُخْصَةَ نَبيِّ الله ﷺ.

وفي رواية: «وَإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

وفي رواية: «لَا صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ» ثلاثًا.

وفي رواية: «أَحَبُّ الصِيَامِ إِلَى اللهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُد، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى صَلاةُ دَاوُدَ: كَانَ ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لاقَى».

وفي رواية قال: أَنْكَحَني أَبي امرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ - أي: امْرَأَةَ وَلَدِهِ - فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتقُولُ لَهُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ. فَلَمَّا طَالَ ذلِكَ عَلَيهِ ذَكَرَ ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: «القِنِي بِهِ» فَلَقيتُهُ بَعد ذلك، فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قُلْتُ: كُلَّ يوم، قَالَ: «وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟» قُلْتُ: كُلَّ لَيْلَةٍ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا سَبَقَ.

وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْضِ أهْلِهِ السُّبُعَ الَّذِي يَقْرَؤُهُ، يَعْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ؛ لِيَكُونَ أخفّ عَلَيهِ باللَّيلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أفْطَرَ أَيَّامًا وَأحْصَى وَصَامَ مِثْلَهُنَّ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتْرُكَ شَيئًا فَارَقَ عَلَيهِ النَّبيَّ ﷺ.

كل هذِهِ الرواياتِ صحيحةٌ، مُعظمُها في الصحيحين، وقليل مِنْهَا في أحدِهِما[1].

الشرح:

(عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وهو عابد الصحابة، طعن فيه الزمخشري بغير مبرر، فدافع عنه الشوكاني كما في تفسير سورة هود، قال: من أنت يا محمود؟ وما أنت يا محمود؟ حتى تتناول بيدك القصيرة ورجلك العرجاء نجوم السماء، أتدري على أي جنب سقط؟ وفي أي واد وقعت؟ ثم ذكر من شأنه.

(١) أخرجه البخاري (١١٣١)، و (١٩٧٥)، و (١٩٧٦)، و (١٩٧٧)، و(١٩٧٩)، و(٣٤١٨)، و(٥٠٥٢)، و(٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩).

وفضائل هذا الصحابي عظيمة وجليلة، تشعرك أنه كان عابد الصحابة حقا، فكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يصلي كل ليلة بأربعة أجزاء أو نحو ذلك من القرآن، ولازم أباه ما دام حيا؛ لأمر النبي ﷺ: «**أطع أباك ما دام حيًا**».

ومع ذلك مشى معهم ولم يشارك في حروبهم، لتعلم ورعه، وعدم تأثره، وإلا المجالس يجانس، لما يحضر المجالس وهم يخططون لقتال علي بن أبي طالب ويرى منهم ذلك، ويفعلون، ويخرجون ويدخلون، والرجل جالس على هيئته، يصوم من النهار ويصلي من الليل.

ولما قُتل عمار وجاء القاتل ويبشرهم بقتله قال: لا عليك، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**قاتل عمار في النار، تقتله الفئة الباغية**»، فقال له أبوه: إذًا أنت معنا، قال: أنا معكم ولست أقاتل، فقال معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قتله الذي جاء به، وهذا تأويل، قال الشيخ مقبل رَحِمَهُٱللَّهُ في (الجامع الصحيح): غير مقبول، وإنما قتله الذي قتله.

وقاتل عمار أبو الغادية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، صحابي، لكن الفتنة فتنة، نسأل الله السلامة، وهو راوي حديث: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**»، راوي هذا الحديث ووقع فيما وقع فيه، ومع ذلك لا نقول فيهم إلا: رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا جميعًا، رضي الله عن علي، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعن عمار، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وكانوا أصحاب الحق، ورضي الله عن معاوية وعن من مع معاوية من الصحابة رِضْوَانُ ٱللَّهِ عَلَيْهِمْ، تأولوا.

وأما من زعم أن قتال معاوية لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا جميعا كان لأجل الخلافة فهذا إنما هو مأخوذ من تاريخ الشيعة، أو من تاريخ من تأثر بنقل الشيعة، حتى ولو كان في (البداية والنهاية)، فإن الرواة هم شيعة، كالواقدي والكلبي، وفلان وفلان.

وإلا فالصحيح أن قتال معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لعلي بن أبي طالب كان لأخذ ثأر عثمان، كان يطالب عليا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يسلم قتلة عثمان، وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ معذور، حتى ذكر بعضهم لا أستحضر أين أخذت هذه الفائدة، ذكر بعضهم: أن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تأسف بعد ذلك؛ لأن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال له بمعنى الكلام: اصبر حتى نتمكن من إقامة الدولة، وبعد ذلك نأتي على قتلة عثمان.

لكن في جيش علي ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من قتلة عثمان، كيف يسلمهم؟ كيف يفعل بهم؟ وهم خوارج، إنما انتحلوا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ انتحالا، وإلا ما هم حول علي بن أبي طالب، لكن لو قالوا: نريد الخلافة بدل عثمان من سيقبل منهم في ذاك الزمان؟ ما أحد، ولكن انتحلو علي بن أبي طالب.

ولذلك لما جاءت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا للصلح بين علي بن أبي طالب وبين خصومه قام الخوارج وعملوا المعركة بالليل، وإلا كان قد تم الاتفاق، ولما كان من الليل قسم الخوارج نصف في جهة جيش علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ونصف في جيش أصحاب الجمل، وقام الناس على حرب، لا يدرون ما الذي حصل، فكل يضرب صاحبه، ونشبت المعركة.

وأما قضية التحكيم، وأن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري هذه قصة لا حقيقة لها؛ لأن معاوية لم يكن خليفة في ذلك الزمان، كيف عمرو بن العاص يقول: أنا أثبت صاحبي كما أثبت هذا السيف؟ وذاك يقول: أنا أخلع صاحبي، من يجوز له أن يخلع أمير المؤمنين؟ فتعلمون أن القصة ملفقة.

لم يكن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خليفة، وما كان لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يتنازل بالخلافة، وقد سمع ما قال النبي ﷺ لعثمان بن عفان: «**يا عثمان إن الله ملبسك قميصا، فإذا أرادك المنافقون على نزعه فلا تنزعه**»، كيف ينزعه علي بن أبي طالب؟

ولكن كان الخلاف بين علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وبين معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تسليم قتلة عثمان، يعني كالذي يقول: أعطني قتلة عثمان حتى أتحلل من البيعة التي في ذمتي لعثمان بأخذ دمه، ثم أبايعك على الخلافة، علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عجز عن دفع قتلة عثمان إلى معاوية لقتلهم، ومعاوية كان من أولياء دم عثمان، يطالب بدمه، بإقامة القصاص، فعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عجز، ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لو ترك القتال حتى يستتب الأمر وبايع علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على السمع والطاعة ويطالب بالقتلة وإقامة شرع الله عليهم، لكن قد سبق القدر بما أراد الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا ملخص هذه المسألة؛ لأن التاريخ قد شُوه فيما يتعلق بحروب علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ومع معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا جميعا، والله المستعان.

شرح الحديث:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان تعين القصد في العبادة، سواء القصد في الصيام أو القصد في الصلاة، وألفاظه مفيدة، ولولا العجلة؛ لأتينا عليه لفظا لفظا، لكن يأخذ وقتا، وهو مفهوم، والله المستعان.

إلا أن أشهر ما فيه وجوب إنكار المنكر، وكذلك القصد في العبادة، وكذلك جواز شكوى الرجل ابنه إلى الإمام، أو نحو ذلك، وفيه جواز الكنايات؛ لأن المرأة لم تصرح بصنيع عبد الله معها، وإنما جاءت بألفاظ تدل على أنه لم يأت بحقها الذي تعين لها، ولعلها كانت أكبر منه؛ لأنه كان صغير السن حين الزواج، فلعلها كانت أكبر منه، حتى تمكنت من مثل هذه الألفاظ الجزلة، والله أعلم.

وفيه مراجعة الرجل للقرآن الذي يصلي به من الليل، فإنه كان يراجع مع أهله بالنهار ويصلي بالليل، وفيه كذلك تمنى أن الإنسان لو رفق بنفسه، فإنه بعد أن كبر سنه ورق عظمه عجز عن بعض ما كان يفعل.

وفيه أن الأعمال تتفاضل، فإن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داوود، وأحب الصلاة صلاة داوود، ومع ذلك صلاة النبي ﷺ أفضل، إلا أن طريقة داوود في العبادة كانت جميلة، في تقسيم الليل والنهار في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

١٥١ - وعن أبي رِبعِي حنظلة بنِ الربيعِ الأُسَيِّدِيِّ الكاتب أحدِ كتّاب رَسُول الله ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟! قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بالجَنَّةِ وَالنَّارِ كأنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَالله إنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا.

فانْطَلَقْتُ أَنَا وأَبُو بَكْر حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ، فقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُول اللهِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُول اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ كأنَّا رَأْيَ العَيْن فإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْواجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونونَ عِنْدِي وَفي الذِّكْر لصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفي طُرُقِكُمْ، لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَات. رواه مسلم[(١)].

قولُهُ: (رِبْعِيٌّ) بِكسر الراء. وَ(الأُسَيِّدِي) بضم الهمزة وفتح السين وبعدها ياء مكسورة مشددة.

وقوله: (عَافَسْنَا) هُوَ بِالعينِ والسينِ المهملتين أي: عالجنا ولاعبنا.

وَ(الضَّيْعاتُ): المعايش.

(١) حديث رقم: (٢٧٥٠).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان القصد في العبادة، وذلك أن الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كانوا يكونون مع رسول الله ﷺ على حالة عظيمة، فإذا رجعوا إلى بيوتهم وأزواجهم أعطوا كل ذي حق حقه حتى وجدوا تأثرا في قلوبهم، ومع ذلك فيه خوف الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ على إيمانهم، وتعاهدهم لذلك.

وفيه أيضا رد الفتوى والسؤال إلى العالم؛ حتى يرفع الإشكال.

وفيه قول: (سبحان الله) للتعجب أو للتنزيه.

وفيه أن من شكى عليك أمرا أنك تستفصله، فقوله: **(نَافَقَ حَنْظَلَةُ)** النفاق ذنب عظيم، فإذا أقررته على ما في قلبه، لكن سله قل له: كيف نافقت؟ المنافق ما يقول: أنا منافق، لكن هذا أكيد عنده شيء، فبعضهم ربما يكون مريضا، يتخيل له أنه منافق، وبعضهم ربما ما عرف النفاق، إلى غير ذلك.

فقال له: كيف هذا؟ قال: كنا عند رسول الله صل الله عليه وسلم على إيمان وخشية ومراقبة وتقوى، ونشعر بطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وخشوع الحال فإذا رجعنا عند الأزواج نسينا، ويصبح الإنسان يضحك ويمزح، وغير ذلك، وربما يغفل بعض الشيء في العمل.

فقال أبو بكر: **(فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا)**، ومع ذلك ذهبوا جميعا إلى النبي ﷺ، فأخبرهم النبي ﷺ بقوله:

(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) فيه الحلف بغير استحلاف.

(لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونونَ عِنْدِي): لو تستمرون على ذلك الوقت كما في ذلك الوقت في البيت، في الطريق، في جميع الشأن، **(وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى**

فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ)؛ لأنكم صرتم في درجة عليا، لكن الإنسان يحتاج إلى أن يستمتع في هذه الحياة الدنيا بالمباح.

(لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وسَاعَةً) قلبها العوام: ساعة لربي وساعة لقلبي، هذا ما هو صحيح، الساعات لله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، لكن ساعة تكون على اجتهاد، وساعة تكون على فتور لا ينقص عن السنة، كما تقدم حديث عبد الله بن عمرو: «**فمن كانت فترته إلى سنتي فقد رشد، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد ضل**».

١٥٢ - وعنِ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بينما النَّبيُّ ﷺ يخطب إِذَا هُوَ برجلٍ قائم فسأل عَنْهُ، فقالوا: أَبُو إسْرَائيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ في الشَّمْسِ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَ، وَلَا يَتكَلَّمَ، وَيَصُومَ، فَقَالَ النَّبيّ ﷺ: «مُرُوهُ، فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ». رواه البخاري[(١)].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن الإنسان إذا شدد على نفسه ينبغي أن يُنهى عن ذلك، وينبغي أن يرفق بنفسه.

قوله: (بينما النَّبيُّ ﷺ يخطب) أي للجمعة أو غيرها.

(إِذَا هُوَ برجلٍ قائم) أي في الشمس.

(فسأل عَنْهُ)؛ لأن هنا لا يعلم الغيب، أو لأنه لم يره من بعيد أيضا، يعني عن سبب صنيعه ما الذي يجعله هناك يقوم؟

(١) حديث رقم: (٦٧٠٤).

(نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ وَلَا يَقْعُدَ) طاعة لله، والله عَزَّوَجَلَّ لا يتقرب إليه إلا بما شرع.

(وَلَا يَسْتَظِلَ) وهذا فيه من التكليف ما يؤدي إلى المشقة على الجسم وعلى البدن، وربما أثر وأدى إلى الانقطاع.

(وَلَا يَتَكَلَّمَ) والنبي ﷺ قد نهى عن الصيام بالصمات، كما سيأتي معنا.

(وَيَصُومَ) الدهر.

(مُرُوهُ) أي: انهوه عن ذلك، (فَلْيَتَكَلَّمْ) يعني الكلام المشروع.

(وَلْيَسْتَظِلَّ) أي من الشمس الحارة المحرقة، ومن البرد القارص.

(وَلْيَقْعُدْ) راحة لجسمه.

(وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ) هذا إذا كان صومه ذلك اليوم، أما إذا نوى صوم الدهر فإنه يُنهى عن صيام الدهر، والله المستعان.

هل كان النبي ﷺ يعلم الغيب؟ لا، والدليل هذه الأحاديث التي قرأناها، والنبي ﷺ يسأل عن أمور لا يعلمها، وأيضا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [سورة النمل: ٦٥].

سؤال: هل تذكر سببا من أسباب تكفير العلماء للساحر؟ الساحر كافر، لماذا كافر؟ لأنه يدعي علم الغيب، فهذه أحد الأوجه في تكفير الساحر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ [سورة لقمان: ٣٤].

سؤال: الآن نقول بل هو المعتقد: خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في الغد إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولا يعلم بأي أرض تموت إلا الله، ونذهب بنسائنا إلى الأطباء والطبيبات، وربما قالوا: هذه المرأة

حامل بذكر، وهذه المرأة حامل بأنثى، فكيف الآن؟ هذا غيب أو ما هو غيب؟ ليس بغيب؟ إذا هو ما هو غيب سأعرف في البيت أن زوجتي حاملة بذكر أو بأنثى، لكن غيب، كيف ما هو غيب؟ غيب نسبي، غيب بالنسبة لغير الطبيب، وأما الطبيب فإنه يمسك الجهاز، يمرروه على بطن المرأة، ثم ينظر في التلفاز الذي أمامها أو الكمبيوتر أو الشاشة التي أمامه، فيرى ذكر الذكر أو فرج الأنثى، مفهوم؟

إذًا لا يقال: بأن الأطباء توصلوا، ثم أيضا متى يعرف الأطباء بهذا؟ بعد الأربعة الأشهر، أليس في حديث عبد الله بن مسعود بعد الأربعة الأشهر يكتب رزقه أجله وعمله، وذكر أو أنثى، وشقي أو سعيد؟ إذًا قد خرج من علم الله كونه ذكرا أو أنثى إلى علم الملائكة، ثم خرج بهذه الأجهزة إلى علم الإنسان، مفهوم أو لا؟

قد يخطئون وقد يصيبون، لكن الواقع لا يلزم أننا نقول: بأنهم ادعوا الغيب المطلق فيكفرون؛ لأن هذا أمر يراه الطبيب، وقد يصيب وقد لا يصيب.

سؤال: ما هو قول القدرية في الغيب الذي يعلمه الله قالوا: يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات؟ أول شيء قالوا: يعلم الأشياء بعد وقوعها، فكفر العلماء أصحاب هذا القول بنص حديث ابن عمر: إذا لقيتهم فأخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء.

والشافعي يقول: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، فإن أنكروا كفروا.

لكن بعد أن خُصموا بهذه المسألة قالوا: الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، فنُوقشوا في هذه في: أن كل ما في هذا العالم يعتبر جزئي؛ لأن الكليات أشياء ذهنية، وأما الجزئيات هي الأشياء الموجودة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩]، فالله بكل شيء عليم.

سؤال: هات حديثا على أن النبي ﷺ أنكر على من زعم أنه يعلم الغيب، وفينا رسول الله يعلم ما في الغد، فأنكر عليها النبي ﷺ؛ لأنه لا يعلم ما في الغد.

هذه مسألة مهمة، مسألة الاعتناء بهذه المسألة في علم العقيدة، وأن الغيب ينقسم إلى قسمين: الغيب المطلق لا يعلمه إلا الله، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧﴾ [سورة الجن: ٢٦-٢٧].

والغيب النسبي الله عَزَّوَجَلَّ يعلمه ويعلمه من شاء من عباد الله، فالغيب النسبي قد يكون بالنسبة لي غيب ولك ليس بغيب، فمثلا ما في جيبك من النقود بالنسبة لي غيب، لكن بالنسبة لك ما هو غيب، تعلم ما في جيبك.

فعند أن ينكر أهل السنة ادعاء علم الغيب يريدون به الغيب المطلق الذي اختص الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه.

ونختم بهذه المسألة: كم هي مفاتح الغيب؟ خمسة، كما في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في البخاري: «**مفاتح الغائب خمسة لا يعلمهن إلا الله**».

أين ذكرت هذه الخمسة المفاتح؟ في آخر سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [سورة لقمان: ٣٤].

سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

١٥ - باب في المحافظة عَلَى الأعمال

أي: الصالحة، لأن المحافظة على الأعمال الصالحة والثبات عليها حتى الممات هو النافع للعبد؛ لأن الإنسان عمله بخواتيمه، كما قال النبي ﷺ: «**الأعمال بالخواتيم**»، فمهما وقع منه من البلاء وخُتم له بالعمل الصالح فهو إلى خير، ومهما وقع منه من العمل الصالح وختم له بالشرك فهو على شر وضير، وإن ختم له بالمعاصي والبدع فيما دون المكفر فهو على خطر.

والنبي ﷺ كان عمله ديمة، كان إذا عمل عملا أثبته.

ثم إن الانقطاع علامة ضعف الإيمان؛ لأن الإنسان كلما انقطع عن العمل الصالح ضعف إيمانه بقدر انقطاعه، فمثلا لو أن إنسانا ضيع النوافل خسر الأجور العظيمة في هذه العبادات، ولو ضيع الفريضة لا سيما الصلاة مرق من الإسلام، وإن ضيع التوحيد كذلك.

فراقب نفسك كيف أنت مع العمل الصالح؟ فإذا كنت اليوم في إقبال وغدا في فتور فهذا الفتور نذير شر، لكن قد يفتر الإنسان طبيعة، قال النبي ﷺ: «**لكل عمل شرة**»: نشاط، «**ولكل شرة فترة**»: فتور وخمول وكسل، «**فمن كانت فترته إلى سنتي فقد رشد**» يعني: يفتر لكن لا يقع فتوره إلى ترك الواجبات، أو ارتكاب المحرمات.

يفتر مثلا: بدل ما كان يصلي في الليل إحدى عشر ركعة أصبح يصلي خمس، ثلاث، ركعة، بدل أن كان مثلا يقرأ من القرآن كذا وكذا جزء أصبح يقرأ ما تيسر.

قال النبي ﷺ: «**فمن كانت فترته إلى سنتي فقد رشد**» يعني إذا لم يترك الواجب؛ لأن النبي ﷺ، صلى من كل الليل، وأوتر بثلاث عشرة، وبإحدى عشرة، وبتسع، وبسبع، بل ظاهر حديث حذيفة أنه أوتر بواحدة، قرأ فيها البقرة والنساء وآل عمران،

فمن كان فترته إلى سنة النبي ﷺ فقد رشد، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقط ضل.

فهذه آية من آيات الله العظيمات جعلها الله في العبد يعرف بها قوة إيمانه من ضعفه، إذا كنت ملازما للطاعات والقربات فإيمانك إن شاء الله على خير؛ لأن الحسنة تجر إلى حسنة، وإذا كنت تفتر فأنت على غير ذلك؛ لأن السيئة تجر إلى سيئة، والله المستعان.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ **[سورة الحديد: ١٦].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ **[سورة الحديد: ٢٧].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ **[سورة النحل: ٩٢].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ **[سورة الحجر: ٩٩].**

الشرح:

(﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾) الآية: انظر إلى هذا العتب العظيم من ربنا عَزَّوَجَلَّ على عباده المؤمنين، قال ابن مسعود: لم يكن بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه السورة إلا أربع سنوات، وهم هم، فكيف بنا نحن؟ فينبغي المسلم أن تخشع جوارحه وقبل ذلك قلبه.

(﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾): لطاعة الله، (﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾): القرآن.

(﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾): اليهود والنصارى.

(﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾) يعني البعد عن النبوة والرسالة والعلم.

(﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾) بسبب إعراضهم.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَفَّيْنَا﴾أي: بعد الرسل المتقدمين كموسى ونوح وإبراهيم ومن إليهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾وهو آخر أنبياء بني إسرائيل.

(﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾) وهو كتاب الله المنزل عليه، لكن قد حُرف وبدل.

(﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ﴾): رقة، (﴿وَرَحْمَةً ﴾) للناس بأنفسهم.

(﴿وَرَهْبَانِيَّةً ﴾) الرهبانية (﴿ٱبْتَدَعُوهَا ﴾)، وهو: التنسك في الصوامع والبيَع.

(﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾) ما كتبها الله عليهم، لكن هم ابتدعوها (﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾) لكن مع ذلك هل رعوها وقاموا بها كما أمر الله؟ لا، ضيعوها، (﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾): **فالشاهد**: أن الإنسان ينبغي له أن يراعى نعمة الله عليه بملازمة الطاعة والقربة.

(﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾) هذا مثلا للعمل الصالح، الذي يعمل الصالحات ثم كلما تقادم به العمر كسل وفتر وأعرض مثل التي تخيط تخيط، وتعمل غزل، وفي آخر المطاف تعمل به هكذا تنكثه وتفتحه، فلا استفادت منه ولا كسبت وقتها، فالله يقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [سورة النحل: ٩٢]، صار لا شيء.

(**وَقَالَ تَعَالَى**: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾) وهذا أمر للنبي ﷺ هو أمر لأمته، أي: اعبد الله ولازم ذلك حتى تموت، ليس كما يقول بعض الصوفية: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: ٩٩] أي: منزلة تترك فيها العمل الصالح، هذا

كلام باطل، ما هناك منزلة يُترك فيه العمل الصالح أبدًا، بل كلما ازداد العبد يقينا كلما ازداد قربا من الله وبعدا عن هوى النفس.

وَأَمَّا الأَحاديث فمنها:

حديث عائشة: وَكَانَ أَحَبُّ الدِّين إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي البَاب قَبْلَهُ.

الشرح:

(وَكَانَ أَحَبُّ الدِّين إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيهِ) أي كان أحب العمل إلى النبي ﷺ هو الذي يداوم عليه صاحبه، ولو القليل، قليل دائم خير من كثير منقطع، هذا مثل عند العامة ومعناه صحيح، لأن تبقى محافظا على ما أوجب الله أو ما شرع الله في أدنى المراتب الواجبة أهون من أن تشدد على نفسك ثم تنقطع عن العمل الصالح.

١٥٣ - وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيلِ، أَوْ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيلِ». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

أي: من قُدر أنه نام عن قيام ليله أو عن طاعته بليله إما لمرض أو لغلبة نوم أو نام عن شيء منه **(فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهْرِ)**: إن كان قد ترك الصلاة يصليها بعد طلوع الشمس، وإن كان ترك قراءة القرآن يقرأها ما بين الفجر والظهر، في أي وقت كان، **(كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيلِ)**، وهذا الذي يفعله محافظ على العبادة

(١) حديث رقم: (٧٤٧).

محافظ على العمل، ما يقول: فاتني خلاص تركته، لا، يحافظ عليه، ويأتي به قضاء إن لم يكن أداء.

١٥٤ – وعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَا عبدَ اللهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلان، كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيامَ اللَّيلِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

الشرح:

وانظر إلى حرص النبي ﷺ على نصح أصحابه، مع أن عبد الله بن عمرو كان صغير السن في ذلك الحين، لكن أراد منه النبي ﷺ الاستمرار في الطاعة.

(لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلان) فيه جواز الكلام للنصيحة والبيان، فيه جواز الجرح.

وهل قال النبي ﷺ: **(لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلان)** أو قال له: لا تكن وسمى الرجل؟ الذي يظهر أنه سماه، وإنما روى الراوي على الإبهام.

(كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ) تطوعا، **(فَتَرَكَ قِيامَ اللَّيلِ)**.

١٥٥ – وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنَ اللَّيلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً. رواه مسلم[(٢)].

الشرح:

انظر قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك ترك قيام الليل لمرض ألمَّ به، أو لتعب أرهقه في سفره، ومع ذلك كان يصلي من النهار ثنتي عشرة ركعة قضاء، وصلى اثنتي عشرة ركعة؛ لأنه لا يصلح وتر في النهار.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) حديث رقم: (٧٤٦).

١٦ - باب في الأمر بالمحافظة عَلَى السنة وآدابها

وهذا من أهم الأبواب، وهو باب جامع، والسنة: هي طريقة النبي ﷺ القولية والفعلية والاعتقادية، فإذا سمعت من يقول لك: حافظ على السنة فالمراد به: دين الله الذي أنزله على محمد ﷺ.

والسنة تدل على اسمين: السنة على معناها العام، وهي طريقة النبي ﷺ، والسنة بمعناها الخاص عند الفقهاء وهي المستحبات، لكن إذا وجدت أهل الحديث: عليكم بالسنة، تمسكوا بالسنة، اعتقدوا السنة، المراد بها: الواجبات في العقائد، والواجبات في الأخلاق، والواجبات في الأعمال، كما أنها تدل أيضا على المستحبات، فكل فعل النبي ﷺ سنة لنا، مما هو من الدين، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وهل في الإسلام سنة حسنة؟ السنة الحسنة: إحياء سنة النبي ﷺ؛ لقول النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**».

وأما تقسيم البدع إلى بدعة حسنه وبدعة سيئة هذا تقسيم مبتدع؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلاله في النار**»، والنبي ﷺ يقول: «**إياكم ومحدثات الأمور**».

والدعوة إلى السنة من المهمات، لا سيما مع كثرة المخالفين لها، فلو تأملت الأمة الآن لرأيت العجب العجاب، انظر إلى أبي عبيد القاسم بن سلام يقول: وأما المتمسك بالسنة اليوم قليل، أبو عبيد من أتباع التابعين، ومع ذلك يقول: المتمسك بالسنة اليوم قليل، كيف لو دخل في عهدنا، انظروا إلى تألم ابن تيمية، إلى تألم الذهبي، إلى تألم ابن القيم، إلى تألم الإمام أحمد، إلى تألم من بعدهم ومن قبلهم، يتألمون على ضعف التمسك بالسنة.

انظر إلى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إنكم لتعملون أعمالا هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله وسلم من الموبقات، وقالوا له: يا أنس أتنكر من أعمالنا شيئا؟ قال: لا أعرف من أعمالكم إلا أنكم تجتمعون في الصلاة، يعني تقصير.

رأى تقصيرا في الأمه في زمنه، فكيف بزماننا هذا؟ إن أتينا إلى العقائد فسدت إلا من رحم الله، في طائفة يسيرة من الناس، نُزَّاع من القبائل، نزاع في المدن، نزاع في الدول، وإلا العقائد فاسدة، هذا رافضي، وهذا صوفي، وهذا جهمي، هذا أشعري، وهذا خارجي، وهذا مرجئ، وهذا ناصبي، وهذا حزبي، وحدث ولا حرج، بدع في الأقوال، وبدع في الأفعال، وبدع في المعتقدات، وبدع في العقائد، وبدع في الصلاة، وبدع في المعاملات، إلا ما رحم ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فتعين على الناس الحض على السنة، والدعوة إليها، والترغيب فيها، فإن أهل السنة صفوة الناس، وهم خير الناس للناس؛ لأنهم يدعون إلى اتباع رسول الله ﷺ، كما قال سفيان: وجدنا الأمر كله في الاتباع، لا يدعون إلى أنفسهم، ولا يدعون إلى مشايخهم، ولا يدعون إلى طائفة، ولا يدعون إلى مسجد، ولا يدعون إلى كتاب بحد ذاته، يدعون إلى دين الله، يدعون إلى طريقة رسول الله ﷺ، يدعون إلى عمارة المساجد كما عمرها رسول الله ﷺ.

هذا هو مقصودنا، لا يدعون إلى مسجد يعني: مسجد بذاته من أجل تكثير سواد أو نحن ذلك، لا، هم يدعون إلى إقامة دين الله الحق في جميع شؤونهم.

ويذكر عن الأوزاعي: أنه رأى الله في المنام، فقال: يا رب أمتني على الإسلام، قال: وعلى السنة يا أوزاعي، على السنة، الإسلام كل يدعيه.

وكل يدعي وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

لكن السنة هي الفيصل، أن تقاس أعمالنا بأعمال رسول الله ﷺ، أن تقاس أقوالنا بأقوال رسول الله ﷺ، أن تقاس عقائدنا بعقيدة رسول الله ﷺ، هذا هو المقياس، ليس المقياس كثرة الكلام، ولا كثرة التصنيف، ولا كثرة التأليف، ولا كثرة الأتباع، السنة أن تكون موافقا للنبي ﷺ ولو كنت وحدك، ولذلك لما سئلوا عن الجماعة قال: أن تكون على السنة ولو كنت وحدك.

والسنه تحتاج إلى آداب، أهل السنة ينبغي أن يكونوا على غاية من الأدب، مع الله، ومع رسوله، ومع الناس؛ لأنهم يتخلقون بأخلاق وآداب رسول الله ﷺ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [سورة الحشر: ٧].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم: ٣-٤].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [سورة النساء: ٦٥].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

قَالَ العلماء: معناه إِلَى الكتاب والسُنّة.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [سورة النساء: ٨٠].

وَقالَ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ **[سورة الشورى: ٥٢-٥٣].**

وَقالَ تَعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[سورة النور: ٦٣].**

وَقالَ تَعالَى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ **[سورة الأحزاب: ٣٤].**

والآيات في الباب كثيرة.

الشرح:

(﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾) وهذا دليل قاطع على وجوب تعظيم السنة والأخذ بها، سواء السنة الأمرية أو السنة المنهية التركية؛ لأن النبي ﷺ له أفعال وله متروكات، فإذا تأسيت بالنبي ﷺ في الفعل فأنت على خير، وإذا تأسيت به أيضا في الترك فأنت على خير.

وأمر النبي ﷺ على الوجوب، ونهي النبي ﷺ على التحريم، إلا أن تأتي قرينة تصرفه من ذلك.

(﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾) أين هم الذين يزعمون أن القرآن هو المأخوذ به فقط وأما السنة لا يلتفت إليها؟ هذا القرآن يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم: ٣]، أي رسول الله ﷺ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٤]، يتكلم بوحي الله، ويدعو لدين الله، ولو تكلم بالخطأ لصوبه الله عَزَّوَجَلَّ.

(﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾): إن كنتم تحبون الله حقا فاتبعوا رسول الله ﷺ صدقا؛ لتقع لكم محبة الله، وتقع لكم مغفرة الذنوب وستر العيوب.

وأما إذا قلت: أنا أحب الله وأنت صوفي قبوري، أو ساحر مشعوذ، أو عرَّاف، أو تحارب الكتاب والسنة قولا وفعلا، أو غير ذلك، هذا محبة مدعاة، قد ادعاها اليهود والنصارى، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [سورة المائدة: ١٨]؟ المحب يلازم ما يحبه محبوبه.

فالله عَزَّوَجَلَّ يحب التوحيد، يحب الطاعات، ويبغض المعاصي والسيئات، والله عَزَّوَجَلَّ يحب المتابعة لرسول الله ﷺ.

(﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾) أي: قدوة، الرسول لكم قدوة، لمن يرجو الله، يرجو ثوابه، يرجو رضاه، يرجو طاعته، **(واليوم الآخر)** يرجوا الكرامة في ذلك اليوم، يكون أسوته رسول الله ﷺ.

(﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾) أي: لا يكفي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل زد على ذلك: أن لا تجد في نفسك حرجا من حكم الله وحكم رسوله ﷺ.

وهذا قسم من الله بنفسه المقدسة، **(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ)** الإيمان الكامل، **(حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)**، وينقص إيمان العبد بقدر رده لسنة النبي ﷺ، فمنهم من يكون إيمانه ذاهبا بالكلية، ومنهم دون ذلك.

وفي هذا دليل على وجوب محبة ما شرع الله وأنزل، وأن فيه الخير العظيم، وأن دين الله قائم على الإسلام والاستسلام.

(﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾) والمراد برده إلى الكتاب والسنة؛ لأن النبي ﷺ قد قبض، والرد إلى الله: إلى كتابه، والرد إلى رسول ﷺ: إلى سنته من بعده.

(﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾)؛ لما جاء في الحديث: «**فإن من طاعة الله طاعتي**»، ولأن الله أمر بطاعة رسول الله ﷺ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة المائدة: ٩٢].

(﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾) أي أن محمدا ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم، وإلى دين قوي، وإلى شرعة عظيمة، صراط الله الذي أوحاه الله وبينه، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [سورة الفاتحة: ٧]..

(﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾) وهذا وعيد من الله لمن ترك سنة النبي ﷺ أن تصيبهم فتنة، ولا أعظم من فتنة الابتداع، أصابتهم فتنة الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

(﴿ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾) في الدنيا بالتفرق والتمزق، والآصار والأغلال التي يتحملونها، وفي الآخرة في عذاب جهنم، نسأل الله السلامة والعافية.

(﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾) هذا أمر لزوجات النبي ﷺ، وهو أمر للأمة، ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٤]: القرآن، (وَالْحِكْمَةِ): السنة، والمراد بذكر القرآن والسنة: العمل بهما.

وَأَما الأحاديث:

١٥٦ - فالأول: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ واخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

الشرح:

(دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ) أي: اتركوني ما تركتكم.

وهذا له سبب، وذلك أن النبي ﷺ قال: «إن الله فرض عليكم الحج فحجوا»، قالوا: يا رسول الله في كل عام؟ قال: «لو قلت نعم؛ لوجبت، ولما استطعتم، دعوني ما تركتكم»، أي: ذروني، واتركوني، لا تسألوني عن أشياء لم ينزلها الله ولم يشرعها الله، فربما فُرضت عليكم فعجزتم عن حملها.

(إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) أي اليهود والنصارى.

(كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ): كثرة مسائلهم لأنبيائهم، أما القرآن ما فيه إلا أربعة عشر موطنا: ويسألونك، ومع ذلك عاتبهم الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [سورة المائدة: ١٠١]، وقال أنس: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن أمر، وكان يعجبنا أن يجي الرجل من أهل البادية يسأل ونحن نسمع.

(واخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبيَائِهِمْ) أي: ومما أيضا سبب ضلال أهل الكتاب اختلافهم على أنبيائهم، إذا أمروهم بأمر خالفوه، وإذا نهوهم عن نهي ارتكبوه.

(فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ) أي: منعتكم من شيء، (فَاجْتَنِبُوهُ) والنهي: هو طلب الكف، لا تشرب، طلب كف الشرب، لا تقم، طلب كف عن القيام، فالنهي هو طلب

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

الكف، وإذا نهي الإنسان عن شيء وجب اجتنابه إن كان حراما، واستحب اجتنابه إن كان مكروها.

(وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) الأمر: طلب الفعل.

والنهي يشمل الحرام والمكروه، فإذا كان طلب الترك على وجه الإلزام فهو الحرام، وإذا كان طلب الترك لا على وجه الحرام فهو المكروه، وإذا كان طلب الفعل على وجه الإلزام فهو الواجب، وإذا كان طلب الفعل لا على وجه الإلزام فهو المستحب، وبقية الأمور مباحة.

(وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) هذا موافق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، ونحو ذلك، وهذا من رحمة الله بعباده أنه لا يكلف نفسا إلا ما آتاها.

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":

وهذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام وقواعده العظام.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ الْمُهِمَّةِ، وَمِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي أُعْطِيَهَا ﷺ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْأَحْكَامِ كَالصَّلَاةِ بِأَنْوَاعِهَا، فَإِذَا عَجَزَ عَنْ بَعْضِ أَرْكَانِهَا أَوْ بَعْضِ شُرُوطِهَا أَتَى بِالْبَاقِي، وَإِذَا عَجَزَ عَنْ بَعْضِ أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ أَوِ الْغُسْلِ غَسَلَ الْمُمْكِنَ، وَإِذَا وَجَدَ بَعْضَ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْمَاءِ لِطَهَارَتِهِ أَوْ لِغَسْلِ النَّجَاسَةِ فَعَلَ الْمُمْكِنَ، وَإِذَا وَجَبَتْ إِزَالَةُ مُنْكَرَاتٍ أَوْ فِطْرَةَ جَمَاعَةٍ من تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُمْ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، وَأَمْكَنَهُ الْبَعْضُ فَعَلَ الْمُمْكِنَ، وَإِذَا وَجَدَ مَا يَسْتُرُ بَعْضَ عَوْرَتِهِ أَوْ حَفِظَ بَعْضَ الْفَاتِحَةِ أَتَى بِالْمُمْكِنِ؛ وَأَشْبَاهُ هَذَا غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ، وَالْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَصْلِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢] فَفِيهَا مَذْهَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

وَالثَّانِي وَهُوَ الصَّحِيحُ أَوِ الصَّوَابُ وَبِهِ جَزَمَ الْمُحَقِّقُونَ: أَنَّهَا لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، بَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦] مُفَسِّرَةٌ لَهَا وَمُبَيِّنَةٌ لِلْمُرَادِ بِهَا، قَالُوا: وَحَقَّ تُقَاتِهِ هُوَ امْتِثَالُ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ، وَلَمْ يَأْمُرْ سبحانه وتعالى إِلَّا بِالْمُسْتَطَاعِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: ٧٨] وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: (وَاذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ) فَهُوَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، فَإِنْ وُجِدَ عُذْرٌ يُبِيحُهُ كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، أَوْ شُرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ، أَوَ التَّلَفُّظِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ إِذَا أُكْرِهَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَيْسَ مَنْهِيًّا عَنْهُ فِي هَذَا الْحَالِ وَاللهُ أَعْلَمُ. [اهـ من "الإبهاج"].

١٥٧ - الثاني: عن أَبِي نَجيحٍ العِرباضِ بنِ سَارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ موعظةً بَليغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رسولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ». رواه أَبُو داود والترمذي، وَقالَ: حديث حسن صحيح[1].

(النَّواجذُ) بالذال المعجمةِ: الأنيَابُ، وَقِيلَ: الأضْراسُ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، والحديث في (الصحيح المسند) لشيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

الشرح:

قوله: (العرباض بن سارية) هو من الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة التوبة: ٩٢].

(وَعَظَنَا رسولُ اللهِ ﷺ مَوعظةً بَليغَةً) ولعلها في غير خطبة، والموعظة هي التي تحتوي على الترغيب والترهيب، بخلاف الدروس العلمية فقد تكون فيها تعليم العبادات.

(بَليغَةً)؛ لأن النبي ﷺ أفصح من نطق بالضاد، وأوتي قوة وحجة في هذا الباب.

وأيضا يتواطأ قلبه ولسانه في حال وعظه ﷺ.

(وَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ) أي: خشعت، وخضعت، وخافت، واطمأنت، وغير ذلك من معاني الوجل.

(وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ) أي: بكاء من خشية الله عَزَّوَجَلَّ، ومما رُهبوا به، ومما طُمعوا فيه.

(فَقُلْنَا: يَا رسولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا) يعني استشعروا أن النبي ﷺ يودعهم، ويوشك أن يفارقهم، فطلبوا منه الوصية، وفيه طلب الوصية من الفاضل، من العالم، من الشيخ؛ لما في ذلك من المنافع.

(قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ) بدأ بها؛ لأنها مفتاح كل خير، أوصى الله بها نبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [سورة الأحزاب: ١]، وأوص الله بها الأمة المتقدمة والمتأخرة، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: ١٣١]، وإذا أُطلقت فالمراد بها فعل مأمور وترك المحظور.

(وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ) لولي الأمر المسلم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ) مع أن الأئمة من قريش، لكن إذا استتب الأمر لغير القرشي وجب طاعته في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختِلافًا كَثيرًا) من دلائل نبوة النبي ﷺ، فقد وقع الاختلاف في أواخر عهد الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

(فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي) أي: بطريقتي، الزموها في جميع شؤونكم، تفلحوا.

(وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّنَ) أي: طريقتهم في فهم الكتاب والسنة، والعمل بالكتاب والسنة، سموا بالراشدين؛ لملازمتهم الرشد والهدى، والمهديين؛ لأنهم اهتدوا بكتاب الله وبسنة رسوله صل الله عليه وسلم.

(عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ) كناية عن شدة التمسك، وذكر النواجد دون غيرها؛ لأن غير النواجد قد تتكسر أو تنخلع لشدة الجذم، أما الناجذ فإنه شديد التمسك، وهي الأضراس الداخلية.

(وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ) نهى النبي ﷺ عن كل محدثة في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

(فإنَّ كلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَة) جاءت رواية: «وكل ضلالة في النار».

وخير الأمور السالفات على وشر الأمور المحدثات البدائع

وهذا الحديث حوى العلاج والمرض والحمية، الحمية: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختِلافًا كَثيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ».

والمرض: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَة».

والعلاج تقدم: «فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ».

١٥٨ - الثَّالِثُ: عَنْ أَبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أبَى». قيلَ: وَمَنْ يَأبَى يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «مَنْ أطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أبَى». رواه البخاري(١).

الشرح:

هذا حديث عظيم، من الذي يأبى الجنة؟ لو قلت لليهودي والنصراني: تريد الجنة؟ يقول: نعم، لكن النبي ﷺ يقول: «كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أبَى» هل معناه أن هناك أناس يقال له: ادخل الجنة يقول: لا ما أريد؟ ما هناك، لكن يأباها بلسان حاله لا مقاله، فكم من إنسان يريد الجنة بلسان مقاله، وهو بلسان حاله قد أباها، قم صل، ما يرضى يصلي، صم، ما يصوم، حج، لا يحج، وحد الله، ما رضي يوحد الله، فمن عصى رسول الله ﷺ كان من الآبين لجنة الله التي أعدها للمتقين، إذا كانت معصيته كفرًا.

(قيلَ: وَمَنْ يَأبَى يَا رَسُول الله؟) تعجب الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ! من يأبى الجنة مع ما فيها من النعيم المقيم والخير العظيم العميم.

(قَالَ: مَنْ أطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أبَى) لأن طاعة النبي ﷺ طاعة لله، ومعصية النبي ﷺ معصية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح الباري" (١٣/ ٢٥٤): فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ إِسْنَادَ الِامْتِنَاعِ إِلَيْهِمْ عَنِ الدُّخُولِ مَجَازٌ عَنْ الِامْتِنَاعِ عَنْ سُنَّتِهِ وَهُوَ عِصْيَانُ الرَّسُولِ ﷺ.. وَالْمَوْصُوفُ بِالْإِبَاءِ وَهُوَ الِامْتِنَاعُ إِنْ كَانَ كَافِرًا فَهُوَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَصْلًا وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا فَالْمُرَادُ مَنْعُهُ مِنْ دُخُولِهَا مَعَ أَوَّلِ دَاخِلٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله تعالى. اهـ

---

(١) حديث رقم: (٧٢٨٠).

١٥٩ – الرابع: عن أَبي مسلم، وقيل: أَبي إياس سَلمة بنِ عمرو بنِ الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَجُلًا أكَلَ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينكَ» قَالَ: لا أسْتَطيعُ. قَالَ: «لَا استَطَعْتَ» مَا مَنَعَهُ إلاَّ الكِبْرُ فَما رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. رواه مسلم[١].

الشرح:

سلمة بن الأكوع هو من خيرة الصحابة، وله مواقف عظيمه في نصرة النبي ﷺ، وفي نصرة دين الله، وكان عداءً، أي: سريع العدو، حتى أنه لا يسبق، وربما سبق الخيل، إلى غير ذلك.

وقصته مع الأنصاري مشهورة، إلا أن الوقت لا يتسع لها، وذلك أن الأنصاري قال: من يسابق؟ قالوا له: يا فلان أما ترقب كل شريف؟ أو نحو هذا، قال: من يسابق؟ فسبقه سلمة بن الأكوع، ثم جلس ينتظره، وهو يجري، يجري، يجري، يجري، يتركه حتى يجاوزه بمدة ثم يقوم يجري وراه ويلطخه في قفاه ويجلس يرتاح، وذاك يجري، يجري وهو يلحقه، وهكذا، كان عدَّاءً شديد العدو.

أدرك كتيبة كاملة من المشركين بنفسه حين غزوا المدينة وأخذوا نعم النبي ﷺ، ولحقهم سلمة بن الأكوع، فجعل يأخذ منهم كل ما أخذوه، ويمشي، يُعَلِّم، وفي آخر اليوم قال لهم: أنا ابن الأكواع، واليوم يوم الرضع، قالوا له: أكوع بكرة، يعني: من الصباح وأنت ورانا إلى الليل، وأدركهم، وأخذ منهم كل ما أخذوا.

ولما قال النبي ﷺ: «من قتله له سلبه»، ذلك الرجل الجاسوس، فقام وقطع رأسه سريعا، فكان شجاعا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) حديث رقم: (٢٠٢١).

(أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ بِشِمَالِهِ) والواجب الأكل باليمين؛ لأن الأكل بالشمال تشبه بالشيطان الرجيم، نسأل الله السلامة والعافية، وما أكثر الناس الآن الذين يأكلون بشمائلهم، ويشربون بشمائلهم، ويناولون بشمائلهم، وكأن الأمر عندهم من المسلمات، مع أن النبي ﷺ يقول: «**إذا أكلت فكل بيمينك، وإذا شربت فاشرب بيمينك**»، وذكر أن الشيطان يناول بشماله ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله.

(فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ) فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(لَا استَطَعْتَ) دعا عليه النبي ﷺ.

قال: هَذَا الرَّجُلُ هو بسر - بضم الباء وبالسين المهملة - بن رَاعِي الْعَيْرِ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَبِالْمُثَنَّاةِ الْأَشْجَعِيُّ، كَذَا ذكره ابن منده وأبو نعيم الأصبهاني وابن مَاكُولَا وَآخَرُونَ، وَهُوَ صَحَابِيٌّ مَشْهُورٌ، عَدَّهُ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

وَأَمَّا قَوْلُ الْقَاضِي عِيَاضٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ قَوْلَهُ: مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُنَافِقًا فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَإِنَّ مُجَرَّدَ الْكِبْرِ وَالْمُخَالَفَةِ لَا يَقْتَضِي النِّفَاقَ وَالْكُفْرَ، لَكِنَّهُ مَعْصِيَةٌ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ أَمْرَ إِيجَابٍ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ بِلَا عُذْرٍ.

وَفِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي كُلِّ حَالٍ حَتَّى فِي حَالِ الْأَكْلِ، وَاسْتِحْبَابُ تَعْلِيمِ الْآكِلِ آدَابَ الْأَكْلِ إِذَا خَالَفَهُ كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الَّذِي بَعْدَ هَذَا.

إذًا على هذا أنه صحابي، وإنما وقع في معصية فدعا عليه النبي ﷺ.

١٦٠ - الخامس: عن أَبي عبدِ الله النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «لَتُسَوُّنَّ صُفُوفكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

وفي رواية لمسلم: كَانَ رَسُول الله ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا القِدَاحَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ. ثُمَّ خَرَجَ يَومًا فقامَ حَتَّى كَادَ أَنْ يُكَبِّرَ فرأَى رَجلًا بَاديًا صَدْرُهُ، فَقَالَ: «عِبَادَ الله، لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ».

الشرح:

(النعمان بن بشير) هو وأبوه صحابيان.

الحديث في تسوية الصفوف، لكن ساقها المصنف؛ لبيان أن مخالفة سنة النبي ﷺ سبب لتنافر القلوب والأبدان، وانظروا إلى هذا البلاء الحاصل الآن في الأمة من تنافر القلوب والأبدان، ربما يحصل بمثل هذه البدعة، فما بالكم إذا كان الناس قد خالفوا النبي ﷺ في الواجبات، وكذلك كثير من العبادات.

وفيه أن تألف القلوب وتنافر القلوب بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الأنفال: ٦٣].

١٦١ - السادس: عن أَبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: احْتَرَقَ بَيْتٌ بالمَدِينَةِ عَلَى أهْلِهِ مِنَ اللَّيلِ، فَلَمَّا حُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بشَأنِهِمْ، قَالَ: «إنَّ هذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإذَا نِمْتُمْ، فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(٢)].

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٤)، ومسلم (٢٠١٦).

(أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنهُ) وهو عبد الله بن قيس، وقد تقدم.

ساق المصنف الحديث؛ لبيان أن مخالفة أمر النبي ﷺ في إشعال النار في البيت عند النوم ربما يؤدي إلى احتراق البيت واحتراق من فيه، نسأل الله السلامة والعافية.

وأذكر أني مرة كنت في دماج، وأشعلت شمعة أقرأ عليها شيئًا من الكتاب حتى غلبني النوم، وما صحيت إلا والشمعة قد أخذت طريقها في الفرش، وهو من لطف الله أني قمت، ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة الرعد: ١١]، أحيانا يوقظك الله عَزَّوَجَلَّ بملائكته.

فالشاهد: أني قمت، فلما رأيت النار أمام وجهي مشتعلة لم أتمالك إلا أني ضربت عليها بيدي، وانطفأت النار، لكن كان تحتها هذا حق الشريط، بلاستيك، كان فيها بلاستيك، فالتصقت بيدي، والحمد لله على السلامة.

(احْتَرَقَ بَيْتٌ بالمَدِينَةِ عَلَى أهْلِهِ مِنَ اللَّيلِ) فلحقهم الضرر بسبب هذا الحريق.

(فَلَمَّا حُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بشَأنِهِمْ) فيه جواز نقل الأخبار إلى الأمير والإمام ونحوهم.

(إنَّ هذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ) يعني تهلك الحرث والنسل إذا تمكنت منه.

(فَإِذَا نِمْتُمْ) أي: رقدتم، **(فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ)** ومعنى ذلك: إذا أردتم أن تناموا، أما أن تطفئها وأنت نائم هذا لا يستطيعه أحد، لكن إذا نمتم فأطفئوها.

وهل هذا الحكم عام حتى في هذه الأنوار؟ لو عمل به الإنسان إن شاء الله أنه داخل في الأجر، مع أن هذه الأنوار قد تكون فيها السلامة، لا سيما وهي معدة ومجهزة.

وأيضا قد ثبت أن الفأرة تشعل على أهل البيت بيتهم، ربما تمشي وتأخذ الفتيلة وتمر بها بين الملابس، وتحرق البيوت.

١٦٢ – السابع: عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْم كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسَكَتِ المَاء فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقُوا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائفةً مِنْهَا أُخْرَى إنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(فَقُهَ) بضم القافِ عَلَى المشهور وقيل بكسرِها: أي صار فقيهًا.

الشرح:

هذا حديث عظيم، حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متفق عليه، فيه ضرب الأمثال.

(إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى) يعني من الدين الحق.

(والعِلْم) أي العلم النافع، القرآن والسنة.

(كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أرْضًا) والناس يتنوعون كما أن الأراضي تتنوع، فمنها أراضي طيبة ومنها أراضي خبيثة، والناس منهم الطيب ومنهم الخبيث، ومنهم السهل ومنهم الحزن، فأعلى هذه الطبقات في الناس وفي الأراضي الذي يقبل ويعمل، فالأرض الطيبة تقبل الماء، وتنبت الثمر والعشب، فينتفع الناس منها ثمرا وعشبا وأكلا، وغير ذلك، وتحفظ الماء أيضا، كما أن الإنسان الطيب يحفظ القرآن والسنة، فيعمل بهما وينفع غيره، نفعه لنفسه ويتعدى إلى غيره، فهذه هي الأرض الأولى: (طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ): القرأن والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ) الذي ترعاه الدواب، هذا مثل، والمراد به: أن صاحب القرآن والسنة عمل وعلم.

(وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ) أجادب: مثل بعض الأودية التي لا ينبت فيها شيء من الثمار، لكن تمسك الماء.

(أمسَكَتِ المَاء فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَربُوا مِنْهَا وَسَقُوا وَزَرَعُوا) الناس استفادوا وهي لم تستفد، وهذا مثل عالم لم يعمل بعلمه، ربما يكتب ويؤلف ويصنف ويحقق ويفيد، لكن هو في نفسه غير مستفيد، مع أنه يفيد الناس، لكن ما زال في خير.

(وَأَصَابَ طَائفةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قيعَانٌ) مثل السواحل هذه التي ترونها أمامكم.

(قيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً) لو تصب فيها ليل نهار، يضيع الماء، وإن تغرس فيها الثمار والأشجار وترعى ما تستطيع تفعل شيئا؛ لأنها ليست بمحل استجابة، وهكذا قلوب بعض الناس، القرآن يتلى عليه، والآيات تتلى عليه، ما يمسك منها شيئا، تأتي إلى العمل ما عنده شيء.

(فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بمَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ) يعني المثل الأول الطائفة الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

(وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) فإذا رأيت من نفسك محبة للخير فاعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ أراد بك الخير ووفقك للخير.

١٦٣ – الثامن: عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتونَ مِنْ يَدَيَّ». رواه مسلم[(١)].

(الجَنَادِبُ): نَحوُ الجرادِ وَالفَرَاشِ، هَذَا هُوَ المَعْرُوف الَّذِي يَقَعُ في النَّارِ.

وَ(الحُجَزُ): جَمْعُ حُجْزَة وَهِيَ مَعْقدُ الإزَار وَالسَّراويل.

الشرح:

وهذا مثل ثان ضربه النبي ﷺ؛ لبيان المتبعين لسنة النبي ﷺ، وأنهم يسلمون من الوقوع في النار، ومثل لمن لم يتبع النبي صل الله عليه وسلم ولم يستفد من مواعظه وزواجره ودعوته، كمثل الجنادب التي تنش عن النار وهي تقذف نفسها في النار، نسأل الله السلامة والعافية.

وما أكثر الناس الذين يخالفون أمر النبي ﷺ، ويلقون في النار، يلقون أنفسهم في النار، وإن لم يكن الآن في الدنيا فهم يأهلونها لنار الآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

١٦٤ – التاسع: عَنْهُ: أنَّ رَسُول الله ﷺ أَمَرَ بِلَعْقِ الأَصَابعِ وَالصَّحْفَةِ، وَقَالَ: «إنَّكُمْ لا تَدْرونَ في أَيِّها البَرَكَةُ». رواه مسلم[(٢)].

وفي رواية لَهُ: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أذىً، وَلْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيطَانِ، وَلا يَمْسَحْ يَدَهُ بالمنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أصَابعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي في أيِّ طَعَامِهِ البَرَكَةُ».

---

(١) حديث رقم: (٢٢٨٥).

(٢) حديث رقم: (٢٠٣٣).

وفي رواية لَهُ: «إِنَّ الشَّيطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيءٍ مِنْ شَأنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أذَىً، فَلْيَأكُلْهَا وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيطَانِ».

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن أخذ سنة النبي ﷺ بركة بركة في الأقوال، وبركة في الأعمال، وبركة في الأرزاق، وبركة في الأجور، وبركة في جميع الشأن، فإذا كان أخذ لقمة من الأرض ومسح تلك اللقمة إذا وقع فيها شيء من الأذى بركة فكيف بمن يأخذ القرآن؟ كيف بمن يأخذ السنة؟ كيف بمن يصلي؟ كيف بمن يصوم؟ كيف بمن يوحد الله عَزَّوَجَلَّ؟ فهذا الحديث ساقه؛ لبيان بركة السنة.

وانظر إلى ما نحن فيه من الخير، كم مع المخالفين لسنة النبي ﷺ من الأموال والعقارات والأتباع ومع ذلك لا يصل كلامهم كما يصل كلام أهل السنة، ولا تنتشر مؤلفاتهم كما تنتشر مؤلفات أهل السنة، ولا ينتشر خيرهم كما ينتشر خير أهل السنة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن وجعله مباركًا، وكذلك السنة جعلها مباركة.

١٦٥ - العاشر: عن ابن عباس رَضِيَالله عَنْهُمَا، **قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُول الله** ﷺ **بِمَوعِظَةٍ، فَقَالَ:** «**يَا أيُّهَا النَّاسُ، إنَّكُمْ مَحْشُورونَ إِلَى الله تَعَالَى حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤]، **ألا وَإنَّ أَوَّلَ الخَلائِقِ يُكْسَى يَومَ القِيَامَةِ إبراهيمُ** ﷺ، **ألا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرجالٍ مِنْ أُمَّتي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أصْحَابِي، فَيُقَالُ: إنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [سورة المائدة: ١١٧] **إِلَى قولِهِ:** ﴿ٱلْعَزِيزُ

ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة: ١١٨]، فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(غُرْلًا): أي غَيرَ مَخْتُونِينَ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن البعد عن السنة سبب لعذاب الله عَزَّوَجَلَّ للعبد يوم القيامة، وسبب لصرف العبد عن كذلك الاستفادة من شفاعة رسول الله ﷺ، ومن الشرب من حوض النبي ﷺ.

قال: (قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ بِموعِظَةٍ) أي بترغيب وترهيب.

(فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ) ويجوز: يا أيها الذين آمنوا، ويا عباد الله، كلها قد وردت عن النبي ﷺ.

(إِنَّكُمْ مَحْشُورونَ إِلَى الله تَعَالَى) أي: يوم القيامة، والحشر هو الجمع إلى الله تعالى.

(حُفَاةً) أي: لا نعال لكم، (عُرَاةً) أي: لا ملابس عليكم، (غُرْلًا) أي: غير مختنين، وقد جاء في بعض الروايات: «بهما» أي: ليس لديكم شيء من المال.

(﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾)؛ لأن الإنسان إذا خرج من بطن أمه يخرج لا نعل معه، ولا لباس عليه، ولا كذلك قد خُتن، ولا مال له.

(ألا وَإنَّ أَوَّلَ الخَلائِقِ يُكْسَى يومَ القِيَامَةِ إبراهيمُ ﷺ) وهذا يدل على فضيلة لإبراهيم في هذا الباب، وليس معنى ذلك أنه أفضل من النبي ﷺ، لكن ربما يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

للمفضول فضيلة في بعض الشيء، فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أحرقه الكفار بالنار؛ جازاه الله عَزَّوَجَلَّ بأن كساه أول الخلق يوم القيامة؛ كرامة له.

(أَلا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجالٍ مِنْ أُمَّتي) يعرفهم النبي ﷺ إما بسيماهم، أو بغير ذلك مما هم عليه.

(فَيُؤخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمالِ) أي: إلى النار، لأن أصحاب الشمال هم أصحاب النار، وأصحاب اليمين هم أصحاب الجنة.

(فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي) فيه شفاعة النبي صل الله عليه وسلم لأمته، ورحمته بهم.

(فَيُقَالُ: إنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ) يعني أنهم قد غيروا وبدلو، أحدثوا بدعا كفرية، وأحدثوا في دين الله ما لم يأذن به الله، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [سورة الشورى: ٢١]، فكان جزاؤهم هذا الجزاء السيء، نسأل الله العافية.

(فَأَقُولُ كَما قَالَ العَبدُ الصَّالِحُ) أي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الله قال له: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾: كنت مطلعا عليهم لما كنت بين أظهرهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: قبضتني ورفعتني إليك يا رب، ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة المائدة: ١١٦-١١٧].

وليس معنى الوفاة هنا أنه قبضه وأماته، فمن عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله رفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيًا، وينزل في آخر الزمان.

(فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ) فيه أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب؛ لعرف أنهم قد ارتدوا، وهذا رد على الصوفية ومن إليهم الذين يدعون النبي ﷺ.

وفيه أن الردة من أسباب غضب الله وسخطه، وأن الأعمال بالخواتيم، نسأل الله السلامة.

١٦٦ – الحادي عشر: عن أَبي سعيد عبد الله بن مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنِ الخَذْفِ، وقالَ: «إنَّهُ لا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا يَنْكَأُ العَدُوَّ، وإنَّهُ يَفْقَأُ العَيْنَ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية: أنَّ قَريبًا لابْنِ مُغَفَّل خَذَفَ فَنَهَاهُ، وَقالَ: إنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَن الخَذْفِ، وَقَالَ: «إنَّهَا لَا تَصِيدُ صَيدًا»، ثُمَّ عادَ، فَقَالَ: أُحَدِّثُكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى عَنْهُ ثُمَّ عُدْتَ تَخذفُ؟ لا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا.

الشرح:

حديث متفق عليه، ساقه المصنف؛ لبيان قبح مخالفة السنة، وأن السلف رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كانوا يهجرون المخالفين للسنة، الآن تقول له: هذا مبتدع اهجره يقول: يا أخي يصلي، ربكم واحد، كتابكم واحد، نبيكم واحد، وأنتم أمة واحدة، أمة واحدة لكن يجب عليه أن يستقيم على أمر الله عَزَّوَجَلَّ، هذا يهجره بسبب الخذف، رمي الحصى الصغير؛ لأنه لم يلتزم هدي النبي ﷺ، وعبد الله بن عمر يحجر ولده؛ لأنه قال: والله لنمنعهن، مخالفة لأمر النبي صل الله عليه وسلم.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٠)، ومسلم (١٩٥٤).

فالإنسان ينبغي أن يعظم شأن السنة، ويحب من أحب سنة النبي ﷺ وعظم سنة النبي ﷺ، ويبغض من أبغض سنة النبي ﷺ أو حارب سنة النبي ﷺ، مقياس الناس بالكتاب والسنة ليس المقياس عندنا بجمال، ولا مال، ولا عظم جسم، ولا طول بيت، ولا كثرة أتباع.

مقياسنا الكتاب والسنة، من طبق الكتاب والسنة فهو حبيبنا، وإن كان أبعد الناس، ومن خالف الكتاب والسنة فهو بغيضنا وإن كان أقرب الناس، هذا هو، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

فإذًا حين ينتقد علينا أهل البدع وعوام الناس: لماذا تهجرون فلان؟ ولماذا تحذرون من فلان؟ السنة أمرتنا بهذا، السنة أمرتنا ببغض من خالفها، وبحب من وافقها، النبي ﷺ يقول: «**المرء مع من أحب**»، وسيأتي معنا فضيلة الحب في الله، الحب لأهل السنة والبغض لأهل البدعة.

وفيه: (نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنِ الخَذْفِ) أي: حرم الخذف.

لماذا؟ ما الحكمة من ذلك؟ **(إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ)**، ترمي به لا يقتل الصيد، وإنما يفعله من باب اللعب.

(وَلَا يَنْكَأُ العَدُوَّ) لا يقتل لك عدوا أو يرد عدوا.

(وإِنَّهُ يَفْقَأُ العَيْنَ) ربما يفقأ عين ولدك، عين صاحبك، عين جارك.

(وَيَكْسِرُ السِّنَّ) ويبقى صاحبه مكسور السن، مشوه، بسبب مخالفة السنة.

(أَنَّ قَرِيبًا لابْنِ مُغَفَّل خَذَفَ فَنَهَاهُ) فيه النهي عن المنكر، وفيه الغضب لله.

(وَقَالَ: إِنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَنِ الخَذْفِ، وَقَالَ: إِنَّهَا لَا تَصِيدُ صَيدًا) بيَّن له الحكمة في ذلك.

وفيه النصيحة قبل الهجر، وفيه إقامة الحجة على الجاهل وتعليمه.

١٦٧ - وعَن عابس بن رَبيعة، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُقَبِّلُ الحَجَرَ يَعْنِي: الأَسْوَدَ - وَيَقُولُ: إني أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَلَولا أَنِّي رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان عظم ما عليه السلف من تعظيم أمر النبي ﷺ، إذ أنهم كانوا يفعلون ما يفعل، حتى وإن رأوا أن هذا الحجر لا ينفع ولا يضر، لكن كون النبي ﷺ فعل وقبل الحجر إذًا نحن نقبل الحجر، وكون النبي ﷺ مشى من عند الركن اليماني ومسحه إذًا نمسح الركن اليماني.

وكون النبي ﷺ لبس إلى دون الكعب نلبس إلى دون الكعب، كون النبي ﷺ لبس العمامة نلبس عمامة، كون النبي ﷺ دعا إلى مكارم الأخلاق نلزم مكارم الأخلاق، وهكذا في جميع شأننا علينا أن نلازم هدي النبي ﷺ.

(وَيَقُولُ: إني أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ) فيه رد على من يزعم أن التبرك بالكعبة والتبرك بآثار الكعبة، إنما يطاف بها طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

(وَلَولا أَنِّي رَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ) وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ رأى النبي ﷺ يقبل الحجر ما ترك تقبيله، حتى أنه جاءه رجل فقال: يا عبد الله أرأيت إن صُددت؟ أرأيت إن رجعت؟ قال: اجعل أرأيت في اليمن، أما أنا فقد رأيت النبي ﷺ يقبله، فما أزال أقبله حتى ألقى النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

الشاهد: أن الأحاديث في فضل السنة كثيرة، وإنما هذه إشارات ذكرها النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وإلا فدين الله عَزَّوَجَلَّ قائم على توحيد الله، وعلى متابعة رسول الله ﷺ، ولا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه متابعة لرسوله ﷺ.

ولو كان خالصا لله غير متابع لرسول الله يرد على صاحبه، وإن كان متابعا لرسول الله ﷺ غير خالص لله يرد على صاحبه، إذًا لا بد من الإخلاص والمتابعة في جميع الأحوال والأقوال.

١٧ - باب في وجوب الانقياد لحكم الله وما يقوله من دُعِيَ إِلَى ذلِكَ، وأُمِرَ بمعروف أَوْ نُهِيَ عن منكر

لا أفضل من العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن الإنسان إذا تحاكم إلى كلام الله وكلام رسوله صلى الله وسلم ناله الخير في الدنيا والآخرة، وليس معنى التحاكم أن فلان يأتي يطلبك وأنت تذهب تخاصمه، وهذا من التحاكم، لكن التحاكم إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: أن تأخذ به في العقيدة، في العلم، في العمل، في المعاملات.

والتحاكم إلى سنة رسول الله ﷺ: أن تعمل بها في الاعتقاد، والعمل، والعبادات، والمعاملات.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ **[سورة النساء: ٦٥]**.

وَقال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **[سورة النور: ٥١]**.

الشرح:

(﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾) نفى الله عَزَّوَجَلَّ الإيمان عن أناس يقولونه بألسنتهم ولكنهم أبوا أن يتحاكموا إلى رسول الله ﷺ في شأنهم، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي

قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [سورة النساء: ٦٠-٦٣].

فالإنسان يجب عليه أن يتحاكم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ بعد موت رسول الله ﷺ، وهذه الآية نزلت في شأن الزبير تخاصم مع رجل من الأنصار، ولعل الحديث يأتي، فقال النبي ﷺ: «**اسق يا زبير، ثم سرح الماء إلى جارك**»، فأنزل الله الآية.

(﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾)؛ لعلمهم أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحيف في حكمه، وأن النبي ﷺ لا يحيف في حكمه، ولعلمهم أن الهدى في حكم الله وحكم رسوله ﷺ، حتى وإن كان الحكم عليك فأنت الرابح؛ لأنك سلمت من معرة أخذ مال الناس بالباطل.

بعضهم الآن يعني لا يعتبر الحكم له إلا إذا أخذ الأرض، أو إذا أخذ ما اختلف عليه، لا، الحكم لك في جميع الحالات، فإن أعطيت الأرض التي خاصمت من أجلها أو السيارة أو المال الذي خاصمت من أجله وهو حق لك الحمد لله، وإن مُنعت شيئا ليس لك كنت تريده فأنت رابح، قال النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**».

وفيه من الأحاديث: حديث أَبِي هريرة المذكور في أول الباب قبله وغيره من الأحاديث فِيهِ.

يشير إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَن شَيْءٍ فَدَعُوهُ**». رواه مسلم.

١٦٨ - عن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُول الله** ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٤] **الآية اشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُول الله** ﷺ **فَأَتَوا رَسُول الله** ﷺ **ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أيْ رسولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاةَ والجِهَادَ والصِّيامَ والصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِهِ الآيَةُ وَلا نُطيقُها. قَالَ رَسُول الله** ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتَابَينِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا:** ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ **[سورة البقرة: ٢٨٥]**».

فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القومُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى في إثرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥]، **فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأنزَلَ الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، **قَالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦] **قَالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [سورة

البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ. رواه مسلم[(١)].

الشرح:

قوله: (لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُول الله ﷺ) أي هذا القرآن، دليل على أن القرآن كان ينزل منجما حسب الوقائع.

(﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾) أي: لله ملك السماوات والأرض وما فيها، (﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾) مما يدور في أنفسكم (﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾)؛ لعلمه به، واطلاعه عليه.

فشق ذلك على الصحابة، كيف يحاسبنا بشيء لم نقله ولم نتلفظ به؟

(فَأَتَوا رَسُول الله ﷺ) فيه أنهم يعودون إلى أهل العلم قبل أن يُحدثوا شيئا.

(ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ)؛ خوفا من الله، وخوفا من وعيده.

(فَقَالُوا: أيْ رسولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الأعمَالِ مَا نُطِيقُ) ظنوا أن هذه الآية لا تطاق ولذلك خافوا على أنفسهم؛ لأن ما من مسلم إلا وله خواطر وله أشياء في قلبه، ربما إذا تلفظ بها أردته.

(الصَّلاةَ والجِهَادَ والصِّيامَ والصَّدَقَةَ) هذا دليل على أن الدين يسر؛ لأنهم قالوا: ما نطيق.

(أتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكتَابَينِ): اليهود والنصارى.

(مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ٩٣].

(١) حديث رقم: (١٢٥)، وأخرجه أيضا مسلم بنحوه عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(بَلْ قُولُوا: سَمِعنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ) سمعنا أمرك وأطعنا وامتثلنا بالفعل، (غفرانك): يسألون الله عَزَّوَجَلَّ الغفران والرحمة والتجاوز والستر، (ربنا): يا ربنا؛ لأن الرب معناه في حق المؤمن: الحافظ، الذي يعفو ويصفح ويكلأ، (وإليك المصير): أي الرجوع يوم القيامة.

(فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القومُ) يعني جعلوا يدعون بها في جميع يومهم.

(﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾) أي: كلهم آمنوا بما أنزل الله.

(وَمَلائِكَتِهِ) وهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦]، خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور، كما في حديث عائشة.

(وَكُتُبِهِ) المنزلة على أنبيائه ورسله، وهي كثيرة لا يعلمها إلا الله، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [سورة الحديد: ٢٥].

(وَرُسُلِهِ): الرسل الذين أرسلهم، ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [سورة النساء: ١٦٤].

(﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾)؛ لأن من فرق بين أحد منهم كفر، ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء: ١٠٥] وهم كذبوا قومهم.

(﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾) أي سمعنا أمرك والتزمنا فعله.

(﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾) سألوه المغفرة والتجاوز.

(﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾): العودة يوم القيامة.

(فَلَمَّا فَعَلُوا ذِلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعالَى) فيه دليل على النسخ، نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ القرآن بالسنة، واليهود والرافضة يزعمون أن لا نسخ، ويقولون بالبداء على الله عَزَّوَجَلَّ، والصحيح أن لا بداء، فالله بكل شيء عليم، وينسخ ما شاء، ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ

ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [سورة البقرة: ١٠٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ إذا نسخ آية إما أن يأتي بما هي خير منها.

والمراد بالخيرية أحيانا: أن يكون التخفيف من الحكم الأول، كما خفف الله عَزَّوَجَلَّ عنهم حين أمرهم بالصيام، وكان من نام قبل أن يأكل يحرم عليه الأكل طول اليوم والليلة، وحرم عليهم غشيان نسائهم بالليل ثم أباح لهم.

وقد يكون الخير: أن يفرض أكثر ليؤجروا، كما كان عليهم صيام يوم عاشوراء ثم فرض الله عليهم صيام رمضان.

(**فَأنزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ**: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾) وهذا بمعنى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: ٧]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، وهذا رد على قول الطحاوي: ولا يطيقون إلا ما كلفهم، هذا غير صحيح، فهم يطيقون أكثر من ذلك.

(﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾) لها ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر والضير.

(﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾) فيه أن الخطأ والنسيان مرفوع، «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»، الحديث ضعيف بإجماع أهل العلم، والعمل عليه؛ استدلالا بهذه الآية.

(**قَالَ: نَعَمْ**) أي أن الله قال: نعم، وفي حديث ابن عباس: قال: قد فعلت، أي: لا أؤاخذكم إن نسيتم أو أخطأتم.

(﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾) الأصار والأغلال هي الأحمال التي لا تطاق، (﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾): اليهود والنصارى، وقد رفع الله الآصار والأغلال عن هذه الأمة.

(﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾) أي: لا نطيقه ولا نستطيعه، افرض علينا ما يكون تحت قدرتنا.

(﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾) اعف عنا واصفح لما تقدم من ذنوبنا، (واغفر لنا): استرها وتجاوزها، (وارحمنا) فيما يأتي.

(﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾) في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٦]، ومن كان الله وليه حفظه ونصره وثبته.

(﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾) من اليهود والنصارى وغيرهم من الزنادقة الملحدين، نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله.

في هذه الأيام جاءت الهند بقانون جديد، قانون سيء: أي مواطن هندي ما عنده أوراق تثبت أنه هندي خلاص، لا سيما إذا كان من المسلمين، يذهب يبحث له عن وطن، ومن لجأ إلى الهند من أي دولة وكان من الكافرين مقبول، إذا كان من المسلمين غير مقبول.

لكن نستبشر بهذه الآية: (﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **قَالَ: نَعَمْ**) سينصر الله الإسلام وإن بقي أصحابه في ذلة بعض الأحيان، فما عليهم إلا أن يصبروا، ويستنصروا بالله عَزَّوَجَلَّ، ويرفعوا أكف الضراعة، ويتوسلوا إلى الله بأسمائه وصفاته، بأسماء القهر والغلبة والقوة والقدرة، أن يسلمهم من مكر الماكرين، يتوسلون في دعاء السلامة بالرحمة والكرم، وغير ذلك، والإحسان، ويتوسلوا بإهلاك عدوهم بأسماء العظمة والكبرياء والجلال.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يجعل كلمته هي العليا إلى يوم الدين.

١٨ - باب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور

وهذا من الأبواب المهمة؛ لأن كثير من الناس يقول: دينكم واحد، نبيكم واحد، كتابكم واحد، ربكم واحد، نعم ربنا واحد، ونبينا واحد، وكتابنا واحد، وديننا واحد، لكن يجب علينا أن نؤمن بالله كما أمر الله وأخبر، ونؤمن برسول الله ﷺ كما أمر الله وأخبر، ونؤمن بالإسلام كما شرع الله عَزَّوَجَلَّ، والحذر من البدع؛ لأنها سبب سبيل الضلال، سبيل تسلط الشيطان على العبد.

وفيها استدراك على الله وعلى رسوله، كأن المبتدع يقول: الله عَزَّوَجَلَّ لم يتم الدين حتى أتيت أنا بهذه البدعة، والرسول ﷺ لم يأت بالدين كما يجب ولم يعمل به كما يجب حتى أتينا بهذه البدعة، فمؤداها خطير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة الشورى: ٢١].

فالبدع منكرة، وكان النبي ﷺ في كل خطبة يقول: «**وإياكم محدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**».

ومن قسم الدين إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة تقسيمه باطل، فليس في الدين بدعة حسنة، الدين فيه سنة وبدعة، ما كان من عند الله وعند رسول الله ﷺ وأجمع عليه الصحابة فهو سنة، وما كان دينا لم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ به فليس بسنة.

وأما جاء في حديث جرير: «**من سَن في الإسلام سنة حسنة**» فالمراد بها: أحيا سنة بعد أن أميتت؛ لأن الصدق كان معمول بها، وجاء ذلك الرجل وعمل بها فأجر.

والبدعة بدعتان: بدعة مكفرة، وبدعة مفسقة، هذا التقسيم عليه ربما إجماع الأمة، إن لم نقل إجماعا نقول: جمهور العلماء؛ لأن البدع منها ما يخرج من الإسلام كبدعة الجهمية، والقرامطة، والرافضة، وغلاة الصوفية.

ومنها ما لا يخرج من الإسلام، كالحزبيين، والأشعريين، والمعتزلة، مع أن لازم البدعة الكفر، لكن هذا تقسيم أهل العلم، فلا بد من فهم القرآن والسنة بفهم أهل العلم.

وكثير من العلماء لم يكفروا الخوارج، مع أنهم مبتدعة، والأحاديث في ذمهم عن النبي صل الله عليه وسلم كثيرة، ولم يكفروا النواصب، بل صلوا خلف الحجاج وهو ناصبي، إلى غير ذلك.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [سورة يونس: ٣٢].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: ٥٩]، **أَيِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

وَالآياتُ فِي البَابِ كَثيرةٌ مَعلُومَةٌ.

الشرح:

(﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾) الحق في السنة، والضلال في البدعة.

(﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾) هذا على تفسير من قال: بأن المراد بالكتاب: القرآن، وإلا فإن بعض أهل العلم يرى أن الكتاب المراد به هنا: اللوح المحفوظ.

الشاهد: أن البدع والمحدثات مذمومة؛ لأن الله قد أتم الدين.

(﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾) (إلى الله) أي: إلى كتابه، (وإلى الرسول) أي: إلى سنته بعد مماته.

(﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾) (صراطي) أضافه إلى نفسه وأفرده؛ لأن طريق الله واحد، مستقيم أي: يوصل إلى المطلوب، ما فيه اعوجاج، بخلاف طرق المبتدعة فإنها معوجة، والمعوج أولا: بعيد المسافة، ثانيا: سبب للانزلاق.

(﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾) أي: الزموه.

(﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾) جمع السبل؛ لكثرتها، طرق الشيطان.

(﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾): عن طريقه.

(﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾) تقدم في بعض المواطن أنها تسمى بآية المحنة، كما في درس (فتح المجيد).

فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]: تزعمون ذلك.

﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١] الزاموا سنة النبي ﷺ وهديه وطريقه.

﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [سورة آل عمران: ٣١] فالسنة من أسباب محبة الله، ومن أسباب غفران الذنوب، وستر العيوب، ولذلك يقول الناس: السنة ستر، كثير من الناس يقولون: السنة ستر.

وَأَمَّا ٱلْأَحادِيثُ فَكَثِيرَةٌ جدًا، وَهيَ مَشْهُورَةٌ فَنَقْتَصِرُ عَلَى طَرَفٍ مِنْهَا:

١٦٩ – عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ في أمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أمرُنا فَهُوَ رَدٌّ».

الشرح:

قوله: (مَنْ أَحْدَثَ) أي: من ابتدع، (في أمْرِنَا): في ديننا.

(هَذَا) أشار إليه؛ لقربه.

(مَا لَيْسَ مِنْهُ) أي ما لم يكن في القرآن والسنة.

(فَهُوَ رَدٌّ) أي: مردود على صاحبه.

وكما أن الحديث «إنما الأعمال بالنيات» أصل في صلاح الباطن، فحديث «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أصل في صلاح الظاهر، فلا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ من الأعمال إلا ما كان على نية صالحة وطريقة متبعة لرسول الله ﷺ.

(وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيهِ أمرُنا فَهُوَ رَدٌّ») هذه الرواية أعم؛ حتى لا يأتي آت ويقول: أنا ما أحدثت، إنما عملت ببدعة قد وُجدت قبلي، فيستدل عليه بهذا المعنى.

وهذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، بل إن النووي رَحِمَهُٱللَّهُ ذكر في شرحه لمسلم: أنه من الأحاديث التي ينبغي أن يحفظها الناس، وأن تشاع بين الناس، حتى أن البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في كتابه في كتاب الأحكام ذكر هذا الحديث، أي أن القضاء إذا كان على غير كتاب وسنة رسوله صل الله عليه وسلم فهو مردود.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

فستطيع أن تستدل بهذا الحديث في رد الشركيات، والبدع والخرافات، البدع القولية، والبدع الفعلية، والبدع الاعتقادية.

* **وقلت في شرحي على "صحيح مسلم"**:

وغوير بين اللفظين: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) أن المحدث حدثه مردود عليه، فإذا قدر أن أحدهم قال: أنا لم أحدث وإنما تابعت غيري يقال له: قد قال النبي ﷺ: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) أي عمل في شؤون الدين، أما الشؤون الدنيوية قد قال النبي ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»، فمسائل العادات الشأن فيها واسع، ومسائل العبادات الشأن فيها مضيق.

فإذا قيل لك: ما الدليل؟ في مسألة من مسائل العادات فقل له: عدم الدليل دليل؛ لأن الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: ٢٩]، وإذا قيل لك: ما الدليل؟ في مسألة العبادات إن كنت مثبتا فأته بالدليل الذي ورد، وإن كنت تنكر عليه إحداثه قل له: العبادة تفتقر إلى دليل، الدليل منك أنت، أنت المطالب بالدليل، المحدِث هو المطالب بالدليل على إحداثه؛ لأن العبادة مبناها على الدليل.

عند أن نفتي في مسألة الأذان، الصلاة، الصيام، الحج، الاعتكاف، غير ذلك، نقول: والدليل قول النبي ﷺ، فإذا جاء أحدهم ويقول: حي على خير العمل في الأذان نقول له: بدعة، فإذا قال: ما الدليل على أنها بدعة؟ نقول: أعطنا دليل أنت أنه سنة، فنحن عدم وجود الدليل دليل على بدعيته.

لأن بعض الناس الله يهديه يقول لك: ما الدليل تحكم على العمل بأنه بدعة؟ الدليل عدم الدليل، والله المستعان.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَهَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ كُلِّ الْبِدَعِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ.

وَفِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ زِيَادَةٌ وَهِيَ أَنَّهُ قَدْ يُعَانِدُ بَعْضُ الْفَاعِلِينَ فِي بِدْعَةٍ سَبَقَ إِلَيْهَا، فَإِذَا احْتُجَّ عَلَيْهِ بِالرِّوَايَةِ الْأُولَى يَقُولُ: أَنَا مَا أَحْدَثْتُ شَيْئًا، فَيُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِالثَّانِيَةِ الَّتِي فِيهَا التَّصْرِيحُ بِرَدِّ كُلِّ الْمُحْدَثَاتِ، سَوَاءٌ أَحْدَثَهَا الْفَاعِلُ، أَوْ سُبِقَ بِإِحْدَاثِهَا.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَنْبَغِي حِفْظُهُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي إِبْطَالِ الْمُنْكَرَاتِ، وَإِشَاعَةِ الِاسْتِدْلَالِ بِهِ. اهـ

يعني يحفظه الرجال والنساء والأطفال والجميع، (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا) أي أمر النبي ﷺ وأمر أصحابه في إجماعهم (فَهُوَ رَدٌّ): مردود على صاحبه، غير مقبول، غير مقبول منه عملا، وغير مقبول منه ثوابًا. اهـ.

١٧٠ – وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَينَاهُ، وَعَلا صَوتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأنَّهُ مُنْذِرُ جَيشٍ، يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ» وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أنَا والسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَيَقْرِنُ بَيْنَ أُصبُعَيهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإنَّ خَيْرَ الحَديثِ كِتَابُ الله، وَخَيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَة ضَلالَةٌ» ثُمَّ يَقُولُ: «أنَا أوْلَى بِكُلِّ مُؤمِنٍ مِنْ نَفسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ». رواه مسلم[1].

وعن العرباض بن سَارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدِيثه السابق في بابِ المحافظةِ عَلَى السنةِ.

الشرح:

قوله: (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ) تفيد اللزوم والاستمرار.

(إِذَا خَطَبَ) سواء خطبة الجمعة أو غيرها من الخطب.

(احْمَرَّتْ عَينَاهُ): لشدة رفع الصوت، والغضب، وغير ذلك.

(وَعَلا صَوتُهُ): لإسماع الناس، ولترهيبهم.

---

(١) حديث رقم: (٨٦٧).

(**وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ**)؛ لأنها تكون أبلغ، يغضب لله عَزَّوَجَلَّ.

(**حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيشٍ**) أي الذي ينادي الجيش من مكان بعيد ويسمعهم.

(**يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**) أي: صبحكم العذاب ومساكم العذاب إن لم تتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(**وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةُ كَهَاتَينِ» وَيَقْرِنُ بَيْنَ أُصبُعَيهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى**) أي أن الساعة قريبة، يشير بالسبابة والوسطى، سميت السبابة؛ لأن العرب كانوا إذا أرادوا أن يسبوا أحد ا أشاروا إليه بها، فهي علامة السب، وتسمى بالمسبحة؛ لأن المسلمين يسبحون بها.

(**وَالوُسْطَى**) أي: وسطى الأصابع، بين الإبهام والسبابة، وبين الخنصر والبنصر.

(**وَيَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ**) بعد الحمد والثناء يأتي بكلمة: أما بعد.

(**فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله**) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [سورة الزمر: ٢٣]، فهو خير حديث؛ لأنه كلام الله ووحيه وتنزيله.

(**وَخَيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ** ﷺ) خير الأفعال والسبل سبيل محمد ﷺ؛ لأنه مترجم للقرآن، عامل به، سالك لسبيل الرشد، بعيدا عن الغلو، بعيدا عن الجفاء.

(**وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا**) أي البدع كلها شر.

وخير الأمور السالفات على ... وشر الأمور المحدثات البدائع

(**وَكُلَّ بِدْعَة ضَلالَةٌ**) وهذا من ألفاظ العموم، ما تخرج منه بدعة لا صغرى ولا كبرى، كل بدعة أُحدثت في دين الله ضلالة؛ لأن البدعة هي الدين الذي لم يأذن الله به، لا يقول قائل: أنتم تركبون السيارات، تستخدمون المكبرات، تلبسون الساعات، أنتم تستخدمون الهواتف النقالات، إلى غير ذلك، المراد بالبدعة: هي ما أحدث في

الدين على غير مثال سابق، أما هذه قد قال النبي ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، كما في حديث رافع بن خديج.

(أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ) النبي ﷺ أولى بالمؤمنين؛ لأنه أب لهم.

(مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلأَهْلِهِ) هذا في آخر الأمر، حين فتح الله على نبيه، وإلا فأول الأمر كان من ترك دينا لم يصل عليه النبي ﷺ، فلما وسع الله عليه قال: «**مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلأَهْلِهِ**»، يأكلونه، ويتقسمونه، وينتفعون به.

(وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا) يعني للناس عنده حقوق.

(أَوْ ضَيَاعًا) يعني أبناء ربما يضيعون؛ لعدم القائم عليهم.

(فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ) ينفق عليهم من بيت مال المسلمين.

وهكذا ينبغي أن يكون أولياء أمور المسلمين في امتثال سنة النبي صل الله عليه وسلم.

قوله: (وعن العرباض بن سَارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حدِيثه السابق في بابِ المحافظةِ عَلَى السنةِ) وقد تقدم، وهو أن النبي ﷺ قال: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّنَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**».

❁❁❁❁

١٩ - باب فيمن سن سنة حسنة أَوْ سيئة

أي أنه يتحمل، صاحب السنة الحسنة يؤجر ويكتب في حسناته كل من عمل الحسنة، وصاحب السيئات يأثم، ويكتب في سيئاته كل من عمل السيئة التي أتى بها، ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النحل: ٢٥].

وانظر إلى الأنبياء كانوا أكثر الناس درجات؛ لكثرة المتبعين لهم، ولذلك كان النبي صل الله عليه وسلم حريصا على أن يكون أتباعه أكثر الناس، «**تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**».

والسنة هي الطريق، في الخير والشر، ولكل قوم سنة وإمامها، لكن عند الإطلاق هي سنة النبي صل الله عليه وسلم، وطريق النبي ﷺ، إذا قيل لك: سنة معناه: طريقة النبي صلى الله وسلم، وهي أعم من السنة عند الفقهاء؛ لأن السنة عند الفقهاء هي المستحب.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ **[سورة الفرقان: ٧٤].**

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ **[سورة الأنبياء: ٧٣].**

الشرح:

(﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾) أي: يهتدى بهم ويقتدى بهم في الخير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٠-١٢١]، وعبدالله بن مسعود يقول: إن معاذ بن جبل كان أمة، فقال له رجل: ذلك إبراهيم، قال: إن معاذ ﴿كَانَ

أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، أتدري ما الأمة؟ الأمة الإمام، يعني أن الله يجعلك للناس إماما، يأخذون منك العلم، ويقتدون بك في الخير.

فالإنسان يحرص على أن يكون من أئمة الخير، حتى ولو إمام مسجد، في خطبة جمعة أنت في خير، في صلاة أنت في خير، مدرس أنت في خير، كلما كنت داعيا إلى الخير راجيا للخير فأنت في خير.

١٧١ – عن أَبي عمرو جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كنا في صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ فَجَاءهُ قَومٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَار أَوْ العَبَاء، مُتَقَلِّدِي السُّيُوف، عَامَّتُهُمْ من مُضر بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضرَ، فتَمَعَّرَ رَسُول الله ﷺ لما رَأَى بِهِمْ مِنَ الفَاقَة، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: ١] إِلَى آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: ١]، والآية الأُخْرَى التي في آخر الحَشْرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [سورة الحشر: ١٨]، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرهَمِهِ، مِنْ ثَوبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»، حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشقِّ تَمْرَةٍ».

فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعجَزُ عَنهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَومَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُول الله ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجْرُهَا، وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورهمْ شَيءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً

سَيِّئَةً كَانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ» رواه مسلم[(١)].

قَوْلُهُ: (مُجْتَابِي النِّمَارِ) هُوَ بالجيم وبعد الألِف باءٌ مُوَحَّدَةٌ، والنِّمَارِ جَمْعُ نَمِرَةٍ وَهِيَ كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخَطَّطٌ.

وَمَعْنَى: (مُجْتَابِيهَا) أي: لَابِسيهَا قَدْ خَرَقُوهَا في رُؤوسِهِم.

وَ(الجَوْبُ): القَطْعُ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [سورة الفجر: ٩] أي: نَحتُوهُ وَقَطَعُوهُ.

وَقَولُهُ: (تَمَعَّرَ) هُوَ بالعين المهملة: أيْ تَغَيَّرَ.

وَقَولُهُ: (رَأَيْتُ كَوْمَينِ) بفتح الكافِ وَضَمِّهَا: أي صُبْرَتَيْنِ.

وَقَولُهُ: (كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ) هُوَ بالذال المُعْجَمَةِ وفتح الهاءِ والباءِ الموحَّدةِ قالَهُ القاضي عِياضٌ وَغَيرُهُ وَصَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ.

فَقَالَ: (مُدْهُنَةٌ) بدَال مهملة وَضَمِّ الهاءِ وبالنونِ وكذا ضبطه الحميدي، والصحيح المشهور هُوَ الأول. والمراد بِهِ عَلَى الوجهين: الصفاءُ والاستنارة.

الشرح:

(أبي عمر جرير بن عبد الله البجلي) وهو من حضرموت.

قوله: (كنا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ) إما أن يريد بصدر النهار أول النهار، وإما أن يريد بصدر النهار وسط النهار.

(فَجَاءَهُ قَومٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَار)؛ لشدة الحال والضيقة التي هم عليها.

---
(١) حديث رقم: (١٠١٧).

(أَوْ العَبَاء) شك من الراوي.

(مُتَقَلِّدِي السُّيُوف) حملوها؛ للخوف من الطرق؛ لأن الناس كانوا يحملون سلاحهم.

(عَامَّتُهُمْ من مُضر بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ) شك من الراوي، ومضر كانوا من قبل قوم من الكفار، ثم أسلموا، قريش منهم.

(فَتَمَعَّرَ رَسُول الله ﷺ) أي: تغير.

(لما رَأَى بِهِمْ مِنَ الفَاقَة) أي: من الفقر والحاجة.

(فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ) للاهتمام بشأن المسلمين.

(فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ) أي: للصلاة، وهذا يدل على أنها صلاة الظهر لعله.

(فصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ) أي خطبة، ليس بخطبة جمعة، وإنما هي خطبة موعظة وحث على الخير.

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾) وهذه الآيات يستحب أن يؤتى بهن في خطبة الحاجة، كما في حديث عبد الله بن مسعود، هذه الآية وآية سورة آل عمران، وآية سورة الأحزاب، وهي آيات تسمع من الخطباء في كل جمعة، وإن أتى بآية سورة الحشر كما في هذا الحديث لا حرج، أحيانا.

ثم حثهم رسول الله ﷺ على الصدقة بقوله: (تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ) أي: صاحب الدينار يتصدق من الدينار.

(مِنْ دِرهمِهِ): صاحب الدرهم يتصدق من الدرهم، ولو القليل من الفلوس.

(مِنْ ثَوبِهِ) أي: من بعض ثوبه، وليس معناه أنه يعطي الثوب الذي معه، أو يقطع الثوب الذي معه، لكن عنده أثواب، والمفرد إذا أضيف أفاد العموم.

(مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمرَةٍ) أي أن الإنسان يتصدق بما تيسر، لا يلزم أنك لا تتصدق إلا بالشيء الكثير، تصدق ولو بالكلمة الطيبة، ربما تمرة أنت تراها قليلة وفي حق ذلك الفقير عظيمة، ربما حبة عصير أنت تراها قليلة وهي سبب في سلامة نفس، ربما كيلو تمر، أو كيلو كذا، أنت تراه قليل وهو سبب في سلامة عائلة، ونحو ذلك.

(فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعجَزُ عَنهَا) فيه امتثال الصحابة ومسارعتهم إلى الخير.

(بَلْ قَدْ عَجَزَتْ) هذا شك من الراوي، يعني أنه حمل ما عجز عن حمله.

(ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَومَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ) والفضل للأول؛ لأنه سن في الإسلام سنة حسنة.

(حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُول الله ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ) أي فرحا؛ لأن الناس استجابوا لأمره، ولأنه قضى حاجة ﷺ.

(مَنْ سَنَّ فِي الإسلامِ سنَّةً حَسَنَةً) أي: من أحيا أمرا قد حث عليه الإسلام ورغب فيه، (فَلَهُ أجْرُهَا): أجر هذه الحسنة، (وَأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورهِمْ شَيءٌ)؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كريم، ما كان لينقص أجورهم بسبب أن هذا عمل معهم.

(وَمَنْ سَنَّ فِي الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً) أي أحيا سنة سيئة من البدع والموالد والشركيات والخرافات.

(كَانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيءٌ) كما قال الله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [سورة النحل: ٢٥].

والحديث حقه أكثر من ذلك، لكن نحن نعلق تعليقا مختصرا.

١٧٢ – وعن ابنِ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ نَفْس تُقْتَلُ ظُلْمًا إلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأوْلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ كَانَ أوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتلَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أن ابن آدم الأول هو الذي سن القتل وأحدث القتل، فلذلك استحق أن يجازى أن كل من قتل ظلما فعليه من وزره، نسأل الله السلامة والعافية، فهكذا من سن في الإسلام سنة سيئة، مثلا بنى قبة، أو أدخل قبرا في مسجد، أو أحدث عيدا لم يأذن الله به، أو فعل أشياء ما أمر الله بها، فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا.

فعلى الإنسان أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، ويرفق بنفسه قبل أن يقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ فيؤاخذه بما عمل، وأعظم السنن تُحيى بالعلم، فعلينا بملازمة العلم والأخذ به والاستمرار عليه، نسأل الله السلام والعافية، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٢١)، ومسلم (١٦٧٧).

٢٠ - باب في الدلالة عَلَى خيروالدعاء إلَى هدى أَوْ ضلالة

أي فضل الدلالة على الخير، وفضل الدعاء إلى الهدى، كما أن شؤم الدعاء إلى الضلالة، فلا أعظم من الدعاء إلى الهدى لأمور:

الأمر الأول: أن الله عَزَّوَجَلَّ دعا إليه بإنزال كتبه وإرسال رسله.

الأمر الثاني: أنه سبيل النبي ﷺ.

الأمر الثالث: أنه سبيل ورثة النبي ﷺ.

الأمر الرابع: أنه دعوة إلى الخير.

الأمر الخامس: أنه تحليل من الشر والضير.

الأمر السادس: أنه دعوة إلى محاسن الأخلاق والتحذير من سفاسفها.

الأمر السابع: أنه من أعظم أسباب رفع الدرجات وحصول المكرمات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: ٣٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرا عن محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

الأمر الثامن: أنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأمر التاسع: أنه من النصيحة لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم، إلى غير ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

-قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [سورة المائدة: ٢].

وَقالَ تَعَالَى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤].

الشرح:

(﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾) أي: إلى عبادته.

(﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾) أي: إلى الطريق الذي يُعبد الله عَزَّوَجَلَّ به.

(﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾) الحكمة يقولون: في موعظة من عنده قبول للحق، والموعظة لمن عنده قبول وعنده بعض الشبه يحتاج أن تزال، والجدال بالتي هي أحسن لمن عنده معارضة وشبه، وربما كان جداله بجلاده.

(﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾) ومن أعظم التعاون على البر والتقوى: الدلالة على الخير، والتحذير من الشر، الدلالة على التوحيد والتحذير من الشرك، الدلالة على العبادات، والدلالة على محاسن المعاملات، فهذه من الآيات العامات التي تستطيع أن تدخلها في كثير من شأنك.

(﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾) المراد بالأمة هنا: الجماعة، ولتكن منكم جماعة ممن يقوم بهذه المهمة؛ لأن الأمة تطلق على الإمام: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٤]، ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [سورة النحل: ١٢٠].

وتطلق على الجماعة: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وتطلق على الفترة من الزمن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [سورة يوسف: ٤٥].

وتطلق على الملة: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢].

إذا أراد الإنسان أن يبحث في مثل هذه المعاني فليبحث في مثل (غريب القرآن)، وكذلك مثل (مشكل القرآن) لابن قتيبة، وكذلك (بصائر ذوي التمييز) للفيروز آبادي، ونحو هذه الكتب المفيدة في هذا الباب.

وأيضا قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف أمة محمد: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، وسيأتي هذا الباب.

١٧٣ - وعن أبي مسعود عُقبةَ بنِ عمرو الأنصاري البدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ». رواه مسلم[١].

الشرح:

(عُقبةَ بنِ عمرو الأنصاري البدري) نزل بدر، ولم يشهدها، وذهب البخاري إلى أنه شهدها.

وهذا من ألفاظ العموم، من دل على الإسلام فله مثل أجر فاعله، من دل على الصلاة له مثل أجر فاعلها، من دل على الصيام له مثل أجر فاعله، وهكذا في كل باب من أبواب الخير، ولهذا كانت مرتبة الأنبياء أعلى المراتب، فإنهم دعوا الناس إلى الخير، فكل خير تُعبد لله عَزَّوَجَلَّ به فهو من طريق النبي ﷺ، فيؤجر على عبادته، ويؤجر على دعوته، ويؤجر كأجر أهل ملته، وهذا فضل الله الواسع.

---

(١) حديث رقم: (١٨٩٣).

والحديث له قصة: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ».

(إِنِّي أُبْدِعَ بِي) يعني: انقطع بي السبيل، بسبب هلاك الدابة.

١٧٤ – وعن أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَه، لَا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيئًا». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

وهذا الحديث حديث عظيم، (مَنْ دَعَا إِلَى هُدَىً) أي هدى، كان من الواجبات، أو من المستحبات، أو كذلك نهى عن المحرمات، أو حذر من المكروهات، فما زال داعيا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَه) أي على هذا الأمر.

(لَا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا) يجازي الله عَزَّوَجَلَّ كل واحد بعمله.

(وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ) إلى شرك، إلى بدع، إلى معاصي.

(كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيئًا) نسأل الله السلامة، ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ومما يدل على ذلك أيضًا: حديث يعني عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وجاء عن جابر وغيره في قصة عمر بن لحي، فإنه أول من سيب السوائب، فله إثم عظيم.

(١) حديث رقم: (٢٦٧٤).

١٧٥ - وعن أَبِي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ يوم خَيبَر: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رجلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيهِ، يُحبُّ اللهَ وَرَسولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أينَ عَلِيُّ ابنُ أَبِي طالب؟» فقيلَ: يَا رسولَ الله، هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيهِ، قَالَ: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْه» فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرِأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يكُن بِهِ وَجَعٌ، فأَعْطاهُ الرَّايَةَ، فقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُول اللهِ، أُقاتِلُهمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

قوله: (يَدُوكُونَ): أي يَخُوضُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ.

وقوله: (رِسْلِكَ) بكسر الراءِ وبفتحها لغتانِ، والكسر أفصح.

الشرح:

قوله: (عن أَبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هو سهل بن سعد بن مالك الساعدي الأنصاري، هو وأبوه صحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: (أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ يوم خَيبَر) أي في غزوة خيبر، حين تعصت عليه وتأخر الفتح.

(لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رجلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيهِ) دليل من دلائل نبوة النبي ﷺ، وفيه أهمية القائد، وفيه أن الفتح بيد الله، ليس بقوة ولا بعتاد أو عدة، وإنما هي أسباب.

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(**يُحبُّ اللّهَ وَرَسولَهُ**) فيه ثناء على هذا الرجل، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يجب أن يحَب من عباده المؤمنين، وكذلك رسوله ﷺ.

(**ويُحِبُّهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ**) إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية على ما يليق بالله عَزَّوَجَلَّ، وأدلتها متكاثرة في الكتاب والسنة، ورسوله ﷺ يحب كذلك أصحابه، ويحب من بادر إلى مرضاة ربه.

(**فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ**) أي: يخوضون، كلهم يتمنى أن يكون هو المذكور في هذا الحديث.

(**فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رسولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا**)؛ لهذه الفضيلة، وإلا فإن الصحابة كانوا لا يتطلعون إلى الولايات، ولا إلى الإمارات، لكن هذه فضيلة وشهادة من رسول الله ﷺ على حب الله لهذا العبد وحب العبد لله عَزَّوَجَلَّ، وحب الرسول صلى الله وسلم لهذا العبد وحب العبد لرسول الله ﷺ، وهذا فضل عظيم.

(**فَقَالَ: أينَ عَلِيُّ ابنُ أَبي طالب؟**) وهو ابن عم النبي صل الله عليه وسلم، وزوج ابنته، وأول من آمن من الصبيان، ورابع العشرة المبشرين بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، إلى غير ذلك.

(**فقيلَ: يَا رسولَ الله، هُوَ يَشْتكي عَيْنَيهِ**) فيه أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله عَزَّوَجَلَّ، وكان به رمد.

(**فَبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عَيْنَيْهِ**) وهذا من دلائل نبوته، إذ جعل الله البركة في بصاقه، وجعل الله البركة في رشحه، وجعل الله البركة في مسحه، إلى غير ذلك، ولا يؤخذ من هذا الحديث جواز التبرك بآثار الصالحين، كما هو صنيع النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

وصنيع الحافظ ابن حجر، فإن هذه خصيصة بنبي الله ﷺ، ولم يفعلها الصحابة مع أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي، وكانوا أفضل الأمة فضلا.

وفيه أن الشفاء بيد الله عَزَّوَجَلَّ، إذا أراد أن يشفي يشفي، وإذا أراد أن يعافي يعافي، فالعلاجات إلا أسباب.

(فَأَعْطاهُ الرَّايَةَ) اختلف العلماء في الراية واللواء، فقال بعضهم: هما سواء، وقال بعضهم: الراية سوداء واللواء أبيض، وقيل غير ذلك.

(فقَالَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُول اللهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟) فيه استشارة الأمير، وكذلك استشارة القائد لمن هو أعلى منه، أو لمن هو من أهل الحل والعقد، يعني كأنه يقول: يا رسول الله على ماذا أقاتلهم؟ هل أقاتلهم على الإسلام بحيث من لم يسلم أقتله أو آسره أم كيف أفعل؟

(فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ) أي: انطلق على رسلك، بغير عجلة ولا حطمة.

(حَتَّى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ) أي تنزل في مطارح بيوتهم، وفي مطارح قصورهم، فإن خيبر عبارة عن وادي تحيط به الجبال من عدة جهات، وفي تلك الجبال الحصون، وقد رأينا قرية ما زالت شبه عامرة ليس فيها أحد من السكان، لكن فيها بعض البنايات من الطين ونحوه، كبيوت صعدة، وبيوت تلك المناطق، والله المستعان، وأما مزارعها فقد يبس أكثرها إلا القليل.

بحيث يكون قريبا منهم، فيشعرون بأن ثباتهم ضعف، ولا قدرة لهم على المقاومة.

(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ) فيه أن أول ما ينبغي أن يُدعى إليه الإسلام، فإن أبوا كما في حديث بريدة فإن أبوا فإلى الجزية.

(وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ) فيه أن التوحيد أول ما يطلب من العباد.

(فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم) أي: من الإبل الحمراء المحبوبة عند العرب، فكيف إذا هدى الله عَزَّوَجَلَّ على يديك عدة؟

ساق المصنف الحديث؛ لهذا اللفظ.

١٧٦ – وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن فتىً مِنْ أسلم، قَالَ: يَا رَسُول الله، إنِّي أُرِيدُ الغَزْوَ وَلَيْسَ معِي مَا أَتَجَهَّز بِهِ، قَالَ: «ائتِ فُلَانًا فإنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ» فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: أعْطني الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، أعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلا تَحْبِسي مِنْهُ شَيئًا، فَواللهِ لَا تَحْبِسين مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارِكَ لَكِ فِيهِ. رواه مسلم[(١)].

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان فضل إعانة المجاهد في سبيل الله والغازي إلى غير ذلك.

(أن فتىً مِنْ أسلم) وهي قبيلة من قبائل العرب.

(إنِّي أُرِيدُ الغَزْوَ وَلَيْسَ معِي مَا أَتَجَهَّز بِهِ)؛ لقلة ذات اليد، ولفقر الناس، ولحاجة النبي ﷺ.

(قَالَ: ائتِ فُلَانًا فإنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ) فيه الدلالة على الخير، والإرشاد إليه، وفيه أن من عزم على فعل الخير ثم حُجز عنه بمرض أو نحوه أن له أجر عظيم.

(١) حديث رقم: (١٨٩٤).

(فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ) استدل به حتى لو لم تسمع من صاحبك أن يقول لك: اقرئ السلام على فلان، أن تقرأ عليه السلام، هذا قول لبعض أهل العلم؛ لأن الإنسان يستأنس من صاحبه رد السلام، ربما تسافر ما تستأذن، أو ربما تمر على إنسان فيقول لك: كيف فلان؟ فتقول: يقرئك السلام؛ لأن المسلم في الغالب يسلم على المسلم.

(وَيَقُولُ: أَعْطني الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ) يعني الذي قد أعده للجهاد.

(فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ) وليس بخلوة وليس بشيء، إنما تناوله إلى خارج الدار، أو نحو ذلك.

(وَلا تَحْبِسي مِنْهُ شَيئًا) فيه التشديد في أمر الوصية، وفيه فضيلة الإنفاق.

(فَوَاللهِ لَا تَحْبِسِين مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارِكَ لَكِ فِيهِ)؛ لأنها تحبسه بغير إذن زوجها.

والأحاديث في الباب كثيرة، وإنما ساق المصنف هذه الأحاديث؛ للدلالة، وإلا فالباب الواحد والعشرون هو من هذا الباب.

٢١ - باب في التعاون على البر والتقوى

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [سورة المائدة: ٢].

وَقال تَعَالَى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [سورة المائدة: ١١٦-٣].

قَالَ الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا معناه: إِنَّ النَّاسَ أَوْ أَكثَرَهم في غفلة عن تدبر هذِهِ السورة.

الشرح:

قوله: (باب في التعاون على البر والتقوى) البر والتقوى إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، بمعنى: إذا اجتمعا فالمراد بالبر: ملازمة المبرات، والتقوى: اجتناب المنهيات، وأما إذا افترقا فكل منهما يدل على معنى الآخر.

(﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾) فيه أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتعاون على فعل الخيرات، وعلى اجتناب المنكرات.

(﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾) أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالعصر، قيل: هو الدهر، وقيل: هو الزمان.

(﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾) أي كل إنسان في خسارة.

(﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾) من جمع أربع صفات، اثنتين في نفسه، واثنتين مع غيره، أما التي في نفسه: فالإيمان والعمل الصالح، وأما التي مع غيره: فالتواصي بالحق، والنصح لهم، والتوجيه لهم، والتواصي بالصبر، والصبر على أذاهم، ونحو ذلك.

قوله: (الإمام الشافعي) هو محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع القرشي المطلبي، المتوفى سنة (٢٠٤ هـ)، وكان ذا عقل راجح، وعلم راسخ، في الحديث والفقه وأصوله، واللغة وغيرها، وله العديد من المصنفات النافعة، كـ(الأم) و(الرسالة)، ونحو ذلك.

(كلامًا معناه: إنَّ النَّاسَ أَوْ أكثرَهم في غفلة عن تدبر هذِهِ السورة) وفعلا لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، كما رُوي عنه في موطن آخر.

وأما قوله: لو لم ينزل الله على الناس إلا هذه السورة لكفتهم فهذا القول غير ثابت.

١٧٧ – وعن أَبي عبد الرحمان زيد بن خالد الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا في سَبيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أهْلِهِ بِخَيرٍ فَقَدْ غَزَا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشرح:

فيه فضيلة الغزو في سبيل الله، وفيه فضيلة إعانة الغازين في سبيل الله، وفي فضيلة خلف الغازي في أهله، بالإنفاق عليهم، والتفقد لأحوالهم، ونحو ذلك، فله مثل أجر الغازي.

١٧٨ – وعن أَبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رَسُول الله ﷺ بعث بعثًا إِلَى بني لِحْيَان مِنْ هُذَيْلٍ، فَقَالَ: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالأجْرُ بَيْنَهُمَا». رواه مسلم[٢].

الشرح:

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥).

(٢) حديث رقم: (١٨٩٦).

وبنو لحيان هم الذين تعرضوا أصحاب النبي ﷺ وقتلوهم، وكانوا خمسين رجلا.

(لِيَنْبَعِثْ) أمر بالخروج للجهاد في سبيل الله.

(مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ) أي: في البيت أو في القرية، أو في القبيلة، أو في الجماعة؛ لأنه قد يكون في البيت رجلان، فيذهب أحدهما ويبقى الآخر؛ لرعاية أهل البيت، والأجر بينهما.

١٧٩ - وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ: «مَنِ القَوْمُ؟» قالوا: المسلمون، فقالوا: من أنتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ الله»، فرفعت إِلَيْه امرأةٌ صبيًا، فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ». رواه مسلم[1].

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان فضيلة التعاون على البر والتقوى، فإن هذه المرأة تعاونت مع ولدها الصغير.

(الروحاء) بين مكة والمدينة.

(فَقَالَ: مَنِ القَوْمُ؟) لعله لم يعرف أنهم من المسلمين، أو أراد أن يتخبر عن قبيلتهم.

(قالوا: المسلمون) أي: نحن المسلمون يا رسول الله، والمسلم إذا وُجد اطمأنت النفس إليه.

(فرفعت إِلَيْه امرأةٌ صبيًا) أي لسؤاله واستفساره، وفيه حرص النساء المسلمات على طلب العلم، فانظر إلى هذه المرأة العاقلة كيف بادرت بالسؤال.

(١) حديث رقم: (١٣٣٦).

(فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟) وكان طفلًا صغيرًا.

(قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ) حتى وإن كان مولودًا، حتى إن كان ابن شهر، وتطوفه، وتسعى به، وترمي عنه، لك مثل أجره؛ لتعاونك معه على البر والتقوى.

قلت في شرحي على "صحيح مسلم":

((لكن يتعين عليهم أن يلبسوه إن كان ذكرا ملابس الإحرام، وأن يجردوه من المخيط، ويطوفون به معهم بنية الطواف، ويسعون به معهم، إلى غير ذلك.

وأما ما كان من رمي الجمار وما تصح فيه النيابة فإنهم يقومون بها عنه، وهكذا إذا تمتعوا به يلزمهم أن يأتوا بدلا منه بهدي، فإن لم يأتوا به يلزمهم أن يصوموا عنه عشرة أيام، ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعوا إلى أهلهم، إلا إذا كان حجه مفردا فليس عليه دم، أو كان من أهل مكة ليس عليه دم.)) اهـ.

وهذه الحجة لا تجزئ عن حجة الإسلام؛ لما جاء: "إِذَا حَجَّ الْعَبْدُ ثُمَّ عَتَقَ فَعَلَيْهِ حَجَّةُ الْعِتْقِ، وَالصَّبِيُّ إِذَا حَجَّ ثُمَّ عَقَلَ فَعَلَيْهِ حَجَّةُ الْعَاقِلِ».

١٨٠ - وعن أَبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قَالَ: «الخَازِنُ المُسْلِمُ الأمِينُ الَّذِي يُنفِذُ مَا أُمِرَ بِهِ فيُعْطِيهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ، أَحَدُ المُتَصَدِّقين». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

وفي رواية: «الَّذِي يُعطِي مَا أُمِرَ بِهِ»، وضبطوا: «المُتَصَدِّقَينِ» بفتح القاف مَعَ كسر النون عَلَى التثنية، وعكسه عَلَى الجمعِ وكلاهما صحيح.

الشرح:

(أبو موسى الأشعري) اسمه: عبد الله بن قيس.

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٨)، ومسلم (١٠٢٣).

يعني صاحب المال الذي جمعه له أجر على صدقته، لكن هذا الرجل كونه فعل ما أُمر به طيب النفس مؤدي الأمانة كان له أجر.

(**الخَازِنُ المُسْلِمُ الأَمِينُ**) سواء كان خازنا لصاحب البيت، أو كان خازنا لولي الأمر.

(**الَّذِي يُنفِذُ مَا أُمِرَ بِهِ**) أي من الأعطيات والهبات والهدايا.

(**فيُعْطيهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا**) أي بغير نقص أو شطط.

(**طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ**) أي أنه محب للإنفاق والبذل في الخير.

(**فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ**) يؤدي الأمانات إلى أهلها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء: ٥٨].

(**أَحَدُ المُتَصَدِّقين**) ولو لم يكن إلا بنيته الصالحة.

٢٢ - باب في النصيحة

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات:١٠].

وَقالَ تَعَالَى إخبارًا عن نوحٍ ﷺ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [سورة الأعراف:٦٢].

وعن هود ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الأعراف:٦٨].

الشرح:

أيضا: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٧٩] عن صالح، وكذلك عن شعيب، فسورة الأعراف أغلب خبر الأنبياء فيه أنهم نصحوا وأنهم نصحاء لأممهم.

قوله: (﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾) أي: ينصح بعضهم بعضا، ويوجه بعضهم بعضا، ويصدق بعضهم مع بعض.

وفيه أن الأنبياء أنصح الناس للناس.

وفيه أن النصيحة تحتاج إلى العلم؛ ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٦٢]، وتحتاج إلى أمانة؛ ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الأعراف: ٦٨]؛ حتى يدل الناس إلى الخير.

وبذلك تعلم أن أهل البدع غير نصحاء؛ لأنهم غير أمناء، ينصحون الناس ويوجهونهم إلى البدعة من حزبية أو غير ذلك، فلا بد أن يكون الناصح ناصحا إلى الكتاب والسنة، محذرا من البدعة.

وأما الأحاديث:

١٨١ - فالأول: عن أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيم بن أوس الداريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحةُ» قلنا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ». رواه مسلم[1].

الشرح:

قوله: (عن أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيم بن أوس الداريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) كان نصرانيا فأسلم وحسن إسلامه.

(الدِّينُ النَّصِيحةُ) فجعل الدين كله نصيحة، ثم بين ذلك كيف الدين النصيحة؟ أو لمن ينصح؟ والنبي ﷺ كان إذا بايعوه على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يبايعهم على النصح.

(قلنا: لِمَنْ؟) فيه سؤال الطالب إذا لم يفهم.

(قَالَ: لِلهِ) أي: بتوحيده، وإخلاص العمل له، والمراقبة له في السراء والضراء والشدة والرخاء.

(وَلِكِتَابِهِ) أي: بحفظه وتلاوته، وتدبره والعمل به، والدعوة إليه.

(وَلِرَسُولِهِ) أي: بمتابعته، والمحبة له، وتعزيره، وتوقيره، ونحو ذلك.

(وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ) بطاعتهم في طاعة الله، وعدم الخروج عليهم، وعدم الركون إلى الخوارج، وغير ذلك.

(وَعَامَّتِهِمْ) ولعامة المسلمين، بنصحهم، وتوجيههم، وأداء الأمانات إليهم، وعدم الغش لهم، والإحسان إليهم، فكلمة النصيحة كلمة عامة واسعة، أنت حين تبيع

(١) حديث رقم: (٥٥)، والحديث قد أخرجه أحمد وغيره، وفيه تكرار «الدين النصيحة».

وتشتري من هذا المسلم إذا صدقت معه فأنت ناصح، وإذا لم تصدق معه فأنت غاش، حتى لو قال لك: من أين الطريق؟ إذا دللته على الطريق المسلوك الآمن فأنت ناصح، وإذا دللته على غيره فأنت غاش.

وكذلك في باب المناهج الدعوية، إذا استنصحك إلى أي مذهب يكون فتدله على التصوف أو التشيع أو التحزب فأنت غاش، وإذا دللته على أهل السنة والجماعة فأنت ناصح؛ لأن أهل السنة والجماعة ما يسألون الناس شيئا، إنما يعلمونهم لله.

قال: قدم سفيان الثوري عسقلان فمكث ثلاثا لا يسأله أحد في شيء فقال: أكثر لي أخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم[(١)].

١٨٢ - الثاني: عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رسولَ الله ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(٢)].

الشرح:

وساق المصنف الحديث؛ لبيان فضيلة النصيحة، إذْ أن النبي ﷺ قرنها بعد التوحيد بأركان العظام، وهي إقام الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة المفروضة، والنصح لكل مسلم.

وكما تقدم لا يلزم في النصيحة أن تقول: يا مسلم اتق الله، كونك تدل على الخير، كونك تراعي الأمانة فيه، كونك تؤدي الحق الذي عليه له، هذا من النصح له.

((فيه: فضيلة النصيحة، وهي كلمة عامة يدخل فيها النصح للرجال والنساء، والصغير والكبير، ولأهل البدع، ولأهل القرية والمدينة، فتحذير المسلمين من

---

(١) (جامع بيان العلم وفضله) (١/ ٦٠٩) (١٠٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤)، ومسلم (٥٦)، وجاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الحزبية من النصح، وتحذير المسلمين من الغلو من النصح، وتحذير المسلمين من الغش والربا ونحو ذلك من النصح، ولو تناصح الناس؛ لذهب الشر وجاء الخير، لكن الله المستعان)) . اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

١٨٣ - الثالث: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

الشرح:

أي لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لأخيه المسلم من الخير كما جاء في بعض الروايات ما يحب لنفسه، وفي حديث عبد الله بن عمرو: «**وأن تؤدي إلى الناس الذي تحب أن يؤدي إليك**».

وهذه الأبواب اختصرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وأتى فيها بأحاديث يسيرة؛ لأن بعضها يدخل في بعض، وإلا فحقها أكثر من هذا.

والنبي ﷺ كان ناصحا وموجها، وهو أعظم من نصح لله وأعظم من نصح لكتاب الله، وأعظم من نصح لما أوحاه الله إليه، وأعظم من نصح لأئمة المسلمين، فقد أوصى بأداء حقوقهم، والإحسان إليهم، وعدم الخروج عليهم، ونصح لعامة المسلمين، بتبليغ دين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [سورة المائدة: ٦٧].

ولو أتينا إلى المثل التطبيقي لمثل هذه الأبواب من النبي ﷺ لوجدنا الخير العظيم، إذ أنه ما من خير دل الناس عليه إلا وكان أحرص الناس على فعله، وما من شر حذر الناس منه إلا كان أبعد الناس عن فعله، بأبي هو وأمي.

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وهكذا سلك أصحابه، وسلك محبوه ممن جاء بعده، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

ولو قاموا الناس بهذا الباب باب النصيحة في بيوتهم ومع زوجاتهم ومع أبنائهم، ومع أصحاب حارتهم ومع كل من يليه، وقبل من يليه النصيحة، إذ أن النصيحة تحتاج إلى قبول، كما أن الإنسان ينصح يحتاج المنصوح إلى أن يقبل النصح، فلو استقام الأمر هذا؛ لقام شرع الله على أتم قيام وأحسن حال.

ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم خير أمة أخرج للناس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، فسرها ابن عباس رضي الله عنه بتفسيرها الخاص: أنها في الصحابة، وفعلا أن الصحابة أعظم من قاموا بهذا الباب، وغيرهم يدخل فيه.

ومن باب الفائدة: يشترط في الناصح أن يكون عالما بما ينصح فيه، وأن يكون رفيقا في نصحه، وأن يكون متأسيا برسول الله ﷺ، وأن تكون همته في هداية الناس لا في الثناء عليه، أو الالتفاف حوله.

ويشترط في المنصوح: أن يكون متقبلا للحق غير معرض، فإن الإنسان إذا عود نفسه الإعراض ما يستفيد من نصح الناصحين، ولا من توجيه الموجهين، وأن يكون ناصحا مع نفسه، بحيث يبحث عن الطريق الصحيح بأدلته، لا سيما في زمننا هذا، فإن البدع قد كثرت وتنوعت وتشعبت.

فإذا لم يكن الإنسان ناصحا لنفسه راغبا في الآخرة زاهدا في الدنيا لربما فسد عليه أمره، وهو يظن أنه يحسن صنعا، وما ترون في المجتمع من كثرة المتساقطين سواء في باب العلم أو في باب العمل سببه عدم النصح للنفس، وقبل ذلك عدم النصح لله ولكتابه ولرسوله ولدينه، فهذا لا يبالي أين ذهب، شرق أو غرب، أهم شيء عنده أن

ينال شيئا من حطام الدنيا في يومه ذاك، سواء مع الحزب، أو مع فلان أو علان، لا يبالي قَتل أو قُتل.

فلا بد للإنسان أن ينصح لنفسه، وأن ينصح لغيره، أن يكون حريصا على امتثال دين الله، بهذا يقع الفلاح، انظروا إلى قول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة الأعلى: ١٤]، والتزكية بماذا تكون؟ بالعمل بالعلم، وهل يكون العمل بالعلم إلا بعد العلم؟ إذًا لا بد أن الإنسان ينصح لنفسه بعمله بالعلم، وتزكية نفسه، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [سورة المؤمنون: ١-٢] الآيات، ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]، نصح لنفسه بالصبر على أمر الله، وعلى شرع الله، فحصل له الخير العظيم، والحمد لله رب العالمين.

سؤال: هات دليلا في مسألة يطرقها أهل السنة كثيرا ويخالفهم كثير من الناس على تحريم تصوير ذوات الأرواح، يذكرون في الحفظ: أن يتمكن من استحضاره متى شاء، يقولون: لا يلزم أن يكون طُلب منه ولكن متى شاء.

حديث عائشة: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ**»(١).

لعن النبي ﷺ المصور، حديث أبي جحيفة في (البخاري).

"**لَا يَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**"، حديث أبي طلحة وغيره في الصحيح(٢).

---

(١) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٦١٠٩)، ومسلم حديث رقم: (٢١٠٧).

(٢) متفق عليه: البخاري حديث رقم: (٣٢٢٥)، ومسلم حديث رقم: (٢١٠٦).

حديث أبي هريرة: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ» [(١)].

حديث علي بن أبي طالب عند مسلم[(٢)]: "أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَدَعَنَّ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ وَلَا صُورَةً فِي بَيْتٍ إِلَّا طَمَسْتَهَا»".

حديث عبد الله: أن النبي ﷺ قال في المصورين: "أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[(٣)].

حديث أبي هريرة: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً»[(٤)].

حديث: "كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ»[(٥)].

إذا قال لك قائل: يا أخي المنهي عنه النحت، ليس التصوير الفوتوغرافي، ولا الرسم، حديث عائشة: أن النبي ﷺ هتك الستر على بابها، وهي صورة في ستارة، لا منحوتة ولا شيء، ربما تكون متطرزة، أو نحو ذلك.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ أبى أن يدخل الكعبة وصورة إبراهيم وصورة إسماعيل فيها يستقسمان بالأزلام، وقال: «قَاتَلَهُمُ اللهُ، وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلَامِ قَطُّ»، ثم أخذ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرقة وبللها، ومسح الصور، فلو كانت منحوتة ما زالت الصور بالمسح، ولو كان في الصورة خير لظهرت صورة النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم: (٨٤٣٠).

(٢) حديث رقم: (٩٦٩).

(٣) أخرجه مسلم، حديث رقم: (٢١٠٨).

(٤) أخرجه البخاري، حديث رقم: (٧٥٥٩).

(٥) أخرجه مسلم، حديث رقم: (٢١١٠).

الأمر الذي يليه أيضا: أنهم لو قالوا هذه عبارة عن طبع ظل، أو عبارة عن نحو ذلك من الشبه، نقول: هذه اسمها صورة، والنبي صل الله عليه وسلم لعن المصور، ثم إن سواء صرفت فيديو أو بث مباشر أو فوتوغرافي أو بالرسم أو بالنحت كله صورة.

(لعن المصور) عام، حتى المصور نفسه تقول له: هذه صورة أو ما هي صورة؟ يقول: صورة، كما كان شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقول.

أثر ابن عباس: إن كنت ولا بد فاصنع الشجر وما لا روح فيه، وهذا قول جمهور أهل العلم على هذا، أما الشيخ التويجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذهب إلى منع التصوير مطلقا، لا شمس ولا قمر، ولا جبل، ولا بحر ولا شجر، يقول: الأحاديث صريحة في النهي عن التصوير.

فإذا قال لك قائل: التصوير حرام إلا تصوير البطاقة والجواز ما الجواب؟

وكـل محظـور مـع الضـرورةْ بقـدر مـا تحتاجـه الضـرورة

هذا للحاجة، والإثم على من ألزم، يستطيع أن يحدد شخصيتك بالإبهام، يستطيع أن يحدد شخصيتك ببصمة العين، بدون تصوير، يستطيع أن يحدد شخصيتك بأشياء كثيرة بدون الحاجة إلى صورة.

نحن أردنا أن لا يقال: بأن الصورة صارت حلال، إنما تُفعل للحاجة، والإثم على من ألزم، وإلا الحلال حلال والحرام حرام، مثلا: رجل الآن غص بلقمة كاد أن يموت، ما وجد إلا قليلا من الخمر ينزل بها هذا، هل نقول بأن الخمر صار حلالا؟ ما هو حلال، الخمر حرام، إلا أنه أبيح له ذلك للضرورة، لا يجوز له أن يتعدى الضرورة، وأكل الميتة لا يجوز له أن يتعدى الضرورة، فكذلك تصوير ذوات الأرواح في الجوازات، في البطائق، في الفلوس، في الأموال، كل هذا مما احتاج الناس

إليه، وأُلزموا به، ونحن نكره الصور، ونبرأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ من شرها، ونسأل الله أن يعفو عنا، وأن يصلح المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

وأيضا كلمة: "**لَا يَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**» لا يُفهم أن الرقيب والعتيد ما يدخل مع الإنسان، لا، إنما المراد بهم ملائكة الرحمة، كما هو قول العلماء، وإلا في ملائكة لا تفارق العبد، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين.

٢٣ - باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذا الباب من أهم الأبواب، إذ أن الرسالة والنبوة إنما قامت على هذا الباب العظيم، ويدخل تحت هذا الباب عدة أبواب، فطلب العلم يدخل فيه، وتبليغ العلم داخل فيه، وبذل النصح داخل فيه، والخطابة، والوعظ، والتأليف والتصنيف، كل ذلك من الأمر بالمعروف، وهو ما وافق الكتاب والسنة، أو النهي عن المنكر، وهو ما خالف الكتاب والسنة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «كل معروف صدقة»، و(كل) من ألفاظ العموم، والمعروف أعلاه قول: لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق.

وقد تميزت هذه الأمة بأكثر من غيرها بهذه الصفة، إذ أن بني إسرائيل أمروا به فضيعوه، فلعنوا، كما سيأتي ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة المائدة: ٧٨-٧٩].

وهذه الأمة أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وحضها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على أن تكون آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وأخذ النبي ﷺ عليهم البيعة في ذلك، أن يقولوا الحق وإن كان مرا، وعلى الطاعة في المعروف.

إلا أنه ينبغي للمنكِر أن يعرف المنكر قبل إنكاره، فإن بعض الناس قد ينكر أمورا يظنها منكرات وهي ليست بمنكرات، فإذًا لا بد أن تعرف أن هذا الأمر معروف أو منكر، ويكون ذلك بالعلم.

الأمر الثاني: أن ينظر في طريقة إنكاره، وفي نوع المنكَر الذي ينكر، فإن كان إنكار المنكر سيؤدي إلى إزالته بالكلية مع استطاعته فهذا واجب عليه، وإن كان إنكار المنكر سيؤدي إلى التخفيف منه فهذا أيضا واجب، وإذا كان إنكار المنكر سيؤدي

إلى منكر مثله فهذا عبث، إنكاره عبث، عندنا منكر تزيله بمنكر مثله، هذا عبث، وإن كان المنكر سيؤدي إلى إزالته بأنكر هذا حرام.

ومــــن أزال منكـــــرًا بـــــأنكرِ كغاسـل الحـيض ببـول أغبـرِ

كمن يزيل النجس بالنجس.

والواجب تغيير المنكر باليد للمستطيع، بما لا فتنة فيه، والحديث على عمومه ما يأتي واحد يقول: هذا خاص بولي الأمر فيما هو من شؤونه، أما ما كان من أمور الرجل يستطيع أن يغير في بيته، يغير في أهله، بما لا فتنة فيه فلا حرج، فإن عجز عن التغيير باليد فباللسان، نصحا، وتوجيهها، وتذكيرا، ووعظا وتعليما، فإن عجز فبالقلب بغض لذلك المنكر.

فمن لم يفعل ذلك ويغير بقلبه فهو على خطر عظيم، قد جاء في بعض الأحاديث: «**وليس وراء ذلك حبة خردا من إيمان**»، الحديث في مسلم، إلا أن فيه كلام في هذه اللفظة، لكن الصحيح أنها ثابتة.

وقد تكلم النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه المسألة في شرح حديث أبي سعيد: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده**»، وتكلمنا عليها أيضا نحن بتوسع بحمد الله في كتابنا (الوسائل الجلية لنصرة الدعوة السلفية)، وفي غير ما موطن.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤].

وَقال تَعَالَى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

وَقال تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

وَقال تَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: ٧١].

وَقال تَعَالَى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾ [سورة المائدة: ٧٨-٧٩].

وَقال تَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [سورة الكهف: ٢٩].

وَقال تَعَالَى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [سورة الحجر: ٩٤].

وَقال تَعَالَى: ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝١٦٥﴾ [سورة الأعراف: ١٦٥].

وَالآيات في الباب كثيرة معلومة.

الشرح:

(﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾) هذا تحضيض من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده أن يكونوا آمرين بالمعروف، داعين

إليه، وأن يكونوا ناهين عن المنكر، محذرين منه، وأخبر أن الفلاح فيمن توفر فيه هذا الأمر، وأعرف المعروف التوحيد، وأنكر المنكر الشرك والتنديد.

(وَقالَ تعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾) هذا خبر من الله عَزَّوَجَلَّ بخيرية أمة محمد ﷺ، وذهب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلى أن هذا خاص بصحابة النبي ﷺ، ولا مانع أن تفسر الآية بخصوصها وعمومها.

(وَقالَ تعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾) والشاهد قوله: (﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾) أي: بموافقة الشرع، وقوله: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾) أي: ليكن من حظك الصفح والتجاوز في جميع شأنك، إلا ما لا بد منه، (﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾) بلسان الحال والمقال، (﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾) بلسان الحال والمقال، أي: لا تجاريهم في سبهم وشتمهم ونحو ذلك.

(وَقالَ تعَالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾) فذكر من أوصاف المؤمنين الخلص: أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

(﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾) قد يقول قائل: كيف لم يُلعنوا على لسان موسى؟ لعل ظاهرهم في عهد موسى كان على خير، وإنما وقع الانحراف بعد ذلك.

(﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾) أي: سبب لعنهم أنهم عصوا الله بالشرك، وربما بما دونه من المنكرات والكبائر العظيمات.

(﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾): يتعدون حدود الله.

(﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾) بل ربما ابتسم بعضهم إلى بعض، وجالس بعضهم بعضا، وأقر بعضهم بعضا.

(﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾) أي: بئس الصنيع هذا الذي فعلوه.

(وَقالَ تعالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾) وهذا ليس على التقرير؛ لأن بعضهم يظن أنه على التقرير، وإنما هذا على التهديد، ومعنى هذا أن المنكر إذا أنكر المنكر لا يتذمر إذا خالفه الناس، إنما عليه البلاغ، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الكهف: ٢٩]، وهو القرآن والسنة.

(﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾) بربه ونبيه، وله المثوبة من الله.

(﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾) وعليه العقوبة والذنب العظيم، ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [سورة الكهف: ٢٩]، وهذا دليل على أن الأمر هنا للوعيد لا للتخيير.

(وَقالَ تعالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾) أمر للنبي ﷺ أن يكون صداعا بالحق داعيا إليه، وهذا أمر لأمته أيضا.

(وَقالَ تعالَى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾) هذه في شأن أصحاب السبت، {وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال بعض المفسرين: ليت شعري أين ذُهب بالذين لم ينكروا المنكر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر طائفتين ولم يذكر الثالثة: ذكر الذين تعاطوا المنكر أنه صيرهم قردة وخنازير، وذكر الذين كانوا ينهون عن السوء بأنه أنجاهم، إذًا فما سبيل الذين لم ينكروا المنكر؟ إذا كانوا موافقين لهم مقرين لهم فهم مع الهالكين.

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَسْمَعُ الله يَقُولُ: «﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾، فَلَا أَدْرِي مَا فَعَلَ بِالْفِرْقَةِ السَّاكِتَةِ؟ قَالَ عِكْرِمَةُ: قُلْتُ لَهُ: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ أَلَا تَرَاهُمْ قَدْ أَنْكَرُوا وَكَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَقَالُوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ؟ وَإِنْ لَمْ يَقُلِ اللهُ أَنْجَيْتُهُمْ لَمْ يَقِلْ: أَهْلَكْتُهُمْ، فَأَعْجَبَهُ قَوْلِي، فَرَضِيَ وَأَمَرَ لِي بِبُرْدَيْنِ فَكَسَانِيهِمَا».

ثم أيضًا نعلم أنه على أولياء أمور المسلمين أن يكونوا قائمين بهذا الأمر، إذ أنهم المخاطب الأول بإقامة الحدود، وبغير ذلك، فإن المنكرات إنما تستجري في الأمة بسبب تضييع الأمراء والحكام بما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، فمن إنكار المنكر إقامة الحدود، حد السرقة على السارق، وحد الزنا على الزاني، وحد القتل على القاتل، وحد الشرب على الشارب، وهكذا.

وأما الأحاديث:

١٨٤ - فالأول: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: سَمِعت رَسُول الله** ﷺ **يقول:** «**مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**». **رواه مسلم**[1].

الشرح:

(١) حديث رقم: (٤٩).

(أبي سعيد الخدري) وهو سعد بن مالك، وقد تقدم، وهو من المكثرين.

ساق المصنف الحديث؛ لبيان وجوب الأمر المعروف والنهي عن المنكر، والتدرج في ذلك حسب الاستطاعة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

وقوله: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا) إنما خرج مخرج الغالب، وإلا من سمع بالمنكر وتيقن وقوعه تعين عليه إنكاره إن استطاع.

(فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ) بما لا فتنة فيه على ما تقدم، ولنحذر من منهج الخوارج والمعتزلة ومن إليهم، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندهم هو الخروج على الحكام، فهذا مذهب رديء وليس بسوي، وإنما المراد على التفصيل الذي سبق.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ) أي أمرا ونهيا، ونصحا وتوجيها.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ) بغضا، **(وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)**، وهذا لا يعذر فيه أحد؛ لأن القلب لا يطلع عليه أحد غير الله، فإذا أنكر بقلبه برئ أنه ليس مع القوم، وليس راض بالمنكرات.

١٨٥ – الثاني: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبيٍّ بَعَثَهُ اللهُ في أمَّة قَبْلِي إلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلبِهِ فَهُوَ مُؤمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رواه مسلم[١].

الشرح:

---

(١) حديث رقم: (٥٠).

قوله: (عن ابن مسعود) هو أبو عبد الرحمن الهذلي، عبد الله بن مسعود، روى عن النبي ﷺ فوق سبعمائة حديث، ولم يذكر في العبادلة؛ لأنه مات مبكرا، وهو صاحب الوسادة والنعلين.

(مَا مِنْ نَبيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أمَّة قَبْلِي) مفهومه: أن لا نبي بعد النبي ﷺ، وإنما كانوا في الأمم السابقة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠]، «لا نبي بعدي ولا رسول».

(إلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ) ينصرونه، الحواري: الناصر.

(وَأصْحَابٌ) يعني يلازمونه.

(يَأْخُذُونَ بِسنَّتِهِ): يتعلمون ويعملون، والسنة: الطريقة.

(وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ) أي: يتابعونه فيما أمر، ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ [سورة النور: ٦٣].

(ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ) كلما بعد الناس من العهد النبوي كثر الضعف فيهم.

(يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ) ربما تكلموا بالمعروف ولا يفعلونه.

(وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرونَ) يفعلون المنكرات، ويتركون المأمور به.

(فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ) وهذا في حق الحكام، وفيمن استطاع أن يغير المنكر في بيته وما إليه، بما لا مفسدة فيه.

(وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلسَانِهِ فَهُوَ مُؤمِنٌ) وعظا وتوجيها وإرشادا كما تقدم.

(وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلبِهِ فَهُوَ مُؤمِنٌ) بغضا وكرها.

(وَلَيسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ الإيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَل) أي إذا رضي المنكر، لا سيما ما كان من المنكرات الشركية والكفرية، فمن رضيها كفر.

١٨٦ - الثالث: عن أبي الوليدِ عبادة بن الصامِت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُول الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ في العُسْرِ واليُسْرِ، والمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِيهِ بُرْهَانٌ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ في اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(المَنْشَطُ وَالمَكْرَهُ) بفتح ميمَيْهِما: أي في السهل والصعب.

وَ(الأَثَرَةُ): الاختِصاص بالمشترَكِ وقد سبق بيانها.

(بَوَاحًا) بفتح الباءِ الموحدة بعدها واو ثُمَّ ألف ثُمَّ حاءٌ مهملة: أي ظاهِرًا لا يحتمل تأويلًا.

الشرح:

وعبادة بن الصامت هو أحد النقباء الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة الثانية.

(بَايَعْنَا رَسُول الله ﷺ) أي ليلة العقبة، مع من بايع من الأنصار.

(عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ) لأولياء أمور المسلمين، وللنبي ﷺ قبل ذلك السمع لكلام الله وكلام رسوله، والطاعة لأمر الله ولأمر رسوله ﷺ.

(في العُسْرِ واليُسْرِ) أي: في الشدة والرخاء.

(والمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ) حين القوة وحين الضعف.

(وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا): حتى وإن أدى الأمر إلى أن يقع الأثرة عليهم بقلة ما يُعطون ويقدم غيرهم عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩).

(وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ) أي أولياء الأمور من كانوا، ولو كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف.

(إلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا): كفرا ظاهرا بينا لا تأويل فيه، حتى لا يتستر الخوارج بمثل هذه الأحاديث ويعمدون إلى الخروج على الحكام، بل إن العلماء يقولون: وإن رأى كفرا بواحا يشترط للخروج شروطًا:

الأول: أن يغير بخير منه.

الثاني: ألا تقع فتنه في المسلمين.

الثالث: ألا يستعان بالكافرين، وربما ذكروا غير ذلك.

قال شيخنا مقبل: كنت أقول بهذه الشروط قبل أن أطلع عليها، ثم وجدت الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرها في رده على سلمان العودة، وهكذا أنا رأيتها في (الشرح الممتع) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد نقلناها في غير ما موطن.

انظروا إلى القذافي كنا نرى أنه كافر، ومع ذلك خرج عليه الليبيون فانظروا إلى حالهم الآن؛ لأنه لا قدرة لديهم في تبديله، ولا أبدلوه بخير منه، ولا سلم المسلمون من الفتن، وكذلك الشأن في سوريا؛ فمع اعتقادنا كفر النصيرية، إلا أن الخروج على بشار الأسد لم يجرّ على المسلمين هناك إلا ويلات عظيمة، من قتل ودمار وتشريد وسجون وتعذيب، مما تقشعر له الأبدان وتدمع له العيون، نسأل الله السلامة والعافية. غير أن الله سبحانه وتعالى قد تدارك أهلَ سوريا بفضله، فأذلّ هذا الظالم وجنده، ومكّن منهم، وشتّت شملهم، والحمد لله رب العالمين.

وكذلك سوريا، نحن نعتقد أن النصيرية كفار، لكن ما الذي ناله الإسلام وأهل الإسلام بخروجهم على بشار أسد؟ نالوا الدمار، ونالوا التشريد في البلدان، ونالوا العذاب الشديد من ذلك المجرم، نسأل الله أن يقطع دابره.

فالشاهد: أن من خرج على علماء المسلمين بعدم الأخذ بنصائحهم وتوجيهاتهم ربما يناله الضرر والفتنة، نعوذ بالله من الضلال.

ثم في الحديث الآخر يقول: «**لا ما صلوا**»، سيأتي معنا.

(وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أيْنَمَا كُنَّا) وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ) والإنسان إذا خشي على نفسه الضرر لا حرج، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، لكن من استطاع أن يقول كلمة الحق ولو عند السلطان الجائر فحسن، سئل النبي ﷺ عن أعظم الجهاد، فقال: «**كلمة حق عند سلطان جائر**».

١٨٧ - الرابع: عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **عن النَّبيِّ** ﷺ **قَالَ**: «**مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإنْ أَخَذُوا عَلَى أَيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَمِيعًا**». رواه البخاري[1].

(القَائِمُ فِي حُدُودِ اللهِ تَعَالَى) معناه: المنكر لَهَا، القائم في دفعِها وإزالتِها.

وَالمُرادُ بالحُدُودِ: مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ. (اسْتَهَمُوا): اقْتَرَعُوا.

الشرح:

(النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**)** هو وأبوه صحابيان، بشير صحابي كبير، والنعمان صحابي صغير، وأمه عمرة بنت رواحة، وقصته مشهورة، ستأتي.

---

(١) حديث رقم: (٢٤٩٣).

هذا مثل ضربه النبي ﷺ لأهل المحلة والبلدة والدولة؛ لأنهم كالسفينة، والقائم في هذه السفينة بالأمر والنهي مع غيرهم ممن يقع في البرايا والرزايا كمثل قوم استهموا على سفينة، (فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا) وهم أهل الصلاح، وأهل العلم وأهل الهدى، (وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا) وهم أهل المعاصي والكبائر والردى، وسبحان الله حتى المثل أظهر أن الرفعة للطائعين والضعة والسفل للعاصين.

(وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا) في أسفل السفينة.

(إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ)؛ لأنه لا بد أن يصعد إلى أعلى السفينة، والصعود يحتاج إلى مرور.

(فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا) وهذا عقل ضعيف، ورأي فاسد، وهذا هو الذي يسلكه العصاة، إذ أنهم بطريقهم هذا يخرقون في السفينة، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [سورة الشورى: ٣٠]، ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٥].

والمثل حتى عند الناس: الحسنة تخص والسيئة تعم، وهذا في الشأن الدنيوي قد يعاقب الله عَزَّوَجَلَّ الأمة وفيها بعض الصالحين، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»، أما في الآخرة فقد قال النبي ﷺ: «ثم يبعثون على نياتهم»، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٤].

(فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا)؛ لأن السفينة ستنخرق ويغرق الجميع الأعلى والأسفل.

(وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيدِيهِمْ) بإنكار هذا الفعل المستهجن، وهذا الرأي السيء (نَجَوا وَنَجَوْا جَمِيعًا) وهكذا الآمرون بالمعروف هم حراس السفينة مما ينالها من عبث

العابثين، فإننا نعيش في هذه الحياة كسفينة، فيفسد فيها من يفسد، ويسيء فيها من يسيء، وأهل الصلاح ينقون ويهذبون وينصحون ويعظون.

١٨٨ - الخامس: عن أُمِّ المؤمنين أم سلمة هند بنت أَبي أمية حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتعرِفُونَ وتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، أَلا نُقَاتِلهم؟ قَالَ: «لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ». رواه مسلم[(١)].

معناه: مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِنْكَارًا بِيَدٍ وَلا لِسَانٍ فقَدْ بَرِىءَ مِنَ الإِثْمِ، وَأَدَّى وَظِيفَتَهُ، وَمَنْ أَنْكَرَ بحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هذِهِ المَعْصِيَةِ، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ فَهُوَ العَاصِي.

الشرح:

(أم سلمة) هي زوج النبي ﷺ بعد عبد الله بن عبد الأسد، وكان أخو النبي ﷺ من الرضاعة، وهي آخر زوجات النبي صلى الله عليه موتا.

قوله: (إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ) هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

قوله: (فَتعرِفُونَ وتُنْكِرُونَ) أي: تعرفون منهم أعمالا موافقة للكتاب والسنة، وتنكرون: أي أعمالا مخالفة للكتاب والسنة.

(فَمَنْ كَرِهَ) أي: المخالف للكتاب والسنة **(فَقَدْ بَرِئَ)**؛ لأنه أنكر المنكر بحسب الاستطاعة، وهو الكره القلبي في هذا الحال.

(وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ) من أنكر بلسانه هذا شأنه أعظم، سلم من الإثم، وكذلك سلم من التبعات.

(١) حديث رقم: (١٨٥٤).

(وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ) هذا الذي يؤاخذ بالإثم، ويكون منهم، من رضي بأعمالهم وتابعهم في باطلهم، كما قال النبي ﷺ: «أَعَاذَكَ اللهُ يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ»، قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: «أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي، لَا يَهْدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ عَلَى كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي»[(١)].

(قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلا نُقَاتِلهم؟) يعني نقاتل هؤلاء الأمراء الظلمة الذين يفعلون المنكرات ويرضون بها، ويتعاطونها.

(قَالَ: لَا) لماذا؟ لأن قتالهم سيؤدي إلى الخروج عليهم، وإلى الفتن في أوساط الأمة، ومن عقيدة أهل السنة: السمع والطاعة للبر والفاجر من أمراء الإسلام، ويرون الهجرة والجهاد والجمعة والجماعة معهم.

(مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ) بهذا الحديث استدل بعض أهل العلم على تكفير تارك الصلاة؛ لأن النبي ﷺ قد قال في الحديث الأول: «إلا أن تروا كفرا بواحا»، وهنا يقول: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ»، فدل على أن تارك الصلاة يكفر كفرا أكبر مخرج من الملة، والمصلي مسلم مهما بلغ عصيانه يُصبَر عليه.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢/ ٢٤٣-٢٤٤): فَفِيهِ مَعْنَى مَا سَبَقَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِمُجَرَّدِ الظُّلْمِ أَوِ الْفِسْقِ، مَا لَمْ يُغَيِّرُوا شَيْئًا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ. اهـ

---

(١) أخرجه أحمد، حديث رقم: (١٤٤٤١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

١٨٩ - السادس: عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنتِ جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النَّبيّ ﷺ دخل عَلَيْهَا فَزِعًا، يقول: «لا إلهَ إلاّ الله، وَيلٌ للْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مِثلَ هذِهِ»، وحلّق بأُصبُعيهِ الإبهامِ والتي تليها، فقلتُ: يَا رَسُول الله، أنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

الشرح:

(عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنتِ جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) وهي زوج النبي ﷺ التي زوجه الله إياها من فوق سبع سنوات، وكانت تفتخر على زوجاته بقولها: زوجكن أهاليكن وأنا زوجني الله؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧].

وهي أول أزواجه لحاقا به، فقد قال النبي ﷺ: «أولكن لحاقا بي أطولكن يدا»، وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قصيرة، فظنوا أن الطول هو طول اليد الحقيقي، فلما مات النبي صلى الله وسلم لحقته زينب، وكانت أطولهن يدا، تعمل بيدها وتتصدق، وكانت قبل النبي ﷺ تحت زيد بن حارثة.

(أن النَّبيّ ﷺ دخل عَلَيْهَا فَزِعًا) من هول ما رأى، أو مما علم؛ لأن النبي ﷺ كان يعلم ما لا يعلم غيره، إذ يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الجن: ٢٦-٢٧]، وربما رأى رؤيا وربما رأى رأي العين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(يقول: لا إلهَ إلاّ الله) فيه التهليل والتسبيح والتكبير إذا ناب الإنسان أمر، فإذا نابك أمر فقل: لا إله إلا الله، أو قل: سبحان الله، أو قل: الله أكبر؛ لأن في ذلك تطمين للقلب، وهدوء للبال، فالنبي ﷺ يقول: «لا إله إلا الله» وهي أفضل كلمة كما سيأتي.

(وَيلٌ) يؤتى بها في تعظيم الأمر المنكر، و(ويح) يؤتى بها للترحم.

(لِلْعَرَبِ) ذكرهم دون غيرهم؛ لأن أكثر البلاء يحصل على العرب؛ لأن الإسلام فيهم، والعلم فيهم، وقد يقع في غيرهم، ومع ذلك لما كانوا كذلك انظروا إلى الآن البلاء فيهم أكثر من غيرهم، أوروبا تنعم في حياتها الدنيوية، وأمريكا تنعم في حياتها الدنيوية وأهل المشرق كذلك، والعرب في ثوراتهم، وقلقلاتهم، وحروبهم، نسأل الله السلامة، بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة، ولا لو استقاموا على الكتاب والسنة لرفعهم الله.

((وهذا دليل على أن أكثر الفتن تقع على أرض العرب والمسلمين المسلمين عامة، لكن على أرض العرب خاصة، وانظروا إلى الاستعمار، وانظروا إلى الفتن الحاصلات الآن، من ثورات، وانقلابات، وشرور كثيرات، تقع على أرض العرب، حتى يتعجب المتعجب)). اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

(مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ) وهي الفتن المدلهمة الكثيرة، لكن أعظمه:

(فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مِثل هذِهِ)؛ لأن فتح يأجوج مأجوج بعده الساعة كما هو معروف، وهم من بني آدم، قوم كفار.

ويأجوج مأجوج قوم من بني آدم، جعل ذو القرنين رَحِمَهُ ٱللَّهُ سدًا بينهم وبين من يليهم من البلدان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ

فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة الكهف: ٩٢-٩٧]

(وحلّق بأُصبُعيهِ الإبهامِ والتي تليها) الإبهام والسبابة أو المسبحة.

(فقلتُ: يَا رَسُول الله، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟) سألت النبي ﷺ؛ لأنه يُعلم أن الصالح لا يخزيه الله، وأن الصالح يسلمه الله، ويدافع الله عنه، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، وقد قالت خديجة: والله لا يخزيك الله أبدا.

(قَالَ: نَعَمْ) يهلك الصالحون، متى؟ **(إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ)**، كثر العصاة، كثر المتمردون، كثر المتنكرون لدين رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعند ذلك يلحق الهلكة الناس جميعا، ويبعثون على نياتهم، وفي الحديث الآخر: قال النبي ﷺ: «**تبقى حثالة كحثالة الشعير، لا يباليهم الله باله**»، يعني أكثر الناس يفسدون.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨/ ٣-٤): (الخَبَث) فَسَّرَهُ الْجُمْهُورُ: بِالْفُسُوقِ وَالْفُجُورِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الزِّنَا خَاصَّةً... وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ الْخَبَثَ إِذَا كَثُرَ فَقَدْ يَحْصُلُ الْهَلَاكُ الْعَامُّ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ صَالِحُونَ. اهـ

١٩٠ - السابع: عن أَبي سعيد الخُدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ» فقالوا: يَا رَسُول الله، مَا لنا مِنْ مجالِسِنا بُدٌّ، نتحدث فِيهَا، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلاَّ المَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ»، قالوا: وما حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رسولَ الله؟ قَالَ: «غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأمْرُ بِالمَعْرُوفِ، والنَّهيُ عن المُنْكَرِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

(إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ) هذا نهي من النبي ﷺ، ونهي النبي ﷺ يحمل على التحريم، وأمر أيضا من النبي ﷺ، وأمر النبي ﷺ يقابل بالفعل.

(إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ)؛ لأن الطريق ممر الجميع، وحق للجميع، وقد تمر منها المرأة، ويمر منها الرجل، وغير ذلك، والإنسان إذا جلس على الطريق قد يغلبه بصره.

(فقالوا: يَا رَسُول الله، مَا لنا مِنْ مجالِسِنا بُدٌّ) يعني: نجتمع فيها نتذاكر، ويأنس بعضنا بعض، كعادة العرب، وعادة كثير من الناس.

(نتحدث فِيهَا) إما في شؤونهم العامة أو الخاصة.

(فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلاَّ المَجْلِسَ، فَأَعطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) يعني: إذا أبيتم إلا الجلوس فلتكونوا على حالة من إعطاء حق الطريق، وحق المارين فيه، والحق هو للمارين، وإلا الطريق طريق، لكن الذي يمر فيه ينبغي ألا يضيق في طريقه، ينبغي ألا يؤذى بالقول ولا بالفعل.

(١) أخرجه: البخاري ٨/ ٦٣ (٦٢٢٩)، ومسلم ٦/ ١٦٥ (٢١٢١) (١١٤).

(غَضُّ البَصَرِ) عن النساء، حتى عن الرجال، قد يتأذى عند أن يخرج من هناك وأنت تنظره حتى يمشي من عندك، ربما يتأذى ويقول: لماذا تنظر إلي؟ أو ربما يخاف من العين، أو يخاف من الحسد، فأعط الطريق حقه بغض البصر، وإذا كانت امرأة فالأمر أشد.

(وَكَفُّ الأَذَى) كف الأذى عن المارة، فلا تؤذهم بريح، ولا بصوت، ولا بحجر، ولا بشيء من ذلك.

(وَرَدُّ السَّلامِ) إذا سلموا عليك رد السلام، ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [سورة النساء: ٨٦].

(وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ) إن رأيت ما يحتاج إلى أمر.

(والنَّهيُ عن المُنْكَرِ) إن رأيت منكرا، والله المستعان.

((إذن من يقوم بهذه الحقوق؟ إلا النادر، أما الآن نسأل الله السلامة والعافية، كثير من الناس في الطرق على الواي فاي، هذا الذي يبث شبكات الإنترنت، والناس ينظرونهم، وهم في منظر لا يردون سلاما، ولا يحسنون كلاما، ولا ربما أعانوا محتاجا، ولا أغاثوا ملهوفا، لا سيما من كان استخدامه للإنترنت في الحرام، أي والله يبقى مع الألعاب، وأسوأ منها المقاطع الخليعة، ينظرها كادت تخرج عيناه من رأسه؛ لكثرة تعلقه بهذه الآلة التي أفسدت الكثير وأفسدت، والله المستعان.

فلا يجوز للمسلم أن يؤذي أخاه المسلم بأي شيء من أنواع الأذى، وأيضًا لا يجوز أن يشوه إخوانه، فمثلا الأخوة الذين ربما جلسوا على الباب للإنترنت ونحوه يشوهون على إخوانهم، إذا مشى العامي ورآهم يتعجب، يقول: إذا كان هذا حال طلاب العلم فكيف بغيرهم؟

لكن إذا احتاج الإنسان بقَدَر، والمثل عند العامة يقول: إذا ابتليتم فاستتروا، إذا ابتلي الإنسان يستتر، وأصحاب البيوت قد يتأذون حين يبقى الأخ عند باب بيته، أو عند نافذته، يتصل، أو يفعل شيئا من ذلك، يتأذى، ويشعر بالحرج، فالإنسان عليه أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ)) اهـ من شرحي على "صحيح مسلم".

١٩١ - الثامن: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رَسُول الله ﷺ رأى خاتمًا مِنْ ذهبٍ في يدِ رجلٍ فنَزَعه فطرحه، وَقالَ: «يَعْمدُ أحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا في يَدِهِ»، فقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَمَا ذهب رَسُول اللهِ ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا واللهِ لا آخُذُهُ أبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رسولُ الله ﷺ. رواه مسلم[(١)].

الشرح:

ساق المصنف الحديث؛ لبيان تغيير المنكر، فإن النبي ﷺ لما رأى رجلا يلبس خاتم ذهب وهذا حرام على الرجال أنكر عليه.

وفيه أن لبس الذهب للرجال كبيرة من كبائر الذنوب.

وفيه سرعة استجابة الصحابة لأمر النبي ﷺ، ولو أخذ خاتمه وانتفع به لا حرج، لكنه لعظيم إيمانه أبى أن يأخذه.

قال النووي رحمه في شرح هذا الحديث (١٤/ ٦٥-٦٦): فَفِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ النَّهْيَ عَنْ خَاتَمِ الذَّهَبِ لِلتَّحْرِيمِ كَمَا سَبَقَ وَأَمَّا قَوْلُ صَاحِبِ هَذَا الْخَاتَمِ حِينَ قالوا له خذه، لا آخذه وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَفِيهِ الْمُبَالَغَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ وَعَدَمِ التَّرَخُّصِ فِيهِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الضَّعِيفَةِ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ إِنَّمَا تَرَكَ الْخَاتَمَ عَلَى سَبِيلِ الْإِبَاحَةِ لِمَنْ أَرَادَ أَخْذَهُ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَحِينَئِذٍ يَجُوزُ أَخْذُهُ

(١) حديث رقم: (٢٠٩٠).

لِمَنْ شَاءَ فَإِذَا أَخَذَهُ جاز تصرفه فِيهِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهُ أَخَذَهُ لَمْ يَحْرُمْ عَلَيْهِ الْأَخْذُ وَالتَّصَرُّفُ فِيهِ بِالْبَيْعِ وَغَيْرِهِ وَلَكِنْ تَوَرَّعَ عَنْ أَخْذِهِ وَأَرَادَ الصَّدَقَةَ بِهِ عَلَى مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْهَهُ عَنِ التَّصَرُّفِ فِيهِ بِكُلِّ وَجْهٍ وَإِنَّمَا نَهَاهُ عَنْ لُبْسِهِ وَبَقِيَ مَا سِوَاهُ مِنْ تَصَرُّفِهِ عَلَى الْإِبَاحَةِ. اهـ

١٩٢ – التاسع: عن أَبِي سعيد الحسن البصري: أن عائِذَ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بنِ زياد، فَقَالَ: أي بُنَيَّ، إني سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «إنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُ: اجلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّد ﷺ فَقَالَ: وهل كَانَتْ لَهُم نُخَالَةٌ؟ إِنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ. رواه مسلم[(١)].

الشرح:

(أَبِي سعيد الحسن البصري) وهو من سادات التابعين في العلم والورع والعبادة والصلاح، رأى رؤيا: أن رجلا أتته الدنيا وكان يطردها، أو نحو ذلك، فقال ابن سيرين: هذه الرؤيا لا تصلح إلا للحسن البصري.

(عائذ بن عمرو) صحابي.

(عبيد الله بن زياد) كان ظالما غاشما، كثير من أمراء بني أمية وقعت فيهم غشامة، وهم سبب ظهور التشيع في بعض ناس، فعلى المسلم أن يكون ملازما للعدل، فمثل عبيد الله بن زياد، ومثل زياد بن أبيه، ومثل الحجاج بن يوسف هؤلاء فعلوا أفاعيل.

(أي بُنَيَّ، إني سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «إنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ) انظر نصحه في وجهه، وهذا وإن كان في رعاية الغنم شر الرعاء الذي يحطم الغنم، وهذا حديث عام، حتى في أبنائك، حتى في طلابك، حتى فيمن تقوم

---

(١) حديث رقم: (١٨٣٠).

عليه، الغنمة إذا بقيت غنمة، لا عقل لها، إذا بقيت كل ما شردت منك ضرب ما هو إلا إضعافها وإذهاب لحمها والإساءة إليها، وهكذا من تقوم عليه من ابن، أو زوجة، أو طالب، أو غير ذلك، لا بد أن تتحلى بالرفق ما استطعت إلى ذلك سبيلا، فإذا أدبت كان الأدب في محله.

(فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ) يعني تؤدي إلى أذى رعيتك.

(فقَالَ لَهُ: اجلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّد ﷺ) كالمحتقر له، يقول: ما أنت من كبار الصحابة، أنت مثل النخالة.

(فقَالَ: وهل كَانَتْ لَهُم نُخَالَةٌ؟) وهذا رد عظيم، كلهم أفاضل الصحابة رضوان الله عليهم، كلهم اصطفاهم الله عَزَّوَجَلَّ لصحبة نبيه ﷺ.

وهذا أمر يجب أن يكون عند جميعنا، أن صحابة النبي ﷺ لهم منزلة وقدر في القلوب وفي جميع الشأن، حتى في بعض التمثيل إياك أن تسيء إليهم بتمثيلهم بشيء من النقائص؛ لأن الله اصطفاهم لصحبة محمد ﷺ.

انظر من حطمة عبيد الله بن زياد يحتقر الصحابي، ومثله الحجاج، قال لعبد الله بن مسعود: عبد هذيل، قال لأنس بن مالك: والله لأختمنك بخاتم العبيد، أنس حر، أنس بن مالك حر، إنما خدم النبي ﷺ خدمة تبرع، ولم يكن عبدا مملوكا، وأراد الخبيث أن يسمه بميسم العبيد.

فلما علم عبد الملك بن مروان هزأه وأغلظ عليه، وأمره بالإحسان إلى صحابة النبي ﷺ، هذا من حسناته العظيمة.

الصحابة ما أحوجنا إلى أن نحبهم، ونترحم عليهم، ونذكرهم بالجميل، قال الطحاوي: ومن ذكرهم بغير الجميل فهو على غير السبيل.

ما أقبح الرجل يقول: هم رجال ونحن رجال، هذا قبيح في قيله، كيف هم رجال وأنت رجال؟ يعني تساوي نفسك بالصحابة الذين صلوا خلف النبي ﷺ وجاهدوا معه وبذلوا المال والنفس وبذلوا ما لم يبذل؟

الصحابة الذين كان أحدهم يقدم أمر النبي ﷺ على كل غالي عليه، حتى لو أمرهم في مواطن الهلكة، مثل إرساله ﷺ لحذيفة بن اليمان أن يذهب بين الكفار: «**اذهب فأتني بخبر القوم**»، تصور لو أن واحد يقول لك: اذهب بين أعدائنا وأتني بالخبر، كيف سيكون الأمر؟ قال حذيفة: فما رأيت من أمر النبي صلى الله وسلم بد، وذهب وأتاه بخبرهم.

فلا تتمن مشهدا غيبه الله عنك، كما أنكر المقداد بن الأسود وأنكر حذيفة بن اليمان، قال بعضهم عند المقداد بن الأسود: لو صحبنا النبي ﷺ لفعلنا وفعلنا، فغضب المقداد، قال له: لماذا يتمنى أحدكم مشهدا غيبه الله عنه؟ لقد أدرك النبي ﷺ أناس كبهم الله على مناخيرهم في نار جهنم.

ليست القضية أن تلقى النبي ﷺ، القضية أن تكون مؤمنا بالنبي ﷺ، متبع للنبي ﷺ.

وحذيفة لما قال له رجل: لو كنا مع رسول الله ﷺ لفعلنا وفعلنا، قال له: على رسلك يا بني، لقد رأيتنا ليلة مع النبي ﷺ وهو يقول: «**من يأتينا بخبر القوم وهو رفيقي في الجنة؟**»، قال: فأرم القوم، سكتوا جميعا، وهم خيرة الصحابة، فيهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وفيهم حذيفة بن اليمان، وفيهم ثلة الأمة، وخيرة الأمة، وأصفياء الأمة.

قال: فأعادها: «**من يأتيني بخبر القوم وهو رفيقي في الجنة؟**» فسكتوا، ثم قال في الثالثة فسكتوا، فقال: «**قم يا حذيفة**»، قال: فلم يكن بد، لما جاء الأمر الصريح لم يكن بد.

فيأتي واحد يقول: لو كنت في زمن النبي ﷺ، صل الصلاة في وقتها وجزاك الله خيرا، يتمنى أن يكون في زمن النبي ﷺ وهو ما يصلي صلاة الفجر في وقتها، وأولئك صلاة الفجر والظهر والمغرب والعشاء، يؤذن المؤذن: حي على الجهاد يقوم وهو جُنب، كما في قضية غسيل الملائكة، حي على الجهاد، والآخر في يده سبع تمرات أو أقل أو أكثر، فيقول: إنها لحياة طويلة أن آكل هذه الثمرات، فيرمي بها.

ونحن أحدنا ما يجاهد نفسه بحفظ حديث يتقن به صلاة النبي ﷺ، في حفظ آية، في شهود جماعة، في شهود جمعة، في بذل في أوجه الخير، أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنفق ماله كله أنفقه في سبيل الله، عمر أنفق نصف المال، عثمان بن عفان جهز جيش العسرة، واشترى بئر رومة، وفعل وفعل.

والآن بعضهم معه ملايين ربما يدخلها في البنوك، ربما يحرم الفقير، ربما يفعل بها ويعطيها في أوجه الشر والعياذ بالله، ثم يتمنى أن يكون مثل الصحابة، الصحابة فاقوا الأمة بما في قلوبهم، وبما عملوا من أعمال، وإلا من حيث الذكورة كلنا ذكور، صح من هذا كلنا ذكور صح، لكن هم رجال، ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣].

انظر إلى هذا، أنس بن النضر، سيأتي معنا ترجمته، يقول: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله يا رسول الله لئن أراني الله قتالهم ليرين الله ما أصنع، يعاهد الله أنه يفعل ما لا يُفعل، وفعلا جاءت معركة أحد، قال سعد بن معاذ

وهو سعد بن معاذ الذي اهتز العرش له قال: يا رسول الله والله ما استطعت ما استطاع، قال له: يا سعد الجنة إني لأجدها قبل أحد، وترك سعد ومشى إلى الجنة.

فوجدوه وقد قتله المشركون، ولم تعرفه إلا أخته ببنانه، وجهه صار مقطعا، وجسمه صار مقطعا، ما عُرف إلا بإصبع من أصابعه.

هؤلاء هم الصحابة، هؤلاء هم الذين نظر الله عَزَّوَجَلَّ إلى قلوبهم، فجعلهم وزراء لنبيه، جعلهم يقومون بدينه، الذين رأيهم حسن، «**فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن**»، أما نحن آراؤنا تبع شهواتنا، تبع أهوائنا، تبع ملذاتنا، هم لا، أهواؤهم وملذاتهم تبع لدينهم، ولذلك ما رأوه حسنا فهو عند الله حسن.

فيجب والله أن نعرف لهم قدرهم ومنزلتهم، ونترضى عليهم، ونترحم عليهم، انظر أتحدى واحد الآن يصلي ليله ونهاره، يحفظ القرآن، يحفظ السنة، وتأتيه الشهادة أنه من أهل الجنة، أبدا، أبدا لا يمكن، والصحابة عدد عظيم شهد له النبي ﷺ بالجنة وهو يمشي على الأرض.

ثابت بن قيس بن شماس الذي كان في دمامة الوجه ما الله به عليم، وهو من أهل الجنة، مشهود له بالجنة، بلال بن رباح الحبشي مشهود له بالجنة، الحسن والحسين مشهود لهم بالجنة، طلحة والزبير، وقبل ذلك الخلفاء الأربعة، مشهود لهم بالجنة، الرميصاء والغميصاء مشهود لهم بالجنة، إلى غير ذلك، يمشي أحدهم وهو يعرف أنه من أهل الجنة.

ومع ذلك لا يرفع صوته، ولا يتعالى، ولا يتعاظم، ولا شيء يتبجح، انظر إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مشهود له بالجنة، وهو ما هو مكذب للنبي صلى الله عليه، وعند موته يقول: يا ليتني خرجت منها كفافا، لا لي ولا علي، إنه تعظيم الله، إنه تعظيم الدين، إنه تعظيم السنة، يتمنى أنه خرج من هذه الدنيا كفافا لا له ولا عليه.

ونحن الواحد منا إذا فعل شيئا يرى نفسه أنه قد كما قيل: فتح الهند والسند، وهو ربما تارك للفرائض، مرتكب للكبائر، ونسأل الله السلامة والعافية.

أيضا في باب الذنوب، كان أحدهم إذا أذنب: يا رسول الله أصبت حدا فطهرني، يبذل نفسه، في مواقف كثيرة.

فالشاهد أنهم كانوا غاية في البذل، وكانوا غاية في العبادة، وكانوا غاية في العلم، ثم يأتي مثل هذا الناقص ويتنقصهم ويقول له: أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ.

١٩٣ - العاشر: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوْنَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ». رواه الترمذي، وَقالَ: حديث حسن[١].

الشرح:

وانظر إلى معنى هذا الحديث، الآن نلاحظه، وقعت الثورات والكل رضي بها، الكل رضي بالثورة، الكل رضي بالشر، وخرج الناس كلهم من بلدانهم منزحين الراضي والكاره، إلا من رحم الله، بسبب عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان أحدهم ربما يأخذ زوجته وابنته وإلى أماكن الاعتصامات، والله المستعان.

يجب على الناس أن يعظموا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووالله ما يقوم به على الوجه الحق إلا أهل السنة والجماعة، الذين لا يريدون من أحد جزاءً ولا شكورًا.

---

(١) حديث رقم: (٢١٦٩)، قال: صحيح لغيره، إلا قوله: «ثم تدعون فلا يستجاب لكم»، رواه الترمذي، وفي سنده عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي الأنصاري مجهول.

١٩٤ – الحادي عشر: عن أَبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائرٍ». رواه أَبُو داود والترمذي، وَقالَ: حديث حسن[1].

الشرح:

فكلمة حق يقولها الإنسان عند ظالم عند غاشم هذا من أعظم الجهاد؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الجهاد، والعمل بالعلم من الجهاد، وطلب العلم من الجهاد، والإنفاق في سبيل الله من الجهاد.

قال المباركفوري رَحِمَهُٱللَّهُ في "تحفة الأحوذي" (٦/ ٣٣٠): **قَالَ الْخَطَّابِيُّ**: وَإِنَّمَا صَارَ ذَلِكَ أَفْضَلَ الْجِهَادِ لِأَنَّ مَنْ جَاهَدَ الْعَدُوَّ كَانَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ لَا يَدْرِي هَلْ يَغْلِبُ أَوْ يُغْلَبُ، وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ مَقْهُورٌ فِي يَدِهِ فَهُوَ إِذَا قَالَ الْحَقَّ وَأَمَرَهُ بِالْمَعْرُوفِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلتَّلَفِ وَأَهْدَفَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ فَصَارَ ذَلِكَ أَفْضَلَ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ غَلَبَةِ الْخَوْفِ؛ **وَقَالَ الْمُظْهِرُ**: وَإِنَّمَا كَانَ أَفْضَلَ لِأَنَّ ظُلْمَ السُّلْطَانِ يَسْرِي فِي جَمِيعِ مَنْ تَحْتَ سِيَاسَتِهِ وَهُوَ جَمٌّ غَفِيرٌ فَإِذَا نَهَاهُ عَنِ الظُّلْمِ فَقَدْ أَوْصَلَ النَّفْعَ إِلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ بِخِلَافِ قَتْلِ كَافِرٍ. انْتَهَى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وهو صحيح لغيره، حديث أبي سعيد من طريق عطية العوفي، عن أبي سعيد به، وعطية ضعيف.

ورواه أحمد من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، وعلي بن زيد ضعيف، وصححه الألباني في (صحيح السنن)، وجاء عن جماعة يأتي ذكرهم بعد الحديث الآتي.

المهم أن الحديث محتج به، وأيضا يشهد له الحديث الذي بعده.

١٩٥ - الثاني عشر: عن أَبي عبدِ الله طارِقِ بن شِهاب البَجَليِّ الأَحْمَسِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رجلًا سأل النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وضع رِجله في الغَرْزِ: أيُّ الجِهادِ أَفضلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». رواه النسائي بإسناد صحيح[1].

(الغرز) بغين معجمة مفتوحة ثُمَّ راء ساكنة ثُمَّ زاي: وَهُوَ ركاب كَوْرِ الجملِ إِذَا كَانَ من جلد أَوْ خشب، وقيل: لا يختص بجلد وخشب.

الشرح:

(عن أَبي عبدِ الله طارِقِ بن شِهاب البَجَليِّ الأَحْمَسِي) صحابي صغير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ أَبُو نعيم: حججت سنة حج أَبُو جَعْفَر ومعه ابْن أَبِي ذئب ومالك بْن أَنَس، فدعا ابْن أَبِي ذئب فأقعده معه عَلَى دار الندوة فَقَالَ لَهُ: مَا تقول فِي الْحَسَن بْن زَيْدُ بْن حسن. يعني أمير المدينة؟ فَقَالَ: إنه ليَتَحَرّى العدل. فَقَالَ لَهُ: مَا تقول فِيّ - مرتين -؟ فَقَالَ: وربّ هَذِهِ البنية إنك لجائر. قَالَ: فأخذ الرَّبيع الحاجب بلحيته. فَقَالَ لَهُ أَبُو جعفر: كُفَّ يَا بْنَ اللخناء، وأمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار.

وقال مُحَمَّد بْن المسيّب الأرغياني: سَمِعْت يونس بن عبد الأعلى يَقُولُ: سَمِعْت الشافعي يَقُولُ: مَا فاتني أحد فأسفت عَلَيْهِ مَا أسفت عَلَى الليث وابن أَبِي ذئب.

نعم يذكرون في ابن أبي ذنب أنه ربما دخل على الأمير فيسأله عن نفسه فيجيبه.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ ثِقَةٌ. قَدْ دَخَلَ عَلَى أَبِي جَعْفرٍ المَنْصُوْرِ، فَلَمْ يَهُلْهُ أَنْ قَالَ لَهُ الحَقَّ. وَقَالَ: الظُّلْمُ بِبَابِكَ فَاشٍ وَأَبُو جَعْفرٍ أَبُو جَعْفرٍ.

قَالَ مُصْعَبٌ الزُّبَيْرِيُّ: كان ابن أبي ذئب فقيه المدينة.

---

(١) حديث رقم: (٣٩٢٥).

وَقَالَ البَغَوِيُّ: حَدَّثَنَا هَارُوْنُ بنُ سُفْيَانَ قَالَ: قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ: حَجَجْتُ عَامَ حَجَّ أَبُو جَعْفَرٍ، وَمَعَهُ ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ، وَمَالِكُ بنُ أَنَسٍ، فَدَعَا ابْنَ أَبِي ذِئْبٍ، فَأَقعَدَهُ مَعَهُ عَلَى دَارِ النَّدْوَةِ، فَقَالَ لَهُ: مَا تَقُوْلُ فِي الحَسَنِ بنِ زَيْدِ بنِ حَسَنٍ -يَعْنِي: أَمِيْرَ المَدِيْنَةِ-؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَيَتَحَرَّى العَدْلَ، فَقَالَ لَهُ: مَا تَقُوْلُ فِيَّ -مَرَّتَيْنِ-؟ فَقَالَ: وَرَبِّ هَذِهِ البَنِيَّةِ، إِنَّكَ لَجَائِرٌ. قَالَ: فَأَخَذَ الرَّبِيْعُ الحَاجِبُ بِلِحْيَتِهِ فَقَالَ لَهُ: أَبُو جَعْفَرٍ كُفَّ.

١٩٦ – الثالث عشر: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ ودَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَلا يَمْنَعُهُ ذلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ**».

ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ **[سورة المائدة: ٧٨-٨٠] – إِلَى قوله –** ﴿فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ **[سورة المائدة: ٨١].**

ثُمَّ قَالَ: «**كَلاَّ، وَاللهِ لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**»، **رواه أَبُو داود والترمذي، وَقَالَ: حديث حسن**[1].

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧).

هَذَا لفظ أَبِي داود، ولفظ الترمذي، قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ في المَعَاصي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤهُم فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ في مَجَالِسِهمْ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَربَ اللهُ قُلُوبَ بَعضِهِمْ بِبعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسانِ دَاوُد وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ، ذلِكَ بِما عَصَوا وَكَانُوا يَعتَدُونَ» فَجَلَسَ رَسُول الله ﷺ وكان مُتَّكِئًا، فَقَالَ: «لا، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أطْرًا».

قوله: (تَأطِرُوهم): أي تعطفوهم. (ولتقْصُرُنَّهُ): أي لتحبِسُنَّه.

الشرح:

الحديث ضعيف، من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ولم يسمع منه، ومع ذلك ظاهر القرآن يكفي، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ [سورة المائدة: ٧٨] والسبب في ذلك أنهم: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [سورة المائدة: ٧٩]، مع بقية ذنوب ومعاصي بينها الله عَزَّوَجَلَّ في الآيات.

فينبغي للمسلم أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه، فإن العصيان من أسباب اللعن، والاعتداء لحدود الله من أسباب اللعن، وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب اللعن، وكذلك تولي المشركين والكافرين.

وهذا الحديث مع ضعفه يحتج به الثوار ومن إليهم، يرون الخروج على الحاكم الظالم، ويستدلون بمثل هذا الحديث الضعيف، الأحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة، فالحاكم وإن ظلم ظلمه على نفسه، وبقاؤه للأمة، حتى قيل: ستون سنة بحاكم ظالم ولا ليلة بدون حاكم، وهو صحيح، لو وقع ليلة بدون حاكم يقع الفساد العريض في الدنيا، نسأل الله السلامة والعافية.

١٩٧ – الرابع عشر: عن أَبِي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: يَا أيّها النَّاس، إنّكم لتقرؤُون هذِهِ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [سورة المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يأخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أوشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ». رواه أَبُو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة[(١)].

الشرح:

ومعنى الحديث: أن الناس عليهم أن يتعاونوا على البر والتقوى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [سورة المائدة: ١٠٥] ليس معنى ذلك أنك لا تتدخل بأمر بمعروف ونهي عن منكر، ولا تعظ ولا تنهى، هذا ما هو صحيح، ولكن الزم عمل نفسك، واجتهد في ذلك، وإذا رأيت من انحرف إن استطعت أن توجهه وتنصحه وتتعاون معه أمر مطلوب.

(﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾) هذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [سورة فاطر: ٨]، يعني كالرابط على قلب النبي ﷺ، فهنا يقول: يا أيها الذين آمنوا إذا رأيتم الناس في ضلال بعيد لا يضرونكم، لكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

(إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يأخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ) أي: بمنعه من الظلم إن استطاعوا، (أوشَكَ) أي: قرب، (أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ) بسبب السكوت عن الباطل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، والنسائي في (الكبرى) (١١١٥٧)، وهو حديث ثابت في (الصحيح المسند) لشيخنا الوادعي رَحِمَهُٱللَّهُ.

قال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحفة الأحوذي (٦/ ٣٢٤): قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: خَافَ الصِّدِّيقُ أَنْ يَتَأَوَّلَ النَّاسُ الْآيَةَ غَيْرَ تَأْوِيلِهَا فَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ وَأَنَّ الَّذِي أُذِنَ فِي الْإِمْسَاكِ عَنْ تَغْيِيرِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَتَدَيَّنُونَ بِهِ وَقَدْ صُولِحُوا عَلَيْهِ فَأَمَّا الْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ وَالرَّيْبُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ الْآيَةَ، فَلَيْسَتْ مُخَالِفَةً لِوُجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُلِّفْتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كُلِّفَ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا فَعَلَهُ وَلَمْ يَمْتَثِلِ الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتْبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ. اهـ

٢٤ - باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أَوْ نهى عن منكر وخالف قوله فعله

وهذه مصيبة؛ لأن الناس قد تغلبهم أنفسهم، قد تغلبهم أهواؤهم، قد تغلبهم شهواتهم، فلذلك إذا كان ممن يخالف قوله فعله أو فعله قوله يخشى عليه من عذاب الله ومقته.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **[سورة البقرة: ٤٤].**

وَقالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ **[سورة الصف: ٢-٣].**

وَقالَ تَعَالَى إخبارًا عن شعيب ﷺ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾ **[سورة هود: ٨٨].**

الشرح:

(﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾)

يعني: ابدأ بنفسك فانهها عن غيها، فإذا انتهت فأنت الرابح.

(﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾) المقت: البغض والغضب.

(﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾)؛ لأنهم كانوا يشركون ويندون، وكان شعيب ينهاهم عن الشرك والتنديد، وأرادوا شعيبا أن يكون منهم، فقال لهم: ما يصلح لي أن أنهاكم عن شيء وأرتكبه معكم.

١٩٨ – وعن أَبي زيد أسامة بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ القيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْه أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بالمعْرُوفِ وَتنهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فيقُولُ: بَلَى، كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

قوله: (تَنْدلِقُ) هُوَ بالدالِ المهملةِ، ومعناه تَخْرُجُ.

وَ(الأَقْتَابُ): الأمعاءُ، واحدها قِتْبٌ.

الشرح:

(أَبي زيد أسامة بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) الحِب بن الحب، أمره النبي ﷺ على جيش وفيه أبو بكر وعمر، وإنما قعد أبو بكر وعمر بعد ذلك؛ لانشغالهم بأمر المسلمين في المدينة.

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان أنه يتعين على الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر بقوله مبتعدًا عن المنكر بفعله ملازمًا للمعروف بفعله.

وفيه: وعيد عظيم لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ثم يخالف قولُه فعلَه، وذلك أن الحجة قائمة عليه، فينبغي للمسلم أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ في سره وجهره، وأن يكون عاملًا بعلمه الذي علمه.

(يُؤْتَى بالرَّجُلِ) ذُكر على الغالب، وإلا حتى النساء.

(يَوْمَ القيَامَةِ) أي: يوم الجزاء، (فَيُلْقَى فِي النَّارِ)؛ جزاء عمله السيء.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(**فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ**) أي: أمعاء بطنه.

(**فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فِي الرَّحَى**) أي في مكانه.

(**فَيَجْتَمِعُ إِلَيْه أَهْلُ النَّارِ**) كالمتعجبين من صنيعه؛ لأنهم يظنون أنه سيكون من أهل الجنة.

(**فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بالمعْرُوفِ وَتنهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟**) وهذا أمر قد عُلم أنه من أسباب دخول الجنة.

(**فَيَقُولُ: بَلَى**) أي: نعم، كنت أفعل ذلك، وسيأتي حديث ثوبان: «**إذا خلو بمحارم الله انتهكوها**»، إلى غير ذلك من الأحاديث.

٢٥ - باب الأمر بأداء الأمانة

قال رسول الله ﷺ: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»، والأمانة صفة أهل الإيمان والخيانة صفة أهل الإجرام، ولهذا أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [سورة النساء: ١٤٢]، وأخبر أنهم يستهزئون ويستهزئ بهم، لما ذكر الخيانة لم تقابل؛ لأن الخيانة مذمومة في كل حال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ [سورة الأنفال: ٧١]، وآية المنافق ثلاث ومنها: الخيانة.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ **[سورة النساء: ٥٨]**.

وَقالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ **[سورة الأحزاب: ٧٢]**.

الشرح:

(﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾) ومنها: طاعة أولياء الأمور في طاعة الله، ومنها: أداء الودائع، ومنها: أداء الديون، ومنها غير ذلك.

(﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾) **الآية:** هذه أمانة الدين، عرضها الله على السماوات أن تقوم بها فتبرأت منها؛ لعلمها بثقل الحمل، وعرضها على الأرض الجبال الشامخات، والصخور الصماء، فأبت أن تقبل هذه الأمانة؛ لعلمها بشدتها، **(وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)** خوفا.

(﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾) جنس الإنسان حمل هذه الأمانة.

(﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾) الغالب في جنس الإنسان أنه ظلوم جهول، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٣]، تغلبه نفسه وشيطانه وهواه، وأمور كثيرة.

١٩٩ - وعن أَبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعدَ أخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

وفي رواية: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أنَّهُ مُسْلِمٌ».

الشرح:

(آيةُ): علامة، والمنافق المراد به: النفاق العملي لا الاعتقادي هنا.

(ثلاثٌ) وهذا ليس على الحصر؛ لأنه قد يأتي في بعضها أربع.

(إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ) كذب في حديثه مع الناس؛ لأنه متعود على الكذب، وإلا الإنسان أن يعود نفسه الصدق، «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة».

(وَإِذَا وَعدَ أخْلَفَ) وهذا يذم إذا كان يعد ونيته الخلف، أما رجل يقول لك: عندي لك كذا كذا إن شاء الله ليوم الإثنين، ثم يأتي يوم الإثنين ما يتيسر له وهو نيته الوفاء إنما لم يتيسر ليس عليه ذنب، إنما الذنب على من وعد وهو عازم على الخلف.

(وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) اؤتمن أي أمانة يخونها.

(وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ) يعني: زعم أنه مسلم كامل الإسلام كامل الإيمان الصحيح أن عنده نقص بقدر ما عنده من الذنوب والمعاصي.

* وقلت في شرحي على "صحيح مسلم":

قال المناوي في (فيض القدير) (١/ ٦٢): وخص هذه الثلاث لاشتمالها على المخالفة في القول والفعل، والنية التي هي أصول الديانات، فنبه على فساد القول

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

بالكذب، وفساد الفعل بالخيانة، وفساد النية بالخلف، وليس يتجه عليه أن يقال هذه الخصال قد توجد في المسلم، والإجماع على نفي نفاقه الذي يصيره في الدرك الأسفل؛ لأن اللام إن كانت للجنس فهو إما على منهج التشبيه والمراد أن صاحبها شبيه بالمنافق متخلق بأخلاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه، أو الإنذار والتخويف، أو الاعتياد والاضطرار، ومصيره ديدنا وخلقا، كما يؤذن به حذف المفعول من حدث لدلالته على العموم، فكأنه قال: إذا حدث في كل شيء كذب فيه، وإن كانت للعهد فذلك في منافقي زمن النبي ﷺ عموما، حدثوا بإيمانهم فكذبوا، ووعدوا في نصر الدين فأخلفوا، وائتمنوا في المال فخانوا، أو منافق خاص وذلك أن المصطفى ﷺ كان لا يواجه أحدًا بما يكره، بل يستر فيقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا؟**»، ونحو ذلك.

أو يقال: النفاق ضربان: شرعي، وهو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، وعرفي، وهو أن يكون سره خلاف علانيته، وهو المراد هنا.

قال الكرماني وتبعه ابن حجر: وأحسن الأجوبة حمله على النفاق العملي. اهـ.

٢٠٠ - وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حدثنا رَسُول الله ﷺ حِدِيثَينِ قَدْ رأيْتُ أَحَدَهُمَا وأنا أنتظرُ الآخر: حدثنا أن الأمانة نَزلت في جَذرِ قلوبِ الرجال، ثُمَّ نزل القرآن فعلموا مِنَ القرآن، وعلِموا من السنةِ، ثُمَّ حدّثنا عن رفع الأمانة، فَقَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أثَرُهَا مِثلَ الوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّومَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أثَرُهَا مِثلَ أثَرِ المَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيسَ فِيهِ شَيءٌ»، ثُمَّ أخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ «فَيُصْبحُ النَّاسُ يَتَبَايعُونَ، فَلا يَكَادُ أحدٌ يُؤَدّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إنَّ في بَني فُلان رَجُلًا أميناً، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أعْقَلَهُ! وَمَا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّة مِن خَرْدَل مِنْ إيمَان».

وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ: لَئِن كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عليَّ دِينهُ، وَإنْ كَانَ نَصْرانِيًّا أَوْ يَهُودِيًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ مِنْكُمْ إلاَّ فُلاَنًا وَفُلانًا». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

قوله: (جَذْرُ) بفتح الجيم وإسكان الذال المعجمة: وَهُوَ أصل الشيء

وَ(الوكت) بالتاء المثناة من فوق: الأثر اليسير.

وَ(المَجْلُ) بفتح الميم وإسكان الجيم: وَهُوَ تَنَفُّطٌ في اليدِ ونحوها من أثرِ عمل وغيرِه.

قوله: (مُنْتَبِرًا): مرتفِعًا. قوله: (ساعِيهِ): الوالي عَلَيهِ.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان الأمر بأداء الأمانة.

قوله: (حدثنا رَسُول الله ﷺ حدِيثَينِ) لعلها في مجلس واحد، وإلا فقد حدثهم أحاديث كثيرة.

(قَدْ رأيْتُ أحَدَهُمَا) أي من أخبار دلائل النبوة.

(وأنا أنتظرُ الآخر) حدثه بأمور كثيرة، لا سيما حذيفة، فإنه صاحب السر.

(حدثنا أن الأمانة نَزلت في جَذرِ قلوبِ الرجال) أمانة الدين، أمانة العلم، أمانة العمل.

(ثُمَّ نزل القرآن فعلموا مِنَ القرآن، وعلِموا من السنةِ) فزاد إيمانهم وزاد خيرهم.

(ثُمَّ حدّثنا عن رفع الأمانة) وهذا بعد الصحابة ﷺ، وإلا فالصحابة أمنة للأمة، كما قال النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

(فَقَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ) يعني يضعف إيمانه ضعفا شديدا، وفي حديث أبي هريرة: «يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا».

(فَيَظَلُّ أثَرُهَا مِثلَ الوَكْتِ) يجد أثرا لكن ما يستطيع يعالج نفسه.

(ثُمَّ يَنَامُ النَّومَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ) فيصبح بدون أمانة.

(فَيَظَلُّ أثَرُهَا مِثلَ أَثَرِ المَجْلِ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ) يعني مثل النَّفْط الذي ما داخله شيء، عبارة عن ماء يسير، إذا فقعته سال على يدك.

(ثُمَّ أخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) يعني تمثيلا لهذا الأثر.

(فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايعُونَ) في أسواقهم وفي شأنهم.

(فَلا يَكَادُ أحدٌ يُؤَدّي الأَمَانَةَ) وهذا هو الواقع، لا سيما في هذا الزمان، إذا كان هذا في زمن حذيفة ما بالك بزمننا هذا؟

(حَتَّى يُقَالَ: إنَّ في بَني فُلان رَجُلًا أمينًا) يثني عليه الناس؛ لأمانته وعدله وخيره.

(حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أجْلَدَهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أعْقَلَهُ!) ثناء عليه.

(وَمَا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّة مِن خَرْدَل مِنْ إيمَان) ضعف إيمانه، وذهاب الأمانة من قلبه، أمانة الدين، وهذا الذي نراه الآن تجد كثيرا من الناس يغترون باليهود والنصارى، يقولون: والله نحن نتبايع معهم عندهم أمانة، أي أمانة عندهم وهم لا دين لهم ولا استجابة لهم؟ وهذا أمر إنما يفعلونه من أجل الدنيا.

(وَلَقدْ أَتى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أيُّكُمْ بَايَعْتُ) يعني في زمن الصحابة قال: كنت أبيع وأشتري، لكن ما أبالي إن بايعت هذا أو هذا.

(لَئن كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عليَّ دِينهُ)؛ لأن المسلمين ما كان عندهم غش، «من غشنا فليس منا».

(وَإنْ كَانَ نَصْرانِيًّا أَوْ يَهُودِيًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ) أي: ولي أمره، ويُلزمه برد الباطل.

(وَأَمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ مِنْكُمْ إلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا) ممن قد عُرف بالأمانة وشهر بها.

وهذا دليل على أن من لازم الأمانة في قيله وفي فعله وفي بيعه وفي شرائه وفي جمع معاملاته الناس يثنون عليه بها، ويقبلونه عليه.

٢٠١ - وعن حُذَيفَة وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قالا: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «يَجمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ فيَقُومُ المُؤمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الجَنَّةُ، فَيَأتُونَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ، فَيقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الجَنَّةَ، فيقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إلاَّ خَطيئَةُ أبيكُمْ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إبْراهيمَ خَلِيل اللهِ. قَالَ: فَيَأتُونَ إبرَاهِيمَ فيَقُولُ إبراهيم: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذلِكَ إنَّمَا كُنْتُ خَليلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمَدُوا إِلَى مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ الله تَكليمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لستُ بِصَاحِبِ ذلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسى كلمةِ اللهِ ورُوحه، فيقول عيسى: لستُ بصَاحبِ ذلِكَ، فَيَأتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَيَقُومانِ جَنْبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالبَرْقِ»، قُلْتُ: بأبِي وَأمِّي، أيُّ شَيءٍ كَمَرِّ البَرقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَروا كَيْفَ يمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَال تَجْرِي بِهِمْ أعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّراطِ، يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أعْمَالُ العِبَادِ، حَتَّى يَجِيء الرَّجُلُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفًا، وَفِي حَافَتَي الصِّراطِ كَلاَلِيبُ معلَّقَةٌ، مَأمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّارِ».

وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، إنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا. رواه مسلم[(١)].

(١) حديث رقم: (١٩٥).

قوله: (وراء وراء) هُوَ بالفتح فيهما، وقيل: بالضم بلا تنوين ومعناه: لست بتلك الدرجة الرفيعة، وهي كلمة تذكر عَلَى سبيل التواضع، وقد بسطت معناها في (شرح صحيح مسلم)، والله أعلم.

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان خطر شأن الأمانة، وأن من ضيعها سيجدها منتظرة في أحلك المواطن، انظر يمر بالقبر ما يجد الأمانة، يمر بالحوض، يمر في تطاير الصحف، في الحساب، ما يجد الأمانة، فإذا وصل على الصراط ذاك الطريق الذي لا سبيل للخلاص منه وجدها أمامه، الأمانة في جانب، والرحم في جانب.

مصيبة عظيمة، إذا منعه من الصعود على الصراط ربما يهوى به في نار جهنم، هذا هو المعنى بارك الله فيكم.

(يَجمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ المُؤمِنُونَ) أي: يوم القيامة، فيقومون لطلب الشفاعة العظمى، كما في حديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد.

(حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الجَنَّةُ) أي: تقرب لهم الجنة، للمؤمنين، ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾ [سورة الشعراء: ٩٠].

(فَيَأْتُونَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِ) أي للاستشفاع.

(فَيقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الجَنَّةَ) ومفتاح الجنة هو من خصائص النبي ﷺ، وإنما طلبوا الشفاعة العظمى كما هو موضح في أحاديث أخرى.

(فَيقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إلاَّ خَطيئَةُ أبيكُمْ) هذا دليل على أن الجنة التي خرج منها آدم هي جنة الخلد، (فَيقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجَنَّةِ إلاَّ خَطيئَةُ أبيكُمْ)؛ لأن بعض أهل العلم ذهب إلى أن الجنة التي كان فيها آدم هي عبارة عن بستان في

الأرض، هذا ما هو صحيح، هي جنة الخلد، ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: ٣٨]، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة طه: ١١٨-١١٩]، فجنة الأرض مهما كانت لا بد أن تجوع، ولا بد أن تعرى، ولا بد أن تظمأ، ولا بد أن تضحى، لكن هي جنة الخلد الذي لا يلحق الإنسان فيها ذلك.

(اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ) وهو أول رسول إلى أهل الأرض، فيعتذر منهم نفسي، نفسي نفسي، كما في الحديث الآخر.

(اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْراهِيمَ خَلِيلِ اللهِ) دليل على أن إبراهيم من ذرية نوح، وبينهم عمر طويل.

(إِنَّمَا كُنْتُ خَليلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ) لأنه خليل الرحمن، ويثنون عليه بذلك، والنبي ﷺ أيضًا خليل الرحمن، وتركوا سلام الله عليهم هذا؛ مكرمة لمحمد ﷺ أكرمه الله بها.

(اعْمَدُوا إِلَى مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ الله تَكليمًا) كلهم من أولي العزم من الرسل، وإلا هناك أنبياء ورسل غيرهم، وفيه إثبات كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يتكلم بحرف وصوت، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٤].

(كلمةِ اللهِ ورُوحه) معنى (كلمة الله): أي أنه كان بقول الله: كن فيكون، ليس معنى ذلك أن عيسى هو الكلمة؛ لأن الزعم أن عيسى هو الكلمة هو اعتقاد النصارى، ولذلك عبدوا عيسى، وهنا الإضافة كلمة الله إضافة تشريف، ليس إضافة صفة إلى موصوف، وإنما المعنى أنه كان بكلمة الله، ففيه إثبات صفة الكلام لله.

(وروحه) الروح لا تثبت لله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هي إضافة تشريف أيضا، وقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: ٢٩] أيضا إضافة تشريف.

(**فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا** ﷺ) وهو سيد الخلق، وإمام المتقين، وصاحب الحوض والشفاعة، وصاحب اللواء المحمود.

(**فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ**) أي: يسجد لله عَزَّوَجَلَّ، ويثني عليه ويدعوه ويرجوه، كما في الحديث الآخر: «**فأحمده بمحامد يعلمنيها ربي**».

(**وتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ**) أي ترسل للمطالبة بمن ضيعها، الأمانة تريد المضيع، والرحم يريد حقه، لا سيما في ذلك اليوم، كل يريد حقه بالمحاصصة، حتى ولو كان أبا، أو أخا، أو زوجة، أو ابنا، أو بنتا، يريد حقه بالمحاصصة.

(**فَيَقُومانِ جَنْبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا**) أحدهما هاهنا، والأخرى هاهنا.

(**فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالبَرْقِ**) وهذا صاحب الإيمان الخالص.

(**وَشَدِّ الرِّجَالِ**) في رواية: «**شد الرحال**»، يعني مثلما جري الإبل.

(**تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ**) يعني ليس الجري على قوة البدن أو قوة الأعصاب أو الرياضة كما هو الحال في الدنيا، ولكن تجري بهم أعمالهم، من ازداد عمله جرى به على الصراط، ومن ضعف عمله كان صيدا للكلاليب والحسك التي على الصراط.

(**وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّراطِ**) فيه شفقة النبي صل الله عليه وسلم على أمته، حيث يقوم في ذلك الموطن، ويدعو الله: «**اللهم سلم سلم، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل**»، في هذا الموطن لا يتكلم إلا الرسل، بماذا يتكلمون؟ رب سلم سلم، رب سلم سلم.

(**حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ العِبَادِ**) يعني خلاص قد مشى أصحاب الأعمال الذي كمر البرق، والذي كمر الريح، والذي كشد الطير، والذي كمر الخيل، قد مروا كلهم، ما بقي إلا الضعاف.

(**حَتَّى يَجِيء الرَّجُلُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلاَّ زَحْفًا**) وسيأتي معنا في صفة الجنة شيء من ذلك.

نسأل الله السلامة والعافية، والله المستعان.

٢٠٢ - وعن أَبِي خُبيب - بضم الخاء المعجمة - عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا وَقفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الجَمَل دَعَانِي فَقُمْتُ إِلَى جَنْبه، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إنَّهُ لَا يُقْتَلُ اليَومَ إلاَّ ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإنِّي لَا أراني إلاَّ سَأُقْتَلُ اليومَ مظلومًا، وإنَّ مِنْ أكبرَ هَمِّي لَدَيْنِي، أفَتَرَى دَيْننا يُبقي من مالِنا شَيئًا؟

ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ، بعْ مَا لَنَا وَاقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصَى بِالثُّلُثِ وَثُلُثِهِ لِبَنِيهِ، يعني لبني عبد الله بن الزبير ثُلُثُ الثُّلُث، قَالَ: فَإنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّينِ شَيء فَثُلُثُه لِبَنِيكَ، قَالَ هِشَام: وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللهِ قَدْ وَازى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ خُبيبٍ وَعَبَّادٍ، وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ بَنِينَ وَتِسْعُ بَنَات.

قَالَ عَبدُ الله: فَجَعلَ يُوصِينِي بدَيْنِهِ وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ، إنْ عَجزْتَ عَن شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيهِ بِمَوْلَايَ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلَاكَ؟ قَالَ: الله، قَالَ: فَوَاللهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إلاَّ قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ فَيَقْضِيَهُ.

قَالَ: فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلَا دِرْهمًا إلاَّ أَرَضِينَ، مِنْهَا الغَابَةُ، وإحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بالمَدِينَةِ، وَدَارَيْنِ بالبَصْرَةِ، ودَارًا بالكُوفَةِ، ودَارًا بِمِصْرَ.

قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي كَانَ عَلَيهِ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأتِيهِ بالمال، فَيَسْتَودِعُهُ إيَّاهُ، فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لا، وَلَكِنْ هُوَ سَلَفٌ إنِّي أَخْشَى عَلَيهِ الضَّيْعَةَ، وَمَا وَلِيَ إمَارَةً قَطُّ وَلا جِبَايَةً ولا خراجًا وَلَا شَيئًا إلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوٍ مَعَ رسولِ الله ﷺ أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم قَالَ عَبدُ الله: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيهِ مِن الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفيْ أَلْفٍ وَمِئَتَي

أَلْف، فَلَقِيَ حَكِيمُ بنُ حِزَام عَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، كَمْ عَلَى أخي مِنَ الدَّيْنِ؟ فكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ: مِائَةُ أَلْف، فَقَالَ حَكيمٌ: واللهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسَعُ هذِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَرَأَيْتُكَ إنْ كَانَتْ أَلْفَي أَلف وَمِئَتَيْ أَلْف؟ قَالَ: مَا أُرَاكُمْ تُطيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي.

قَالَ: وَكَانَ الزُّبَيرُ قَد اشْتَرَى الغَابَةَ بِسَبْعِينَ ومئة أَلف، فَبَاعَهَا عَبدُ اللهِ بِأَلْفِ أَلْف وَسِتِّمِئَةِ أَلْف، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيرِ شَيْء فَلْيُوافِنَا بِالغَابَةِ، فَأَتَاهُ عَبدُ اللهِ بنُ جَعفَر، وَكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيرِ أَرْبَعمئِةِ أَلف، فَقَالَ لعَبدِ الله: إنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكمْ، قَالَ عَبدُ الله: لا، قَالَ: فَإنْ شِئتُمْ جَعَلْتُمُوهَا فِيمَا تُؤَخِّرُونَ إنْ أَخَّرْتُمْ، فَقَالَ عَبدُ الله: لا، قَالَ: فَاقْطَعُوا لِي قطْعَةً، قَالَ عَبدُ الله: لَكَ مِنْ هاهُنَا إِلَى هَاهُنَا، فَبَاعَ عَبدُ اللهِ مِنهَا فَقَضَى عَنْهُ دينَه وَأَوْفَاهُ، وبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَسْهُم وَنِصْفٌ، فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَة وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، وَالمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ زَمْعَةَ، فَقَالَ لَهُ مُعَاويَةُ: كَمْ قُوِّمَتِ الغَابَةُ؟ قَالَ: كُلُّ سَهْم بمئَة أَلف، قَالَ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَسْهُم وَنِصْفٌ، فَقَالَ المُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيرِ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهمًا بِمئَةِ أَلف، قَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بمئَةِ أَلْف، وَقالَ ابْنُ زَمْعَةَ: قَدْ أَخَذْتُ سَهمًا بِمئَةِ أَلْف، فَقَالَ مُعَاويَةُ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَ: سَهْمٌ ونِصْفُ سَهْم، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ بخَمْسِينَ وَمئَةِ أَلْف.

قَالَ: وَبَاعَ عَبدُ الله بْنُ جَعفَر نَصيبهُ مِنْ مَعَاوِيَةَ بستِّمِئَةِ أَلْف، فَلَمَّا فَرَغَ ابْنُ الزُّبَيرِ مِنْ قَضَاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيرِ: اقسمْ بَيْنَنَا ميراثَنا، قَالَ: وَاللهِ لا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بالمَوْسم أَرْبَعَ سنينَ: أَلا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ، فَجَعَلَ كُلَّ سَنَةٍ يُنَادِي فِي المَوْسِمِ، فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سنينَ قَسَمَ بيْنَهُمْ وَدَفَعَ الثُّلُث، وَكَانَ للزُّبَيْرِ أَرْبَعُ

نِسْوَةٍ، فَأَصَابَ كُلَّ امرَأَةٍ أَلْفُ أَلف وَمِئَتَا أَلْف، فَجَميعُ مَالِه خَمْسُونَ أَلف أَلْف وَمِئَتَا أَلْف. رواه البخاري[١].

الشرح:

(الزبير) هو ابن العوام، ابن صفية، عمة النبي ﷺ.

هذا حديث عظيم، فيه من الفوائد: ما حصل في غزوة الجمل من البلاء على المسلمين، حيث قُتل طلحة والزبير، وكانا مظلومين، وقتل غيرهم، وهو يوم شديد على المسلمين، خرجت عائشة لقصد الإصلاح فكان ما كان، ونسأل الله السلامة.

وكان المصيب في تلك الحرب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومع ذلك دع الصحابة فيما جرى بينهم، فكلهم في الحشر مغفور لهم.

سمي بيوم الجمل؛ لأن الناس اجتمعوا على الجمل، منهم من يريد عائشة بقتل ومنهم من يدافع عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وخرج الخوارج على علي بن أبي طالب بسبب ذلك اليوم، قالوا: لماذا لم يسب عائشة وقد انتصر؟ فحاججهم ابن عباس: أيسبي أمكم ويستحل منها ما يستحل من النساء؟ إن قلتم: نعم كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا كفرتم، فرجع منهم ألفان، وفي رواية: أربعة آلاف، بسبب هذه المحاججة.

ولم يشارك أبو بكرة في ذلك اليوم؛ لحديث سمعه من رسول ﷺ: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»، وهذا باب ينبغي للإنسان أن يتفطن له، المرأة لا تولى في مصالح المسلمين العامة ولا الخاصة، المرأة تقوم بما هو من شأنها، فإن وُليت بيتها لا يكون لها التحكم المطلق في البيت أمرا ونهيا وزجرا وغير ذلك كأنها هي الأب، المرأة مرأة،

(١) حديث رقم: (٣١٢٩).

قال النبي ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الصالح من إحداكن**».

ووالله أن من تسلطت عليهم امرأته لا يفلح، ودولة تسلط عليها امرأة لا تفلح، ومسجد يسلط عليه امرأة لا يفلح، أي شيء يسلط عليه النساء ما يقع فيه فلاح؛ لهذا الحديث، وهذه الأيام يعطون وزيرة دفاع في لبنان، يطلبون الفلاح من النساء، ما هو إلا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة إن لم يتدارك الله المسلمين برحمته.

فأبو بكرة أبى أن يخرج مع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي أم المؤمنين، واستدل بهذا الحديث: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**».

وفيه الوصية، فانظر إلى الزبير كيف حرص على وصية ابنه.

وفيه أن الأبناء ينبغي أن يكونوا قريبين من أبيهم، لا سيما في مثل هذه المواقف انظر إلى جابر بن عبد الله أوصاه أبوه، وانتفع بتلك الوصية، وانظر إلى ابن الزبير.

(فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ اليَومَ إِلاَّ ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ) وهذا هو الواقع، أي حرب من قتل فيها إما أن يكون ظالما أو مظلوما، فأصحاب الحق هم المظلومون، وأصحاب الباطن هم الظالمون، وقد يكون هناك تأول، في مثل هذا الصحابة متأولة، ما نقول بأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومن إليها أرادوا باطلا، لا، عائشة خرجت للإصلاح بين الناس، فكان ما كان، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حصل ما حصل، بحيث أن الخوارج لما وجدوا أن المسلمين قد اجتمعت كلمتهم بالنهار انقسموا إلى قسمين: فصار بعضهم في جهة جيش عائشة، وبعضهم في جهة جيش علي بن أبي طالب، فحصل الاقتتال، فقام الناس على قتال، فماذا سيكون الحال؟ كل اخترط سيفه واشتعلت الحرب، وأصلها من مكر الخوارج.

(وَإنِّي لَا أراني إلاَّ سَأُقْتَلُ اليومَ مظلومًا) إما أن يكون رأى رؤيا، وإما أن يكون الإنسان يجد من نفسه إذا كان سيحصل عليه مصيبة، يجد من نفسه ذلك، لاسيما مثل الزبير عنده فراسة.

(وإنَّ مِنْ أكبرَ هَمِّي لَدَيْنِي) فيه الحرص على قضاء الدين، «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه».

(أفَتَرَى دَيْننا يُبقي من مالِنا شَيئًا؟) جاء بهذا السؤال أيضا؛ لكثرة الدين الذي تحمله.

(ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ، بِعْ مَا لَنَا وَاقْضِ دَيْنِي) وهذا دليل على أن قضاء الدين يقدم على الوصية، ويقدم على الميراث.

(وَأَوْصَى بِالثُّلُثِ وَثُلُثِهِ لِبَنِيهِ) أي: بعد قضاء الدين.

(يعني لبني عبد الله بن الزبير) وهذا دليل على أنهم ليسوا بورثة؛ لأن الفرع الوارث قبلهم منعهم وحجبهم.

عبد الله بن الزبير تزوج صغيرا، ولذلك أثرى من الأبناء.

(قَالَ: فَإنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّينِ شَيء فَثُلُثُه لِبَنِيكَ) وصية عظيمة، قدم فيها الأهم، فالأهم.

(قَالَ هِشَام) وهو ابن عروة.

(وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللهِ قَدْ وَازى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ خُبيبٍ وَعَبَّادٍ، وَلهُ يَوْمَئذٍ تِسْعَةُ بَنينَ وَتِسْعُ بَنَات) يعني الأعمام وأبناء أخيهم في سن واحد، هذا يحصل كثيرا، لا سيما إذا تزوج الابن مبكرا، والأب ما زال ينجب.

(قَالَ عَبدُ الله: فَجَعلَ يُوصيني بدَيْنِهِ): يشدد في ذلك؛ لأن الدين مصيبة، «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين».

(وَيقُولُ: يَا بُنَيَّ، إنْ عَجزْتَ عَن شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيهِ بِمَوْلَايَ) ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٦]، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧]، وليس من أسماء الله (المولى)، (نِعم المولى) اسم ركب، أما مفرد بعضهم لا يسمي المولى، ولكنه اسم مركب ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال: ٤٠].

(قَالَ: فَوَاللهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلَاكَ؟)؛ لأنه يطلق عند العرب على السيد.

(قَالَ: الله) انظر إلى ثقة الصحابة بالله عَزَّوَجَلَّ، الديون اثنين مليون ومائتين ألف، ليس كما هو الحال الآن أوراق، ديون ذهب، ديون فضة.

(قَالَ: فَوَاللهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ إلاَّ قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ فَيَقْضِيَهُ) يستجيب الله له، أولا: لثقة الزبير بربه عَزَّوَجَلَّ، ثانيا: لدعاء ابن الزبير لله عَزَّوَجَلَّ.

(قَالَ: فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَم يَدَعْ دِينَارًا وَلَا دِرْهمًا إلاَّ أَرَضِينَ) يعني كان ما عنده نقود عنده فقط كما يقال: عقار.

(مِنْهَا الغَابَةُ): منطقة زراعيه.

(وإحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بالمَدِينَةِ) إحدى عشر بيت في المدينة.

(وَدَارَيْنِ بالبَصْرَةِ، ودَارًا بالكُوفَةِ، ودَارًا بمِصْرَ) إما أن يكون اشتراهما، وإما أن يكون أخذهما مما يقسم للمسلمين من الفتوحات والغنائم.

(قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي كَانَ عَلَيهِ أنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأتِيهِ بالمال) يعني ما كان يتدين يقول: سلفني، ويذهب وينفقه، لا، كان الناس يأتونه بأموالهم فيقول: اجعلوها دينا،

لماذا؟ لأنها لو كانت أمانات وقدر عليها بسرقة أو تلف أو غصب أو غير ذلك لا يلزمه، ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [سورة التوبة: ٩١].

لو أعطى واحد عندك مائة ألف أمانة ثم قدر أنها سرقت منك بدون تفريط ما عليك شيء، أو واحد أرسل معك مثلا برسالة من هنا إلى المكلا ضاعت منك ما عليك شيء، ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [سورة التوبة: ٩١].

لكن لو قال: خذ هذه إجارة، خمسة آلاف إيجار وصلها، عند ذلك يلزمك الضمان، وهكذا عند أن يعطيك دينا يلزمك الضمان، حتى وإن تلفت سرقت، على أي حال، لكن حين يعطيك أمانة لا بد أن تردها، فهذا من حرص الزبير على أداء الحقوق، ولهذا فرج الله عنه.

(وَمَا وَلِيَ إِمَارَةً قَطُّ وَلا جِبَايَةً ولا خراجًا وَلَا شَيئًا) كثير من الصحابة كانوا يزهدون في الإمارات، وفي نحو ذلك من الأعمال والقضاء.

(إلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوٍ مَعَ رسولِ الله ﷺ) أي نال هذا من غزوات مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر وعمر، فأخذها من الغنائم.

(قَالَ عَبدُ الله: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيهِ مِن الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفيْ أَلْفٍ وَمِئَتَي أَلْف) يعني اثنين مليون ومائتا ألف.

(حكيم بن حزام) عاش ستين سنة في الإسلام، وستين سنة في الجاهلية، وهو ممن حسن إسلامه.

(فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، كَمْ عَلَى أخي مِنَ الدَّيْنِ؟) فيه السؤال، أولا: يؤنسه، ثانيا: يعينه، ثالثا: يتفقده، الآن يموت الميت ما أحد يسأل عن دينه، ولا ربما يؤنس أولاده والله المستعان.

(فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ: مِائَةُ أَلْف) أراد أن لا يحزنه.

لا تشكرن لعاذل أو عاذر حاليك في السراء والضراء

فأنت حين تشكو للعاذل يسخر منك ويضحك عليك، وعند أن تشكو للعاذر يحزن عليك، فعبد الله بن الزبير أراد أن لا يحزن حكيم بن حزام، فقال له: مائة ألف، وهذا ليس من الكذب، لا يقول واحد: هذه كذبة، ليس من الكذب، عليه مائة ألف وعليه مائة ألف وعليه مائة ألف وعليه مائة ألف، وإنما ذكر عددا يدخل تحت أعداد.

(فَقَالَ حَكِيمٌ: واللهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسَعُ هذِهِ) مائة ألف وراءاها كثيرة، يعجز عبد الله بن الزبير عن قضائها.

(فقَالَ عَبْدُ اللهِ: أَرَأَيْتُكَ إنْ كَانَتْ أَلْفَي ألف وَمئَتَيْ أَلْف؟) يعني: أيش ستقول؟

(قَالَ: مَا أَرَاكُمْ تُطيقُونَ هَذَا) يترحم له.

(فَإنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بي) ليس من المسألة، هذا إذا قال لك واحد: إذا احتجت كلمني، أو إذا أردت شيئا أنا لك مثل الأب، أو مثل الأخ، هذا ليس من المسألة في شيء، فإن حكيم يقول له: إذا عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي.

(قَالَ: وَكَانَ الزُّبَيرُ قَد اشْتَرَى الغَابَةَ بِسَبْعِينَ ومئة ألف) سعر لا بأس به.

(فَبَاعَهَا عَبدُ اللهِ بأَلْفِ أَلْف وَسِتّمِئَةِ أَلْف) يعني قضت أكثر من ثلثي الدين، الغابة وحدها بفضل الله عَزَّوَجَلَّ قضت أكثر من ثلثي الدين، وبقيت معه العقار من بيوت ونحو ذلك، وهذا فيه بركة شراء الأرض، من كان عنده مال لا يفرط في هذا الباب، فانظر إلى الصحابة ربما اشتروا العقارات، العقار اليوم تشتريه بخمسة آلاف وبعد غد بعشرة آلاف، بعدها بعشرين ألف، بعدها بثمانين ألف، بعدها بمائة ألف، وهكذا.

كثير من الناس في مكة وفي غيرها كانوا فقراء، وكانت لهم عقارات قريب الحرم، فهذا يعوض بأربعين مليون، وهذا يعوض بثلاثة مليون، وهذا يعوض بعشرة مليون، فصاروا أغنياء.

حتى ذكر لي بعضهم: أن امرأة قريبة من المسجد النبوي، عجوز لها بيت، فعوضت بأربعين مليون ريال سعودي، مسكينة، ما عساها تفعل بالأربعين مليون؟ لكن هو قيمة بيتها.

فالشاهد أن الإنسان الذي لديه مال ما هو خسارة يا أخي ولا حرام أن يكون لأبنائك أرضا، أو لك أرضا، إذا وسع الله عليك بنيتها وسكنتها، أو استفدت من إيجارتها، وإذا فتح الله بأثمان بعتها، ربما تموت فيقضى دينك منها، ربما يلحقك مرض فيكون دواؤك فيها، والله المستعان.

(فَأَتَاهُ عَبدُ اللهِ بنُ جعفَر، وَكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيرِ أَرْبَعمئةِ أَلْف) وعبد الله بن جعفر من كرماء الصحابة، وكان ذا بذل وعطاء.

(فَقَالَ لعَبدِ الله: إنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكمْ) يعني هدية أو هبة، وأعفو عن أخي الزبير.

(قَالَ عَبدُ الله: لا) يخشى أنه إنما سامحه من باب الحياء، فإذا كان الإنسان في سعة حتى وإن عفا عنك قل له: خذ حقك، وإن كنت في ضيقه وقبلت عفوه أمر طيب، لكن كون الإنسان يستطيع أن يؤدي أحسن أن يؤدي.

(قَالَ: فَإنْ شِئتُمْ جَعَلْتُمُوهَا فِيمَا تُؤَخِّرُونَ إنْ إخَّرْتُمْ) قال: خلاص خلوني آخر واحد.

(فَقَالَ عَبدُ الله: لا) وهذا من حرصه على قضاء دين أبيه، والتزام الوصية، وإلا ربما الناس يحترمون الزبير ويجلونه، لربما عفا عنه أكثرهم، لكن لما رأوا عبد الله حريصا على تأدية هذه الأمانات كل أخذ حقه، فأعطاه نصيبه أرضا.

(فَبَاعَ عَبدُ اللهِ مِنهَا فَقَضَى عَنْهُ دَينَه وَأَوْفَاهُ، وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَسْهُم وَنِصْفٌ)؛ لأنه باعها مجزأة، وهذا أيضا طريق تجاري، إذا كان معك أرض تخشى أن ما أحد يستطيع يشتريها منك قسمها إلى أسهم، وبع من هذا سهم، ومن هذا نصف سهم، ومن هذا

ربع سهم، فيقع فرج عليك ورفق بالناس، بل ربما هذه الأرض تستطيع أن تكسبها أكثر، يعني ما كان على الشوارع العامة تكون أغلى ثمنا، وما كان في الشوارع الداخلية تكون أنقص ثمنا، فيقع رفق بك ورفق بالناس الذين يشترون منك، ثم باع ما باع، إلى أن كان يقول:

(قَالَ بَنُو الزُّبَيرِ: اقسمْ بَينَنَا ميراثَنا)؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ جعل للرجال نصيبا مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيبا مما ترك الوالدان والأقربون.

(قَالَ: وَاللهِ لا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِي بالمَوْسم أرْبَعَ سنينَ) فيه جواز تأخير القسمة؛ لأنه إذا ظهرت ديون بعدين من يتحملها؟ ربما يقول ذاك: أنا ما لي دخل، وذاك يقول: أنا ما لي دخل، وربما ذاك قد أتلف ماله، لكن تبقى التركة حتى نخرج منها الدين، وما بقي كل واحد يأخذ حقه.

وكانوا يختارون الموسم؛ لأن الناس يتفرقون في البلدان ويجمعهم الموسم.

(ألا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ) وينبغي لمن له دين على ميت أن يبادر بإبلاغ ورثته أن له دين؛ لأن بعض الناس هداهم الله لا هو ممن يسامح ولا هو ممن يتكلم، يا أخي ما يجوز هذا.

أخونا إسماعيل سهيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قُتل في دماج، وأعلنا ذلك اليوم: من كان له دين عنده فليأت، ومكثنا أربع سنوات، وزوجته تتصل أو ترسل: يا أبتي رأيت أن إسماعيل كذا، نقول: لعل عليه دين، قالوا: ما نعلم أحدا، قد سألنا، قد بحثنا، ما وجدنا أحدا، وبعد أربع سنوات قام واحد يراسلنا من إب يقول: عند إسماعيل لي ستة وثلاثون ألف، يا أخي اتق الله أربع سنوات وأنت صامت، لا أنت ممن عفوت ولا أنت ممن طالبت؟ قال: استحيت، فأرسلنا له بها والحمد لله.

وهكذا الولد محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رأينا رؤيا أن عليه دين، وإذا بصاحب الدين على باب المسجد، لا هو ممن قال: عفا الله عنه ولا هو ممن قال: يا أخي هات حقي، وبعد خمسة أشهر يقول: عند محمد لي دين، هذا ما يصلح، إن كان لك دين على ميت كلم ورثته، إما أن يحتالوا الدين على ذمتهم وتبرأ ذمة الميت، وإما أن يعطوك دينك، فانظر عبد الله بن الزبير ينادي، فينبغي للإنسان أن يكون هكذا.

(فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سنينَ قَسَمَ بيْنَهُمْ وَدَفَعَ الثُّلُثَ) بعد الدين الوصية، وأما ترتيب القرآن ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [سورة النساء: ١٢]، لماذا قُدم في القرآن الوصية لفظا وقدم في القضاء الدين ابتداء؟ قالوا: لأن الوصية ضعيفة، قد يحجبها الورثة، قد يمنعون إخراجها، فعند ذلك أمرهم الله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ [سورة النساء: ١١] قدمها لفظا؛ لتأكيد إخراجها، والالتزام بها، وأما الدين قوي، سيأتيك المطالب ويخرجه منك شئت أو أبيت، فلهذا بارك الله فيكم.

(وَدَفَعَ الثُّلُثَ) «الثلث والثلث كثير»، وقد تقدم.

(وَكَانَ للزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ) فلهن الثمن، إذا كان الرجل له أربع نسوة أو كان له امرأة واحدة أو كان له اثنتان أو كان له ثلاث وله فرع وارث ما لهن إلا الثمن، فإن لم يكن له فرع وارث فلهن الربع، سواء واحدة أو أكثر.

(فَأَصَابَ كُلَّ امرَأةٍ أَلْفُ ألف وَمِئَتَا أَلْف) بركة عظيمة، بعد القلة سعة، كل امرأة ألف ألف، مليون ومائتا ألف كل امرأة، يعني أربع نساء بكم يكون؟ أربعة مليون وثمانمائة ألف.

(فَجَميعُ مَالِه خَمْسُونَ ألف أَلْف وَمِئَتَا أَلْف) الله أكبر، هذا فضل الله، قضى دينه ووسع على عياله، وذهب عنه الحرج الذي كان يتحرجه، ووالله أن هذا بسبب صلاح أعمالهم، وبسبب صلاح قلوبهم، وبغير ذلك.

هذا حديث عظيم، إذا قرأه القارئ وتأمل ما فيه يجد فيه كرامات الأولياء، يجد فيه فضائل الصحابة، يجد فيه لماذا سبقنا هؤلاء الناس؟ ما سبقونا بطول أجسام، ولا سبقونا بجمال وجوه، ولا سبقونا بكثرة أموال، وإنما سبقونا بما في قلوبهم، وما ظهر على جوارحهم وأعمالهم من الإيمان والعمل.

هذا فرج من الله للزبير بن العوام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونسأل الله أن يفرج عنا وعن جميع المسلمين، فإن الديون والله أنها هم، ولا يقلق شيء مثل الدين، لا سيما إذا قرب الأجل، إذا شعر الإنسان أن ما بينه وبين الموت إلا تخرج النفس عند ذلك يستشعر جميع الديون، أما إذا كان بعيدا، منذ خرجنا من دماج ما كتبنا وصية، وفي دماج كنا الصباح نكتب وصية وفي الليل وصية، يخشى الإنسان أن يلقى الله عَزَّوَجَلَّ بدين الناس، ومع ذلك يفرج الله.

أخونا كمال العدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان عليه دين كثير، ولما قتل جاء صاحب الدين وقال لهم: حقي، قالوا له: يا أخي دينك عندنا، قسطه علينا تقسيط، قال: لا والله، ديني الآن في مجلس واحد، وتعلمون طالب علم من أين له عشرين ألف سعودي أو كذا لواحد هذا فقط؟ والله تعالم الناس من هاهنا ومن هاهنا، ودفعوها له في يومين أو ثلاثة بفضل الله.

فيقضي الله عَزَّوَجَلَّ الديون، مع ما فيها من الحرج، والحمد لله قد بحثت هذه المسألة في كتابي (الدر المكنون في أحكام الديون)، وخرجت بأحوال: من كان مفرطا في قضاء الدين فهذا الذي يؤاخذ، وهو الذي «**نفس المؤمن معلقة بدينه**»، وأما من كان حريصا على قضائه وإنما عجز فهذا غير مؤاخذ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم المسألة تعود إلى ولي الأمر، يجب على ولي الأمر أن يقضي دين الناس، من مات وعليه دين ولم يوجد من يقضي عنه يجب على ولي الأمر أن يقضي دينه؛ لقول النبي ﷺ: «**من ترك مالا فلورثته، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي**».

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كما أنهم يجبون الزكوات ويأخذون الخمس ويفعلون ويفعلون فيجب عليهم أن يقضوا ديون الناس، وإلا تركوا هذه الأموال لمن يقضي عن الناس أموالهم وديونهم، لكن مع ذلك الآن كثير من أولياء الأمور لا يبالون بهذا الباب هداهم الله.

فإذا استطاع الإنسان أن يعين أخاه، وعمر بن الخطاب يقول: اسأل في قريش ولا تعدهم، بعد أن ذكر لهم بيتا بيتا، لا بأس أن الإنسان يسأل في العائلة، في العاقلة، يقول لهم: على أبي دين، أو: على أخي دين، فبادروا بارك الله فيكم في قضائه، فإذا العاقلة قضت الدين الحمد لله، فإن عجزت العاقلة انتقل إلى من هو أقرب منهم نسبا، ولا يجاوز مثلا القبيلة بحيث يصبح كالمتسول.

هذه وصية عمر، وأقره الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عليها، اسأل في بني فلان، فإن عجزوا فاسأل في بني فلان، فإن عجزوا فاسأل في قريش ولا تعدهم، وذكرنا هذا كله في كتابنا (الدر المكنون في أحكام الديون).

وإما حديث «**الآن بردت عليه جلدته**» فالصحيح أنها رواية منكرة، أُنكرت على عبد الله بن محمد بن عقيل، وهي من حديث جابر، الحديث أصله في الصحيحين، قصة أبي قتادة أصلها في الصحيحين.

ثم أيضا قوله: «**الآن بردت عليه جلدته**» فيها نكارة، دعك من ضعف سندها فيها نكارة، كيف أن الإنسان قد توكل وقال: الدين علي؟ انتقل الدين، حتى بوب البخاري: باب من استحال دين لا يجوز له الرجوع، وذلك أن أبا قتادة قال: الدين

علي، لو بعد يوم يومين يقول لهم: ما عاد علي الدين يصلح أو ما يصلح؟ ما يصلح، الرجل قد دفن، والنبي صل الله عليه وسلم صلى عليه بضمانة أبي قتادة، فلو كان يجوز له الرجوع في ضمانته ما صلى عليه النبي ﷺ، لقال له: بادر إلى قضائها.

هذه مسائل طويلة، ولكن الحمد لله الأمور إلى خير، ونسأل الله أن يفرج عن عباده المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

٢٦ - باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم

الظلم ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم فيما بين العبد وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الشرك، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة لقمان: ١٣]، وهو ذنب لا يغفر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: ١١٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [سورة المائدة: ٧٢]، وهو المشار إليه في حديث عائشة وإن كان الحديث فيه كلام: «**الدَّوَاوِينُ عند الله ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ**».

والنوع الثاني من الظلم: ظلم فيما بين العباد، بأخذ أموالهم، أو هتك أعراضهم، وهذا ضرره خطير، وجرمه كبير، وصاحبه متوعد بكثير من الأحاديث التي تأتي في هذا الباب، ولو لم يكن إلا حديث بن عمر وغيره: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**».

والنوع الثالث من أنواع الظلم: الظلم فيما بين العبد وبين نفسه، بارتكابها للمنهيات، وبتركها للواجبات، وهذا متوعد إن لم يتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ عنه، ومع ذلك فالظالم لنفسه من أهل الإسلام مآله إلى الخير، وهو من ورثة القرآن بقدر ما عنده من الاستقامة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]، فالأصل في الإنسان الجهالة والظلم، إلا من تداركه الله برحمة وهداه لسبل السلام.

وانظر إلى الصحابة مع جلالتهم وعظيم علمهم وعلو استقامتهم: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ حين أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢]، قالوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

فالشاهد أن الصحابة استدلوا بعموم الآية على المظالم التي تقع من الإنسان أحيانا تقع مظالم بينك وبين زوجتك، أحيانا بينك وبين ابنك، أحيانا بينك وبين جارك، أحيانا بينك وبين صاحبك، أحيانا بينك وبين عدوك وبين صديقك وحميمك، فالمظالم تتفاوت.

حتى الذي ما يصلي الفجر في جماعة بغير عذر يعتبر قد ظلم نفسه، والذي يترك الصلاة بالكلية يعتبر من الظالمين، «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [سورة غافر: ١٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ [سورة الحج: ٧١].

الشرح:

هذه الآية في حق المشركين الشرك الأكبر، لأن الشرك يأتي في القرآن على أوجه: إما أن يصرح عنه بلفظ الشرك، وإما أن يقال بالظلم، وإما بالإجرام: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [سورة القمر: ٤٧]، وغير ذلك.

حتى المعصية قد تطلق ويراد بها الشرك، والسيئة تطلق ويراد بها الشرك، والفتنة، فيتنبه لمثل هذه الألفاظ.

إلا أن العلماء يحتجون بعموم الآيات وبخصوصها، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤] خصوصها في أهل الكفر ومن إليهم، وعمومها في كل من جادل، وقد استدل بها النبي ﷺ في شأن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيقول الله: (﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾) أي: من صديق وصاحب.

(﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾) هذا يوم القيامة، وهؤلاء أصحاب الشرك الأكبر، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [سورة الشعراء: ١٠٠-١٠١]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨].

(**وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾) وهذا يوم القيامة، وإلا في الدنيا يتناصرون فيما بينهم، الظالم ينصر ظالما آخر، والمشرك ربما ينصر مشركا، لكن النصر العظيم من الله للمؤمنين، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [سورة غافر: ٥١].

وأيضا: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة هود: ١٨]، وهذا المراد به أهل الإشراك، لكن كذلك بقية المذنبين يخشى عليهم من معرة الظلم.

وأمّا الأحاديث فمنها: حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم في آخر باب المجاهدة.

٢٠٣ - وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أنْ سَفَكُوا دِمَاءهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

(١) حديث رقم: (٢٥٧٨).

(حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المتقدم) وهو حديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تضالموا»، وقد تقدم الكلام عليه.

أما اللفظ الأول: (اتَّقوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيامَةِ) قد جاء عن عدد من الصحابة غير جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، منهم: عبد الله بن عمر في الصحيحين.

ومعناه: كونوا حذرين من تعاطي الظلم؛ لما يجر إليه من البلاء، لا سيما يوم القيامة، فإن الظلم ظلمات في القبر، وظلمات في الآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

(وَاتَّقُوا الشُّحَّ) وهو شدة البخل، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [سورة الحشر: ٩].

(فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) البخل أهلك الأمم السابقة، فإن الإنسان إذا كان شحيحا بخيلا منع الخير، وقتل وهجر بسبب حب المال.

(حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءهُمْ) قتل بعضهم بعضا بسبب حب الدنيا.

(وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ) هجروا المحارم وهم مأمورون بصلتها، كما سيأتي معنا في باب خاص، وهذا دليل على أن الدنيا من أعظم الفتن التي تسبب للإنسان المحن بينما الكرم سبب للعفو والصفح، سبب للتجاوز، سبب للعطاء، سبب لسلامة الصدور، سبب للمحبة، «تهادوا تحابوا».

فما أبلغ هذا الوصف! (اتَّقُوا الشُّحَّ): البخل الشديد على المال، (فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ).

قَالَ الْقَاضِي: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْهَلَاكَ هُوَ الْهَلَاكُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنَّهُمْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ هَلَاكُ الْآخِرَةِ، وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَرُ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ جَمَاعَةٌ: الشُّحُّ: أَشَدُّ الْبُخْلِ، وَأَبْلَغُ فِي الْمَنْعِ مِنَ الْبُخْلِ.

وَقِيلَ: هُوَ الْبُخْلُ مَعَ الْحِرْصِ.

وَقِيلَ: الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ، وَالشُّحُّ عَامٌّ.

وَقِيلَ: الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ، وَالشُّحُّ بِالْمَالِ وَالْمَعْرُوفِ.

وَقِيلَ: الشُّحُّ: الْحِرْصُ عَلَى مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، وَالْبُخْلُ بِمَا عِنْدَهُ. اهـ

فيا أخي المال لك إذا أنفقته في وجهه، وأنت له إذا أمسكته عن النفقة في وجهه، وكيف تتوقع أن تكون إذا كنت أسيرا عند المال؟ الأسير أسير.

أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك

لو أن الناس ينفقون أموالهم في أوجه الخير ولم تكن عندهم مشاحة فيه ما وقع قتل ولا قتال، ولا مقاطعة، ولا سرقة، ولا نهبة، فالشح هو الحامل على كل هذه المفاسد.

والنبي ﷺ كثيرا ما يمثل بالذين من قبلنا من اليهود والنصارى، فإنهم اختلفوا بعد أن جاءهم الحق والبيان والبرهان من الله عَزَّوَجَلَّ.

٢٠٤ – وعن أَبِي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ». رواه مسلم[١].

الشرح:

هذا الحديث فيه وعيد عظيم للظالمين، بجميع أنواع المظالم، سواء كانت المظلمة كبيرة أو كانت صغيرة، وقد أقسم النبي ﷺ في تأكيد ذلك: والله، وعلم قسمه ﷺ باللام وبالنون المؤكدة: والله لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، سواء كنت غنيا أو فقيرا، قويا أو ضعيفا، يوم القيامة ستؤدي ما عليك من الحقوق.

(١) حديث رقم: (٢٥٨٢).

(حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ): مكسورة القرن (مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ): صاحبة القرن، فإذا كانت المحاصَّة تقع بين شاتين عجماوين غير مكلفتين فكيف بالمحاصة والمقاصة بين الإنسان المكلف؟ والله المستعان، وسيأتي حديث المفلس.

٢٠٥ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ، والنَّبيُّ ﷺ بَيْنَ أظْهُرِنَا، وَلا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الوَدَاعِ حَتَّى حَمِدَ اللهَ رَسُول الله ﷺ وَأَثْنَى عَلَيهِ، ثُمَّ ذَكَرَ المَسيحَ الدَّجَّال، فَأطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبيٍّ إلاَّ أنْذَرَهُ أُمَّتَهُ، أنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإنَّهُ إنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فَما خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأنِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُم، إنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأعْوَرَ، وإنَّهُ أعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ( )، إلَا إنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءكُمْ وَأمْوَالَكُمْ كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في بلدكم هذا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثلاثًا «وَيْلَكُمْ - أَوْ وَيْحَكُمْ -، انْظُروا: لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». رواه البخاري، وروى مسلم بعضه[(١)].

الشرح:

قوله: (كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ) فيه ما عليه الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ من مذاكرة العلم، وسميت حجة الوداع؛ لأن النبي ﷺ قال فيها: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

(والنَّبيُّ ﷺ بَيْنَ أظْهُرِنَا) فيه جواز مذاكرة العلم بوجود العالم، أن ذلك ليس من خوارم المروءة، بل هو من أسباب الألفة، فإذا اختلفوا في أمر رجعوا إليه.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٢)، ومسلم (٦٦).

(وَلا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الوَدَاعِ) ولعل النبي صل الله عليه وسلم قد أشار إليها قبل أن تقع.

(حَتَّى حَمِدَ اللهَ رَسُول الله ﷺ وَأَثْنَى عَلَيهِ) فيه ما عليه النبي ﷺ من فتح الخطب والكلمات بحمد الله والثناء عليه، وفضيلة هذه الكلمة العظيمة.

وقد تقدم معنا معنى الحمد والثناء، فالحمد: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله، والثناء: هو تكرار الحمد.

(ثُمَّ ذَكَرَ المَسْيحَ الدَّجَّال) محذرا منه، ويسمى المسيخ الدجال؛ لكذبه وتلبيسه ومكره، وقد ذكرت شيئا من أوصافه وما يتعلق به في كتابي (تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال).

(فَأطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ) وأطول حديث في ذكر المسيح الدجال روي عن النبي ﷺ حديث أبي أمامة عند ابن ماجة، وشواهده في حديث النواس بن سمعان عند الإمام مسلم، وقد خرج الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي أمامة في مؤلف مستقل، وسماه (قصة المسيح الدجال).

(وَقَالَ: مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبيٍّ إلاَّ أنْذَرَهُ أُمَّتَهُ) بوحي الله عَزَّوَجَلَّ، محذرا للأمة من شره وعظيم فتنته، كما يأتي معنا في باب المنثورات والملح في أخر الكتاب إن شاء الله.

(أَنْذَرَهُ نُوحٌ) ونوح هو أول رسول إلى أهل الأرض.

(وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ) أي: ممن أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليهم، فيشمل هذا التحذير أنه قام به المرسلون والأنبياء.

(وَإِنَّهُ إنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فَما خَفِيَ عَليْكُمْ مِنْ شَأنِه فَلَيْسَ يَخْفَى عَليْكُم) يعني: إن يخرج فيكم مع ما قد بينت لكم ستعرفونه بأوصافه الذميمة، وأخلاقه الغير مستقيمة،

فقد وصفه النبي ﷺ بأنه يخرج على حمار رجس على رجس، وأنه مكتوب بين عينيه: كافر، وأنه دجال وكاذب.

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ) فليس يخفى عليكم هذا الوصف، يعني: إن خفي عليكم بعض الشيء، أتى بجبال من خبز، جبال من كذا، أمر السماء أن تمطر، فليس يخفى عليكم (إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ).

جاء في بعض الروايات: أن النبي ﷺ أشار حين حدث بهذا الحديث، وفي هذا جواز الإشارة في حين التحديث بأدلة الأسماء والصفات إذا أُمن التشبيه من التابعين والتمثيل، وقد أشار النبي ﷺ في غير ما حديث، «فجعل يهزهن ويقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»، وهكذا أشار حين حدث بحديث: «إن الله سميع بصير»، ووضع يده على سمعه وبصره.

وقد ذكرت أكثر الأحاديث التي فيها الإشارة في كتابي (ضابط تحديث العوام بأحاديث الأسماء والصفات)، وهو كتاب مفيد نافع بحمد الله عَزَّوَجَلَّ، درسته في دماج، ولم يتيسر لنا طباعته للمرة الثانية حتى نفيد به إخواننا.

وفيه إثبات العينين لله عَزَّوَجَلَّ، وهما عينان حقيقيتان تليق بجلاله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة القمر: ١٤].

(وإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنَى) أي: الدجال، وقد جاء العور في عينيه، حتى لا يشكل عليك؛ لأنه قد جاء أنه أعور العين اليمنى، وجاء أنه أعور العين اليسرى، فكيف الجمع؟ أعور العين اليمنى مطموسة، وأعور العين اليسرى معيبة، كأنها عنبة طافية.

وفي بعض روايات الحديث: (وإِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)، في هذا الحديث رد على الصوفية ومن إليهم، فإن الناس في رؤية الله عَزَّوَجَلَّ ينقسمون إلى ثلاث أقسام:

الأول: من أثبت رؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة دون الدنيا، وهم أهل السنة والجماعة، أنعم الناس بأدلة القرآن والسنة.

الثاني: من أثبت الرؤية في الدنيا والآخرة، وهم غلاة الصوفية، وقد كفرهم أهل العلم.

الثالث: من نفى الرؤية في الدنيا والآخرة، وهم الجهمية والمعتزلة ومن إليهم.

وهذا الحديث قد جاء أيضا في (مسند البزار) أظن عن عبادة بن الصامت فيما أذكر، أما في (صحيح مسلم)، فقد جاء عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

ففيه نفي الرؤية في الدنيا، وإثبات الرؤية يوم القيامة.

(أَلَا إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءكُمْ) وهذه الخطبة قد خطب بها النبي ﷺ في حجة الوداع في مواطن.

(حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءكُمْ) بسفكها، **(وَأَمْوَالَكُمْ)** بسرقتها وأخذها.

جاء في بعض الروايات: «**وأعراضكم**»، بالغيبة، والنميمة، والقذف.

(كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا) أي: يوم النحر، **(في بلدكم هذا)** أي: مكة.

(فِي شَهْرِكُمْ هَذَا) أي: ذي الحجة.

(ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟) أي: العلم، وقد بلغ النبي ﷺ، وشهد الصحابة له بالبلاغ، فجعل يقول: «**اللهم هل بلغت؟ اللهم اشهد**»، وهم يقولون: نعم.

(قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثلاثًا) كان يكرر ثلاثا ﷺ.

(وَيْلَكُمْ - أَوْ وَيْحَكُمْ-) الفرق بينهما: أن الويل على غير الترحم، والويح على الترحم.

(انْظُروا) يعني في شأنكم، والتزموا شرع نبيكم.

(لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا) أي: تعملون عمل أهل الكفر، وإلا فإن القتل والقتال بين المسلمين من المعاصي الكبار، وليس من الكفر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]، فسماه أخا، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [سورة الحجرات: ٩]، والأدلة كثيرة، وأيضا من السنة: قال النبي ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»، وعليه بوب البخاري: كفر دون كفر.

فهذه الأدلة يستدل بها الخوارج على تكفير المسلمين، ولا دلالة لهم في ذلك، وإنما هو كفر دون كفر، فإن قتل المسلم من أعمال الكفار ليس من أعمال أهل الإسلام، وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»، وهو من المسلمين.

(يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) أي بالقتل، وذكر الرقاب دون غيرها؛ لأنها أكثر المواطن عرضة.

٢٠٦ - وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قيدَ شِبْرٍ مِنَ الأرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سبْعِ أرَضينَ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ للتحذير من الظلم في الأرض، فقد رتب المصنف الباب ترتيبا طيبا، الحديث الأول: فيه النهي عن الظلم ومسبباته، والحديث الثاني: فيه خطر الظلم، وأن صاحبه يوم القيامة سيؤدي الحقوق التي عليه، والحديث الثالث: التحذير من الظلم في الدماء والأموال.

والحديث الرابع: «**مَنْ ظَلَمَ قيدَ شِبْرٍ مِنَ الأرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سبْعِ أرَضينَ**»: التحذير من الظلم في الأراضي، وما أكثر الظالمين في هذا الباب!

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢).

(مَنْ ظَلَمَ) لفظ عام يشمل الرجال ويشمل النساء.

(قِيدَ شِبْرٍ) ولو كان شبرا، (مِنَ الأَرْضِ) أو مثيل ذلك.

(طُوِّقَهُ) قيل: حُمله، وقيل: جُعل على رقبته كالطوق، وكلاهما دليل على عظم هذا الذنب.

والحديث له قصة، سيأتي في كرامات الأولياء، فقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح، وجاء عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن امرأة يقال لها: أروى شكته إلى مروان بن الحكم أنه أخذ أرضها، فقال: أنا كنت أخذ أرضها بعد أن سمعت من النبي ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»، قال: لا أسألك بينة بعدها.

٢٠٧ - وعن أَبِي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: ١٠٢]. **مُتَّفَقٌ عَلَيهِ**[١].

الشرح:

(أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وهو عبد الله بن قيس الأشعري.

هذا خبر من رسول الله ﷺ من تحذير الظالم من التمادي في ظلمه، فإن الله قد يعاجله بانتقام في صبحه أو مسائه.

(إِنَّ الله لَيُمْلِي) فيه إثبات صفة الإملاء لله عَزَّوَجَلَّ؛ لحكمة أرادها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فبعض الظالمين قد يؤخره إلى القيامة، ويعذبه على ظلمه، وبعضهم قد يؤاخذه في دنياه، لا سيما إذا كان الظلم بغيا، أو كان الظلم قطيعة رحم.

(فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) أخذه أخذ عزيز مقتدر، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(ثُمَّ قَرأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾) يعني يملي لها تأكل وتشرب وتتنعم وتتبعل، ثم يأخذها فيهلكها كما أهلك قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقوم فرعون، وقريش في بدر، وغير ذلك.

(﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾) أليم في عذابه، شديد في بطشه.

٢٠٨ - وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أهلِ الكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَنِّي رسولُ الله، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيلَةٍ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإيَّاكَ وَكَرَائِمَ أمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[١].

الشرح:

(معاذ بن جبل) أبو عبد الرحمن الأنصاري، مات وهو في شبابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعثه النبي ﷺ إلى اليمن.

قوله: (بَعَثَنِي رَسُول الله ﷺ) أي إلى اليمن، في السنة التاسعة من الهجرة، وبعث معه أبا موسى الأشعري، وأمرهم ﷺ بالتيسير وعدم التعسير، والتطاوع وعدم الاختلاف.

(فقَالَ: إنَّكَ تَأتِي قَوْمًا مِنْ أهلِ الكِتَابِ) فيه توطئة الطالب والداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعداد لمناظرة من تتعين مناظرته، وهكذا الاستعداد بالعلم لبثه بين الناس.

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦) بلفظ: عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال لمعاذ، وأخرجه مسلم (٢٩).

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، سموا بذلك؛ لأن الله أنزل إلى أنبيائهم كتبا يتعبدون لله عَزَّوَجَلَّ بها، ولكنها حُرفت وغيرت وبدلت.

(فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله)؛ لأنها الركن الأول الذي به يُدخل في الإسلام، وفي هذا رد على المعتزلة الذين يزعمون بأن الدخول في الإسلام يكون بالنظر والقصد إلى النظر، وهي أفضل كلمة كما سيأتي معنا في باب الأذكار، وهي أول ما يدخل فيها في الإسلام على ما يأتي إن شاء الله حديث ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأني رسول الله».

وهذه تسمى عند أهل العلم بالشهادة، وإن كانت شهادة لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة إلا أن بابها واحد.

(وَأَنِّي رسولُ الله) أرسله إلى الناس كافة، ويلزم من ذلك طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله عَزَّوَجَلَّ إلا بما شرع.

(فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلِكَ) فيه التدرج في الدعوة إلى الله، والبدء بالأهم فالأهم.

(فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيلَةٍ) فإذا نزلت بلدًا للدعوة إلى الله، فيه قبور، فيه رفض، فيه شرك، فيه كبائر أيضا ما تبدأ بأمور من السفاسف، ربما قد تكون من صغائر الذنوب، أو قد تكون من الكبائر وهم بحاجة إلى دعوتهم إلى ما هو أولى منها، فابدأ بالأهم فالأهم، ابدأ بالتوحيد، ابدأ بالسنة، ابدأ بالصلاة، ابدأ بتحبيب العلم إلى الناس، ثم بعد ذلك تدرج من يوم إلى يوم؛ لأن الناس إذا سلموا لك أنفسهم قبلوا منك ما تُملي عليهم.

فهذا الحديث دل على أنه يبدأهم بالتوحيد، إذا أقروا بالتوحيد سيدعوهم إلى ترك الخمر، إلى ترك الزنا، إلى ترك كذا وكذا، مما هو من الذنوب.

(فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ)؛ لأن ترك الصلاة كفر، فلا بد أن يأتي بها العبد في كل يوم وليلة، على الرجال وعلى النساء، ويعلمهم أحكامها وما يليها.

(فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) وتفاصيلها معروفة في كتب الفقه، إن كان المال من الصامت ففيه ربع العشر، إذا حال عليه الحول، حتى وإن كان عروض تجارة، وإن كان المال مما تنبت الأرض مما فيه الزكاة من التمر والزبيب والحنطة والشعير ففيها إذا بلغت النصاب وهو خمسة أوسق يخرج العشر إن كانت سقيت بالمطر، ونصف العشر إن كانت سقيت بِالسَّانِيَةِ.

وإن كان المال من الإبل أو الغنم أو البقر فأحكامها معروفة في كتب الفقه.

(تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ) قيل: من أغنياء المسلمين، (فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) أي: على فقراء المسلمين، وقال بعض أهل العلم: من أغنيائهم أي: من أغنياء المحلة، فترد على فقرائهم أي: على فقراء المحلة والقبيلة، وبهذا أخذ عمران بن حصين، فقد بعثه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصدقا، ثم جاء فقال عمر بن الخطاب: أين الصدقة؟ قال: أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ، وفرقناها حيث كنا نفرقها على عهد رسول الله صلى الله عليه.

والصحيح أن المسلمين إذا احتاجوا إليها في وطن آخر أنها تُنقل.

(فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ) يعني خذ من الوسط، لا تأخذ الكريمة والنجيبة من الإبل أو البقر أو الغنم، ولا تأخذ كذلك الرديئة التي لا تلقي، فأخذ النجيبة والكريمة مظلمة على صاحب المال، وأخذ التي لا تلقي مظلمة للفقير، فخذ الوسط.

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخلولة، فقال رسول الله ﷺ بعد أن حمد الله: «**إن فلان بن فلان أرسلت إليه المصدق فجاءه بناقة مخلولة، لا بارك الله فيه ولا في ماله**»، ثم جاء الرجل يرتعد وقد حمل معه ناقة كريمة، فقال الرسول صل الله عليه وسلم: «**إن فلان بن فلان قد كنت أرسلت إليه المصدق فأتى بناقة مخلولة فقلت: لا بارك الله فيه ولا في ماله، ثم إنه جاء تائبا بناقة كريمة، بارك الله له في ماله**» الحديث.

(وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ) وهذا هو الشاهد، اتق دعوة المظلوم، إذا كان المصدق يأخذ الصدقة من الناس وقد وجبت عليهم وأمر ألا يأخذ الكريمة ربما دعا عليه صاحب المال وحذره من ذلك: **(وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ)**، وهذا أمير ونائب لرسول الله صل الله عليه وسلم في اليمن، ومع ذلك أمره بالحذر من دعوة المظلومين.

والآن أغلب الناس لا ينظرون إلى هذا الباب، أغلب الناس لا سيما الأمراء والوزراء والرؤساء والقادة والسادة لا ينظرون إلى من تحت أيديهم، «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ**»، رب دعوة تسري بليل تهدم مملكة، وتزيل دولة، وفي قصة البرامكة ما يدل على ذلك، حتى يذكر أن أباهم قال لهم: دعوة مظلوم سرت بليل.

سهام الليل لا تخطي ولكن لها أمد وللأمد انقضاءُ

(فإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وَبَيْنَ اللهِ حِجابٌ) أي: ترفع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيستجيبها، حتى ذكر أهل العلم: حتى لو كانت دعوة كافر، وقد قال النبي ﷺ: "**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْمُقْسِطُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالْمَظْلُومُ، فَإِنَّهَا تُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ**».

ما أحسن قول بعضهم:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ تَرْجِعُ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاك وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْك وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنِمْ

وقال الآخر:

إِذَا مَا الظَّلُومُ اسْتَوْطَأَ الْأَرْضَ مَرْكَبًا ... وَلَجَّ غُلُوًّا فِي قَبِيحِ اكْتِسَابِهِ
فَكِلْهُ إِلَى صَرْفِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ ... سَيُبْدِي لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ

وقال بعض السلف: لا تظلمن الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الحبارى لتموت هولا في وكرها من ظلم الظالم.

أظن الحديث ضعيف، وهو: يذكرون أن الحبارى - وهو طائر من الطيور- حين يجد ظلم في الأرض، يخشى على نفسه من الهلكة، فيموت هما وغما؛ حتى لا يحبس المطر.

وطائر يقال له الحبارى ... وحله ما فيه من تمارى

كما ذكر الأقفحسي، ومن عجيب الحبارى هذا: حديثه في سنن أبي داوود: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكله مع سفينة، لكن الحديث لا يثبت، يقولون: أنه يجمع سلحه في مؤخرته، معه مثل الكيس، فإذا الصقر للانقضاض عليه ألقى عليه ذلك السلح، وذكر الأقفهسي قال: يرجع الصقر وهو ذو مهانة.

قال أبو العتاهية:

أَمَا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْمَ شُؤْمٌ ... وَمَا زَالَ الْمُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ
إِلَى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضِي ... وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الْخُصومُ

وقال آخر:

وَمَا مِن يَدٍ إِلَّا يَدُ اللهِ فَوْقَهَا ... وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سيبلى بظالم

وقال محمود الوراق:

اصْبِرْ عَلَى الظُّلْمِ وَلَا تَنْتَصِرْ ... فَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَلَى الظَّالِمِ
وَكِلْ إِلَى اللهِ ظَلُومًا فَمَا ... رَبِّي عَنِ الظَّالِمِ بِالنَّائِمِ

وقيل:

الظُّلْمُ نَارٌ فَلا تَحْقِرْ صَغِيرَتَهُ ... لَعَلَّ جَذْوَةَ نَارٍ أَحْرَقَتْ بَلَدَا

نسأل الله السلامة، قد أتى الناس في الظلم بأشعار، وفي القرآن والسنة الشيء العظيم الكثير، وكذلك في آثار السلف.

٢٠٩ - وعن أبي حُمَيدٍ عبد الرحمان بن سعد السَّاعِدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ، فَقَامَ رسولُ الله ﷺ عَلَى المِنْبَرِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ منْكُمْ عَلَى العَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللهُ، فَيَأْتِي فَيقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ إِلَيَّ، أفَلَا جَلَسَ فِي بيتِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا؟ واللهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيئًا بِغَيرِ حَقِّهِ إلاَّ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى، يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ»، ثُمَّ رفع يديهِ حَتَّى رُؤِيَ بَيَاضُ إِبْطَيْهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثلاثًا. مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[(١)].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان المظالم التي يرتكبها الجباة ومن إليهم.

(قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ) أي مصَّدِّقًا وساعيًا، يجمع الصدقات ويأتي بها إلى النبي ﷺ من أجل أن يفرقها النبي ﷺ على الفقراء والمساكين، والنبي ﷺ يقول: «**أرضوا مصدقيكم**».

(فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ) أي: هذه الزكاة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢).

(وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ) كأنه أوثر بأشياء غير ما هي للفقراء، ومع ذلك أنكر عليه النبي ﷺ.

(فَقَامَ رسولُ الله ﷺ عَلَى المِنْبَرِ) فيه إنكار المنكر، والغضب لله، وفيه القيام على المنبر في غير خطبة الجمعة، وفي غير خطبة الاستسقاء.

(فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيهِ) فيه فتح الخطب بالحمد والثناء، وهكذا كانت خطب النبي ﷺ، سواء الجمعة، أو العيد، أو الكسوف، أو الاستسقاء، لم يؤثر عنه أنه كان يفتتح العيد بالتكبير، ولا الاستسقاء بالاستغفار.

(أَفَلَا جَلَسَ فِي بيتِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ؟) بهذا الحديث استدلوا على أن العامل لا يجوز له أن يأخذ الهدايا، لا سيما مما كان من عمله.

(إلاَّ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى) فيه إثبات الرؤية؛ لأن اللقي عند أهل اللغة يطلق ويراد به مع الرؤية.

(يَحْمِلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ) على ظهره، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن كان بعير له رغاء، أو شاة تيعر، أو بقرة له خوار»، وأيضا في هذا الحديث.

(فَلا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعيرًا لَهُ رُغَاءٌ) يعني يأتي ويقول: يا رسول الله أغثني، أقول: لا أملك لك شيئا قد بلغتك.

(بَعيرًا لَهُ رُغَاءٌ) أي: صوت البعير.

(أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ) صوت البقر خوار.

ساق المصنف الحديث؛ لبيان شدة المظالم، حتى من العمال، فالإنسان عليه ألا يكون متأولا لنفسه الوقوع في الباطل.

٢١٠ - وعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ، مِنْ عِرضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنهُ اليَوْمَ قبلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ؛ إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيهِ». رواه البخاري[1].

الشرح:

وروى مسلم من طريق أبي الخير: أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أي المسلمين خير؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»، هذا سيأتي.

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان خطر الظلم قبل يوم القيامة.

(مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ) أي كبيرة أو صغيرة، حتى وإن كانت غيبة أو نحو ذلك، لا سيما إن كانت بلغته فليتحلل منه.

(فَلْيَتَحَلَّلْهُ) أي: يطلب المسامحة، إن كانت مالا رد إليه ماله، وإن كان عرضا رد إليه عرضه.

(قبلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ) أي: يوم القيامة؛ لأن الآن إذا كان عندك مظلمة ربما تجازيه، تدفع مالا لدفعها.

(إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ) سيأتي في حديث المفلس: «فيؤخذ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته أُخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه».

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في "فتح الباري" (١١/ ٣٩٧): قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: سَيِّئَاتُ الْمُؤْمِنِ عَلَى أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ مُتَنَاهِيَةُ الْجَزَاءِ وَحَسَنَاتُهُ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةِ الْجَزَاءِ لِأَنَّ مِنْ ثَوَابِهَا

---

(١) حديث رقم: (٢٤٤٩).

الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ فَوَجْهُ الْحَدِيثِ عِنْدِي وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ يُعْطَى خُصَمَاءُ الْمُؤْمِنَ الْمُسِيءِ مِنْ أَجْرِ حَسَنَاتِهِ مَا يُوَازِي عُقُوبَةَ سَيِّئَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ أُخِذَ مِنْ خَطَايَا خُصُومِهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ يُعَذَّبُ إِنْ لَمْ يُعْفَ عَنْهُ فَإِذَا انْتَهَتْ عُقُوبَةُ تِلْكَ الْخَطَايَا أُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِمَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الْخُلُودِ فِيهَا بِإِيمَانِهِ وَلَا يُعْطَى خُصَمَاؤُهُ مَا زَادَ مِنْ أَجْرِ حَسَنَاتِهِ عَلَى مَا قَابَلَ عُقُوبَةَ سَيِّئَاتِهِ يَعْنِي مِنَ الْمُضَاعَفَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ يَخْتَصُّ بِهِ مَنْ وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُؤْمِنًا وَاللهُ أَعْلَمُ. اهـ

٢١١ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشرح:

قوله: (الْمُسْلِمُ) أي: المسلم الكامل، الملتزم بشرع الله ظاهرا وباطنا.

(مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ) من أذيته، من لسانه: من سبه، وقذفه وغيبته، وكذبه، وبهته، ويده: من بطشه، وسرقته، وأخذه، وغير ذلك.

(وَالْمُهَاجِرُ) حقًّا، وإلا الهجرة قد تطلق من دار الإسلام إلى دار الكفر، ومن دار المعصية إلى دار الطاعة، لكن المهاجر حقا (مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ) فكثير من الناس قد يهاجر ببدنه وهو ضعيف الهجرة بعمله، فلذلك كانت الهجرة حقا: أن يكون الإنسان ملتزما للطاعات، بعيدا عن المعاصي والسيئات، ونسأل الله السلامة، وما منا إلا، ولكن نسأل الله أن يتوب علينا في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠)، وأخرجه: مسلم (٦٤) بالشطر الأول فقط.

٢١٢ - وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ، فَمَاتَ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ». فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْه، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا. رواه البخاري[١].

الشرح:

(وعنه) أي: عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان تحريم الظلم في الغلول.

قال: (كَانَ عَلَى ثَقَل النَّبيِّ ﷺ) أي: على متاع النبي ﷺ في سفره في حربه وغير ذلك، ينتبه لها ويحملها.

(رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ) أي عبد من الموالي.

(فَمَاتَ) أي: بسبب سهم وقع فيه، كما في بعض الروايات.

(فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: هُوَ فِي النَّارِ) فعجب الصحابة؛ لأنهم كانوا قد قالوا: هنيئا له الشهادة.

(فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْه فَوَجَدُوا عَبَاءَةً): نوع من الألبسة.

(قَدْ غَلَّهَا) أي: لم يصبها المقاسم، كما في بعض الأحاديث، وهذا فيه خطر الغلول، نسأل الله العافية.

قوله: (هُوَ فِي النَّارِ) ليس معناه أنه يخلد في النار، فإن فاعل الكبيرة فيما دون الشرك لا يخلد في النار، وإنما ذكر النبي ﷺ في ذلك أنه مستحق للنار، والله المستعان، وكذلك هو في النار يوافق أو يؤخذ بخبر النبي ﷺ، لكن المقصد أن مآله بإذن الله عَزَّوَجَلَّ إلى الجنة.

---

(١) حديث رقم: (٣٠٧٤).

٢١٣ - وعن أَبي بكْرة نُفَيْع بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ قالَ: «إنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَته يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاثٌ مُتَوالِياتٌ: ذُو القَعْدَة، وذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشعْبَانَ، أيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَد هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَإنَّ دِمَاءكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلا تَرْجعوا بعدي كُفّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْض، أَلا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْض مَنْ سَمِعَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «إلاَّ هَلْ بَلَّغْتُ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

الشرح:

(أبو بكرة نفيع بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) سمي بأبي بكرة؛ لأنه تدلى ببكرة في حاله هجرته.

(عن النَّبيّ ﷺ) أي في خطبته في حجة الوداع.

(إنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَته يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ) من أن السنة اثنا عشر شهرا، تتعاقب على ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ وقضى كونا.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) حرمها الله عَزَّوَجَلَّ، حرر فيها القتل والقتال، وغير ذلك من الأمور، وهي على نحو ذكره النبي ﷺ.

(ذُو القَعْدَة) سميت بذي القعدة؛ لأن الناس كانوا يقعدون فيها عن الحروب ونحو ذلك.

(وذُو الحِجَّةِ) سميت بذي الحجة؛ لأنهم يحجون فيها.

(وَالمُحَرَّمُ)؛ لشدة حرمته وحرمة القتال فيه.

(وَرَجَبُ مُضَرَ) سمي برجب مضر؛ لأنهم كانوا يعظمونه أكثر من غيرهم.

(الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى) أي: بين جمادى الأولى وجمادى الآخرة.

(وَشعْبَانَ) سمي بشعبان؛ لأن الناس كانوا يتشعبون فيه، بعد رجب يتشعبون للقتل والقتال، وطلب المعاش، ونحو ذلك.

(أيُّ شَهْرٍ هَذَا؟) قاله لا على سبيل الجهل به، ولكن على سبيل الانتباه.

(قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ) وهذا في عهد النبي ﷺ، أما بعد موت النبي ﷺ يقال: الله أعلم.

(فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ) فيه التزام الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بما لا علم لهم به.

(قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى) أي: نعم.

(قَالَ: فَإنَّ دِمَاءكُمْ) بعد أن قررهم بحرمة هذه الأيام وهذا البلد وهذا الشهر أراد أن يبين لهم عظم حرمة المال والنفس والعرض:

(فَإنَّ دِمَاءكُمْ) وبدأ بالدماء؛ لشدة الظلم فيها؛ لأنها تؤدي إما إلى الموت والهلكة، وإما تؤدي إلى بتر بعض الأعضاء، وإلى غير ذلك من الأمراض والأسقام.

(وَأَمْوَالَكُمْ) ثنى بها؛ لأن أخذ المال طريق لإفساده، سواء كان بالسرقة أو بالغصب، أو النهضة، أو غير ذلك.

(وَأَعْرَاضَكُمْ) ثلث به؛ لشدته، والنبي ﷺ يقول: «**فذلك الذي حرج وهلك**» أي: من وقع في عرض أخيه.

(عَلَيكُمْ حَرَامٌ) أي: على المسلم على المسلم.

(كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا) حيث قد أقروا أن هذه حرم، فكذلك هذه الأشياء الثلاثة حرام.

(وَسَتَلْقُونَ رَبَّكُمْ) أي: يوم القيامة، وفيه إثبات الرؤية على ما تقدم.

(فَيَسْأَلُكُم عَنْ أَعْمَالِكُمْ) فيه إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ٢٤﴾ [سورة الصافات: ٢٤].

(أَلَا فَلا تَرْجعوا بعدي كُفَّارًا) تحضيض للكف عن سفك الدماء، وعن الوقوع في الأعراض والأموال، وغير ذلك.

(يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْض) أي: بالقتل ونحوه.

(ألا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ) فيه الحث على تبليغ العلم، وبركة هذا الأمر، ولولا فضل الله عَزَّوَجَلَّ علينا بتسخير العلماء والصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قبل ذلك بتبليغ العلم لكنا في عماية وجهالة.

(فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أوْعَى لَهُ مِنْ بَعْض مَنْ سَمِعَهُ) وفعلا، فقد بلغ الصحابة رَضِوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ البلاغ كما أمرهم النبي ﷺ، وتلقاه منهم التابعون، وتلقاه تابعوهم، وكانوا آية في الحفظ، حتى قال الشعبي: ما كتبت سوداء في بيضاء؛ لسعة حفظه، وكان الأعمش يلقب بالمصحف، إلى غير ذلك.

(إلاَّ هَل بَلَّغْتُ، ألَا هَلْ بَلَّغْتُ؟) إخبار وإقامة حجة عليهم، كالذي يقول: قد أبلغتكم ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به.

(اللَّهُمَّ اشْهَدْ) أي: عليهم في ذلك، فإنه سيوافي يوم القيامة، وتسأل كل أمة عن رسولها، فيكون الإجابة أنه قد بلغ الأمانة، وأدى الرسالة، والله المستعان.

٢١٤ - وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «مَن اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِم بيَمِينه، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ» فَقَالَ رَجُلٌ: وَإنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُول الله؟ فَقَالَ: «وإنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاك». رواه مسلم[1].

الشرح:

أين مغتصبوا الأراضي من هذا الحديث؟ إذا كان القضيب من الأراك قد يستوجب به العبد النار فكيف بمن يأخذ الأرض ويأخذ المال ويأخذ السيارات ويأخذ العقارات؟ أناس ضعف الإيمان في قلوبهم، وتسلط الشيطان عليهم، ونسوا اليوم الآخر.

قوله: (مَن اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِم بيَمِينه) أي: أخذه بيمين، يقول: هذا حقي، ما الدليل البينة؟ قال: والله حقي، يأخذه بيمين فاجرة، بيمين غموس، وسيأتي معنا حديث ابن مسعود وحديث غيره: أن النبي ﷺ قال: «أما إن حلف ليأخذه ظلما ليلقن الله وهو عنه معرض».

(فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ) إن كان من الموحدين وقدر أن يدخلها فمآله إلى الجنة، وحرم عليه الجنة تحريما غير مؤبد في حق المؤمن، إنما التحريم المؤبد في حق

(١) حديث رقم: (١٣٧).

الكافر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٠]، وهذه الأحاديث خرجت مخرج الوعيد.

(فَقَالَ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُول الله؟) يعني شيء لا يلتفت إليه ولا يؤبه به.

(فَقَالَ: وإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاك): سواك، وهذا أمر قد لا يبالي به أحد من الناس.

وفي الحديث رد على المرجئة من جهة أن المسلم يؤاخذ بذنوبه ومعاصيه، وتؤثر فيه، وفيه بيان لمعنى لحديث: «النار أقرب لأحدكم من شراك نعله والجنة مثل ذلك».

٢١٥ - وعن عَدِيّ بن عَمِيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَومَ القِيَامَةِ»، فَقَامَ إليه رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأنْصَارِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قَالَ: «وَمَا لَكَ؟» قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وكَذَا، قَالَ: «وَأَنَا أقُولُه الآنَ: مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِيءْ بِقَلِيلِه وَكَثِيره، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظيم المظالم في الأموال، لا سيما على أصحاب الولايات، فينبغي لمن استُعمل على عمل من الأعمال أن يكون مراقبا لله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يأخذ من مال بيت المسلمين إلا ما كان له فيه حق، ولا يأخذ من أموال الناس إلا ما كان فيه حق، «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه».

---

(١) حديث رقم: (١٨٣٣).

قوله: (مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ) أي: وليناه على جباية الزكوات، أو غير ذلك من الأعمال.

(فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ) مخيط، وأيضا تخصيص المخيط لا يدل على أنه يجوز أن يأخذ ما دون المخيط، إنما ذكر المخيط؛ لصغره، إلا إذا كان من المال المأكول، كما جاء في الحديث: أنه في خيبر أكلوا من بعض الأزواد، فلا حرج.

(كَانَ غُلُولًا يَأتِي بِهِ يَومَ القِيَامَةِ) ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة آل عمران: ١٦١].

(فَقَامَ إليه رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ) إما أن يكون من مواليهم، وإما أن يكون من أصيلتهم، والسواد قد يقع لغير ما أمر من الأمور.

(كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ) فيه ضبط الحديث.

(فَقَالَ: يَا رَسُول الله، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ) أي: رد عمله الذي كان قد كلفه به.

(قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وكَذَا) أي: ما الذي حملك على ترك العمل؟

(قَالَ: وَأَنَا أَقُولُه الآنَ) كالذي يقول: لا يترخص لأحد حتى وإن رد العمل، سنبحث عن غيره.

(فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ) يعني: ما أُعطي من الإمام هبة أو عطية أو إجارة أخذ.

٢١٦ - وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ فقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، وفُلانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فقالوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «كَلاَّ، إنِّي رَأيْتُهُ في النَّار في بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عبَاءة». رواه مسلم[(١)].

الشرح:

(١) حديث رقم: (١١٤).

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظم الغلول، وأنه من المظالم العظيمة التي قد يسلب صاحبها الشهادة، مع أنه قتيل في المعركة.

قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيبَر) كان في السنة السابعة، وقيل: السادسة، فتح الله على نبيه صلى الله عليه و سلم خيبر، وتوسع الصحابة، فحصلوا على الأموال الكثيرة، حتى قال عمر: يا رسول الله إني أصبت أرضًا بخيبر لم أصب أكثر منها.

(أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ فقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ) فيه التحدث بمن قتل في المعركة، لكن النبي ﷺ أقرهم على ذلك، فلو قيل في زمننا: نرجو له الشهادة فهو أحسن من الجزم بالشهادة.

(حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فقالوا: فُلانٌ شَهِيدٌ)؛ لأنه قتل في أرض المعركة من الكفار.

(فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: كَلاَّ) أي ليس كما تقولون.

(إنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّار) أي: يعذب، فيه دليل على عذاب القبر.

(فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءة) في نوع من اللباس، وفيه خطر الغلول، ولعله يأتي حديث أبي هريرة: «**لا أملك لك شيئًا قد بلغتك**».

٢١٧ – وعن أَبي قتادة الحارث بن ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رَسُول الله ﷺ: أَنَّهُ قَامَ فيهم، فَذَكَرَ لَهُمْ أنَّ الجِهَادَ في سبيلِ الله، وَالإِيمَانَ بالله أفْضَلُ الأعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ في سبيلِ الله، تُكَفَّرُ عَنّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «نَعَمْ، إنْ قُتِلْتَ في سبيلِ اللهِ، وَأنْتَ صَابرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبلٌ غيرُ مُدْبر».

ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ في سبيلِ الله، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «نَعم، وَأنْتَ صَابرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غيرُ مُدْبِرٍ، إلاَّ الدَّيْنَ؛ فإنَّ جِبريلَ عليه السلام قَالَ لِي ذلِكَ» رواه مسلم[(١)].

الشرح:

قوله: (قَامَ فيهم) أي: خطيبا.

(فَذَكَرَ لَهُمْ أنَّ الجِهَادَ في سبيلِ الله، وَالإيمَانَ بالله أفْضَلُ الأعْمَالِ)؛ لتحضيضهم على ذلك، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ [سورة الأنفال: ٦٥]، وفيه أن العمل لا يقبل إلا من مؤمن.

(فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ في سبيلِ الله، تُكَفَّرُ عَنّي خَطَايَايَ؟) فيه العودة إلى أهل العلم فيما يشكل، وفيه: أن الإنسان لا يسلم من الخطأ والذنب، وأنه يبحث عن كفاراته.

(قال: نَعَمْ) فيه أن الشهادة كفارة للمسلم، ولذلك قال النبي ﷺ: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»، وقال النبي صل الله عليه وسلم: «كفى ببارقة السيوف على رؤوسهم فتنة».

(إنْ قُتِلْتَ في سبيلِ اللهِ) أي مخلصا لله.

(وَأنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ) صابر من أجل الله، ومحتسب للأجر والثواب.

(مُقْبِلٌ غَيرُ مُدْبر)؛ لأن المدبر متوعد بالعذاب.

(ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: كَيفَ قُلْتَ؟) ليس معنى ذلك أن النبي ﷺ قد نسي سؤاله، لكن لعله أراد أن يجيبه جوابا أكمل مما ذكر.

---

(١) حديث رقم: (١٨٨٥).

(فإنَّ جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذلِكَ) فيه أن السنة وحي من الله عَزَّوَجَلَّ، وفيه أن الذي يأتي النبي ﷺ بالوحي هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيه عظيم شأن الدَّين، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعيننا على قضاء ديوننا وجميع المسلمين.

فانظر إلى هذا الذي يقتل في سبيل الله مقبل غير مدبر ومع ذلك تبقى الديون في ذمته، «**ونفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه**»، لا سيما في هذا الزمان الذي فتر الناس عن قضاء الديون، لا أصحاب الزكوات يسارعون في قضاء الدين عملا بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٦٠] على أنهم يُعطون من الزكاة، ولا ولي أمر المسلمين يبادر إلى قضاء دين المسلمين؛ اقتداء بالنبي ﷺ في قوله: «**أنا أولى بكل مسلم من نفسه، فمن ترك مالا فلورثته، وإن ترك دينا وضياعا فإلي وعلي**».

والدين أحاديثه كثيرة، قد جمعت جملا منها في كتابي (الدر المكنون في أحكام الديون)، وهو شيء لا بد منه، فأما العبارة التي تعلق على أبواب المحلات: الدين ممنوع هذا فعل قبيح، يدل على جهل فاعله، وذلك أن أطول آية في القرآن آية الدين، كيف تقول: الدين ممنوع؟ وله أحكامه وآدابه، وجميع شأنه، وقد استدان النبي ﷺ، واستدان غيره من الكرماء، ورغب النبي ﷺ في الدين، ولكن إذا كنت لا تستطيع أن تدين لك أن تقول: يا أخي لا أستطيع، أو: لا آمن عليك حتى تأتيني بضمين.

أما كلمة: الدين ممنوع فهذا فعل الرأسماليين، الذين لا ينظرون إلى حاجة المساكين، وأقبح منه وضع صورتين صورة لرجل سمين وصور لرجل نحيف، ويعلق عليهما: صاحب الدين والذي لا يُدَيِّن، تصوير ذوات الأرواح مع الحث على ترك تفريج الكرب.

والله عَزَّوَجَلَّ قد توعد أناسا: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ [سورة الحاقة: ٣٤]، لا يحض على طعام المسكين ما قال: لا ينفق، لا يحض، فكيف بمن يمنع من إطعام المسكين والإنفاق على المسكين؟ نعوذ بالله من الخذلان.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥﴾، فإذا كنت مناعا للخير من مالك وكذلك مناعا للخير بالنهي عنه وبعدم الحض عليه فكيف بمن ينهى عن الصدقة؟ نسأل الله السلامة والعافية.

الناس يجهلون أحكام المال، تجار المسلمين يجهلون أحكام المال، أصحاب الصرافات يجهلون أحكام المال، أصحاب الأغنام والأبقار والإبل يجهلون أحكام المال، فتجد أن الناس يتخوضون في مال الله بغير حق، ما يبالي أخذه من حلال أو من حرام، وإذا جاء حق الله لا يبالي أين وضعه.

تحيل في أيام الزكوات أيما تحيل، أحدهم يخرج الناقة من هنا ويأخذها من هنا، والآخر يأخذ زكاة ماله: هذا لخالتي، وهذا لجدتي، وهذا لجدي، ولو أخرجها على أنها زكاة لا حرج للمحتاجين؛ لأنها إنما تُمنع ممن يجب النفقة عليه، لكن يعطيهم على أنها أعطيات ومكرمات، فيتقرب إلى أخواله وأجداده وأرحامه بمال الله وبمال الفقراء على أنه أعطاهم منة منه.

ينبغي أن يعطي الفقير ويعطي المحتاج على أنه حق الله، هذا حق الله أخرجته لك، خذه جزاك الله خيرا، وينشرح صدره على أن أدى حق الله، أما أن يتلاعب بالزكوات فكيف سيكون يوم القيامة حين يلقى الله عَزَّوَجَلَّ؟ والفقراء لهم حقوق في بيت مال المسلمين، ولهم حقوق في أموال التجار، ولهم حقوق في كثير من الأمور.

هو لا يعطيها من نفسه هبة، الله عَزَّوَجَلَّ جعل للفقير وغيره من الأصناف الثمانية من المال النقدي ربع العشر، من كل مليون خمسة وعشرين ألف ريال، أو خمسة

وعشرين ألف دولار، أو خمسة وعشرين سعودي، أي مليون فيه خمسة وعشرين، في كل أربعين مليون مليون، في كل أربعين مليار مليار.

هذا حق الفقراء والمساكين، إذا كان الإنسان يتحلل من درهم ودينار كيف يأتي يوم القيامة محمل بملايين للفقراء والمساكين منعهم إياها وحرمهم منها؟

كان المتقدمون يفرحون إذا قضى الله حاجة المسكين على يديه، يفرح، يستبشر، أما الآن أحدهم إذا قضى حاجة واحد ما يريد أن يقضي حاجة الآخر، وبذل المال هو لذة كجمعه.

يرى البخيل سبيل المال واحدةً　　　إن الكـريم لـه في مالـه سـبلا

فالبخيل لذته في جمع المال، والكريم لذته في إنفاق المال.

أنـت للمـال إذا أمسـكته　　　وإذا أنفقتـه فالمـال لـك

والنبي ﷺ ما سئل شيئا فقال: لا، وكان يعطي الغنم بين الجبلين، ولعلنا إن شاء الله نضع خطبة جمعة في هذه المسألة؛ لحاجة الناس إليها.

قال: (فإنَّ جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذلِكَ) أي بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٤].

وفيه دليل للمسألة الشرعية التي تقول: بأنه لو حدث شيء في زمن النبي ﷺ مخالف للشرع فإن الوحي يقوم، ولا يرضى الله عَزَّوَجَلَّ إلا بموافقة الوحي، ولذلك قال جابر: كنا نعزل والقرآن ينزل، ولو كان شيء ينهى عنه لنهى عنه القرآن.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: أَنْفَقَ رَبِيعَةُ عَلَى إِخْوَانِهِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ثُمَّ كَانَ بَعْدُ يَسْأَلُ إِخْوَانَهُ فِي إِخْوَانِهِ.

وَقَالَ الْمَرُّوذِيُّ: قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ يَقُولُ: وَلَقَدْ جَاءَنِي صَدِيقٌ لِي وَعِنْدِي عِشْرُونَ دِرْهَمًا فَأَعْطَيْتُهُ تِسْعَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا وَبَقَّيْت لِنَفْسِي دِرْهَمًا، فَفِيهِمْ الْيَوْمَ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا بِصَاحِبِهِ؟

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا مَا قَالَ هَارُونُ الْمُسْتَمْلِي: لَقِيتُ أَحْمَدَ فَقُلْت مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ فَأَعْطَانِي خَمْسَةَ دَرَاهِمَ وَقَالَ عِنْدَنَا غَيْرُهَا.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ هِلَالٍ الْوَرَّاقُ: جِئْتُ إلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ نُمَيْرٍ فَشَكَوْت إلَيْهِ فَأَخْرَجَ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ أَوْ خَمْسَةً وَقَالَ: هَذَا نِصْفُ مَا أَمْلِكُ، وَجِئْت مَرَّةً إلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ حَنْبَلٍ فَأَخْرَجَ إلَيَّ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ وَقَالَ: هَذَا جَمِيعُ مَا أَمْلِكُ.

٢١٨ - وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: «أتدرونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرهَمَ لَهُ ولا مَتَاع، فَقَالَ: «إنَّ الْمُفْلسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يأتي يَومَ القيامَةِ بِصَلَاةٍ وصِيامٍ وَزَكاةٍ، ويأتي وقَدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مالَ هَذَا، وسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وهَذَا مِنْ حَسناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُه قَبْلَ أنْ يُقضى مَا عَلَيهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُم فَطُرِحَتْ عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ». رواه مُسلم[(١)].

الشرح:

قوله: (أنَّ رسولَ الله ﷺ قَالَ: أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ؟) فيه طرح السؤال على الطلاب، وذلك للانتباه، وكذلك للاختبار، لا سيما المسائل المتداخلة.

(قالوا: المفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرهَمَ لَهُ ولا مَتَاع) هذا الفلس من المال، مفلس، ليس له فلس؛ لقلة الفلوس التي عنده، وأما أحكام الفَلَس - وركز معي - أحكام الفلس لا

(١) حديث رقم: (٢٥٨١).

تلزمه إلا إذا اشتكوه إلى الحاكم، ولو أن رجلا عليه ملايين للناس وما أحد شكاه ما تجري عليه الأحكام، يعني يكون مفلسا في نفسه، محتاج في نفسه.

لكن إذا كان لديه بعض مال وذهب الناس وشكوه إلى الحاكم فعند ذلك يحكم الحاكم بفلسه، ويحجر على ماله، ويقسم ماله أسوة الغرماء، ومعنى أسوة الغرماء: أنه لو كان عليه مائتي ألف ريال وكان عنده مائة ألف ريال فتقسم المائة الألف على الغرماء بقدر الأنصبة، واحد أعطاه مائة ألف والثاني عنده خمسين ألف يعطي صاحب المائة الألف خمسين، ويعطي صاحب الخمسين خمسة وعشرين، وهكذا.

لكن المراد هنا بالفلس: الذي لا متاع له، هذا مفلس فقير محتاج، لكن:

(إنَّ المُفْلسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يأتي يَومَ القيامَةِ بِصَلَاةٍ وصِيامٍ وَزَكاةٍ) وهذا أشد أنواع الفلس، يأتي يوم القيامة بصلاة، والصلاة أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله، وصيام، والصيام من أفضل الأعمال، وزكاة، والزكاة من أفضل الأعمال، لكن:

(ويأتي وقَدْ شَتَمَ هَذَا) بلسانه، سبه، لعنه.

(وقَذَفَ هَذَا) بالزنا أو نحو ذلك.

(وَأَكَلَ مالَ هَذَا) بالباطل أو الربا.

(وسَفَكَ دَمَ هَذَا) بالقتل أو الجراحات.

(وَضَرَبَ هَذَا) بالعصا، ونحو ذلك.

(فيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ) أي المظلوم بأي أنواع الظلم الذي تقدم.

(وهَذَا مِنْ حَسناتهِ) وهو قد صلى وصام وزكى، حسنات كثيرة.

(فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُه قَبْلَ أَنْ يُقضى مَا عَلَيهِ أُخِذَ منْ خَطَاياهُم فَطُرِحَتْ عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) إلا أن هنا فائدة: وهو أن الحسنة التي تؤخذ غير حسنة التوحيد، أما حسنة التوحيد لا يمكن أن تؤخذ؛ لأنها إذا أخذت ربما يخلد في النار، لكن حسنة

التوحيد لا يمكن أن تؤخذ، والله عَزَّوَجَلَّ قد قضى أن الموحد مآله للجنة، فتؤخذ حسناته، ويستحق النار، وبعد ذلك بعد أن ينقى ويهذب يخرجه الله بحسنة التوحيد.

وقوله: (ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) هذا أيضا على الوعيد، قد يتجاوز الله عنه ويكرمه ويدخله الجنة، أو قد يتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ بإعطاء المظلومين من الحسنات ما يرضيهم، لا سيما ممن عُلم منه توبة إلا أنه لم يتمكن من أداء الحقوق، فالله كريم.

٢١٩ - وعن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أنا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مَا أسْمعُ، فَمَنْ قَضَيتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أقطَعُ لَهُ قِطعةً مِنَ النَّارِ». مُتَّفَقٌ عَلَيهِ[1].

(أَلْحَنَ) أيْ: أعلم.

الشرح:

قوله: (عن أم سلمة) وهي هند بنت أبي أمية، زوج النبي ﷺ آخر من ماتت من زوجاته ﷺ.

(إِنَّمَا أنا بَشَرٌ) فيه أن النبي ﷺ بشر، وهذا رد على الصوفية وعلى الغلاة فيه الذين يرفعونه إلى مقام الألوهية.

(وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ) أي: في شؤونكم، فهذا يكون له بينة، وهذا لا يكون له بينة.

(وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجّتِهِ مِنْ بَعْضٍ) أي: أفصح في لسانه، وأجرأ في طرح حجته، إلى غير ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٦٩)، ومسلم (١٧١٣) (٤).

(فأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمعُ) والقاضي معذور في مثل هذه الحالة؛ لأن القاضي مأمور أن يقضي بما سمع وبما رأى، لا بما في قلبه أو بشكه.

(فَمَنْ قَضَيتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّما أقطعُ لَهُ قِطعةً مِنَ النَّارِ) بمعنى: أن حكم الحاكم إذا كان مخالفا للصواب لا يحل الحرام، فلا تقول: حكم لي الحاكم، وأنت تعلم أن هذه الأرض ليست لك، أو هذا المال ليس لك، لا يجوز لك أن تأخذ حق الناس، فمن فعل ذلك فكأنما أُقطع له قطعة من النار، والله المستعان.

٢٢٠ - وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا». رواه البخاري[(١)].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لعظيم مسألة القتل، وأنها من الظلم العظيم، الذي صاحبه على خطر جسيم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٩٣].

(لَنْ يَزَالَ) أي: لا يزال (المُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ) أي: لم يضيق صدره، ولم كذلك تضيق عليه مداخل الفرج من التوبة وصحة العمل وغير ذلك.

(مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) فإذا أصاب دما حراما لحقه الضعف العظيم في الإيمان، قال النبي صل الله عليه وسلم: «**من استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم فليفعل**»، وقال النبي صل الله عليه وسلم: «**كل ذنب عسى أن يغفره الله، إلا مشرك أو رجل يقتل مؤمنا متعمدا بغير ذنب**» الحديث.

---

(١) حديث رقم: (٦٨٦٢).

ومع ذلك التوبة تصح من كل ذنب، فيجب على القاتل أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، إما بالقصاص، أو دفع الدية، وهكذا الندم على هذا الفعل.

٢٢١ - وعن خولة بنتِ عامر الأنصارية، وهي امرأة حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعنها، قَالَتْ: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: «إنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ في مَالِ الله بغَيرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَومَ القِيَامَةِ». رواه البخاري[(١)].

الشرح:

ساق المصنف هذا الحديث؛ لبيان عظيم ذنب الذي يتخوض في مال الله بالباطل، فيقع فيه الظلم من النهبة والسلب، والسرقة، وغير ذلك من الأنواع.

قوله: (امرأة حمزة) هو ابن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعم النبي ﷺ، قتل يوم أحد، قتله وحشي بن حرب.

قوله: (إنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ) ذكر الرجال مخرج الغالب، وإلا فكذلك النساء قد يقع منهن التخوض في مال الله عَزَّوَجَلَّ بغير حق، فينفذ في غير حقه، ويؤخذ من غير حقه.

(فَلَهُمُ النَّارُ يَومَ القِيَامَةِ) وهذا بمعنى الحديث: «**يأتي على الناس زمان لا يبالي أحدهم من أين أخذ المال من حلال أو من حرام**».

فهذا الباب تضمن عدة أشياء من المظالم التي ينبغي للناس أن يتخلصوا عنها، سواء المظالم المعنوية كالسب والشتم واللعن، وغير ذلك من الغيبة والنميمة، أو المظالم الحسية، كأخذ الأموال، وكذلك القتل والضرب، ونحو ذلك.

---

(١) حديث رقم: (٣١١٨).

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجنبنا من جميع المظالم؛ لأن الظلم كما تقدم ظلمات يوم القيامة، ويحاط بالإنسان في أماكن يرجو فيها السلامة، كيف لما تكون حسناته مثل الجبال، حسنات مثل الجبال أمام عينه، ثم عند ذلك يراها تهبط، تهبط، تهبط، بسبب المظالم التي قد ظلمها في الدنيا، كيف يكون حاله من الحسرات والندامات؟

أخبرني بعضهم لما وقعت الانتكاسة حق الأسهم في المملكة العربية السعودية: أن بعضهم كان قد شارك بأموال كثيرة، وربما ارتفعت أمواله حتى بلغت بعض الملايين، ثم بعد ذلك في الأسبوع الذي وقع فيه انهيار الأسهم كان أحدهم يذهب إلى البنك يريد أن يوقف حسابه بحيث لا يهبط المال ما يستطيع يوقف، فبعضهم يُبقي الكمبيوتر أمامه: مستوى أربعة مليون، ثلاثة مليون ونصف، ثلاثة مليون، اثنين مليون ونص.

بعضهم أصيب بجلطة، بعضهم مات، إلى غير ذلك، هذا في حال الدنيا، فكيف بحال الآخرة لما تشاهد جبالا من حسنات الصلاة والصيام والزكاة وهي تؤخذ من بين يديك وأنت تنظر؟ لا سيما إذا كانت المظالم تتعلق بالأعراض، وسيأتي معنا أن: «**من خلف غازيا في أهله**» أي: فجر بها «**يؤتى يوم القيامة فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: خذ من حسناته**» خذ من حسناته ما شئت، قال النبي ﷺ: «**فما ظنكم؟**» يعني: هل سيبقي شيئا؟ ما سيبقي شيئا؛ لأنه في موطن كل واحد نفسي، نفسي، ويقال: خذ من حسناته ما شئت، ما تسلم له إلا حسنة التوحيد، وإلا تذهب ربما كلها، فما ظنكم؟

فلهذا ينبغي للإنسان أن يبادر بالتحلل من المظالم من الآن، وما أكثر المظالم! ما أكثر المظالم بين الأخوة وبين الأخوات، وبين الأهل والعشيرة، وبين الأزواج، وبين الجيران، وبين الأصحاب، وهكذا مظالم كثيرة، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

لكن من يقول؟ أكثر الناس في هذه الأيام ما يبالي بشيء اسمه ظلم، يسمون الظالم رجال، فلان قتل قالوا: رجال، فلان زنا قال: رجال، فلان أخذ مال فلان قال: رجال، والمظلوم سموه خامل، تنكست الفطر، وتنكست المفاهيم، هذا الظالم الذي يُخشى عليه من مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: ١٠٢]، «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**».

كيف رجال وهو يعصي الله عَزَّوَجَلَّ؟ بل مجرم عاصي، يجب عليه أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يبادر بالتحلل.

ما أعظم ما وقع بين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ! فيه حث لنا على هذا الأمر، وقع بين عمر بن الخطاب وبين أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما وقع، فذهب أبو بكر إلى عمر بن الخطاب يطلبه المسامحة، فأبى عمر، أبى لعله بعد يعني ما وقع في قلبه، والإنسان بعد ذلك سيقع منه المسامحة، فذهب أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى رسول الله ﷺ، وعمر يجري في أثره، فأخبر أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يتغير، وقال: «**ألستم تاركوا لي صاحبي؟ فإنكم قد قلتم: كذبت وقال: صدقت**»، أو كما قال النبي ﷺ.

الشاهد أن عمر يسارع في المسامحة، وأبو بكر يسارع في طلب المسامحة، ولما قال النبي ﷺ لأبي بكر: «**يا أبا بكر لعلك أغضبتهم**»، من؟ بلال وصهيب وعمار، كانوا كلهم أرقاء، وبعضهم أعتقه أبو بكر، أعتقه أبو بكر من الرق وحرره، ومع ذلك يقول له رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**»، فذهب أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مبادرا مسارعا، ما قال: يا رسول الله أنا صاحبك، أنا كذا، أنا فعلت، أنا طلعت.

الآن لو عاتبت أخاك في مسألة من المسائل ربما يقوم عليك ويقعد، وهذا مباشرة ذهب إليهم: يا إخوتاه لعلي أغضبتكم، قالوا: يرحمك الله يا أبا بكر، أو غفر الله لنا ولك يا أبا بكر، الحديث بمعناه.

فالشاهد أنهم كانوا يسارعون في التحلل، ربما بعضهم ما يبات من الهم والغم الذي في قلبه مما حصل من المسألة، أنظروا إلى أبي ذر، لما عيَّر ذلك الرجل بأمه: «**إنك امرئ فيك جاهلية**»، بعد ذلك كان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلبس اللباس ويلبس خادمه بنفس اللباس، تعجبوا منه، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**».

الشاهد أن الإنسان يبادر في التخلص من الذنوب، والتخلص من المعاصي، والتخلص من الآثام، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، والله ما بيننا وبين الموت إلا الله أعلم قد لا يكمل أحدنا حديثة، وقد لا يكمل أحدنا طعامه، وقد لا يكمل أحدنا شرابه، وقد لا يكمل أحد عامه، وقد لا يرجع أحدنا من سفره.

إذاً لماذا هذا التسويف؟ لماذا هذا التسويف من أمر إذا لم نتحلل هنا ستحلل في الآخرة لكن بحسنات وسيئات؟ إن كنت من أصحاب الحسنات أخذ حسناتك، وإن كنت من أصحاب السيئات زادك سيئات إلى سيئاتك، مصيبة.

الفهرس